

مَجْمُوعَةُ التَّوْحِيدِ

لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ

يَتَّى الدِّينَ ابْنَ تَهْمِيَّةٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ
مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الشُّوكَايَ أَمَّةُ الدَّعْوَةِ النُّجْدِيَّةِ

قَدَّمَ لَهُ

فَضِيلَةُ الشَّيْخِ

خَسَّارُ بْنُ مُسَاعِدٍ الرَّوَّيِّعِ

مُضَرَّبٌ بِمَنْزِلَةِ الْوَلِيِّ كَتَبَهُ الشَّيْخُ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ

فَضِيلَةُ الشَّيْخِ

فَهْمُ بْنُ حَبِيبٍ الْبَغْدَادِيِّ

الْقَائِمُ بِمَكْتَبَةِ الْأَشْيُوخِ فِي كَلْبَةِ بَكْرِيَّةٍ

قَرَأَهُ وَصَبَّحَ بِصَبْحِهِ وَنَوَّحَ بِنَوَائِهِ وَحَلَّى عَلَيْهِ

أَبُو شُعَيْبٍ

طَارِقُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْوَاحِدِيِّ

عَمَّا أَلَّفَهُ بِرَحْمَةِ الرَّحْمَنِ

الْجُزْءُ الثَّانِي

بِكَلْبَةِ الْوَلِيِّ

لِلنَّسَبِ وَالْفَرْعِ

مَجْمُوعَةُ التَّوْحِيدِ

٢



عنوان المصنف: مجموعة التوحيد

تأليف: شيوخ الإسلام

رقم الإيداع: ٢٨٥١٥/٢٠٢١

الترقيم الدولي: ٣-٠٧٥-٨٠٤-٩٧٧-٩٧٨

جميع الحقوق محفوظة الطبعة الأولى ١٤٤٣ هـ - ٢٠٢٢ م

مكتبة دار الحجرات
للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض - شارع السويدي العام - شُروَت النفق
الإدارة والبيانات جبرال - ٠٠٩٦٦٥٦٧٣٣٣٤١٧ - ٠٠٩٦٦٥٦١١٥٠٥٨ - ٠٠٩٦٦٥٦١١٧٨٩٩١٠٠ - ٠٠٢٠١١٦٨٩٩١٠٠ - ٠٠٢٠١٦٩٠٥٧٥٧٣ - ٠٠٢٠١٦٩٠٥٧٥٧٣
الإلكترونية - ١٧٥ ميل طيبة سبورج جراسمير القريب هانف: ٠٣/٥٤٦١٥٨٣ - جبرال: ٠١١٦٨٣٣٥٥١
القاهرة - ٦ ميل المرسى متفرع من ميل البطار - خلف جامع الأزهر الشريف - هانف: ٠٢/٢٥١٠٧٤٧٢ - جبرال: ٠٣٤٣٨١٥٠٩ - فاكس: ٠٢٠١٠٦٩٠٥٧٥٧٣ - ٠١١٦٨٣٣٥٥٠
البريد الإلكتروني: d.alhijaz@gmail.com

مَجْمُوعَةُ التَّوْحِيدِ

لشَيْخِ الْإِسْلَامِ

تَيْقِي الدِّينِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْوَهَّابٍ
مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الشَّوْكَانِيُّ أُمِّمَةُ الدَّعْوَةِ الْخَدِيعِيَّةِ

قَدَّمَ لَهُ

فَضِيلَةُ الشَّيْخِ

خَسَّابُ الدُّبُرِيِّ مُسَاعِدُ الرُّوسِيَّةِ

عُضْوٌ مِنْ مَجْلِسِ التَّحْقِيقِ الْإِسْلَامِيِّ بِمَدِينَةِ الْمَدِينَةِ

فَضِيلَةُ الشَّيْخِ

فَرِيدُ بْنُ مُحَمَّدٍ ابْنِ الْعِمَارِيِّ

الْقَائِمُ بِمَجْلِسِ التَّحْقِيقِ الْإِسْلَامِيِّ فِي كَلْبِ الْكَلْبِ

قِرَاءَةُ وَصْفِ نَصَبِهِ وَجَرَجَ أَحَادِيثَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ

أَبُو شُعَيْبٍ

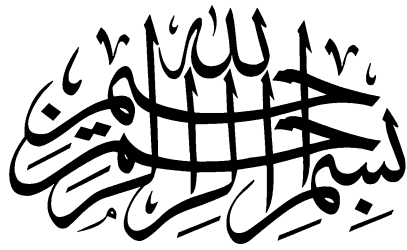
طَارِقُ بْنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنِ عَلِيٍّ

عَفَا اللَّهُ عَنْهُ بِرَحْمَةٍ وَوَحْيَةٍ

الْجُزْءُ الثَّانِي

مَكْتَبَةُ الْإِسْلَامِ

لِلنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ

[illegible]

[٢٩]

قرة عيون الموحدين في تحقيق
دعوة الأنبياء والمرسلين

لفضيلة الشيخ

عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم^(١)

❦ [١] كتاب التوحيد ❦

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات].
وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا
الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

الشرح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رب يسر وأعن يا كريم

■ قوله: «﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾»: الكلام على البسملة بيِّن
مذكور في الشرح.

(١) تقدم - بحمد الله تعالى - تخريج أحاديث «كتاب التوحيد»، وهو أول
كتاب في هذا الجمع المبارك ص (٢٧)، واكتفيت هنا - فقط - ببيان
درجة الحديث. وما ورد في كلام الشارح رَحِمَهُ اللهُ - مما لم يتقدم
تخريجه - خَرَجْتُهُ - بفضل الله تعالى وإحسانه ؛؛ علماً أن هذا الكتاب
طبع في أصله بدون المتن «كتاب التوحيد»، فعمل من قاموا على خدمة
الكتاب بوضع المتن أعلاه، وهذا ما فعلته - أيضاً - في هذه الطبعة.

والبداءة بها سنة، كما فعل البخاري وغيره من العلماء؛ اتباعاً
للسنة في مراسلات النبي ﷺ للملوك وغيرهم، وفي الأمر بالبداءة
بها حديث معروف (١).

■ قوله: «كتاب التوحيد»: المراد بالتوحيد: توحيد العبادة، وكل
رسول يفتتح دعوته لقومه بهذا التوحيد: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ
غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]؛ كما في سورة الأعراف وهود وغيرهما.

■ قوله: «وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾»:
دلت الآية على أن الله تعالى خلق الخلق لحكمة عظيمة، وهي القيام
بما وجب عليهم من عبادته وحده وترك عبادة ما سواه، ففعل الأول
- وهو خَلَقَهُمْ - ليفعلوا هم الثاني - وهي العبادة -.

□ قال شيخ الإسلام: «العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله
ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة».

□ وقال - أيضاً -: «والعبادة اسم يجمع كمال الحب لله ونهايته،
وكمال الذل لله ونهايته، فالحب الخلي عن ذل، والذل الخلي عن
حب لا يكون عبادة، وإنما العبادة ما يجمع كمال الأمرين».

□ وقال - أيضاً -: «وأما ما خُلِقُوا له من محبة الله تعالى ورضاه
فهو إرادته الدينية، فذلك مذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ
وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات]».

■ قوله: «وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ

(١) ضعيف: وقد تقدم. وهو حديث: «كل أمرٍ ذي بال لم يبدأ بـ»بسم الله
الرحمن الرحيم» فهو أبتَر.

أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ... ﴿٢٩﴾ الآية: يخبر تعالى أنه بعث في كل قرنٍ وطائفةٍ من الأمم رسولا يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وينهاهم عن عبادة ما زينه الشيطان لهم وأوقعهم فيه من عبادة ما سواه، فمنهم من هدى الله، ووحدته تعالى بالعبادة، وأطاع رسله، ومنهم من حقت عليه الضلالة؛ فأشرك مع الله غيره بعبادته، ولم يقبل هدى الله الذي جاءت به الرسل، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ﴿٢٥﴾ [الأنبياء]. وهذا التوحيد الذي خلقوا له ودُعوا إليه هو توحيد الإلهية، توحيد القصد والطلب.

وأما توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات وتوحيد الأفعال = فهو توحيد العلم والاعتقاد، وأكثرُ الأمم قد أقروا به لله. وأما توحيد الإلهية فأكثرهم قد جحدوه، كما قال تعالى عن قوم هود - لما قال لهم: ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥] -: ﴿أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ﴾ [الأعراف: ٧٠]، وقال مشركو قريش: ﴿أَجْعَلِ الْأَلْهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مُجَابُّ﴾ ﴿٥﴾ [ص].

وهذه الآية - وهي قوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] - تبين معنى الآية قبلها وكذلك الآيات بعدها، وأن المراد بالعبادة التي خلقوا لها هي العبادة الخالصة التي لم يلبسها^(١) شرك بعبادة شيء سوى الله كائنًا ما كان، فلا تصح الأعمال إلا بالبراءة من عبادة كل ما يُعبد من دون الله.

(١) يلبسها: يخالطها. ووردت في المطبوع: «يلبسها» ولعل الأدق ما أثبتته.

واللّٰهُ تَعَالٰی خَلَقَ الثَّقَلَيْنِ لِيَعْبُدُوهُ، فَمِنْهُمْ مَنْ فَعَلَ، وَمِنْهُمْ مَنْ
أَشْرَكَ وَكَفَرَ، كَمَا قَالَ تَعَالٰی فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ
مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل: ٣٦].

وَقَالَ تَعَالٰی: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]؛ يَبِينُ أَنَّ حِكْمَةَ الرَّبِّ فِي خَلْقِهِ لِلْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَا تَقْتَضِي أَنَّ كُلًّا
يَفْعَلُ مَا خُلِقَ لَهُ وَأَرْسَلَتْ الرُّسُلَ لِأَجْلِهِ، وَلِهَذَا الْحِكْمَةُ أَهْلَكَ اللَّهَ
مَنْ لَمْ يَعْبُدْهُ وَحْدَهُ، وَلَمْ يَقْبَلْ مَا جَاءَتْ بِهِ رُسُلُهُ، وَشَرَعَ قِتَالَهُمْ
لِنَبِيِّهِ ﷺ وَأَتْبَاعِهِ، فَمِنْهُمْ مَنْ أَطَاعَ - وَهُمْ الْأَقْلُونَ -، وَمِنْهُمْ مَنْ
عَصَى - وَهُمْ الْأَكْثَرُونَ -.

وَهَذَا التَّوْحِيدُ هُوَ دِينُ الْإِسْلَامِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ أَحَدٍ دِينًا
سِوَاهُ، كَمَا قَالَ الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ يُونُسُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ
إِبْرَاهِيمَ [رَحِمَهُمُ اللَّهُ]: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠].

وَهَذَا هُوَ الدِّينُ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رُسُلَهُ، وَأَنْزَلَ بِهِ كِتَابَهُ، وَأَمَرَ
الرُّسُلَ أَنْ يَقِيمُوهُ، كَمَا قَالَ تَعَالٰی: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ
نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا
تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وَقَالَ لِنَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَمَرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكَ بِهِ إِِلَيْهِ
أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣١﴾﴾ [الرعد]، فَأَمَرَهُ أَنْ يَعْبُدْهُ وَحْدَهُ، وَأَنْ يَدْعُوَ
الْأُمَّةَ إِلَى ذَلِكَ.

وَالْقُرْآنُ كُلُّهُ فِي هَذَا التَّوْحِيدِ، وَبَيَانِهِ، وَجَزَائِهِ، وَالرَّدِّ عَلَى مَنْ
جَحَدَهُ، كَمَا قَالَ تَعَالٰی: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ
مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ

مَنْ أَظْلَمْتَ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ [المائدة].

وفي حديث معاذ الذي رواه أبو داود والترمذي - وقال: حديث حسن صحيح -، قال: قلت: يا رسول الله، دُلّني على عمل يدخلني الجنة، ويباعدني عن النار، فقال: «سألت عن عظيم، وإنه ليسيرٌ على من يسره الله عليه: تعبدُ الله، ولا تشرك به شيئاً، وتقيمُ الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان» - وذكر الحج - . ثم قال: «ألا أُخبرُك برأس الأمر، وعموده، وذروة سنامه؟»، قلت: بلى - يا رسول الله - . قال: «رأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله»^(١).

فدل على أن الإسلام هو التوحيد، والفرائض من حقوقه. وقد أجمع الفقهاء على أن الإسلام شرطٌ لصحة الصلاة وغيرها من الأعمال، وهو مقتضى الشهادتين - شهادة ألا إله إلا الله، وشهادة أن محمداً رسول الله -؛ فمعنى «شهادة ألا إله إلا الله»: نفي الشرك، والبراءة منه ومن فعله، وإخلاص العبادة لله وحده، والإيمان بالرسول وطاعته، وهو معنى الآية الثالثة، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَضَى

(١) صحيح: رواه أحمد (٢٣١/٥)، والترمذي (٢٦١٦)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٣٣٠)، وابن ماجه (٣٩٧٣)، وعبدالرزاق في «المصنف» (٢٠٣٠٣)، وعبد بن حميد (١١٢)، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (١٩٦)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/٢٦٦)، والبغوي في «شرح السنة» (١١)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٠٤)، والبيهقي في «الشعب» (٣٣٥٠)، وقال الإمام الترمذي: «حسن صحيح»، وصحّحه الشيخ الألباني، وكذا الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق «المسند» (٣٤٥/٦).

رَبُّكَ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴿﴾ [الإسراء: ٢٣]، أي أمر ووصى.

فقوله: ﴿إِلَّا تَعْبُدُوا﴾ فيه معنى «لا إله». وقوله: ﴿إِلَّا إِيَّاهُ﴾ فيه معنى «إلا الله». وهذا هو معنى كلمة الإخلاص؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ٦٤]؛ فقوله: ﴿إِلَّا نَعْبُدُ﴾ فيه معنى «لا إله»، وقوله: ﴿إِلَّا اللَّهَ﴾ هو المستثنى في كلمة الإخلاص.

فسبحان الله! كيف خفي هذا مع بيانه ووضوحه على الأذكياء من متأخري هذه الأمة^(١)؟



(١) يقصد الذين فسَّروا كلمة التوحيد - الدالة على توحيد الألوهية - بما يدلُّ على توحيد الربوبية.

وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].
 وقوله: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].
 وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام: ١٥١].

□ قال ابن مسعود رضي الله عنه: «من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه؛ فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ...﴾ الآية [الأنعام: ١٥٣].»

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار، فقال لي: «يا معاذ، أتدري ما حق الله على العباد؟ وما حق العباد على الله؟»، قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإن حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله ألا يعذب مَنْ لا يُشْرِكُ به شيئاً». قلت: يا رسول الله، أفلا أبشّر الناس؟ قال: «لا تبشّرهم فيتكلوا». أخرجاه في «الصحيحين»^(١).

الشرح

■ قوله: «وقول الله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾»: الآية: وهذه الآية تبين العبادة التي خلقوا لها - أيضاً -؛ فإنه تعالى قرّن الأمر بالعبادة التي فرضها بالنهي عن الشرك الذي حرّمه - وهو الشرك في العبادة -؛ فدلّت هذه الآية على أن اجتناب الشرك شرط في صحة العبادة، فلا تصح بدونه أصلاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ

أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْطَبَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَسِيرِينَ ﴿١٥﴾
 بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٦﴾ [الزمر]، فتقديم المعمول يفيد
 الحصر، أي: بل الله فاعبده وحده لا غير، كما في فاتحة الكتاب
 ﴿يَاكَ نَعْبُدُ وَيَاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة].

وقرر تعالى هذا التوحيد بقوله: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ
 الدِّينَ﴾ [الزمر].

والدين هو العبادة بفعل ما أمر [الله] به، وترك ما نهى عنه،
 كما قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

والأمرُ والنهي الذي هو دينُه وجزاؤه يوم المعاد الثاني

وتقدم أن أصله وأساسه توحيد العبادة، فلا تغفل عما تقدم.

■ قوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا
 وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١]: أي حرم عليكم الشرك الذي نهاكم
 عنه بقوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام: ١٥١]؛ فالشرك أعظم ذنب
 عُصِي اللهُ به - أكبره وأصغره -.

وقد وقع الأكثر من متأخري هذه الأمة في هذا الشرك الذي هو
 أعظم المحرمات، كما وقع في الجاهلية قبل مبعث النبي ﷺ؛ عبدوا
 القبور والمَشَاهِد والأشجار والأحجار والطواغيت والجن، كما عبد
 أولئك اللات والعزى ومناة وهبل وغيرها من الأصنام والأوثان،
 واتخذوا هذا الشرك دينًا، ونَفَرُوا إذا دُعُوا إلى التوحيد أشدَّ نفرة،
 واشتد غضبهم لمعبوداتهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ
 اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ
 يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [الزمر]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ رَبُّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ

عَلَىٰ أَدْبَرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾ [الإسراء]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَ هَٰذَا لَشَاعِرٍ يَجْنُونُ ﴿٣٦﴾﴾ [الصفّات].

علموا أَنَّ «لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» تنفي الشرك الذي وقعوا فيه، وأنكروا التوحيد الذي دلّت عليه، فصار أولئك المشركون^(١) أعلمَ بمعنى هذه الكلمة «لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» من أكثر متأخري هذه الأمة! لا سيما أهل العلم منهم^(٢) الذين لهم درايةٌ في بعض الأحكام وعلم الكلام، فجهلوا توحيد العبادة، فوقعوا في الشرك المنافي له وزيّنوه، وجعلوا توحيد الأسماء والصفات وأنكروه، فوقعوا في نفيه - أيضًا - وصنفوا فيه الكتب لاعتقادهم أن ذلك حقٌّ، وهو باطل.

وقد اشتدت غربة الإسلام؛ حتى عاد المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، فنشأ على هذا الصغير، وهَرِمَ عليه الكبير، وقد قال النبي ﷺ: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ»^(٣).

وقد قال ﷺ: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقةً، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقةً، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقةً؛ كلها في النار إلا واحدة». قالوا: ومن هي - يا رسول الله -؟ قال: «من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي»^(٤).

(١) يعني المشركين الأوائل.

(٢) يعني المتأخرين.

(٣) صحيح: وقد تقدم.

(٤) صحيح: رواه أحمد (١٢٠/٣)، وابن ماجه (٣٩٩٣)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٦٤)، والمروزي في «السنة» (٥٣)، واللالكائي في «شرح الاعتقاد» (١٤٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (٥٢/٣)، وأبو يعلى (٤١٢٧)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٣٩١٥)، والآجري في «الشریعة» (٢٥)، والطبراني في «الأوسط» (٤٨٨٦)، وفي «الصغير» (٧٢٤)، وابن بطّة في =

وهذا الحديث قد صح من طرق - كما ذكره العماد ابن كثير وغيره من الحفاظ -، وهو في «السنن» وغيرها، ورواه محمد بن نصر في كتاب «الاعتصام».

وقد وقع ما أخبر به النبي ﷺ بعد القرون الثلاثة؛ فلهذا عم الجهل بالتوحيد - الذي هو أصل دين الإسلام -؛ فإن أصله ألا يُعبد إلا الله، وألا يُعبد إلا بما شرع، وقد تُرك هذا، وصارت عبادة الأكثرين مشوبةً بالشرك والبدع، لكنَّ الله تعالى - وله الحمد - لم يُخلِ الأرض من قائم له بحُججه، وداع إليه على بصيرة؛ لكي لا تبطل حُججُ الله وبيِّناته التي أنزلها على أنبيائه ورسله، فله الحمد والشكر على ذلك.

■ وأما قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه، فليقرأ تعالى: ﴿قُلْ تَكَاوَأْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾، إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾ الآية»:

■ قوله: «التي عليها خاتمه»: شبه هذه الوصية بوصية كُتبت فختمت، أي: فلم تتغير ولم تتبدل، أراد أن النبي ﷺ لم يزل يدعو الأمة من حين بعثه الله تعالى إلى أن توفاه - صلوات الله

= «الإبانة» (٢٧٠)، والخطيب في «الفقيه والمتفقه» (٤١٩/١)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢٨٧/٦)، من حديث أنس رضي الله عنه، وصحَّحه الإمام البوصيري في «الزوائد»، والشيخ الألباني عند ابن ماجه، والشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق «المسند» (٢٤١/١٩)، وتحقيق «سنن ابن ماجه» (١٢٩/٥). وفي الباب عن غير واحدٍ من الصحابة رضي الله عنهم.
تنبيه: ورد الحديث بلفظ: «ما أنا عليه اليوم وأصحابي»، ولفظ: «هي الجماعة».

وسلامه عليه - إلى ما تضمنته هذه الآيات المحكماتُ أمراً ونهيًا، كما قال تعالى عن خليله عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٣١) وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَئِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ الآيات [البقرة].

■ قوله: وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: كنت رديف النبي صلى الله عليه وسلم على حمار؛ فقال لي: «يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله؟»: فساقه المصنف رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى هنا لتضمنه معنى الآيات التي تقدمت، وذلك قوله: «حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً».

□ قال العلامة ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى:

حَقُّ الْإِلَهِ عِبَادَةٌ بِالْأَمْرِ لَا بهوى النفوس فذاك للشيطان
من غير إشراكٍ به شيئاً هما سبب النجاة فحبذا السببان
لم ينجُ من غضب الإله وناره إلا الذي قامت به الأصلا
والناس بعدُ فمشرِكٌ بإلهه أو ذو ابتداعٍ أو له الوصفان
«وحق العباد على الله ألا يعذب من لا يشرك به شيئاً»، ليس على
الله حقٌّ واجب بالعقل كما تزعم المعتزلة، لكن هو سبحانه أَحَقُّ
ذلك على نفسه تفضلاً وإحساناً على الموحدين المخلصين؛ الذين
لم يلتفتوا في إرادتهم ومهماتهم ورغباتهم ورهباتهم إلى أحد سواه،
ولم يتقربوا بما يقولونه ويعملونه من الطاعات إلا إليه وحده،
والله أعلم.



فيه مسائل:

الأولى: الحكمة في خلق الجن والإنس.

الثانية: أن العبادة هي التوحيد؛ لأن الخصومة فيه.

الثالثة: أن من لم يأت به لم يعبد الله؛ ففيه معنى قوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ [الكافرون].

الرابعة: الحكمة في إرسال الرسل عليهم الصلاة والسلام.

الخامسة: أن الرسالة عمت كل أمة.

السادسة: أن دين الأنبياء واحد.

السابعة: المسألة الكبيرة: أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت؛ ففيه معنى قوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦].

الثامنة: أن الطاغوت عامٌ في كل ما عُبد من دون الله.

التاسعة: عظم شأن الثلاث الآيات المحكمات في سورة الأنعام عند السلف، وفيها عشر مسائل؛ أولها: النهي عن الشرك.

العاشر: الآيات المحكمات في سورة الإسراء، وفيها ثماني عشرة مسألة، بدأها الله بقوله: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]، وختمها بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّذْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩]. ونَبَّهَنَا اللهُ سبحانه على عظم شأن هذه المسائل بقوله: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: ٣٩].

الحادية عشرة: آية سورة النساء التي تسمى: «آية الحقوق العشرة»؛ بدأها الله تعالى بقوله: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

الثانية عشرة: التنبيه على وصية رسول الله ﷺ عند موته .

الثالثة عشرة: معرفة حق الله علينا .

الرابعة عشرة: معرفة حق العباد عليه إذا أدّوا حقه .

الخامسة عشرة: أن هذه المسألة لا يعرفها أكثر الصحابة .

السادسة عشرة: جواز كتمان العلم للمصلحة .

السابعة عشرة: استحباب بشارة المسلم بما يسره .

الثامنة عشرة: الخوف من الاتكال على سعة رحمة الله .

التاسعة عشرة: قول المسؤول عما لا يعلم: «اللَّهُ ورسوله أعلم» .

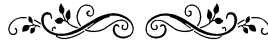
العشرون: جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض .

الحادي والعشرون: تواضعه ﷺ لركوب الحمار، مع الإرداف عليه .

الثاني والعشرون: جواز الإرداف على الدابة .

الثالث والعشرون: فضيلة معاذ بن جبل رضي الله عنه .

الرابع والعشرون: عظم شأن هذه المسألة .



﴿٢﴾ باب: فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب

وقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمَنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام].

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَلَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ». أخرجه ^(١).

الشرح

■ قوله: «باب فضل التوحيد»: الباب هو المدخل إلى الشيء.

■ قوله: «وما يكفر من الذنوب»: «ما» مصدرية؛ أي: وتكفيره الذنوب. ويجوز أن تكون موصولة، والعائد محذوف، أي: والذي يكفره من الذنوب.

والمراد بالتوحيد: توحيد العبادة، وهو أفراد الله تعالى بأنواع العبادة الباطنة والظاهرة؛ كالدعاء والذبح والنذر ونحوه، كما قال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [١٤] [غافر]، وقال تعالى: ﴿فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ٦٥].

■ قوله: «وقول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمَنُ وَهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾»: واللبس: الخلط. والمراد بالظلم هنا:

(١) صحيح: وقد تقدم.

الشرك الأكبر؛ لما ثبت في حديث ابن مسعود وغيره مرفوعاً: «إنما هو الشرك. ألم تسمعوا إلى قول العبد الصالح: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: (١)].

أراد أن من لم يجتنب الشرك لم يحصل له أمنٌ ولا اهتداء بالكلية. وأما مَنْ سَلِمَ منه فيحصل له من الأمن والاهتداء بحسب مقامه في الإسلام والإيمان؛ فلا يحصل الأمن التام والاهتداء التام إلا لمن لم يَلْقَ اللَّهَ بكبيرةٍ مصرّاً عليها.

وأما إن كان للموحد ذنوبٌ لم يتب منها حصل له من الأمن والاهتداء بحسب توحيده، وفاته منه بقدر معصيته، كما قال: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذْنِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

فالظالم لنفسه: هو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً؛ فهو تحت مشيئة الله؛ إن شاء غفر له، وإن شاء أخذه بذنبه، ونجاه بتوحيده من الخلود في النار.

وأما المقتصد: فهو الذي عمل بما أوجب الله عليه، وترك ما حَرَّمَ عليه فقط، وهذه حال الأبرار.

وأما السابق: فهو الذي حصل له كمال الإيمان باستفراغه وسعته في طاعة الله علماً وعملاً.

فهذان لهم الأمن التام والاهتداء التام في الدنيا والآخرة، فالكل للكل، والحِصَّةُ للحِصَّة؛ لأن كمال الإيمان يمنع صاحبه من المعاصي وعقوباتها، فلم يلقَ ربّه بذنب يعاقب به، كما قال تعالى: ﴿مَا

يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ ﴿[النساء: ١٤٧].

وهذا الذي ذكرته في معنى هذه الآية هو ما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، وابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في معناها، وهو الذي دل عليه القرآن، وهو قول أهل السنة والجماعة، خلافاً لأهل البدع من الخوارج والمعتزلة ونحوهم.

■ قوله: «من شهد»: لا ريب أن الشهادة لا تكون شهادةً إلا إذا كانت عن علم ويقين وصدق، وأما مع الجهل والشك فلا تعتبر ولا تنفع، فيكون الشاهد - والحالة هذه - كاذباً؛ لجهله بمعنى الذي شهد به.

وقد تضمنت هذه الكلمة العظيمة نفياً وإثباتاً:

- فنفت الإلهية عن كل ما سوى الله بقولك: «لا إله».

- وأثبتت الإلهية لله وحده بقولك: «إلا الله».

قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران].

فكم ضل بسبب الجهل بمعناها من ضل - وهم الأكثرون -! فقلبوا حقيقة المعنى؛ فأثبتوا الإلهية المنفية لمن نُفيت عنه من المخلوقين أرباب القبور والمشاهد، والطواغيت والأشجار والأحجار، والجن وغير ذلك. واتخذوا ذلك ديناً، وشبهوا وزخرفوا، واتخذوا التوحيد بدعةً، وأنكروه على من دعاهم إليه، فلم يعرفوا منها ما عرف أهل الجاهلية من كفار قريش ونحوهم؛ فإنهم عرفوا معناها، وأنكروا ما دلت عليه من الإخلاص، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَقُولُونَ إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَينَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الصفات].

والمشركون من أواخر هذه الأمة أنكروا ما أنكروه أولئك على من دعاهم إلى ترك عبادة ما كانوا يعبدونه من دون الله من القبور والمشاهد والطواغيت ونحوها، فأولئك عرفوا هذا المعنى وأنكروه، وهؤلاء جهلوا هذا المعنى وأنكروه؛ فلهذا تجده يقول: «لا إله إلا الله»، وهو يدعو مع الله غيره!

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «الإله هو الذي تأله القلوب محبة وإجلالاً، وإنابة وإكراماً وتعظيماً، وذلاً وخضوعاً، وخوفاً ورجاءً وتوكلًا».

□ وقال الوزير أبو المظفر رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في «الإفصاح»: «قوله: «شهادة أن لا إله إلا الله»: يقتضي أن يكون الشاهد عالمًا بآل إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]».

□ قال: «واسم «الله» مرتفع بعد «إلا» من حيث إنه الواجب له الإلهية، فلا يستحقها غيره سبحانه».

□ قال: «وجملة الفائدة في ذلك: أن تعلم أن هذه الكلمة مشتملة على الكفر بالطاغوت، وعلى الإيمان بالله؛ فإنك لما نفيت الإلهية وأثبت الإيجاب لله = كنت ممن كفر بالطاغوت، وآمن بالله».

□ وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «الإله هو الذي يطاع فلا يعصى هبة له وإجلالاً، ومحبةً وخوفاً ورجاءً، وتوكلًا عليه، وسؤالاً منه، ودعاءً له، ولا يصلح ذلك كله إلا لله ﷻ، فمن أشرك مخلوقاً في شيء من هذه الأمور - التي هي من خصائص الإلهية - كان قدحاً في إخلاصه في قول «لا إله إلا الله»، وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك».

□ وقال البقاعي: «(لا إله إلا الله): أي انتفى نفياً عظيماً أن يكون معبودٌ بحق غير الملك الأعظم».

□ قال: «وهذا العلم هو من أعظم الذكري المنجية من أهوال الساعة، وإنما يكون علماً إذا كان نافعاً، وإنما يكون نافعاً إذا كان مع الإذعان والعمل بما تقتضيه، وإلا فهو جهلٌ صرف».

قلت: وهؤلاء المتأخرون جهلوا معنى «الإله»، وقلبوا حقيقة المعنى إلى معنى «توحيد الربوبية»؛ وهو القدرة على الاختراع؛ فأثبتوا ما نفته «لا إله إلا الله» من الشرك، وأنكروا ما أثبتته من إخلاص العبادة لله جهلاً منهم، وقد قال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر].

□ قال محيي الدين النووي: «اعلم أن باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قد ضيّع من أزمان متطاولة، ولم يبق في هذه الأزمان إلا رسومٌ قليلةٌ جدّاً، وهو بابٌ عظيم به قوامُ الأمر وملاكه، وإذا كثر الخبث عم العقابُ الصالح والطالح».

قوله: «في هذه الأزمان» يعني القرن الخامس والسادس، وإذا كان كذلك فما الظن بالقرن العاشر وما بعده، وقد استحكمت فيها الغربة! ولشيخنا محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في تفسير هذه الكلمة كلامٌ بديع واضح لم يُسبق إلى مثله، فليراجع لمسييس الحاجة إليه.

■ قوله في الحديث: «وحده لا شريك له»: تأكيد لمعنى «لا إله إلا الله» الذي دلت عليه ووضعت له؛ من باب اللف والنشر المقدم والمؤخر، وهو بيانٌ لمعنى هذه الكلمة؛ لأنها دلت بجملتها على التوحيد، ف«لا إله» تنفي الشرك في العبادة قليله وكثيره، وبينه

بقوله: «لا شريك له» في إلهيته وهي العبادة، وقوله: «وحده» هو معنى «إلا الله»؛ فهو الإله الحق وحده دون كل ما سواه من أهل السماوات والأرض، كما دلت على ذلك الآيات المحكمات ومتواتر الأحاديث، فتدبر هذا البيان يُطْلَعُكَ على بطلان قول من يقول بجواز دعوة غير الله، والله تعالى يقول لنبيه: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء]؛ وغيرها من الآيات الآتي ذكرها - إن شاء الله تعالى -.

فقوله: «وحده» تأكيد للإثبات.

وقوله: «لا شريك له» تأكيد للنفي.

■ وقوله: «وأن محمداً عبده ورسوله»: أي وشهد أن محمداً عبده ورسوله، أي: بصدق ويقين، وذلك يقتضي اتباعه، وتعظيم أمره ونهيه، ولزوم سنته ﷺ، وألاً تُعَارِضَ بقول أحد؛ لأن غيره ﷺ يجوز عليه الخطأ، والنبي ﷺ قد عصمه الله تعالى، وأمرنا بطاعته والتأسي به، وتوَعَّد^(١) على ترك طاعته بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] الآية.

وقال: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور].

□ قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «أتدري ما الفتنة؟ الفتنة الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك».

(١) في المطبوع: «والوعيد»، ولعل الأصح ما أثبتته.

وقد وقع التفريط في المتابعة^(١) وتقديم أقوال من يجوز عليهم الخطأ على قوله ﷺ؛ لا سيما من العلماء كما لا يخفى^(٢).

■ قوله: «وأن عيسى عبد الله ورسوله»: فيه بيان الحق الذي يجب اعتقاده - كما في الآيات المحكمات -، وما فيه من الرد على كفار النصاري؛ وهم ثلاث طوائف:

- طائفة قالوا: إن عيسى هو الله.

- وطائفة قالوا: ابن الله.

- وطائفة قالوا: ثالث ثلاثة - يعنون عيسى وأمه -.

فبين تعالى في كتابه الحق، وأبطل الباطل؛ فقال: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٧١﴾﴾ [النساء]، والآيات بعدها.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾

[المائدة: ٧٢] في مواضع من سورة المائدة.

وأخبر تعالى عما قاله المسيح عليه السلام وهو في المهد؛ فقال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرِئٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٧٧﴾ يَتَّخِذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٧٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي

(١) بعدها في المطبوع كلمة «وتركها»! ولعلها سبق قلم.

(٢) انظر تفاصيل هذا في «القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد» مع «الإقليد في أدلة الاجتهاد والتقليد»، للعلامة الشوكاني بعنايتي.

الْمَهْدِ صَيِّبًا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ^(١) ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ [مريم].

فبين تعالى الصراط المستقيم الذي من سلكه نجا، ومن خرج عنه هلك.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٩٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٧﴾ [آل عمران]؛ فبين تعالى الصراط المستقيم بيانًا شافيًا ووافيًا، وأقام حججه على توحيده؛ فأحقَّ الحقَّ، وأبطل الباطل ولو كره المشركون.

■ قوله: «وكلمته ألقاها إلى مريم»: أي قوله: «كن»، فخلقه بـ«كن» فكان، ففيه إثبات صفة الكلام لله تعالى خلافاً للجهمية - أيضًا -.

■ قوله: «وروح منه»: أي من الأرواح التي استخرجها من صلب آدم ﷺ، وأخذ عليها العهد على أنه تعالى ربهم وإلههم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي ءَادَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا...﴾ [الأعراف: ١٧٢] الآيات. وروح عيسى من تلك الأرواح التي خلقها الله تعالى.

□ وذكر ابن جرير عن وهب بن منبه قال: «نفخ جبريل في جيب

(١) تأمل كيف بدأ عيسى ﷺ بتوحيد الألوهية قبل حتى تبرئه أمه الطاهرة ﷺ مما رُميت به من الفاحشة!

درع مريم^(١)، حتى وصلت النفخة إلى الرحم فاشتملت^(٢).

□ وعن السدي: «أن النفخة دخلت في صدرها فحملت».

□ وقال ابن جريج: «يقولون: إنما نفخ في جيب درعها وكمّها».

انتهى مختصرًا.

فجبريل نفخ، واللّه خلق بقول: «كن» فكان؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩]، فسبحان من لا يخلق غيره، ولا يُعبد سواه!

وقد أورد بعض النصارى على بعض علماء المسلمين قول اللّه تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾؛ فقال في الجواب: هذا ليس خاصًا بعيسى عليه السلام؛ بل المخلوقات كذلك كلها؛ كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الباقية: ١٣]؛ أي خلقًا وإيجادًا، وعيسى كذلك خلقه وأوجده كسائر مخلوقاته^(٣).

وفي هذا الحديث الردُّ على اليهود - أعداء اللّه وأعداء أنبيائه ورسله -؛ فإنهم كانوا هم والنصارى في طرفي نقيض، فنسبوه^(٤) إلى أنه ولدٌ بغيّ - قاتلهم اللّه -؛ فأكذبهم اللّه تعالى في كتابه، وأبطل قولهم؛ كما أبطل قول الغلاة من النصارى فيما تقدم من الآيات ونحوها.

(١) الدرع: الخمار.

(٢) اشتملت: حملت به.

(٣) وإنما اشتهر عن غيره عليه السلام بأنه «كلمة اللّه»؛ لميلاده المعجز من أمّ دون أب.

(٤) يعني اليهود خاصة - كما لا يخفى -.

فالنصارى عُلُوا في عيسى ابن مريم ﷺ أعظم الغلو والكفر والضلال، واليهود جَفَوْا في حقه غاية الجفاء، وكلاهما قد ضل ضلالاً بعيداً، نبّه الله تعالى عليه في مواضع كثيرة من كتابه، وبين تعالى الحق والصدق، ورفّع قدر المسيح ﷺ، وجعله من أولي العزم الخمسة المذكورين في سورة الأحزاب والشورى، وأمر نبيه ﷺ أن يصبر كما صبروا؛ فقال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحاف: ٣٥]؛ فهم أفضل الرسل على التحقيق، والنبي ﷺ أفضلهم - صلوات الله وسلامه عليه، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين -.

■ قوله: «وأن الجنة حق»: أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُؤْمِنِينَ يوم القيامة^(١)، وما فيها من القصور والثمار والفواكه والنعيم المقيم والنظر إلى وجه الله الكريم، كما قال تعالى: ﴿عَطَاءٌ غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾^(٢) [هود]، وقال: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة].

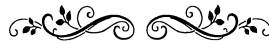
■ قوله: «والنار حق»: أَعَدَّهَا اللهُ تعالى لمن كفر به وأشرك في إلهيته وربوبيته، وألحد في أسمائه وصفاته. ومن لم يؤمن بالجنة والنار فقد كفر بالقرآن والرسول؛ فإن الله تعالى بين الجنة وما أعد فيها من النعيم المقيم، وذكر أنها دار المتقين، وذكر النار وما فيها من العذاب، وأنه أَعَدَّهَا لمن كفر به وأشرك.

(١) أي: أعد دخولها بأجسادهم وأرواحهم، وإن كانت الجنة معدة مخلوقة من قديم - كما دلّ على ذلك الآيات البينات والأحاديث الصحيحة.

(٢) ﴿مَجْذُوذٍ﴾: مقطوع.

■ قوله: «أدخله الله الجنة على ما كان من العمل»: جواب «مَنْ» الشرطية؛ أي: من شهد ألا إله إلا الله... إلى آخره أدخله الله الجنة، أي: بإخلاصه وصدقه والإيمان برسوله وما أُرسِلَ به، وخالف النصارى واليهود في الغلو والجفاء في حق عيسى، وعلم يقيناً أنه عبدُ الله ورسوله، وآمن بالجنة والنار = فمن كان كذلك أدخله الله الجنة - وإن كان مقصراً وله ذنوب -؛ فهذه الحسنة العظيمة تَرَجَّحُ بجميع السيئات.

فتدبر هذا الحديث؛ فإنه عظيم. والله أعلم.



ولهما في حديث عِثْبَانَ رضي الله عنه: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ»^(١).

الشرح

■ قوله: «ولهما»: أي البخاري ومسلم، وهذا حديث طويل اختصره المصنف، وذكر منه ما يناسب الترجمة، وهو قوله: «من قال: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ»، وهذا هو حقيقة معناها الذي دلت عليه الكلمة من الإخلاص ونفي الشرك. والصدق والإخلاص متلازمان؛ لا يوجد أحدهما بدون الآخر، فإن من لم يكن مخلصاً فهو مشرك، ومن لم يكن صادقاً فهو منافق، والمخلص أن يقولها مخلصاً الإلهية لمن لا يستحقها غيره - وهو الله تعالى -، وهذا التوحيد هو أساس الإسلام الذي قال [فيه] الخليل عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨]، وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ﴾ [النمل: ٤٤]، وقال الخليل عليه السلام: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام].

والحنيف هو الذي ترك الشرك رأساً، وتبرأ منه، وفارق أهله وعاداهم، وأخلص أعماله الباطنة والظاهرة لله وحده، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [لقمان: ٢٢]؛ فإسلام الوجه هو إخلاص العبادة المنافي للشرك والنفاق، وهو معنى الآية ونحوها إجماعاً؛ فهذا هو الذي ينفعه قول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»؛ ولهذا قال تعالى: ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾

[البقرة: ٢٥٥]، وهذا بخلاف من يقولها وهو يدعو غير الله ويستغيث به من ميتٍ أو غائب لا ينفع ولا يضر - كما ترى عليه أكثر الخلق -؛ فهو لاء وإن قالوها، فقد تلبَّسوا بما يناقضها؛ فلا تنفع قائلها إلا بالعلم بمدلولها نفياً وإثباتاً، والجاهل بمعناها وإن قالها لا تنفعه لجهله بما وُضعت له الوضع العربي الذي أريد منها من نفي الشرك، وكذلك إذا عرف معناها بغير تيقُّنٍ له، فإذا انتفى اليقينُ وقع الشك.

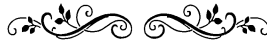
■ ومما قُيدت به في الحديث: قوله ﷺ: «غير شاك»؛ فلا تنفع إلا من قالها بعلم ويقين؛ لقوله: «صدقاً من قلبه»، «خالصاً من قلبه»، وكذلك من قالها غير صادق في قوله؛ فإنها لا تنفعه لمخالفة القلب اللسان؛ كحال المنافقين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وكذلك حال المشرك؛ فلا تُقبل من مشركٍ لمنافاة الشرك للإخلاص، ولما دلت عليه هذه الكلمة مطابقةً؛ فإنها دلت على نفي الشرك والبراءة منه، والإخلاص لله وحده لا شريك له مطابقةً^(١)، ومن لم يكن كذلك لم ينفعه قوله: «لا إله إلا الله»، كما هو حال كثير من عبدة الأوثان؛ يقولون: «لا إله إلا الله»، وينكرون ما دلت عليه من الإخلاص، ويعادون أهله، وينصرون الشرك وأهله.

وقد قال الخليل ﷺ لأبيه وقومه: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (١٦) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (١٧) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ ﴿[الزخرف]﴾. وهي «لا إله إلا الله»، وقد عبر عنها الخليل بمعناها الذي وُضعت له ودلت عليه، وهو البراءة من الشرك وإخلاص العبادة لله وحده لا شريك له، كما تقدم تقريره.

(١) انظر دلالة المطابقة وغيرها في (٦٠٢/٢).

وكذلك من قالها ولم يقبل ما دلت عليه من الإخلاص، كان قوله لهذه الكلمة كذباً منه؛ بل قد عكس مدلولها؛ فأثبت ما نفتته من الشرك، ونفى ما أثبتته من الإخلاص.

فهذا الذي ذكرناه هو حال الأكثرين من هذه الأمة بعد القرون الثلاثة، وسبب ذلك الجهلُ بمعناها، واتباع الهوى، فيصرفه عن اتباع الحق وما بعث الله به رسله من توحيده الذي شرعه لعباده ورضيه لهم.



وعن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «قال موسى: يا رب، علّمني شيئاً أذكرك وأدعوك به. قال: قل - يا موسى -: لا إله إلا الله. قال: يا رب، كلُّ عبادك يقولون هذا. قال: يا موسى، لو أن السماوات السبع وعامرهنَّ غيري، والأرضين السبع في كفة، وإلا إله إلا الله» في كفة = مالت بهن لا إله إلا الله. رواه ابن حبان والحاكم وصححه ^(١).

وللترمذي - وحسنه - عن أنس رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم، لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرة» ^(٢).

الشرح

■ قوله: «وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ قال: (قال موسى: يا رب، علّمني شيئاً أذكرك وأدعوك به. قال: قل يا موسى: لا إله إلا الله. قال: يا رب، كل عبادك يقولون هذا، قال: يا موسى، لو أن السماوات السبع وعامرهن غيري، والأرضين السبع في كفة، وإلا إله إلا الله في كفة، مالت بهن لا إله إلا الله)»: «لا» نافية للجنس نفياً عاماً إلا ما استثنى، وخبرها محذوف تقديره: «لا إله حق إلا الله»؛ قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْتَ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنْتَ اللَّهُ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ١٦]؛ فالهَيْتَةُ تعالى هي الحق، وكل ما سواه من الآلهة فالهَيْتَةُ باطلة، كما في هذه الآية ونظائرها.

(١) ضعيف: وقد تقدم.

(٢) حسن: وقد تقدم.

فهذه كلمة عظيمة؛ هي العروة الوثقى، وكلمة التقوى، وكلمة الإخلاص، وهي التي قامت بها السماوات والأرض، وشُرعَت لتكميلها السُّنة والفرض، ولأجلها جُردت سيوف الجهاد، وبها ظهر الفرق بين المطيع والعاصي من العباد؛ فمن قالها وعمل بها صدقًا وإخلاصًا، وقبولًا ومحبةً وانقيادًا، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل، وفي الحديث الصحيح: «أفضل الدعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلتُ أنا والنبيُّون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير»^(١).

وفي حديث عبد الله بن عمرو مرفوعًا: «يُصاح برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فيُشر له تسعة وتسعون سجلاً؛ كلُّ سجل منها مدّ البصر. ثم يقال: أتتكر من هذا شيئاً؟. فيقول: لا - يا رب -! فيقال: ألك عذرٌ أو حسنة؟ فيهاب الرجل فيقول: لا، فيقال: بلى؛ إن لك عندنا حسنةً، وإنه لا ظلم عليك. فيُخرج له بطاقةٌ فيها: «أشهد ألاَّ إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله»، فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟! فيقال: إنك لا تُظلم، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة». رواه الترمذي وحسنه^(٢).

- (١) حسن: رواه أحمد (٢/٢١٠)، والترمذي (٣٥٨٥) - واللفظ له -، والبيهقي في «الشَّعب» (٣٤٨٩)، وأبو نُعيم في «الحلية» (١٠٣/٧)، والبيهقي في «فضائل الأوقات» (١٩٢)، والمحاملي في «الدعاء» (٦٠)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حسن غريب»، وحسنه الشيخ الألباني عنده، والشيخ شعيب الأرناؤوط ثمَّ - أيضًا - (١٨١/٦).
- (٢) صحيح: رواه أحمد (٢/٢١٣)، وابن المبارك في «زوائد الزهد» (٣٧١)، =

■ قوله: «لو أن السماوات السبع وعامِرهن غيري»: أي: كل من في السماوات والأرض. وقوله: «غيري» استثنى ممن في السماوات نفسه؛ لأنه العليُّ الأعلى - تعالى وتقدس -، كما قال تعالى ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [الشوري] علوُّ القهر وعلوُّ القدرة وعلوُّ الذات، فالثلاثة كلها صفته، ودلت على كماله، كما قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه]، ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ﴾ [الفرقان: ٥٩] في سبعة مواضع من كتابه؛ كما قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿تَخْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [المعارج]، وقال تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وأمثال هذه الآيات^(١).

فمن سلب علوَّ الله تعالى على خلقه فقد خالف صريح الكتاب والسنة، وألحد في أسمائه وصفاته.

ومعنى هذه الكلمة: نفي الإلهية عن كل شيء سوى ما استثنى بها

= والترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠)، وابن حبان (٢٢٥)، والحاكم (٦/١)، والبيهقي في «الشعب» (٢٨٣)، وفي «الأسماء والصفات» (١٨٦)، والبغوي في «شرح السنة» (٤٣٢١)، والأجري في «الشرية» (٩٠٢)، والطبراني في «الكبير» (١٩/١٣)، وفي «الأوسط» (٤٧٢٥)، و«الدعاء» (١٤٨٢)، وقال الترمذي: «حسن غريب»، وصحَّحه الحاكم، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٨٠٩٥)، وقواه الشيخ شعيب الأرناؤوط في «المسند» (٥٧١/١١)، وصحَّحه عند ابن ماجه (٥٣٦/٣).

(١) راجع «العلو للعلي العظيم»، للحافظ الذهبي رَحِمَهُ اللهُ.

- وهو الله تعالى -، وفيه النص على أن الأرضين سبع كالسماوات، لكن هذه الكلمة العظيمة لا يحصل رجائها إلا في حق من أتى بقيودها التي قيّدت بها في الكتاب والسنة^(١)، وقد ذكر سبحانه في سورة «براءة» وغيرها كثيرًا ممن يقولها ولم ينفعهم قولها، كحال أهل الكتاب والمنافقين - على كثرتهم وتنوعهم في نفاقهم -، فلم تنفعهم مع ما قام بهم من ترك تلك القيود:

- فمنهم من يقولها جاهلاً بما وضعت له، وبما دلت عليه من نفي الشرك والبراءة منه، والصدق والإخلاص وغيرها؛ كعدم القبول ممن دعا إليها علمًا وعملاً، وترك الانقياد بالعمل بما تقتضيه؛ كحال أكثر من يقولها قديمًا وحديثًا، ولكن في أواخر هذه الأمة أكثر.

- ومنهم من يمنعه من محبتها والعمل بها ما قام بقلبه من كبرٍ أو هوًى، أو غير ذلك من الأسباب؛ وهي كثيرة منها قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ﴾، إلى قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة].

وأما أهل الايمان الخُص فهم الذين أتوا بهذه الكلمة، واجتمعت لهم قيودها التي قيّدت بها علمًا ويقينًا، وصدقًا وإخلاصًا، ومحبةً وقبولًا وانقيادًا، وعادوا فيه، ووالوا فيه، وأحبوا فيه وأبغضوا فيه، وقد ذكرهم تعالى في مواضع من سورة «براءة» وغيرها، وخصّهم بالثناء عليهم، والعفو عنهم، وأعد لهم جنته، وأنجاهم من النار؛ كما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

(١) وهو قيدٌ هامٌّ جدًّا، وكم اغترَّ بمجرد قولها المغترُّون!

أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧٦﴾ [التوبة]، وقال: ﴿وَالسَّيْفُوتِ
الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ
وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾
[التوبة].

فهؤلاء ومن اتبعهم بإحسان هم أهل «لا إله إلا الله»، وغير هذه
من الآيات في الثناء عليهم وما أعد لهم في الدار الآخرة.

فمن تدبر القرآن، وعرف تفاوت الخلق في محبة ربهم وتوحيده،
والعمل بطاعته، والهرب من معصيته، وإيثار ما يحبه تعالى رغبةً
وعملًا، وترك ما يكرهه خشيةً ورجاءً، واعتبر الناس بأحوالهم
وأقوالهم، وأعمالهم ونياتهم وإرادتهم، وما هم عليه من التفاوت
البعيد = تبين له خطأ المغرورين؛ كما في الحديث الصحيح عن
النبي ﷺ أنه قال: «الْكَيْسُ»^(١) من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت،
والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأمان»^(٢).

(١) الكيس: العاقل.

(٢) ضعيف: رواه ابن المبارك في «الزهد» (١٧١)، وأحمد (١٢٤/٤)، وأبو
داود الطيالسي (١١١٢)، والترمذي (٢٤٥٩)، وابن ماجه (٤٢٦٠)،
والطبراني في «الكبير» (٧١٤٣)، وفي «الشاميين» (١٤٨٥)، والحاكم
(٥٧/١) و(٢٥١/٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٦٧/١)، والقضاعي في
«مسند الشهاب» (١٨٥)، والبيهقي في «الكبرى» (٣٦٩/٣)، وفي «الشعب»
(١٠٥٤٦)، والخطيب في «التاريخ» (٥٠/١٢)، والبغوي في «شرح السنة»
(٤١١٦)، وفي «التفسير» (٣٠٥/٢)، من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه. وقال
الإمام الترمذي: «حسن»، وصححه الحاكم في الموضعين، فتعقبه الذهبي
في الموضع الأول بقوله: «لا والله، أبو بكر [وهو ابن أبي مريم =

■ قوله: «وللترمذي - وحسنه - عن أنس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (قال الله تعالى: يا ابن آدم، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة)»: في هذا الحديث ما يبين معنى «لا إله إلا الله» التي رَجَحَتْ بجميع المخلوقات وجميع السيئات، وأن ذلك هو تركُ الشرك قليله وكثيره، وذلك يقتضي كمال التوحيد، فلا يسلم من الشرك إلا من حقق توحيده، وأتى بما تقتضيه كلمة الإخلاص من العلم واليقين، والصدق والإخلاص، والمحبة والقبول والانقياد، وغير ذلك مما تقتضيه تلك الكلمة العظيمة؛ كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء].



= الغساني [واه]، ولم يتعقبه في الموضع الثاني. وأقر الحافظ العراقي الترمذي على التحسين في «تخريج الإحياء» (٢/٢٥٠)، بينما ضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٤٣٠٥)، والشيخ شعيب الأرناؤوط في «المسند» (٣٥٠/٢٨).

فيه مسائل:

الأولى: سعة فضل الله.

الثانية: كثرة ثواب التوحيد عند الله.

الثالثة: تكفيره مع ذلك للذنوب.

الرابعة: تفسير الآية التي في سورة الأنعام.

الخامسة: تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة.

السادسة: أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان وما بعده، تبين لك معنى قول «لا إله إلا الله»، وتبين لك خطأ المغرورين.

السابعة: التنبيه للشرط الذي في حديث عتبان.

الثامنة: كون الأنبياء عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يحتاجون للتنبيه على فضل «لا إله إلا الله».

التاسعة: التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أن كثيرًا ممن يقولها يخفُّ ميزانه.

العاشر: النصُّ على أن الأرضين سبعٌ كالسماوات.

الحادية عشرة: أن لهنَّ عُمَارًا.

الثانية عشرة: إثبات الصفات، خلافًا للمعطلة.

الثالثة عشرة: أنك إذا عرفتَ حديث أنس، عرفت أن قوله في حديث عتبان: «فإن الله حَرَمَ على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله»: أنه تركُ الشرك، ليس قولها باللسان.

الرابعة عشرة: تأمل الجمع بين كون عيسى ومحمد عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عبدَي الله ورسولي.

الخامسة عشرة: معرفة اختصاص عيسى عليه السلام بكونه كلمة الله ^(١).

السادسة عشرة: معرفة كونه رُوحًا منه .

السابعة عشرة: معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار .

الثامنة عشرة: معرفة [معنى] قوله : «على ما كان من العمل» .

التاسعة عشرة: معرفة أن الميزان له كِفَتان .

العشرون: معرفة ذِكرِ الوجه .



[٣] باب: مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل].

وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ [٥٧] وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ [٥٨] وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ [المؤمنون].

الشرح

■ قوله: «باب: مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ»: أي: ولا عذاب، و«تحقيقه»: تصفيته وتخليصه من شوائب الشرك والبدع والإصرار على الذنوب، فمن كان كذلك فقد حقق توحيدَه.

وتحقيقُ التوحيد عزيز في الأمة؛ لا يوجد إلا في أهل الإيمان الخُلَص الذين أخلصهم الله واصطفاهم من خلقه؛ كما قال تعالى في يوسف عليه السلام: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف]، وفي قراءة: ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ وهم في صدر الأمة كثيرون، وفي آخرها هم الغرباء، وقد قلوا، وهم الأعظمون قدرًا عند الله.

وقال تعالى عن خليله عليه السلام: ﴿يَقُولُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [٧٨] إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام]. أي: أخلصت ديني، وأفردت عبادتي ﴿لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، أي: خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق. ﴿حَنِيفًا﴾: أي في حال كوني حنيفًا - أي مائلًا - عن الشرك إلى

التوحيد؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [٧٩] [الأنعام]، ونظائر هذه الآية في القرآن كثير كقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [١٦٥] [النساء]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [لقمان: ٢٢].

□ قال العماد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في الآية: «يقول تعالى مخبراً عن ﴿أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾: أي أخلص له العمل، وانقاد لأوامره، واتبع شرعه، ولهذا قال: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾: أي في عمله واتباع ما به أمر، وترك ما عنه زجر».

فدلت هذه الآية العظيمة على أن كمال الإخلاص إنما يوجد بترك الشرك، والبراءة منه، وممن فعله، كما تقدم في الباب قبل هذا.

■ قوله: «وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل]:

□ قال العماد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «يمدح الله تعالى عبده ورسوله وخليله إبراهيم - إمام الحنفاء - بتبرئته من المشركين، ومن اليهودية والنصرانية والمجوسية. و«الأمة»: هو الإمام الذي يُقتدى به. و«القانت»: هو الخاشع المطيع. و«الحنيف»: المنحرف قصداً عن الشرك إلى التوحيد؛ ولهذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، وقال مجاهد: كان إبراهيم ﴿أُمَّةً﴾ أي: مؤمناً وحده، والناس كلهم إذ ذاك كفار».

قلت: وكلا القولين حق؛ فقد كان الخليل عليه السلام كذلك، وقول مجاهد - والله أعلم - لما كان الخليل كذلك في ابتداء دعوته

ونبوته ورسالته ﷺ؛ فمدحه الله تعالى بتبرئته من المشركين؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَتَابِعْ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ [مريم] الْآيَاتِ، وقوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ﴾ (٨٢) إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ [الصافات]؛ فهذا - والله أعلم - كان في ابتداء دعوته عليه (الصلوة والسلام) ولم يكن - إذ ذاك - على وجه الأرض مسلمٌ غيره، وبذلك جاء الحديث (١).

وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾: فقد فارق المشركين بالقلب واللسان والأركان، وأنكر ما كانوا عليه من الشرك بالله في عبادته، وكسر الأصنام، وصبر على ما أصابه في ذات الله، وهذا هو تحقيق التوحيد، وهو أساس الدين ورأسه؛ كما قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة)، وأنت تجد أكثر من يقول: «لا إله إلا الله»، ويدعي الإسلام، يفعل الشرك بالله في عبادته؛ بدعوة من لا يضر ولا ينفع من الأموات والغائبين والطواغيت والجن وغيرهم، ويحبهم ويواليهم ويخافهم ويرجوهم، وينكر على مَنْ دعا إلى عبادة الله وحده وترك عبادة ما سواه، ويزعم أن ذلك بدعة وضلالة، ويعادي من عمل به وأحبه، وأنكر الشرك وأبغضه، وبعضهم لا يَعُدُّ التوحيد علمًا، ولا يلتفت إليه لجهله به وعدم محبته، فالله المستعان.

■ وقوله: «وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ﴾ (٥٧) إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ (٨١) [المؤمنون]:

(١) رواه البخاري (٢٢١٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

□ قال العماد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «أي: من إحسانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله، خائفون وجلون من مكره بهم؛ كما قال الحسن البصري: «المؤمن من جمع إحسانًا وشفقةً، والمنافق من جمع إساءةً وأمنًا».

﴿وَالَّذِينَ هُمْ يَأْتِيَتْ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾: أي يؤمنون بآيات الله الكونية والشرعية؛ لقوله تعالى عن مريم: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُنْتِ مِنَ الْقَانِنِينَ﴾ [التحريم]: أي أيقنت أن ما كان فهو من قَدَرِ الله وقضائه وما شرعه الله، وإن كان أمرًا فهو ما يحبه الله ويرضاه، وإن كان نهيًا فهو ما يكرهه الله ويأباه، وإن كان خبرًا فهو حق كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾: أي لا يعبدون معه غيره؛ بل يوحّدونه، ويعلمون أنه لا إله إلا الله الأحد الصمد، الذي لا يتخذ صاحبة ولا ولدًا، وأنه لا نظير له» انتهى.

قلت: فترك الشرك يتضمن كمال التوحيد، ومعرفته على الحقيقة، ومحبته وقبوله، والدعوة إليه، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَآبُ﴾ [الرعد]، وتضمنت هذه الآية كمال التوحيد وتحقيقه. وبالله التوفيق.



وعن حصين بن عبدالرحمن قال: كنت عند سعيد بن جبير؛ فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقضى البارحة؟ فقلت: أنا، ثم قلت: أما إني لم أكن في صلاة، ولكني لدغت. قال: فما صنعت؟ قلت: ارتقيت. قال: فما حملك على ذلك؟ قلت: حديث حدثناه الشعبي. قال: وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بريدة بن الحصيب أنه قال: «لا رقية إلا من عين أو حمة». فقال: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع. ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ؛ إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ. فَظَنَنْتُ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ».

ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك؛ فقال بعضهم: فلعلهم الذين صَحَبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ فَلَمْ يَشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا. وذكرُوا أَشْيَاءَ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: «هُمْ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتُونُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». فقام عكاشة بن محصن؛ فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: «أنت منهم». ثم قام رجل آخر؛ فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. فقال: «سبقك بها عكاشة»^(١).

الشرح

■ قوله: «عن حصين بن عبدالرحمن»: هو الحارثي من تابعي التابعين، [روى] عن الشعبي.

(١) صحيح: وقد تقدم.

■ «قال: كنت عند سعيد بن جبير»: هو الوالبي مولا هم الفقيه، [روى] عن ابن عباس وخلق، قال اللالكائي: ثقة إمام حجة. قتله الحجاج بن يوسف؛ فما أمهله الله بعده.

■ قوله: «فقال: أيكم رأى الكوكب الذي انقض البارحة»: يعني كوكبًا رُجم به تلك الليلة، يقال: «البارحة»: لليلة الماضية إذا زالت الشمس، وأما قبل الزوال فيقال: «الليلة».

■ قوله: «فقلت: أنا»: أي أنا رأيته. «ثم قلت: أما إنني لم أكن في صلاة»: قال ذلك حذرًا من الشرك^(١)؛ لئلا يظن الحاضرون أنه قام من الليل للعبادة؛ فيكون قد ادعى لنفسه ما لم يفعله، فما أشدَّ حذر التابعين ومن قبلهم من الشرك دقيقه وجليله، والحذر من أن يُحمد بما لم يفعله! فما أعزَّ من سلم من الشرك - كما سيأتي -!

■ قوله: «ولكن حديث حدثناه الشعبي، قال: وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بريدة بن الحصيب أنه قال: لا رقية إلا من عين أو حُمة»: هذا الحديث قد روي مرفوعًا^(٢).

والشعبي: اسمه عامر بن شراحيل الحميري الشعبي الإمام، روى عن عمر وعلي وابن مسعود، ولم يسمع منهم. وعن أبي هريرة

(١) يعني الرياء.

(٢) صحيح: رواه أحمد (٤/٤٣٦)، وأبو داود (٣٨٨٤)، والترمذي (٢٠٥٧)، والبزار (٣٥٩٧)، الحميدي (٨٣٦)، والطبراني في «الكبير» (٥٨٧/١٨)، وفي «الأوسط» (١٤٧٢)، والبيهقي في «الكبرى» (٣٤٨/٩)، والخراطي في «مكارم الأخلاق» (١٠٦٨)، والمحاملي في «أماليه» (٣٨٨)، من حديث عمران بن حصين رضي الله عنه، وصحَّحه الشيخ الألباني في «السنن»، والشيخ شعيب الأرناؤوط في «المسند» (١٣٩/٣٣).

وعائشة وجريير وابن عباس وخلق.

□ قال الشعبي: «ما كتبت سوداء في بيضاء»^(١).

توفي سنة ثلاث ومئة.

وبريدة: هو ابن الحُصيب بن عبدالله بن الحارثي الأسلمي، أسلم قبل بدر، وعمل على اليمن في أيام النبي ﷺ، صحابي مشهور.

قوله: «لا رقية إلا من عين أو حمة»: هذا - والله أعلم - في أول الأمر، ثم رُخص في الرقي إذا كانت بحق، والله أعلم.

■ قوله: «قد أحسن من انتهى إلى ما سمع»: فيه حسن الأدب مع العلم وأهله، وأن من فعل شيئاً سئل عن مستنده في فعله: هل كان مقتدياً أم لا، ومن لم يكن معه حجة شرعية فلا عذر له بما فعله؛ ولهذا ذكر ابن عبدالبر الإجماع على أن المقلد ليس من أهل العلم؛ فتفطن لهذا^(٢).

■ قوله: «ولكن حدثنا ابن عباس»: هو عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب بن هاشم، ابن عم النبي ﷺ، حبر الأمة، وترجمان القرآن، دعا له النبي ﷺ فقال: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل»^(٣)، وصار آيةً في العلم والفهم وكثرة ما روى من

(١) أي: كان ما يسمعه يحفظه مباشرةً.

(٢) والمقلد: هو الذي يأخذ بقول العالم دون معرفة دليله.

(٣) صحيح: رواه أحمد (٢٦٦/١)، وابن جبان (٥٠٧٧)، والحاكم (٦١٥/٣)، والطبراني في «الكبير» (٢٦٣/١٠)، و«الأوسط» (١٢٢/٢)، و«الصغير» (٣٢٧/١)، من حديث ابن عباس رضيهما. وقوّاه على شرط مسلم الشيخ شعيب الأرناؤوط، وصحّحه - أيضاً - الشيخ الألباني في «الصحيحة» =

الأحاديث؛ على أنه من صغار الصحابة، لكن طلب الحديث من كبار الصحابة؛ فحفظ الأكثر مما كان عندهم، رضي الله عنهم أجمعين.

■ قوله: «أن النبي ﷺ قال: (عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ): قلت: فالله أعلم متى عُرِضَتْ، وَعَرَضُهَا أَنْ اللَّهَ ﷻ أَرَاهُ مِثَالَهَا إِذَا جَاءَتْ الْأَنْبِيَاءُ وَمَنْ تَبِعَهُمْ؛ فَمَنْ نَجَا بِالْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَمَا بَعَثَ بِهِ أَنْبِيَاءَهُ وَرَسُولَهُ مِنْ دِينِهِ الَّذِي شَرَعَهُ لَهُمْ - وَهُوَ عِبَادَتُهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَتَرْكُ عِبَادَةِ مَا سِوَاهُ -، وَالْأَخْذُ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ، وَتَرْكُ مَا نَهَاهُمْ عَنْهُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنْ قَوْمِ نُوحٍ: ﴿قَالَ يَفْئُومُ إِنَّ لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (٢) أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا (٣)﴾ [نوح] = فعبادته: توحيده وطاعته بامتثال ما أمرهم به، وترك ما نهاهم عنه وطاعة رسوله؛ هذا هو الدين ألا يُعْبَدَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَلَّا يُعْبَدَ إِلَّا بِمَا شَرَعَ فَعَلًا وَتَرْكًا، وَأَنْ يَقْدَّمَ طَاعَةُ رَسُولِهِ عَلَى مَا يَحِبُّهُ وَيَهْوَاهُ.

■ قوله: «فَرَأَيْتَ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ»: الرهط: العشرة فما دون. «وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ»: أي أتباعه، «وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ»: أي يُبْعَثُ فِي قَوْمِهِ، فَلَا يَتَّبِعُهُ مِنْهُمْ أَحَدٌ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعْبِ الْأَوَّلِينَ (١٠) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١١)﴾ [الحجر]، وفيه دليل على أن الناجي من الأمم هم القليل، والأكثر غلبت عليهم الطباع البشرية، فَعَصَوْا الرُّسُلَ فَهَلَكُوا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ تُطِيعْ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾

[الأنعام: ١١٦]، وقال: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٢]، وقال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ [الروم: ٤٢] وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير.

والناجون - وإن كانوا أقلّ القليل - فهم السواد الأعظم؛ فإنهم الأعظمون قدرًا عند الله - وإن قلّوا -. فليحذر المسلم أن يغترّ بالكثرة، وقد اغترّ بهم كثيرون، حتى بعض من يدعي العلم اعتقدوا في دينهم ما يعتقدونه الجهال الضلال، ولم يلتفتوا إلى ما قاله الله ورسوله.

■ قوله: «إذ رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي، ف قيل لي: هذا موسى وقومه»: فيه فضيلة أتباع موسى من بني إسرائيل ممن آمن منهم بالرسول والكتب التي أنزلها الله - التوراة والإنجيل والزمبور والفرقان وغيرها -. وكانت بنو إسرائيل قبل التفرق كثيرين وفيهم الأنبياء، ثم بعد ذلك حدث ما حدث من اليهود.

وهذا الحديث يدلّ على أن التابع لموسى ﷺ كثيرون جدًّا، وقد قال تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [الباقية] أي: في زمانهم وذلك أن في زمانهم وقبله - ممن كفر بالله - خلقًا لا يُحصّون، كحزب جالوت وبُخْتَنَصْر - وأمثالهم -، ففضل الله بني إسرائيل بالإيمان، فصاروا أفضل أهل زمانهم، وحدث فيهم ما ذكر الله في سورة البقرة وغيرها من معصيتهم لأنبيائهم واختلافهم في دينهم، وقد ذكره الله تعالى محتجًا به على اليهود الذين كفروا بمحمد ﷺ، فتدبّر ما ذكره الله تعالى من أحوالهم بعد الاختلاف.

■ قوله: «ثم نظرت فإذا سواد عظيم»: وفي رواية: «قد سد الأفق»، «ف قيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب»: فيه فضيلة هذه الأمة، وأنهم أكثر الأمم تابعاً لنبينهم ﷺ، وقد كثروا في عهد الصحابة رضي الله عنهم، وفي وقت الخلفاء الراشدين ومن بعدهم؛ فملؤوا القرى والأمصار والقفار، وكثر فيهم العلم، واجتمعت لهم الفنون في العلوم النافعة، فما زالت هذه الأمة على السنة في القرون الثلاثة المفضلة، وقد قلوا في آخر الزمان.

□ قال شيخنا رحمه الله تعالى في مسائله: «وفيه فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية».

فالكمية: الكثرة والعدد، والكيفية: فضيلتهم في صفاتهم، كما في هذا الحديث بقوله: «ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب».

■ قوله: «ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناس في أولئك»: أي الحاضرون في ذكر هذا الحديث.

وفيه - أيضاً - فضل الصحابة رضي الله عنهم في مذاكرتهم العلم، وحرصهم على فهم ما حدثهم به نبيهم ﷺ حرصاً على العمل به.

وفيه جواز الاجتهاد فيما لم يكن فيه دليل؛ لأنهم قالوا ما قالوا باجتهادهم، ولم ينكر ﷺ ذلك عليهم؛ لكن المجتهد إذا لم يكن معه دليل لا يجوز له أن يجزم بصواب نفسه؛ بل يقال: «لعل الحكم كذا وكذا»؛ كقول الصحابة رضي الله عنهم في هذا الحديث.

■ قوله: «فخرج عليهم رسول الله ﷺ فأخبروه، فقال: (هم الذين لا يسترقون، ولا يكتونون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون)»: أي

لا يطلبون الرقية من أحد، ولا يكتون إذا كان فيهم ما يُستشفى بالكي منه، ولا يتطيرون، والطيرة شرك؛ فتركوا الشرك رأسًا، ولم يُنزلوا حوائجهم بأحد فيسألونه الرقية فما فوقها، وتركوا الكي - وإن كان يراد للشفاء - . والحامل لهم على ذلك قوة توكلهم على الله، وتفويضهم أمورهم إليه. وألّا تتعلق قلوبهم بشيء سواه في ضمن ما دبره وقضاه؛ فلا يرغبون إلا إلى ربهم، ولا يرهبون إلا منه، ويعتقدون أن ما أصابهم بقدره واختياره لهم، فلا يفزعون إلا إليه وحده في كشف ضرهم، قال تعالى عن يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرِّيَّ إِلَى اللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

■ قوله: «فقام عكاشة بن محصن»: صحابي مشهور، شهد بدرًا والمشاهد كلها مع النبي ﷺ، وهو من بني أسد بن خزيمة، قتله طليحة بن خويلد شهيدًا، وكان قد سار مع خالد بن الوليد لقتال أهل الردة، فقاتل بني أسد لردتهم عن الإسلام، وكان فيهم طليحة - وقد ادعى النبوة وصدقوه -، فأكرم الله عكاشة على يده - لما كان كافرًا -، ثم بعد ذلك هداه الله إلى الإسلام^(١)، وجاهد الفُرس مع سعد بن أبي وقاص، وصار له في الفرس وقائع معروفة في السير، وكان ممن استشهد في قتالهم في وقعة الحيرة المشهورة.

■ قوله: «فقال: يا رسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم»: فيه أن شفاعته الحي لمن سأل الدعاء إنما كانت بدعائه، وبعد الموت قد تعذر ذلك بأمور لا تخفى على من له بصيرة. فمن سأل ميتًا أو غائبًا فقد سأل ما لا يقدر عليه. وكلُّ مَنْ سأل أحدًا ما لا يقدر

(١) يعني: طليحة بن خويلد رضي الله عنه.

عليه إلا الله فقد جعله ندًا لله؛ كما كان المشركون كذلك، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة) [٢٢] أنه ربكم وخالقكم ومن قبلكم، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنة؛ فلا ترغبوا عنه إلى غيره؛ بل أخلصوا له العبادة بجميع أنواعها فيما تطلبونه من قليلٍ أو كثير.

■ قوله: «أنت منهم»: لما كان يعلمه ﷺ من إيمانه وفضله وجهاده؛ كما في الحديث: «لعل الله اطلع على أهل بدر؛ فقال: اعملوا ما شئتم؛ فقد غفرت لكم»^(١).

■ قوله: «ثم قام رجل آخر فقال: ادع الله أن يجعلني منهم فقال: (سبقك بها عكاشة)»: والظاهر أنه أراد - صلوات الله وسلامه عليه - سد الذريعة؛ لئلا يتتبع الناس بسؤال ذلك؛ فيسأله من ليس أهلاً له؛ وذلك منه ﷺ تعريضٌ كما لا يخفى.



(١) رواه البخاري (٢٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤)، من حديث علي بن أبي طالب

فيه مسائل:

الأولى: معرفة مراتب الناس في التوحيد.

الثانية: ما معنى تحقيقه؟

الثالثة: ثناؤه سبحانه على إبراهيم بكونه لم يك من المشركين.

الرابعة: ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك.

الخامسة: كون ترك الرقية والكَيِّ من تحقيق التوحيد.

السادسة: كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل.

السابعة: عمق فهم الصحابة لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل.

الثامنة: حرصهم على الخير.

التاسعة: فضيلة هذه الأمة بالكمية والكيفية.

العاشرة: فضيلة أصحاب موسى عليه السلام.

الحادية عشرة: عرض الأمم عليه صلى الله عليه وسلم.

الثانية عشرة: أن كل أمة تُحشر وحدها مع نبيها.

الثالثة عشرة: قلة من استجاب للأنبياء.

الرابعة عشرة: أن من لم يُجبه أحدٌ يأتي وحده.

الخامسة عشرة: ثمره هذا العلم، وهو عدم الاغترار بالكثرة، وعدم الزهد في القلة.

السادسة عشرة: الرخصة في الرقية من العين والحمة.

السابعة عشرة: عمق علم السلف؛ لقوله: «قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن كذا وكذا»؛ فَعَلِمَ أن الحديث الأول لا يخالف الثاني.

- الثامنة عشرة: بُعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه .
- التاسعة عشرة: قوله ﷺ: «أنت منهم» عَلَّمَ من أعلام النبوة .
- العشرون: فضيلة عكاشة .
- الحادية والعشرون: استعمال المعارض .
- الثانية والعشرون: حُسن خلقه ﷺ .



﴿٤﴾ باب: الخوف من الشرك

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء].

وقال الخليل عليه السلام: ﴿وَأَجْنِبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم].

وفي الحديث: «أخوف ما أخاف عليكم: الشرك الأصغر». فسئل عنه، فقال: «الرياء». رواه أحمد والطبراني والبيهقي^(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ مات وهو يدعو من دون الله نداءً دخل النار». رواه البخاري^(٢).

ولمسلم عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ لقي الله لا يُشرك به شيئاً دخل الجنة، وَمَنْ لقيه يشرك به شيئاً دخل النار»^(٣).

الشرح

■ قوله: «باب الخوف من الشرك، وقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]:

□ قال النووي رحمه الله تعالى: «أما دخول المشرك النار فهو على عمومته؛ فيدخلها ويخلد فيها. ولا فرق بين الكتابي اليهودي والنصراني وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة. ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عناداً وغيره. ولا بين من خالف ملة الإسلام وبين

(١) حسن: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) صحيح: وقد تقدم.

من انتسب إليها، ثم حُكم بكفره بجحده وغير ذلك.

وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع به، لكن إن لم يكن صاحب كبيرةٍ مصرًّا عليها، ومات على ذلك فهو تحت المشيئة، فإن عفي عنه دخل الجنة أولاً، وإلا عُدَّ في النار، ثم أُخرج منها وأدخل الجنة» انتهى.

قلت: هذا قول أهل السنة والجماعة، لا اختلاف بينهم في ذلك. وهذه الآية من أعظم ما يوجب الخوف من الشرك؛ لأن الله تعالى قطع المغفرة عن المشرك، وأوجب له الخلود في النار وأطلق ولم يقيّد، ثم قال: ﴿وَيَعْفُرْ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾؛ فخصص وقيّد فيما دون الشرك؛ فهذا الذنب الذي هذا شأنه لا يأمن أن يقع فيه، فلا يُرجى له معه نجاة - إن لم يتب منه قبل الوفاة -.

■ قوله: «وقال الخليل عليه السلام: ﴿وَأَجْبِئْ وَيَّيْ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم]: أي: إبراهيم عليه السلام خليل الرحمن. و«الخلة» أخص من «المحبة»؛ ولهذا اختص بها الخليلان إبراهيم ومحمد عليهما السلام.

﴿وَأَجْبِئْ وَيَّيْ أَنْ تَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾: وهذا - أيضاً - يُخيف العبد، فإذا كان الخليل - إمامُ الحنفاء الذي جعله الله أمةً وحده وابتلاه بكلمات فأتَمَّهن، وقال: ﴿وَاتَّبِعْهُمُ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم]، وأمر بذبح ولده فامتثل أمر ربه، وكسر الأصنام، واشتد نكيره على أهل الشرك -: ومع ذلك يخاف أن يقع في الشرك الذي هو عبادة الأصنام؛ لعلمه أنه لا يصرفه عنه إلا الله بهدأيته وتوفيقه لا بحوله هو وقوته.

□ وما أحسن ما قال إبراهيم التيمي: «ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟!».

فهذا أمرٌ لا يؤمن الوقوع فيه، وقد وقع فيه الأذكىاء من هذه الأمة بعد القرون المفضلة؛ فاتَّخذت الأوثان وعُبدت؛ فالذي خافه الخليل عليه السلام على نفسه وبنيه وقع فيه أكثرُ الأمة بعد القرون المفضلة، فبنيت المساجد والمَشاهد على القبور، وصُرفت لها العبادات بأنواعها، واتَّخذ ذلك دينًا، وهي أوثان وأصنام كأصنام قوم نوح واللات والعزى ومناة وأصنام العرب وغيرهم؛ فما أشبه ما وقع في آخر هذه الأمة بحال أهل الجاهلية من مشركي العرب وغيرهم! بل وقع ما هو أعظم من الشرك في الربوبية مما يطول عدُّه.

فذكر ﷺ السبب الذي أوجب له الخوف عليه وعلى ذريته بقوله: ﴿رَبِّ إِيْتَنَنْ أَصْلَلَنْ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦]؛ وقد ضلت الأمم بعبادة الأصنام في زمن الخليل وقبلة وبعده، فمن تدبَّر القرآن عرف أحوال الخلق وما وقعوا فيه من الشرك العظيم؛ الذي بعث الله أنبياءه ورسله بالنهاي عنه، والوعيد على فعله، والثواب على تركه، وقد هلك من هلك بإعراضه عن القرآن، وجهله بما أمر الله به ونهى عنه، نسأل الله الثبات على الإسلام، والاستقامة على ذلك إلى أن نلقى الله على التوحيد، إنه ولي ذلك والقادر عليه. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وقال تعالى: ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [المائدة] ردَّ أمرهم إلى الله كما ردَّ ﷺ، وقد بين الله تعالى فيما أنزله على نبيه محمد ﷺ حكمه في أهل الشرك بأنه لا يغفره لهم؛ فلا معارضة، وقد بيَّن حكمه فيهم في هذا الكتاب العزيز ﴿لَا يَأْنِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت].

■ وقوله: «وفي الحديث»: لأصحابه ﷺ: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، فسئل عنه فقال: «الرياء»: وهذا الحديث رواه الإمام أحمد والطبراني والبيهقي عن محمود بن لبيد، فإذا كان يخافه ﷺ على أصحابه الذين وَّحدوا الله بالعبادة، ورغبوا إليه وإلى ما أمرهم به من طاعته، فهاجروا وجاهدوا مَنْ كفر به، وعرفوا ما دعاهم إليه نبيُّهم، وما أنزله الله في كتابه من الإخلاص والبراءة من الشرك = فكيف لا يخاف مَنْ لا نسبة له إليهم في علمٍ ولا عمل مما هو أكبر من ذلك؟!

وقد أخبر ﷺ عن أمته بوقوع الشرك الأكبر فيهم بقوله في حديث ثوبان الآتي ذكره: «حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئامٌ من أمتي الأوثان»^(١)، وقد جرى ما أخبر به ﷺ، وعمت به البلوى في أكثر الأقطار؛ حتى اتخذوه دينًا مع ظهور الآيات المحكمات، والأحاديث الصحيحة في النهي عنه والتخويف منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، وقال: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ (٣٠) حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ...﴾ [الحج]، وهذا هو تحقيق التوحيد - كما تقدم في الباب قبله - .

ثم قال تعالى محذراً عباده من الشرك ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (٣١) [الحج]، ومن لم تخوفه هذه الآيات، وتزجره عن الشرك في العبادة إذا تدبرها = فلا حيلة فيه .

■ قوله: «وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من مات وهو يدعو من دون الله نداءً دخل النار» رواه البخاري: وهذا الحديث فيه التحذير من الشرك - أيضًا -، والتخويف منه.

و«الند»: المثل والشبيه، فمن دعا ميتًا أو غائبًا وأقبل إليه بوجهه وقلبه رغبةً إليه ورهبةً منه - سواءً سأله أم لم يسأله -؛ فهذا هو الشرك الذي لا يغفره الله؛ ولهذا حرم الله تعالى اتخاذ الشفعاء، وأنكر على من فعل ذلك أشد الإنكار، لكونه ينافي الإخلاص الذي هو إقبال القلب والوجه على الله في كل ما يخافه العبد ويرجوه، ويتقرب به ويدين به. ومن المعلوم أنه إذا التفت للشفيع يسأله فقد أعرض بوجهه وقلبه عن الله تعالى؛ وذلك ينافي الإخلاص، ويأتي بيان ذلك في باب «الشفاعة» - إن شاء الله تعالى -.

■ قوله: «ولمسلم عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار): قوله: «من لقي الله لا يشرك به شيئًا»: هذا هو الإخلاص كما تقدم. وقوله: «ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار»: هذا هو الشرك؛ فمن لقي الله بالشرك دخل النار قل أو كثر.

أما الشرك الأكبر فلا عمل [ينفع] معه، ويوجب الخلود في النار - كما تقدم في معنى الآيات -.

وأما الأصغر - كيسيير الرياء، وقول الرجل: «ما شاء الله وشئت»، وقوله: «ما لي إلا الله وأنت»، ونحو ذلك -: فهذا لا يكفر إلا برجحان السيئات بالحسنات.

□ قال بعض العلماء: «اقتصر على نفي الشرك لاستدعائه التوحيد بالافتضاء، واستدعائه إثبات الرسالة باللزوم؛ إذ من كذب رسل الله فقد كذب الله، ومن كذب الله فهو مشرك. فالمراد: من مات حال كونه مؤمناً بجميع ما يجب الإيمان به إجمالاً في الإجمالي، وتفصيلاً في التفصيلي» اهـ.



فيه مسائل:

الأولى: الخوف من الشرك.

الثانية: أن الرياء من الشرك.

الثالثة: أنه من الشرك الأصغر.

الرابعة: أنه أخوف ما يُخاف منه على الصالحين.

الخامسة: قربُ الجنة والنار.

السادسة: الجمعُ بين قربهما في حديثٍ واحدٍ على عملٍ متقاربٍ في الصورة.

السابعة: أنه مَنْ لقيه لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار، ولو كان من أعبدِ الناس.

الثامنة: المسألة العظيمة: سؤالُ الخليل له ولبنيه وقايةَ عبادة الأصنام.

التاسعة: اعتباره بحال الأكثر؛ لقوله: ﴿رَبِّ إِيَّاهُنَّ أَضَلَّانَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦].

العاشر: فيه تفسير «لا إله إلا الله»، كما ذكره البخاري.

الحادية عشرة: فضيلة مَنْ سَلِمَ من الشرك.



❁ [٥] باب: الدعاء إلى شهادة ألا إله إلا الله ❁

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ وَسُخِّنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٨) [يوسف].

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن قال له: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة ألا إله إلا الله - وفي رواية: إلى أن يوحدوا الله -؛ فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك؛ فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم، فترد على فقرائهم. فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم. واتق دعوة المظلوم؛ فإنه ليس بينها وبين الله حجاب». أخرجه (١).

الشرح

■ قوله: باب الدعاء إلى شهادة ألا إله إلا الله، وقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ وَسُخِّنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (١٠٨) [يوسف]:

□ قال أبو جعفر بن جرير: «يقول - تعالى ذكره - لنبيه محمد ﷺ ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَذِهِ﴾ الدعوة التي أَدْعُو إليها، والطريقة التي أنا عليها من الدعاء إلى توحيد الله وإخلاص العباد له دون الآلهة والأوثان، والانتهاه إلى طاعته وترك معصيته ﴿سَبِيلِي﴾»

طريقتي ودعوتي ﴿أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ﴾ وحده لا شريك له، ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ بذلك ويقين علم مني به ﴿أَنَا وَمَنْ﴾ يدعو إليه على بصيرة - أيضًا - ﴿اتَّبِعْنِي﴾ وصدقني وآمن بي ﴿وَسُبِّحَنَ اللَّهُ﴾ يقول - تعالى ذكره -: وقل تنزيهاً لله وتعظيمًا له من أن يكون له شريك في ملكه، أو معبود سواه في سلطانه ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يقول: وأنا بريء من أهل الشرك به، لست منهم، ولا هم مني» اهـ.

وهذه الآية تدل على أن أتباعه هم أهل البصائر الداعون إلى الله تعالى، ومن ليس منهم فليس من أتباعه على الحقيقة والموافقة، وإن كان من أتباعه على الانتساب والدعوى، قاله العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ.

وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الرعد]، وما زال النبي ﷺ وأصحابه يدعون إلى ما أمر الله به من الدعوة إلى توحيده في العبادة، والنهي عن الشرك به، ويجاهدون على ذلك. والآيات في الأمر بذلك كثيرة جدًا.

■ قوله: «وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن قال له: (إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة ألا إله إلا الله...)» الحديث. وأهل الكتاب المذكورون في هذا الحديث: من كان في اليمن من اليهود والنصارى إذ ذاك.

■ قوله: «فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة ألا إله إلا الله»، وكانوا يقولونها، لكنهم جهلوا معناها الذي دلت عليه من إخلاص العبادة لله وحده، وترك عبادة ما سواه؛ فكان قولهم «لا إله إلا الله» لا ينفعهم لجهلهم بمعنى هذه الكلمة؛ كحال أكثر المتأخرين من هذه

الأمّة؛ فإنهم كانوا يقولونها، مع ما كانوا يفعلونه من الشرك بعبادة الأموات والغائبين والطواغيت والمشاهد، فيأتون بما ينافيها؛ فيثبتون ما نفتته من الشرك باعتقادهم وقولهم وفعلهم، وينفون ما أثبتته من الإخلاص كذلك، وظنوا أن معناها القدرة على الاختراع تقليدًا للمتكلمين من الأشاعرة وغيرهم، وهذا هو توحيد الربوبية الذي أقر به المشركون فلم يدخلهم في الإسلام؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٨٤)، إلى قوله: ﴿قُلْ فَأَنِّي تُسْحَرُونَ﴾ (٨٩) [المؤمنون] وقوله: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ...﴾، إلى قوله: ﴿وَمَنْ يُدْرِ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٣١) [يونس]، وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير.

وهذا التوحيد قد أقر به مشركو الأمم، وأقر به أهل الجاهلية الذين بُعث فيهم محمد ﷺ فلم يدخلهم في الإسلام؛ لأنهم قد جحدوا ما دلت عليه هذه الكلمة من توحيد الإلهية، وهو إخلاص العبادة ونفي الشرك والبراءة منه؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (١٦) [آل عمران]، فهذا التوحيد هو أصل الإسلام.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَيْمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤) [يوسف]، وقال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيْمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنْ اللَّهِ﴾ [الروم: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ (١٢) [غافر]، وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (٢) [آل الله الَّذِينَ الْخَالِصُ] [الزمر]، وأمثال هذه الآيات في بيان التوحيد الذي دعت

إليه الرسل ونزلت به الكتب في القرآن كثير. وسنذكر بعض ذلك - إن شاء الله تعالى - في هذا التعليق.

■ قوله: «فليكن أول»: منصوب على أنه خبر «يكن» مقدم، و«شهادة» اسمها مؤخر، ويجوز العكس.

وفيه دليل أن توحيد العبادة هو أول واجب؛ لأنه أساس الملة وأصل دين الإسلام. وأما قول المتكلمين ومن تبعهم: «إن أول واجب معرفة الله بالنظر والاستدلال»؛ فذلك أمر فطري فطر الله عليه عباده؛ ولهذا كان مفتتح دعوة الرسل أممهم إلى توحيد العبادة: ﴿إِنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٣٢]، أي لا تعبدوا إلا الله، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ١٠].

□ قال العماد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: هذا يحتمل شيئين:

أحدهما: أفي وجوده شك؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده، ومجبولة على الإقرار به؛ فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة.

والمعنى الثاني: أفي إلهيته وتفرد به بوجوب العبادة له شك؟ وهو الخالق لجميع الموجودات؟ فلا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له؛ فإن غالب الأمم كانت مقررة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنون أنها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى» اهـ.

قلت: وهذا الاحتمال الثاني يتضمن الأول.

□ وروى أبو جعفر بن جرير بسنده عن عكرمة ومجاهد وعامر

أنهم قالوا: «ليس أحدٌ إلا وهو يعلم أن الله خلقه وخلق السماوات والأرض؛ فهذا إيمانهم».

□ وعن عكرمة - أيضًا -: «تسألهم: من خلق السماوات والأرض؟ فيقولون: الله، فذلك إيمانهم، وهم يعبدون غيره».

وتقدم أن «لا إله إلا الله» قد قُيِّدت بالكتاب والسنة بقيود ثقال، منها: العلم واليقين، والإخلاص والصدق، والمحبة والقبول والانقياد، والكفر بما يعبد من دون الله. فإذا اجتمعت هذه القيود لمن قالها نفعته هذه الكلمة، وإن لم تجتمع هذه لم تنفعه. والناس متفاوتون في العلم بها والعمل، فمنهم من ينفعه قولها، ومنهم من لا ينفعه كما لا يخفى.

■ قوله: «إن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة»: فيه دليل على أن المشرك لا يطالب بفعل الصلاة إلا إذا أسلم بتركه الشرك باطنًا وظاهرًا؛ لأن الإسلام شرطٌ لصحة العبادة.

□ كما قال النووي رَحِمَهُ اللهُ ما معناه: «إنه يدل على أن المطالبة بالفرائض في الدنيا لا تكون إلا بعد الإسلام، ولا يلزم من ذلك ألا يكونوا مخاطبين بها، ويزاد في عذابهم في الآخرة، والصحيح أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة المأمور به والمنهي عنه، وهذا قول الأكثرين».

■ قوله: «إن هم أطاعوك لذلك؛ فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقةً تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم»: فيه أن الزكاة لا تنفع إلا من وَحَّدَ الله، وصلى الصلوات الخمس بشروطها وأركانها

وواجباتها. والزكاة قرينة الصلوات في كتاب الله تعالى، ويدل على هذه الجملة قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة]؛ فمن أتى بهذه الأمور أتى ببقية الأركان لقوة الداعي إلى ذلك؛ لأن ذلك يقتضي الإتيان بها لزومًا؛ قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

□ قال أنس في الآية: «توبتهم: خلع الأوثان، وعبادتهم ربهم، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة».

وعن ابن مسعود مرفوعًا: «أمرت بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، ومن لم يزك فلا صلاة له»^(١).

□ وقال ابن زيد: «أبى الله أن تُقبل الصلاة إلا بالزكاة».

وفيه بيان مصرف الزكاة.

■ قوله: «فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم»: تحذيرًا له من أن يتجاوز ما شرعه الله ورسوله في الزكاة، وهو أخذها من أوساط المال؛ لأن ذلك سبب لإخراجها بطيب نفس ونية صحيحة، وكل ما زاد على المشروع فلا خير فيه، وهذا أصل ينبغي التفتن له.

(١) صحيح - موقوفًا -: رواه الطبراني في «الكبير» (١٠/١٠٢)، وصححه الإمام المنذري في «الترغيب» (١١٣٥)، والإمام الهيثمي في «المجمع» (١٩٨/٢)، وكذا الشيخ حسين الداراني في تحقيق «المجمع» (١١/٧)، بينما ضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الترغيب» (٤٦٥). ولم أقف عليه مرفوعًا. والله تعالى أعلم.

تنبيه: على الموقوف فالرواية: «أمرنا»، وفي لفظ: «أمرتم».

■ قوله: «وكرائم أموالهم»: الكرائم جمع «كريمة».

□ قال صاحب «المطالع»: «هي جامعة الكمال الممكن في حقها، من غزارة لبن، وجمال صورة، أو كثرة لحم أو صوف».

■ قوله: «واتق دعوة المظلوم»: يدل على أن العامل إذا زاد على المشروع صار ظالمًا لمن أخذ ذلك منه، ودعوة المظلوم مقبولة ليس بينها وبين الله حجاب يمنع قبولها.

■ قوله: «فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»: أي أنها مسموعة لا تُرد، وفيه التحذير من الظلم مطلقًا.

فعلى العامل أن يتحرى العدل فيما استعمل فيه، فلا يظلم بأخذ زيادة على الحق، ولا يحابي بترك شيء منه، فعليه أن يقصد العدل من الطرفين. والله أعلم.



ولهما عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأُعْطِينَ الرايةَ غداً رجلاً يحبُّ اللهَ ورسولَهُ، ويحبُّهُ اللهُ ورسولُهُ، يَفْتَحُ اللهُ على يديه». فبات الناس يدوكون ليلتهم: أيهم يُعْطَاهَا؟ فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يُعْطَاهَا؛ فقال: «أين عليُّ بن أبي طالب؟»، فقبل: هو يشتكي عينيه. [قال]: «فأرسلوا إليه»، فأتي به، فبَصَقَ في عينيه؛ ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجعٌ. فأعطاه الراية؛ فقال: «انفذْ على رِسْلِكَ حتى تنزلَ بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجبُ عليهم من حق الله تعالى فيه؛ فوالله لأنْ يَهْدِيَ اللهُ بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمْرِ النَّعَمِ»^(١). يدوكون: أي: يخوضون.

الشرح

■ قوله: «عن سهل بن سعد»: أي ابن مالك بن خالد الأنصاري الخزرجي الساعدي، أبو العباس، صحابي شهير، أبوه صحابي - أيضاً -، مات سنة ثمان وثمانين وقد جاوز المئة.

■ قوله: «أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: (لأُعْطِينَ الرايةَ غداً رجلاً يحبُّ اللهَ ورسولَهُ، ويحبُّهُ اللهُ ورسولُهُ، يَفْتَحُ اللهُ على يديه)» الحديث: فيه البشارة بالفتح، وهو علمٌ من أعلام النبوة، وقد وقع كما أخبر رسول الله ﷺ.

■ قوله: «يحبهُ اللهُ ورسولَهُ»:

□ قال شيخ الإسلام: «ليس هذا الوصف مختصاً بعليٍّ ولا بالأئمة؛

(١) صحيح: وقد تقدم.

فإن الله ورسوله يحب كل مؤمن تقي يحب الله ورسوله، لكن هذا الحديث من أحسن ما يُحتج به على النواصب الذين لا يتولّونه، أو يكفّرونه أو يفسقونه كالخوارج، لكن هذا الاحتجاج لا يتم على قول الرافضة الذين يجعلون النصوص الدالة على فضائل الصحابة كانت قبل ردّتهم؛ فإن الخوارج تقول في عليّ مثل ذلك، لكن هذا باطل؛ فإن الله ورسوله لا يطلق مثل هذا المدح على من يعلم الله أنه يموت كافراً».

وفيه إثبات صفة المحبة لله خلافاً للجهمية ومن أخذ عنهم، وفيه فضيلة أخرى لعليّ عليه السلام بما خصه به من إعطاء الراية، ودعوته أهل خير إلى الإسلام، وقتالهم إذا لم يقبلوا، وقد جرى له عليه السلام في قتالهم كراماتٌ مذكورة في السير والمغازي.

وفيه مشروعية الدعوة إلى الإسلام الذي أساسه شهادة ألا إله إلا الله؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤] الآية.

■ قوله: «فقال: «أين عليّ بن أبي طالب؟» ف قيل: هو يشتكي عينيه»: قال المصنف رحمه الله تعالى: «فيه الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع، ومنعها عن سعي».

■ قوله: «حُمِرِ النَّعْم»: هي الإبل الحمر، وهي أنفس أموال العرب، يضربون بها المثل في نفاسة الشيء، وأنه ليس هناك أعظم منه.

■ قوله: «فأرسل إليه» أي: النبي صلى الله عليه وآله أرسل إليه من يأتيه به، وفي «صحيح مسلم» أن الذي جاء به سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وعن إياس بن سلمة عن أبيه أن الذي جاء به سلمة رضي الله عنه.

■ قوله: «فبصق في عينيه»: أي: تفل.

■ قوله: «ودعا له فَبَرًّا». هو بفتح الراء والهمزة، أي عوفي في الحال عافيةً كاملة، وذلك بدعوة النبي ﷺ كما في الحديث؛ فدعا فاستجيب له ﷺ، وفيه عَلَمٌ من أعلام النبوة - أيضًا -، وذلك كله باللَّه ومن اللّٰه وحده، وهو الذي يملك الضرَّ والنفع، والعطاء والمنع، لا إله غيره ولا رب سواه.

■ قوله: «انْفُذْ» هو بضم الفاء والهمزة.

■ قوله: «على رِسْلِكَ»: أمره أن يسير إليهم بأدب وأناة.

■ «حتى تنزل بساحتهم»: الساحة هي ما قرب من حصونهم.

■ قوله: «ثم ادعهم إلى الإسلام»: هذا هو شاهد الترجمة، وهكذا ينبغي لأهل الإسلام؛ أن يكون قصدهم بجهادهم هدايةَ الخلق إلى الإسلام والدخول فيه، وينبغي لولاة الأمر أن يكون هذا هو معتمدُهم ومرادهم ونيتهم.

□ قال شيخ الإسلام: «دين الإسلام الذي ارتضاه الله وبعث به رسله: هو الاستسلام لله وحده؛ فأصله في القلب، والخضوع لله وحده بعبادته دون ما سواه، فمن عبده وحده وعبد معه إلهًا آخر لم يكن مسلمًا، ومن استكبر عن عبادته لم يكن مسلمًا، وأما الإيمان فأصله تصديق القلب، وإقراره ومعرفته».

■ وقوله: «وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه»: مما أمر به وشرعه من حقوق «لا إله إلا الله»، وهذا يدلُّ على أن الأعمال من الإيمان؛ خلافًا للأشاعرة والمرجئة في قولهم: «إنه القول»! وزعموا أن الإيمان هو مجرد التصديق، وتركوا ما دل عليه

الكتاب والسنة؛ لأن الدين ما أمر الله به فعلاً، وما نهى عنه تركاً. وفيه الرد على المشركين المستدلين على الشرك بكرامات الأولياء لدالاتها على فضلهم، وأمير المؤمنين عليٍّ عليه السلام وقع له من الكرامات ما لم يقع لغيره، وقد خدَّ الأخاديد وأضرَمها بالنار، وقذف فيها من غلا فيه، أو اعتقد فيه بعض ما كان يعتقد هؤلاء المشركون مع أهل البيت وغيرهم، فصار من أشد الصحابة عليه السلام بُعداً عن الشرك، وشدةً على من أشرك حتى أحرَقهم بالنار.

وكذلك عمر بن الخطاب عليه السلام مع ما أُعطي من الكرامات صار من أبعد الصحابة عن الشرك وذرائعه. وهؤلاء أفضل أهل الكرامات، فما زادهم ذلك إلا قوةً في التوحيد، وشدةً على أهل الشرك والتنديد، كما جرى لعمر عليه السلام في الاستسقاء بالعباس، وتعمية قبر دانيال، لما وجده الصحابة عليه السلام في بيت مال الهرمزان، كما أن المعجزات إنما زادت الرسل قوةً في الدعوة إلى التوحيد، وشدةً على أهل الشرك، والإنكار عليهم وجهادهم، لكن قد يقع من الأحوال الشيطانية لمن استحوذ عليه الشيطان فأنساه ذكر ربّه ما قد يلتبس على الجهال الذين تلبَّسوا بالشرك، ويظنون أن ذلك كرامات، وهي من مكر الشيطان وإغوائه لمن لم يعرف الحق من الباطل، وقد قال تعالى لنبيه محمد عليه السلام: ﴿فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الزخرف]؛ فكذلك يجب على كل أحد أن يطلب الحق من القرآن بتدبُّره؛ فإنه الصراط المستقيم، ولا يلتفت إلى ما زخرفته الشياطين، كما اغترَّ به من اغترَّ في هذه الأمة ومن قبلهم.

■ قوله: «وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه»: من

أداء الفرائض على الوجه الشرعي، والنهي عن تعدي الحدود التي حدها الله بين الحلال والحرام؛ وذلك من الإيمان، فالحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه الله، فإذا أخذ بالإسلام - الذي هو التوحيد والإخلاص -، وأحل ما أحله الله تعالى، وحرم ما حرمه الله تعالى، وأمر بذلك وجاهد عليه = فقد قام بما وجب. وبالله التوفيق.

■ قوله: «فوالله»: فيه جواز الحلف على ما يُفتى به.

■ قوله: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك من حُمُر النعم»: حُمُرٌ - بسكون الميم -: الإبل الحُمُر، وهي أنفس الأموال عند العرب، وفيه الترغيب في الدعوة إلى الله، وطلب الهداية لمن أراد الله هدايته؛ ليحصل للداعي إلى الحق هذه الفضيلة العظيمة بهداية من اهتدى، فلا ينبغي التفريط في هذه المطالب العالية. وبالله التوفيق.

■ قوله: «يدوكون»: أي يخوضون. بيّن المصنف رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى معنى هذه اللفظة بأن المراد خوض السامعين في هذا الخير وتمني حصوله.



فيه مسائل:

الأولى: أن الدعوة إلى الله طريقٌ مَنْ اتَّبَعَ رسول الله ﷺ.

الثانية: التنبيه على الإخلاص؛ لأن كثيراً لو دعا إلى الحق، فهو يدعو إلى نفسه.

الثالثة: أن البصيرة من الفرائض.

الرابعة: من دلائل حسن التوحيد: أنه تنزيهٌ لله تعالى عن المسببة.

الخامسة: أن من قبح الشرك كونه مسببةً لله.

السادسة - وهي من أهمها -: إبعادُ المسلم عن المشركين؛ لئلا يصير منهم، ولو لم يُشرك.

السابعة: كون التوحيد أول واجب.

الثامنة: أنه يُبدأ به قبل كل شيء، حتى الصلاة.

التاسعة: أن معنى: «أن يوحدوا الله» معنى شهادة ألا إله إلا الله.

العاشر: أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب وهو لا يعرفها، أو يعرفها ولا يعمل بها.

الحادية عشرة: التنبيه على التعليم بالتدرج.

الثانية عشرة: البداءة بالأهم فالأهم.

الثالثة عشرة: مصروف الزكاة.

الرابعة عشرة: كشف العالم الشبهة عن المتعلم.

الخامسة عشرة: النهي عن كرائم الأموال.

السادسة عشرة: اتقاء دعوة المظلوم.

السابعة عشرة: الإخبار بأنها لا تُحجب.

الثامنة عشرة: من أدلة التوحيد ما جرى على سيد المرسلين ﷺ وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء.

التاسعة عشرة: قوله: «لأُعطين الراية...» إلخ عَلمٌ من أعلام النبوة.

العشرون: تَفْلُهُ في عينيه عَلمٌ من أعلامها - أيضًا -.

الحادية والعشرون: فضيلة عليٍّ ﷺ.

الثانية والعشرون: فضل الصحابة في دَوَكِهِم تلك الليلة، وشُغْلِهِم عن بشارَةِ الفتح.

الثالثة والعشرون: الإيمانُ بالقَدَر، لحصولها لمن لم يَسْع لها، ومنعها عمن سعى.

الرابعة والعشرون: الأدب في قوله: «على رسلك».

الخامسة والعشرون: الدعوة إلى الله وإلى الإسلام قبل القتال.

السادسة والعشرون: أنه مشروعٌ لمن دُعوا قبل ذلك وقوتلوا.

السابعة والعشرون: الدعوة بالحكمة؛ لقوله: «أخبرهم بما يجب عليهم».

الثامنة والعشرون: المعرفة بحق الله في الإسلام.

التاسعة والعشرون: ثواب من اهتدى على يديه رجلٌ واحد.

الثلاثون: الحلف على الفتيا.



❦ [٦] باب: تفسير التوحيد وشهادة ألا إله إلا الله ❦

وقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٣٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف].

وقوله: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْكَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٣٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف].

وقوله: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْكَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

الشرح

■ قوله: باب تفسير التوحيد وشهادة ألا إله إلا الله: من عطف الدال على المدلول؛ لأن التوحيد هو معنى هذه الكلمة العظيمة؛ وذلك يتبين بما ساقه من الآيات والحديث؛ لما فيها من زيادة البيان، وكشف ما أشكل من ذلك، وإقامة الحجة على من غالط في معنى «لا إله إلا الله» من أهل الجهل والإلحاد.

■ قوله: «وقول الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾»: أي أولئك الذين يدعوهم أهل الشرك - ممن لا يملك كشف الضر ولا تحويله من الملائكة والأنبياء والصالحين كال المسيح وأمه والعزير -، فهؤلاء دينهم التوحيد، وهو بخلاف من دعاهم من دون الله. ووصفهم بقوله: ﴿يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ فيطلبون القرب من الله بالإخلاص له وطاعته فيما أمر، وترك ما نهاهم عنه. وأعظم القرب التوحيد الذي بعث الله به أنبياءه ورسله، وأوجب عليهم العمل به والدعوة إليه، وهذا الذي يقربهم إلى الله، أي: إلى عفوه ورضاه، ووصف ذلك بقوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾؛ فلا يرجون أحدًا سواه، ولا يخافون غيره، وذلك هو توحيدهم؛ لأن ذلك يمنعهم من الشرك، ويوجب لهم الطمع في رحمة الله، والهرب من عقابه، والداعي لهم - والحالة هذه - قد عكس الأمر، وطلب منهم ما كانوا ينكرون من الشرك بالله في دعائهم لمن كانوا يدعونه من دون الله، ففيه معنى قوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرِكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، وقوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ١]، وفيه الرد على من ادعى أن شرك المشركين إنما هو بعبادة الأصنام، وتبين بهذه الآية أن الله تعالى أنكر على من دعا معه غيره من الأنبياء والصالحين والملائكة ومن دونهم، وأن دعاء الأموات والغائبين لجلب نفع أو دفع ضر من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، وأن ذلك ينافي ما دلت عليه كلمة الإخلاص.

فتدبر هذه الآية العظيمة يتبين لك التوحيد، وما ينافيه من الشرك والتنديد؛ فإنها نزلت فيمن يعبد الملائكة والمسيح وأمه والعزير؛ فهم المعنيون بقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِي فَلَا

يَمْلِكُونَ كَشَفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا خَوْفًا مِّنَ الْمَمِيتِينَ ﴿٥٦﴾ [الإسراء: ٥٦]، ثم بين تعالى أن هؤلاء المشركين قد خالفوا من كانوا يدعونه في دينه؛ فقال: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَيْكَ رِبَّهُمْ أَلْوَاسِيلَةً﴾ [الإسراء: ٥٧]، وقدّم المعمول^(١) لأنه يفيد الحصر، يعني: يبتغون إلى ربهم الوسيلة لا إلى غيره، وأعظم الوسائل إلى الله تعالى التوحيد الذي بعث الله به أنبياءه ورسله وخلق الخلق لأجله.

ومن التوسل إليه: التوسل بأسمائه وصفاته؛ كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٠٨]، وكما ورد في الأذكار المأثورة من التوسل بها في الدعوات؛ كقوله: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت، المنان، بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام»^(٢)، وقوله: «اللهم إني أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد»^(٣).

(١) يعني قوله: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) صحيح: رواه أحمد (٣٥٠/٥)، وأبو داود (١٤٩٣)، والترمذي (٣٤٧٥)، والنسائي في «الكبرى» (٧٦٦٦)، وابن حبان (٨٩١)، والحاكم (٥٠٤/١)، وأبو عوانة (٣٨٩٠)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢٥٧/١)، وفي «تاريخ أصبهان» (١٠/٢)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (١٩٥)، وفي «الشعب» (٢٦٠٤)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٤٤٢/٨)، والبغوي في «شرح السنة» (١٢٥٩)، وابن عساكر في «التاريخ» (٤٢/٣٢)، والمقدسي في «الترغيب في الدعاء» (٥٣)، وابن الضريس في «فضائل القرآن» (٢٨٠)، والطحاوي في «شرح المشكل» (١٧٣)، والطبراني في «الدعاء» (١١٤)، والإسماعيلي في «معجمه» (٥٧٧/٢)، والخطابي في «غريب الحديث» (٣١٨/١)، والسهمي في «تاريخ جرجان» ص (١٤٥)، والذهبي في «سير =

وغير ذلك من الأعمال الصالحة الخالصة التي لم يشبها شرك.
فالتوسل إلى الله هو بما يحبه ويرضاه، لا بما يكرهه ويأباه
من الشرك الذي نزه نفسه عنه بقوله: ﴿سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [٤٣]
[الطور]، وقوله: ﴿وَسُبْحَنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [١٠٨] [يوسف]، وقوله
في الإنكار على من اتخذ الشفعاء: ﴿قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي
السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ، وَعَلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [١٨] [يونس] وأمثال
هذه الآيات في القرآن كثير، يأمر عباده بإخلاص العبادة له،
وينهاهم عن عبادة ما سواه، ويُعظِّم عقوبته؛ كما جرى على الأمم
المكذبة للرسول فيما جاؤوهم به من التوحيد، والنهي عن الشرك،
فأوقع الله تعالى بهم ما أوقع؛ كقوم نوح وعاد وثمود ونحوهم؛
فإنهم عصوا الرسل فيما أمرهم به من التوحيد، وتمسكوا بالشرك،
وقالوا لنوح: ﴿وَمَا زِلْنَاكَ أَتْبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُشْرِكُوا﴾ [هود: ٢٧]،
وقالوا لهود: ﴿مَا جِئْنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ
بِمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٥٣]، وقالوا لصالح: ﴿قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا
أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: ٦٢]، وقالوا لشعيب: ﴿أَصَلَوْتُكَ
تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [هود: ٨٧].

فتدبر ما قصَّ الله تعالى في كتابه مما دعت إليه الرسل، وما
أوقع بمن عصاهم؛ فإن الله تعالى أقام به الحجة على كل مشرك
إلى يوم القيامة.

= أعلام النبلاء (٣٨٦/٢)، من حديث بريدة رضي الله عنه، وقال الترمذي: «حسن
غريب». وصحَّحه الحاكم، ووافقه الذهبي، وكذا صحَّحه الشيخ شعيب
الأرنؤوط في «المسند» (٤٥/٣٨)، والشيخ الألباني في «السنن».

□ وأما ما ورد في معنى الآية عن ابن مسعود قال: «كان ناس من الإنس يعبدون ناسًا من الجن؛ فأسلم الجنُّ، وتمسك هؤلاء بدينهم».

قلت: وهذا لا يخالف ما تقدم؛ لأن هذه الآية حجة على كل من دعا مع الله وليًا من الأولين والآخرين؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في هذه الآية، وهذه الأقوال كلها حق؛ فإن الآية تعم من كان معبوده عابدًا لله؛ سواء كان من الملائكة، أو من الجن، أو من البشر.

■ وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۖ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ۖ﴾ [الزخرف: ٢٧] «الكلمة» هي: «لا إله إلا الله» بإجماع أهل العلم، وقد عبر عنها الخليل رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى بمعناها الذي أريد به؛ فعبر عن المنفي بها بقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾، وعبر عما أثبتته بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾؛ فقصر العبادة على الله وحده، ونفاهها عن كل ما سواه ببراءته من ذلك، فما أحسن التفسير لهذه الكلمة وما أعظمه!

□ قال العماد ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ [الزخرف: ٢٨]: «أي: هذه الكلمة - وهي عبادة الله وحده لا شريك له وخلع ما سواه من الأوثان، وهي لا إله إلا الله - جعلها في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: إليها. قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾: يعني: «لا إله إلا الله»؛ لا يزال في ذريته من يقولها».

■ وقوله تعالى: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ...﴾ [التوبة: ٣١] الآية: «الأحبار: هم العلماء. والرهبان: هم العُباد. وهذه الآية قد فسرها رسول الله ﷺ لعدي بن حاتم، وذلك أنه لما جاء مسلماً دخل على رسول الله ﷺ فقرأ عليه هذه الآية. قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم! قال: «بلى؛ إنهم حرَّموا عليهم الحلال، وحلَّلوا لهم الحرام فاتبعوهم؛ فذلك عبادتهم إياهم»، رواه أحمد والترمذي وحسنه، وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والطبراني من طرق (١).

□ قال السدي: «استنصحووا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم».

ولهذا قال تعالى: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، فصار ذلك عبادة لهم، وصاروا به لهم أرباباً من دون الله. وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَالِكَةَ وَالنَّبِيَّاتِ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠].

قوله: ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ أي: اتخذوه رباً بعبادتهم له من دون الله، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ...﴾، إلى قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

فمن تدبر هذه الآيات تبين له معنى «لا إله إلا الله»، وتبين له التوحيد الذي جحدّه أكثر من يدّعي العلم في هذه القرون وما قبلها من متأخري هذه الأمة، وقد عمت البلوى بالجهل به بعد القرون الثلاثة؛ لمّا وقع الغلو في قبور أهل البيت وغيرهم، وبنيت عليها المساجد، وبنيت لهم المشاهد، فاتسع الأمر وعظمت الفتنة في الشرك المنافي للتوحيد؛ لما حدث الغلو في الأموات وتعظيمهم بالعبادة، فبهذه الأمور التي وقع فيها الأكثر عاد المعروف منكراً والمنكر معروفاً، والبدعة سنةً، والسنة بدعة، نشأ على هذا الصغير، وهرم عليه الكبير، وقد قال ﷺ: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ؛ فطوبى للغرباء الذين يصلحون إذا فسد الناس»^(١). وفي رواية: «يصلحون ما أفسد الناس [من بعدي من سنّتي]»^(٢).

(١) ضعيف جداً: رواه أحمد (٧٣/٤)، وابن وضاح في «البدع» (١٧٢)، وأبو نعيم في «معرفة الصحابة» (١٨٥٤)، وابن قانع في «معجمه» (٢/١٧١)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (٤٥٧/٣)، من حديث عبدالرحمن ابن سنّة رضي الله عنه. وضعّفه الإمام الهيثمي في «المجمع» (٢٧٨/٧)، وضعّفه جدّاً الشيخ شعيب الأرناؤوط في «المسند» (٢٣٦/٢٧)، والشيخ حسين الداراني في تحقيق «المجمع» (٢٨٩/١٥).

(٢) ضعيف: رواه الترمذي (٢٦٣٠)، وابن عدي في «الكامل» (٢٠٨٠/٦)، والبزار (٣٢٨٧)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (١٠٥٢)، والخطيب في «شرف أصحاب الحديث» (٢٣)، والهروي في «ذم الكلام» (١٤٧٩)، والقاضي عياض في «الإلماع» (١٨)، والبيهقي في «الزهد الكبير» (٢٠١ - تهذيبي)، وابن عبد البر في «جامع بيان العلم» (١٥٨٥ - تهذيبي)، والخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (٨٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٠/٢)، وفي «المعرفة» (٥٠٥١)، والطبراني في «الكبير» (١١/١٧) =

■ قوله: «(وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ)» [البقرة: ١٦٥] الآية: الأنداد: الأمثال والنظراء - كما قال العماد بن كثير وغيره من المفسرين -؛ فكل من صرف من العبادة شيئاً لغير الله رغبةً إليه أو رهبةً منه؛ فقد اتخذه ندّاً لله؛ لأنه أشرك مع الله فيما لا يستحقه غيره.

□ قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «فتوحيد المحبوب ألا يتعدّد محبوبه - أي مع الله - بعبادته له، وتوحيد الحب لا يُبقي في قلبه بقيةً حب حتى يبذلها له، فهذا الحب وإن سمي عشقاً فهو غاية صلاح العبد ونعيمه وقرّة عينه، وليس لقلبه صلاح ولا نعيم إلا بأن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وألاً تكون محبته لغير الله؛ فلا يحب إلا الله، كما في الحديث الصحيح: «ثلاثٌ من كن فيه...» الحديث^(١).

ومحبة رسوله هي من محبته، ومحبة المرء إن كانت لله فهي من محبته، وإن كانت لغير الله فهي مُنْقِصَةٌ لمحبة الله، مُضَعِفَةٌ لها، ويصدق هذه المحبة بأن يكون كراهته لأبغض الأشياء إلى محبوبه

= من حديث عمرو بن عوف رَضِيَ اللهُ عَنْهُ. وضعّفه جدّاً الشيخ مشهور حسن في تحقيق «إعلام الموقعين» (٣/٤٦٨)، والشيخ الألباني عند الترمذي، وكذا الشيخ عامر ياسين في تحقيقه لـ «مدارج السالكين» (٣/١٧٠)، وضعّفه الشيخ شعيب الأرناؤوط عند الترمذي (٤/٥٧٦).

ومع ضعف الحديثين السابقين؛ إلا أن معناهما صحيحٌ بلا ريب. وجملة «بدأ الإسلام غريباً» صحيحةٌ، وقد رواها مسلم من حديث ابن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وقد تقدم. (١) صحيح: وقد تقدم.

- وهو الكفر - بمنزلة كراهته لإلقائه في النار أو أشد، ولا ريب أن هذا من أعظم المحبة؛ فإن الإنسان لا يُقدَّم على محبة نفسه شيئاً، فإذا قدَّم محبة الإيمان بالله على نفسه - بحيث لو خُيِّر بين الكفر وإلقائه في النار؛ لاختار أن يلقى في النار ولا يكفر - كان أحب إليه من نفسه، وهذه المحبة هي فوق ما يجده العشاق من محبة محبوبهم؛ بل لا نظير لهذه المحبة، كما لا مثل لمن تعلقت به، وهي محبة تقتضي تقديم المحبوب فيها على النفس والمال والولد، وتقتضي كمال الذل والخضوع والتعظيم والإجلال والطاعة الانقياد ظاهراً وباطناً، وهذا لا نظير له في محبة المخلوق - ولو كان المخلوق من كان -؛ ولهذا من أشرك بين الله وبين غيره في المحبة الخاصة كان شركاً لا يغفره الله؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَلَّاسِ مَنْ يَتَّخِذْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] الآية. والصحيح أن معنى الآية: أن الذين آمنوا أشد حُباً لله من أصحاب الأنداد لأندادهم، كما تقدم أن محبة المؤمنين لربهم لا يماثلها محبة مخلوق أصلاً؛ كما لا يماثل محبوبهم غيره، وكل أذى في محبة غيره فهو نعيم في محبته، وكل مكروه في محبة غيره فهو قرة عين في محبته» انتهى.

قلت: وهو قول مجاهد.

□ قال في «الكافية الشافية»:

وحياء قلب العبد في شيئين من	يرزقهما يحيا مدى الأزمان
ذكر الإله وحبُّه من غير إشـ	راك به وهما فممتنعان
من صاحب التعطيل حقاً كامتنا	ع الطائر المقصوص من طيران

□ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ ما معناه: «فمن رغب إلى غير الله في قضاء حاجةٍ أو تفريج كربة = لزم أن يكون محبًّا له، ومحبته هي الأصل في ذلك» انتهى.

قلت: فمن أحبَّ مع الله غيره لم ينفِ ما نفته «لا إله إلا الله» من الشرك، ولم يُثبت ما أثبتته من التوحيد؛ بل قد جعل مع الله شريكًا في إلهيته، وقد تبين أن الإلهية هي العبادة؛ فنفيها عما سوى الله، وإثباتها لله وحده بجميع أنواعها هو معنى «لا إله إلا الله» - كما تقدم بيانه - .



وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبد من دون الله، حُرِّمَ مالهُ ودمه، وحسابه على الله»^(١).
وشرح هذه الترجمة: ما بعدها من الأبواب.

الشرح

■ قوله «في الصحيح»: أي «صحيح مسلم»: «عن أبي مالك الأشجعي عن أبيه عن النبي ﷺ...»، فذكره، وأبو مالك اسمه سعد ابن طارق، كوفي ثقة مات في حدود الأربعين.
■ قوله: «من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبد من دون الله»: اعلم أن النبي ﷺ علق عصمة المال والدم بأمرين في هذا الحديث: الأول: قول «لا إله إلا الله» عن علمٍ ويقين، كما هو قيدٌ في قولها في غير ما حديث.

والثاني: الكفر بما يُعبد من دون الله، لكن ذكر في هذا الحديث «وكفر» تأكيداً لما دلت عليه؛ لأن المقام عظيم يقتضي التأكيد.

■ قوله: «حرم ماله ودمه، وحسابه على الله ﷻ»: فيه دليل على أنه لا يحرم ماله ودمه، إلا إذا قال: «لا إله إلا الله»، وكفر بما يعبد من دون الله، فإن قالها ولم يكفر بما يعبد من دون الله، فدمه وماله حلال؛ لكونه لم يُنكر الشرك ويكفر به، ولم يَنْفِه كما نفته «لا إله إلا الله»؛ فتأمل هذا الموضع؛ فإنه عظيم النفع.

□ قال شيخنا: «وهذا من أعظم ما يبين معنى «لا إله إلا الله»؛ فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال؛ بل ولا معرفة معناها

مع لفظها؛ بل ولا الإقرار بذلك؛ بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له؛ بل لا يحرم دمه وماله حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يُعبد من دون الله؛ فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه، فيا لها من مسألة ما أجلها! ويا له من بيان ما أوضحه! وحجة ما أقطعها للمُنازع! انتهي.

■ قوله: «وحسابه على الله ﷻ»: أي الله تعالى هو الذي يتولَّى حسابه؛ فإن كان صادقًا جازاه بجنات النعيم، وإن كان منافقًا عذبه العذاب الأليم، وأما في الدنيا فالحكم على الظاهر.

■ قوله: «وشرح هذه الترجمة: ما بعدها من الأبواب»: فقد ذكر فيها رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى ما يبين التوحيد وما ينافيه، وما يقرب منه، وما يوصل إليه من الوسائل، وبيان ما كان عليه السلف من بُعدهم عن الشرك في العبادة، وشدة إنكارهم له، وجهادهم على ذلك، وقد جمع هذا الكتاب - على اختصاره - من بيان التوحيد ما لا يعذر عن معرفته وطلبه بإقبال وتدبر، وكذلك الرد على أهل الأهواء جميعهم، فمن حفظه واستحضره وجد ذلك، واستغنى به عن غيره في الرد على كل مبتدع؛ فتدبره تجد ذلك بينًا، وسيأتي التنبيه على ذلك - إن شاء الله تعالى -.



فيه أكبر المسائل وأهمها :

وهي تفسير التوحيد، وتفسير الشهادة؛ وبينها أمور واضحة :
منها: آية الإسراء؛ بيّن فيها الرد على المشركين الذين يدعون
الصالحين، ففيها بيان أن هذا هو الشرك الأكبر.

ومنها: آية براءة، بيّن فيها أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم
ورهبانهم أرباباً من دون الله، وبيّن أنهم لم يؤمروا إلا بأن يعبدوا
إلهاً واحداً، مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه: طاعة العلماء
والعباد في المعصية، لا دعاؤهم إياهم.

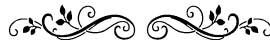
ومنها: قول الخليل عليه السلام للكفار: ﴿إِنِّي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ (٦١) إِلَّا إِلَٰهِي
فَطَرَنِي [الزخرف]؛ فاستثنى من المعبودين الله ربه.

وذكر سبحانه أن هذه البراءة وهذه الموالاتة هي: تفسير شهادة
ألا إله إلا الله؛ فقال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٦٨)
[الزخرف].

ومنها: آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ
مِنَ النَّارِ﴾ (١٧) [البقرة]. ذكر أنهم يحبّون أندادهم كحب الله؛ فدل
على أنهم يحبّون الله حباً عظيماً، ولم يدخلهم [هذا] في الإسلام.
فكيف بمن أحب الندّ أكبر من حب الله؟ فكيف بمن لم يحبّ إلا الندّ
وحده ولم يحب الله؟

ومنها: قوله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبد من دون
الله، حرم ماله ودمه». وهذا من أعظم ما يبيّن معنى «لا إله إلا الله»؛
فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال؛ بل ولا معرفة معناها
مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك؛ بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده

لا شريك له؛ بل لا يحرم ماله ودمه = حتى يضيف إلى ذلك الكفر
 بما يُعبد من دون الله؛ فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه.
 فيا لها من مسألة ما أعظمها وأجلّها! ويا له من بيانٍ ما أوضحه!
 وحجةٍ ما أقطعها للمُنازع!



باب: [٧] من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر].

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً في يده حلقة من صُفر، فقال: «ما هذه؟»، قال: من الواهنة. فقال: «انزعها؛ فإنها لا تزيدك إلا وهناً؛ فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً». رواه أحمد بسندٍ لا بأس به ^(١).

وله عن عقبة بن عامر رضي الله عنه مرفوعاً: «من تعلق تميمةً فلا أتمَّ الله له، ومن تعلق ودعةً فلا ودَّعَ الله له» ^(٢).

وفي رواية: «من تعلق تميمةً فقد أشرك» ^(٣).

□ ولابن أبي حاتم عن حذيفة رضي الله عنه: «أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحمى، فقطعه، وتلا قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف]». ^(١٦)

الشرح

■ قوله: «باب: من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع

(١) ضعيف: وقد تقدم.

(٢) حسن: وقد تقدم.

(٣) صحيح: وقد تقدم.

البلاء ودفعه»: أي لرفعه إذا نزل، ودفعه قبل أن ينزل، يعني إذا كان هذا هو القصد فتعلق قلبه به في دفع ضرر مما قد نزل ومما لم ينزل = قد صرحت الأحاديث بأن هذا من الشرك بالله.

■ قوله: «وقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَقْرَبُكُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَتُ ضُرِّيَّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هِيَ مُمْسِكَةٌ بِرَحْمَتِهِ﴾»: قال مقاتل: فسألهم النبي ﷺ فسكتوا؛ لأنهم لا يعتقدون ذلك فيها.

قلت: فإذا كانت آلهتهم التي يدعون من دون الله لا قدرة لها على كشف ضرر أراده الله بعبد، أو تُمْسِكُ رحمة أنزلها على عبده؛ فيلزمهم بذلك أن يكون الله تعالى هو معبودهم وحده لزومًا لا محيد لهم عنه.

وذكر تعالى مثل هذا السؤال عن خليله إبراهيم لمن حاجه في الله؛ فقال: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالِ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالسَّمَسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة]، فأقام تعالى الحجة على المشركين بما يُبطل شركهم بالله وتسويتهم غيره به في العبادة بضرب الأمثال وغير ذلك، وهذا في القرآن كثير؛ كقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٍ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَلَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [٤١] إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ [٤٢] وَلَئِكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ [٤٣] [العنكبوت]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ

مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ [النحل].

ذكر العماد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في هذه الآية ما رواه ابن أبي حاتم، عن قيس بن الحجاج، عن حنش الصنعاني، عن ابن عباس مرفوعاً: «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجاهك، تعرّف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، جفّت الصحف، ورُفعت الأقلام، واعمل لله بالشكر في اليقين، واعلم أن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً»^(١).

■ قوله: «عمران بن حصين»: أي: ابن عبيد بن خلف الخزاعي، أبو نُجَيْد - بنون وجيم مصعّر -، صاحبني ابن صاحبي، أسلم عام خيبر، ومات سنة اثنتين وخمسين بالبصرة.

■ قوله: «رأى رجلاً»: في رواية الحاكم: دخلت على رسول الله ﷺ وفي عضدي حلقة صُفْر؛ فقال: «ما هذه؟» الحديث، فالمبهم في رواية أحمد هو عمران راوي الحديث.

■ قوله: «ما هذه؟»: الظاهر أنه للإنكار عليه.

■ قوله: «من الواهنة»: قال أبو السعادات: الواهنة عرق يأخذ في المنكب وفي اليد كلها، فيُرقى منها. وقيل: هو مرض يأخذ في العضد، وهي تأخذ الرجال دون النساء، وإنما نهاه عنها لكونه يظن

أنها تمنع عنه هذا الداء أو ترفعه، فأمره ﷺ بنزعها لذلك وأخبر أنها لا تزيده إلا وهناً، فإن المشرك يعامل بنقيض قصده؛ لأنه علّق قلبه بما لا ينفعه، ولا يدفع عنه، فإذا كان هذا بحلقة صُفر؛ فما الظن بما هو أظمُّ وأعظم؟ كما وقع من عبادة القبور والمشاهد والطواغيت وغيرها، كما لا يخفى على من له أدنى مُسكة من عقل.

□ قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «فيه شاهدٌ لكلام بعض الصحابة أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر، وأنه لم يعذر بالجهالة»؛ لقوله: «فإنك لو متَّ وهي عليك ما أفلحت أبداً»، والفلاح هو الفوز والظفر والسعادة.

■ قوله: «رواه أحمد بسندٍ لا بأس به»: هو الإمام أحمد بن محمد ابن هلال بن أسد الشيباني، أبو عبد الله المروزي ثم البغدادي، إمام أهل عصره، وأعلمهم بالفقه والحديث، وأشدهم ورعاً.

□ وهو الذي يقول فيه بعض أهل السنة: «عن الدنيا ما كان أصبره! وبالماضين ما كان أشبهه! أتته الدنيا فأباها، والشبه فنفاها».

روى عن الشافعي، ويزيد بن هارون، وعبد الرحمن بن مهدي، ويحيى القطان، وابن عيينة، وعبد الرزاق، وخلق لا يحصون، مات سنة إحدى وأربعين ومئتين، وله سبع وسبعون سنة رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى^(١).

■ قوله: «وله عن عقبة بن عامر مرفوعاً: «من علّق تميمةً فلا أتم

(١) راجع خلاصة سيرته العطرة في «مذهب مناقب الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى» تهذيبي.

الله له، ومن علق ودعةً فلا ودَّع الله له». وفي رواية: «من علق تميمه فقد أشرك»: عقبه بن عامر صحابي مشهور، فقيه فاضل، ولي إمارة مصر لمعاوية ثلاث سنين، ومات قريباً من الستين.

وهذا الحديث فيه التصريح بأن تعليق التماثم شرك؛ لِمَا يَقْصِدُهُ مَنْ علقها لدفع ما يضره، أو جلب ما ينفعه، وهذا - أيضاً - ينافي كمال الإخلاص الذي هو معنى «لا إله إلا الله»؛ لأن المخلص لا يلتفت قلبه لطلب نفع أو دفع ضر من سوى الله، كما تقدم في قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [النساء: ١٢٥]، فكمال التوحيد لا يحصل إلا بترك ذلك، وإن كان من الشرك الأصغر فهو عظيم، فإذا كان هذا قد خفي على بعض الصحابة رضي الله عنهم في عهد النبوة؛ فكيف لا يخفى على من هو دونهم في العلم والإيمان بمراتب بعدما حدث من البدع والشرك، كما في الأحاديث الصحيحة، وتقدمت الإشارة إلى ذلك؟!

وهذا مما يبين معنى «لا إله إلا الله» - أيضاً -، فإنها نفت كل الشرك - قليله وكثيره -، كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَالِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران].

■ قوله: «فلا أتم الله له»: دعاء عليه، وكذلك قوله: «فلا ودَّع الله له»: أي لا جعله في دعةٍ وسكون.

■ قوله: «ولابن أبي حاتم، عن حذيفة رضي الله عنه»: ابن أبي حاتم هو الإمام أبو محمد عبدالرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس المرادي التميمي الحنظلي، صاحب «الجرح والتعديل» و«التفسير» وغيرها، مات سنة سبع وعشرين وثلاثمئة.

و«حذيفة»: هو ابن اليمان، واسم اليمان «حُسَيْل» - بمهملتين مصغر -، ويقال: «حُسَل» - بكسر ثم سكون -، العَبْسِي - بالموحدة -، حليف الأنصار، صحابيٌّ جليل، من السابقين، ويقال له: صاحب السر، وأبوه صحابي - أيضًا -. مات حذيفة في أول خلافة عليّ سنة ست وثلاثين.

■ قوله: «رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الْحُمَى، فَقَطَعَهُ، وَتَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾»: فيه دليل على أن هذا شرك، وأن الصحابة رضي الله عنهم يستدلون بالآيات التي نزلت في الشرك الأكبر على الأصغر؛ لدخوله في الشرك المنهي عنه في الآيات والأحاديث عمومًا وخصوصًا؛ لما قد عرفت أنه ينافي كمال الإخلاص إذا كان مثل هذا، وقد خافه رضي الله عنه على الصحابة، كما تقدم في قوله: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»^(١)، فإذا كان يقع مثل هذا في تلك القرون المفضلة، فكيف يؤمن أن يقع ما هو أعظم منه؟ لكن لغلبة الجهل به وقع منهم أعظم مما وقع من مشركي العرب وغيرهم في الجاهلية - مما قد تقدم التنبيه عليه -؛ حتى إن كثيرًا من العلماء في هذه القرون اشتد نكيرهم على ما أنكر الشرك الأكبر، فصاروا هم والصحابة رضي الله عنهم في طرفي نقيض، فالصحابة ينكرون القليل من الشرك، وهؤلاء ينكرون على من أنكر الشرك الأكبر، ويجعلون النهي عن هذا الشرك بدعةً وضلالة! وكذلك كانت حال الأمم مع الأنبياء والرسل جميعهم فيما بُعثوا به من توحيد الله تعالى، وإخلاص العبادة له وحده، والنهي عن الشرك به، وقد بعث

(١) حسن: وقد تقدم.

اللَّهُ تعالى خاتم رسله محمدًا ﷺ بذلك كما بعث به من قبله، فعكس هؤلاء المتأخرون ما دعا إليه رسول الله ﷺ مشركي العرب وغيرهم، فنصر هؤلاء ما نهى عنه من الشرك غاية النصر، وأنكروا التوحيد - الذي بُعث به - غاية الإنكار، فإنه ﷺ لما قال لقريش: «قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا». عرفوا معناها الذي وُضعت له وأريد منها؛ فقالوا: ﴿أَجْعَلِ الْأَلَهَةَ إِلَهًا وَحِدًا إِنَّا هَذَا لَشَيْءٌ مُّجَابٌ﴾ [ص] الآيات^(١)، وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصفات].

وفي «صحيح البخاري» وغيره في سؤال هرقل لأبي سفيان عن النبي ﷺ قال له: فماذا يأمركم؟ قلت: يقول: «اعبدوا الله وحده لا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آبائكم». ويأمرنا بالصلاة والصدقة والعفاف والصلة^(٢).



(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) رواه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

فيه مسائل:

الأولى: التغليظ في لبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك.

الثانية: أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح. [و] فيه شاهد لكلام الصحابة أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر.

الثالثة: أنه لم يُعذر بالجهالة.

الرابعة: أنها لا تنفع في العاجلة، بل تضر؛ لقوله: «لا تزيدك إلا وهناً».

الخامسة: الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك.

السادسة: التصريح بأن من تعلّق شيئاً وُكل إليه.

السابعة: التصريح بأن من تعلّق تميمةً فقد أشرك.

الثامنة: أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك.

التاسعة: تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر، كما ذكر ابن عباس رضي الله عنهما في آية البقرة.

العاشرة: أن تعليق الودع عن العين من ذلك.

الحادية عشرة: الدعاء على من تعلّق تميمةً أن الله لا يُتمّ له، ومن تعلّق ودعةً فلا ودع الله له، أي: [فلا] ترك الله له.



❦ [٨] باب: ما جاء في الرقي والتمائم ❦

في «الصحيح» عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره؛ فأرسل رسولاً: «أَلَا يَبْقَيْنَ في رِقْبَةٍ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ من وَتَرٍ، أو قِلَادَةٌ إِلَّا قُطِعَتْ»^(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقي والتمائم والتولة شرك». رواه أحمد وأبو داود^(٢).

وعن عبد الله بن عكيم مرفوعاً: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ». رواه أحمد والترمذي^(٣).

«التمائم»: شيء يعلّق على الأولاد يتقون به العين؛ لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخّص فيه، ويجعله من المنهي عنه، منهم ابن مسعود رضي الله عنه.

و«الرقي»: هي التي تسمى العزائم، وخصّ منها الدليل ما خلا من الشرك^(٤)؛ فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة.

و«التولة»: شيء يصنعونه؛ يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته.

وروى أحمد عن زُوَيْفِع قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا زُوَيْفِع، لعل الحياة ستطولُ بك، فأخبرِ الناس أن من عقد لحيته، أو تقلّد وتراً،

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) حسن: وقد تقدم.

(٤) صحيح: وقد تقدم.

أو استنجى برجيع دابةٍ أو عَظْمٍ = فإنَّ محمدًا بريءٌ منه»^(١).

□ وعن سعيد بن جُبَيْر قال: «من قطع تميمةً من إنسانٍ كان كعدلٍ رقبة». رواه وكيع.

□ وله عن إبراهيم [النَّخَعِي] قال: «كانوا يكرهون التَّمائم كلها، من القرآن وغير القرآن».

الشرح

■ قوله: «باب ما جاء في الرقَى والتَّمائم»: أي من النهي عما لا يجوز من ذلك.

■ قوله: «في الصحيح عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً: (أَلَّا يَبْقَيْنَ في رقبةٍ بعيرٍ قِلَادَةً من وَتَرٍ، أو قِلَادَةً إِلَّا قَطَعْتَ): هذا الحديث في «الصحيحين»، واسم أبي بشير: قيس بن عبيد. قاله ابن سعد. وقال ابن عبد البر: لا يوقف له على اسم صحيح، وهو صحابي شهد الخندق، ومات بعد الستين، ويقال: إنه جاوز المئة.

■ قوله: «فأرسل رسولاً»: هو زيد بن حارثة، روى ذلك الحارث ابن أبي أسامة في «مسنده»، قاله الحافظ.

■ قوله: «أَلَّا يَبْقَيْنَ»: بفتح الياء والقاف، ويحتمل أن يكون بضم الياء المثناة وكسر القاف.

والوَتَر - بفتحيتين -: واحد أوتار القوس، وكان أهل الجاهلية إذا اخلولق^(٢) الوتر أبدلوه بغيره، وقلدوا به الدواب اعتقاداً منهم

(٢) اخلولق: ضَعُف وبَلِيَ.

(١) صحيح: وقد تقدم.

بهذا أنه يدفع عن الدابة العين؛ ولهذا أمر ﷺ بقطع الأوتار التي علقت على الإبل، لَمَّا كان أهل الجاهلية يعتقدون ذلك فيها.

■ قوله: «أو قلادة إلا قطعت»: يُحتمل أن ذلك شكُّ من الراوي، ولأبي داود «ولا قلادة» بغير شك، فعلى هذه الرواية تكون «أو» بمعنى «الوا».

□ قال البغوي في «شرح السنة»: «تأول مالك أمره ﷺ بقطع القلائد على أنه من أجل العين؛ وذلك أنهم كانوا يشدُّون تلك الأوتار والتمائم والقلائد، ويعلقون عليها العوذ؛ يظنون أنها تعصمهم من الآفات، فنهاهم النبي ﷺ عنها، وأعلمهم أن الأوتار لا تردُّ من أمر الله شيئاً».

□ وقال أبو عبيد: «كانوا يقلدون الإبل أوتاراً لثلا تصيبها العين، فأمرهم النبي ﷺ بإزالتها؛ إعلماً لهم بأن الأوتار لا ترد شيئاً».

■ قوله: «وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقي والتمائم والتَّوَلَة شرك»: رواه أحمد وأبو داود: ولفظ أبي داود: عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود: أن عبد الله رأى في عنقي خيطاً؛ فقال: ما هذا؟ قلت: خيطٌ رُقي لي فيه، قالت: فأخذه فقطعه، ثم قال: أنتم - آل عبد الله - الأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقي والتمائم والتَّوَلَة شرك».

□ قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيه، ويجعله من المنهي عنه، منهم ابن مسعود رضي الله عنه».

والمقصود: بيان أن هذه الأمور الشركية - وإن خفيت - فقد

نهى عنها رسول الله ﷺ وأصحابه؛ لكمال علمهم بما دلت عليه «لا إله إلا الله» من نفي الشرك قليله وكثيره؛ لتعلق القلب بغير الله في دفع ضررٍ أو جلب نفع، وقد عمت البلوى بما هو أعظم من ذلك بأضعافٍ مضاعفة، فمن عرف هذه الأمور الشركية المذكورة في هذين البابين عرف ما وقع مما هو أعظم من ذلك - كما تقدم بيانه - .

وفيه: ما كان عليه رسول الله ﷺ من التحذير من الشرك والتغليظ في إنكاره، وإن كان من الشرك الأصغر؛ فهو أكبر من الكبائر، وقد تقدم دليله في الباب قبل هذا.

■ وقوله: «وعن عبدالله بن عكيم مرفوعاً: «من تعلق شيئاً وكل إليه»: رواه أحمد والترمذي»: وعبدالله بن عكيم - بضم المهملة مصغراً -، ويكنى: أبا معبد الجهني الكوفي.

قال الخطيب: سكن الكوفة وقدم المدائن في حياة حذيفة وكان ثقة .

■ قوله: «من تعلق شيئاً وكل إليه»: التعلق يكون بالقلب، وينشأ عنه القول والفعل، وهو التفات القلب عن الله إلى شيء يعتقد أنه ينفعه أو يدفع عنه؛ كما تقدم بيانه في الأحاديث في هذا الباب والذي قبله، وهو ينافي قوله تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة]، فإن كان من الشرك الأصغر فهو ينافي كمال التوحيد، وإن كان من الشرك الأكبر - عبادة أرباب القبور والمشاهد والطواغيت ونحو ذلك - فهو كفر بالله، وخروج من دين الإسلام، ولا يصح معه قول ولا عمل .

■ قوله: «وُكِّلَ إليه»: أي وكله الله إليه، إلى ما علّق قلبه به من دون الله، ومن وكله الله إلى غيره ضل وهلك.

□ قال الإمام أحمد^(١): حدثنا هشام بن قاسم: حدثنا أبو سعيد المؤدب: حدثنا من سمع عطاء الخراساني قال: «لقيت وهب بن منبه وهو يطوف بالبيت؛ فقلت: حدّثني بحديث أحفظه عنك في مقامي هذا وأوجز، قال: نعم، أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود، أما وعزتي وعظمتي لا يعتصم بي عبدٌ من عبيدي دون خلقي - أعرفُ ذلك من نيته -؛ فتكيدُه السماوات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن = إلا جعلتُ له من بينهن فرجًا ومخرجًا. أما وعزتي وعظمتي ما يعتصم عبدٌ من عبيدي بمخلوق دوني - أعرفُ ذلك من نيته - إلا قطعْتُ أسباب السماء من يده، وأسختُ^(٢) الأرض من تحت قدميه، ثم لا أبالي بأي وادٍ هلك»، وشاهد هذا في القرآن فتدبر.

■ قوله: «وروى أحمد عن رويفع قال: قال لي رسول الله: ﷺ: (يا رويفع، لعل الحياة تطول بك؛ فأخبر الناس أن من عقد لحيته، أو تقلّد وترًا، أو استنجى برجيع دابةٍ أو عظمٍ = فإن محمدًا بريء منه): رويفع هو ابن ثابت بن السكن بن عدي بن الحارث الأنصاري، نزل مصر وولّي بركة، له ثمانية أحاديث.

قال عبدالغني: ولي طرابلس، فافتتح أفريقية سنة سبع وأربعين. وقال ابن يونس: توفي ببرقة سنة ست وخمسين.

(١) هذا الإطلاق يوحي أنه في «المسند»، وليس كذلك.

(٢) أسخت: خسفت.

■ قوله: «لعل الحياة تطول بك»: فقد طالت حياته ﷺ كما أخبر النبي ﷺ.

■ قوله: «فأخير الناس أن من عقد لحيته»:

□ قال الخطابي: «أما نهيه عن عقد اللحية فيُفسَّر على وجهين:

أحدهما: ما كانوا يفعلونه في الحرب، كانوا يعقدون لحاهم، وذلك من زيِّ بعض الأعاجم؛ يفتلونها ويعقدونها، قال أبو السعادات: تكبراً أو عجباً.

ثانيهما: أن معناه: معالجة الشعر ليتعقد ويتجدد» انتهى.

قلت: ويشبه هذا ما يفعله كثيرٌ من قتل أطراف الشارب؛ فيترك أطرافه لذلك، وهي بعضه، وفي حديث زيد بن أرقم قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يأخذ من شاربِه فليس منا»، رواه أحمد والنسائي والترمذي، وقال: «صحيح»^(١).

وفي الصحيح: «خالفوا المشركين، أحفوا الشوارب، وأعفوا

(١) صحيح: رواه أحمد (٣٦٦/٤)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٥٦٤/٨)، والترمذي (٢٧٦١)، والنسائي في «الكبرى» (١٤)، و«المجتبى» (١٣)، وعبد بن حميد (٢٦٤)، وابن عدي في «الكامل» (٢٣٦١/٦)، والفسوي في «المعرفة والتاريخ» (٢٣٣/٣)، والعقيلي في «الضعفاء» (١٩٥/٤)، وابن حبان (٥٤٧٧)، والطبراني في «الكبير» (٥٠٣٣)، وفي «الأوسط» (٣٠٢٧)، وفي «الصغير» (٢٧٨)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٣٥٦)، والبيهقي في «الآداب» (٦٩٢)، وفي «الشعب» (٦٠٢٤)، والخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (٨٦٤)، وقال الإمام الترمذي: «حسن صحيح»، وصحَّحه الشيخ الألباني عند الترمذي، والشيخ شعيب الأرناؤوط في «المسند» (٧/٣٢).

اللعن^(١)؛ وذلك يدل على الوجوب، وذكر ابن حزم الإجماع على أنه فرض؛ فيتعين النهي عن ذلك.

■ قوله: «أو تقلد وترًا»: فيه - مع ما تقدم - أنه شرك؛ لما كانوا يقصدونه بتعليقه على الدواب وغيرها.

■ قوله: «أو استنجى برجيع دابة أو عظم = فإن محمدًا بريء منه»: هذا دليل على أن هذا والذي قبله من الكبائر؛ لأن قوله: «أن محمدًا بريء منه» يدل على ذلك.

وقول النووي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «أي: بريء من فعله»: فهذا التأويل بعيد؛ لعود الضمير إلى «من»، وقد ورد النهي عن الاستنجاء بالروث والعظام في أحاديث صحيحة كما لا يخفى:

منها ما رواه مسلم في «صحيحه» عن ابن مسعود مرفوعًا: «لا تستنجوا بالروث، ولا العظام؛ فإنه زاد إخوانكم من الجن»^(٢).

ولما روى ابن خزيمة والدارقطني عن أبي هريرة: نهى أن يُستنجى بعظم أو روث، وقال: «إنهما لا يُطهَّران»^(٣).

وعنه: لا يجزي الاستنجاء بهما، كما هو ظاهر مذهب أحمد.

■ قوله: «وعن سعيد بن جبير قال: «من قطع تميمه من إنسان كان كعدل رقبة»: رواه وكيع»: هذا عند أهل العلم له حكمُ الرفع؛ لأن مثل ذلك لا يقال بالرأي؛ فيكون هذا مرسلًا؛ لأن سعيدًا تابعي،

(١) رواه البخاري (٥٨٩٢)، ومسلم (٢٥٩)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) رواه مسلم (٤٥٠).

(٣) صحيح: رواه الدَّارَقُطْنِي (١٥٢)، وابن عدي في «الكامل» (١١٧٩/٣)، وصَحَّحَه الإمام الدارقطني عقب تخريجه.

فعلى هذا يجب النهي عن تعليق التمايم، والترغيب في قطعها، وأن ذلك مما يجب، وفيه - مع ما تقدم - أنه شرك، وبيان حال السلف عليهم السلام من تعظيم الشرك قليله وكثيره، والنهي عنه، فلما اشتدت غربة الإسلام في أواخر هذه الأمة صار إنكارُ هذا وما هو أعظم منه أعظم المنكرات حتى عند من ينتسب إلى العلم - كما لا يخفى - .

ووكيع هو ابن الجراح بن وكيع الكوفي، ثقة إمام، صاحب تصانيف؛ منها «الجامع» وغيره، روى عنه الإمام أحمد وطبقته، مات سنة سبع وتسعين ومئة.

■ قوله: «وله عن إبراهيم قال: كانوا يكرهون التمايم كلها من القرآن وغير القرآن»: إبراهيم هو الإمام إبراهيم بن يزيد النخعي الكوفي؛ يكنى: أبا عمران، ثقة من كبار الفقهاء، مات سنة ست وتسعين، وله خمسون سنة أو نحوها.

■ قوله: «كانوا يكرهون»: أراد أصحاب عبد الله بن مسعود؛ كعلقمة، والأسود، وأبي وائل، والحارث بن سويد، وعبيدة السلماني، ومسروق، والربيع بن خثيم، وسويد بن غفلة، وغيرهم، وهم من سادات التابعين، وفي زمانهم كانوا يطلقون الكراهة على المحرم، وهذا [هو] القول الصحيح؛ لأن ما كان من غير القرآن قد تقدم النهي عنه بلا ريب، وأما إذا كان من القرآن فيتعين النهي عنه لأمر ثلاثة:

منها: دخوله في عموم المنهي عنه.

ومنها: كونه ذريعةً إلى تعليق ما ليس من القرآن؛ فيفضي إلى عدم إنكارها.

الثالث: أن تعليق القرآن يكون سببًا في امتهانه؛ فلا بد أن يدخل به الخلاء ونحوه.

□ قال المصنف رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى: «والرقى هي التي تسمى: العزائم، وخص منه الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة. والتّولة شيء يصنعونه يزعمون أنه يحجب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته».

□ قال الحافظ [ابن حجر]: «التّولة - بكسر المثناة وفتح الواو واللام مخففاً -: شيء كانت المرأة تجلب به محبة زوجها، وهو ضرب من السحر». والله أعلم.



فيه مسائل:

الأولى: تفسير الرقى والتمايم.

الثانية: تفسير التّولة.

الثالثة: أن هذه الثلاث كلّها من الشرك من غير استثناء.

الرابعة: أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمة ليس من ذلك.

الخامسة: أن التميمة إذا كانت من القرآن فقد اختلف العلماء: هل

هي من ذلك أم لا؟

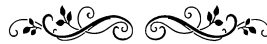
السادسة: أن تعليق الأوتار على الدواب من العين من ذلك.

السابعة: الوعيد الشديد على من تعلق وترًا.

الثامنة: فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان.

التاسعة: أن كلام إبراهيم [النّخعي] لا يخالف ما تقدم من

الاختلاف؛ لأن مراده أصحابُ عبد الله بن مسعود.



❦ [٩] باب: من تبرَّك بشجرٍ أو حجرٍ ونحوهما ❦

وقول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّتَّ وَالْعُزَّىٰ ۖ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخَرَىٰ ۚ﴾ [النجم].

عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين - ونحن حُدثاءُ عهدٍ بكفر -، وللمشركين سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عندها، وَيُنُوطُونَ بها أسلحتهم - يقال لها: ذاتُ أنواط -، فمررنا بِسِدْرَةٍ؛ فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذاتَ أنواط كما لهم ذاتُ أنواط. فقال رسول الله ﷺ: «الله أكبر، إنها السنن؛ قلتم - والذي نفسي بيده - كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ يَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف]! لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ». رواه الترمذي وصححه (١).

الشرح

■ قوله: «باب من تبرَّك بشجرة أو حجر ونحوهما»: كبقعة وقبر ومشهد ونحو ذلك، و«مَنْ» اسم شرط، والجواب محذوف تقديره: فقد أشرك بالله.

■ قوله: «وقول الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّتَّ وَالْعُزَّىٰ ۖ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخَرَىٰ﴾» الآيات: هذه الأوثان الثلاثة هي أعظم أوثان أهل الجاهلية من أهل الحجاز، فاللات لأهل الطائف ومَنْ حولهم مِنَ العرب، والعُزَّى لقريش وبني كنانة، ومناة لبني هلال. وقال ابن هشام:

(١) صحيح: وقد تقدم.

كانت لهذيل وخزاعة .

و«اللات» بتخفيف التاء في قراءة الجمهور، وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وحמיד وأبو صالح ورويس عن يعقوب: بتشديد التاء .

فعلى الأولى: قال الأعمش: سمّوا «اللات» من «الإله»، و«العزى» من «العزیز» .

□ وقال ابن كثير: «اللات كانت صخرة بيضاء منقوشة، عليها بيت بالطائف له أستار وسدنة^(١)، وحوله فناءً معظمٌ عند أهل الطائف - وهم ثقيف ومن تبعها -، يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش. قاله ابن هشام» .

وعلى الثانية: قال ابن عباس: «كان رجلاً يُلْتُ السويقَ للحاج؛ فمات فعكفوا على قبره» . ذكره البخاري .

قلت: ولا منافاة بين ما ذكره البخاري وغيره من عبادتهم الصخرة التي كان يُلْتُ السويق عليها باسمه، وعبادة قبره لمّا مات .
وأما العزى:

□ فقال ابن جرير: «كانت صخرة^(٢) عليها بناءٌ وأستارٌ بنخلة بين مكة والطائف، كانت قريشٌ يعظمونها، كما قال أبو سفيان يوم أُحُد: لنا العزى، ولا عزى لكم. قال رسول الله ﷺ: «قولوا: الله مولانا، ولا مولى لكم»^(٣) .

(١) سدنة: حرّاس .

(٢) في طبعة الأوقاف: «شجرة» .

(٣) رواه البخاري (٣٠٣٩)، من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه .

ومناسبة هذه الآية للترجمة: أن عبادة المشركين للعرى إنما كانت بالثفات القلوب رغبةً إليها في حصول ما يرجونه ببركتها من نفع أو دفع ضرر، فصارت أوثاناً تُعبد من دون الله؛ وذلك من شدة ضلال أهل الشرك وفساد عقولهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَنْصُرُهُمْ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، فصار عبادة القبور وعبادة الشجر والحجر هو شرك المشركين، وقد جرى ذلك وما هو أعظم منه في أواخر هذه الأمة.

■ قوله: «عن أبي واقد»: هو صحابي مشهور، مات سنة ثمان وستين، وله خمس وثمانون سنة.

■ قوله: «خرجنا مع رسول الله ﷺ»: يشير إلى أهل مكة ممن إسلامه قريب إذ ذاك.

■ قوله: «إلى حنين»: هو اسم وادٍ شرقي مكة معروف، قاتل فيه رسول الله ﷺ هوازن؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥]. والوقعة مشهورة عند أهل المغازي والسير وغيرهم، وما جرى فيها من النصر، وأخذ أموالهم، وسبي ذراريهم ونسائهم؛ كما في الآية الكريمة: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥].

■ قوله: «ونحن حدثاء عهد بكفر»: يشير إلى أهل مكة الذين أسلموا قريباً، فلذلك خفي عليهم هذا الشرك المذكور في الحديث بخلاف من تقدم إسلامه.

■ قوله: «وللمشركين سدرّة يعكفون عندها»: عبادة لها، وتعظيمًا وتبركاً؛ لما كانوا يعتقدونه فيها من البركة.

- قوله: «يقال لها: ذات أنواط»: هو برفع التاء كما لا يخفى.
- قوله: «ينوطون بها أسلحتهم»: أي يعلقونها.
- قوله: «فمررنا بسدره؛ فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم»: أي للمشركين «ذات أنواط»؛ ظنوا أن النبي ﷺ لو جعل لهم ذلك لجاز اتخاذها؛ لحصول البركة لمن اعتقدها فيها. و«أنواط» جمع نوط، وهو مصدر سمي به المنوط.
- قوله: «فقال النبي ﷺ: (الله أكبر)»: تعظيمًا لله تعالى عن أن يجعل له شريك في عبادته التي هي حقه على عباده؛ كما قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَمَرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَرَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَافِئِ﴾ [الروم: ٤٣]، وهو الإخلاص، والشرك ينافي ذلك، وتقدم معنى «الحنيف».
- وتضمنت هاتان الآيتان - وما في معناهما - التوحيد الذي دلت عليه «لا إله إلا الله» نفيًا وإثباتًا - كما تقدم بيانه -، فمن التفت قلبه إلى غير الله لطلب نفع أو دفع ضرر فقد أشرك، والقرآن كله في تقرير هذا الأصل العظيم الذي هو أصل دين الإسلام؛ الذي لا يقبل الله من أحد دينًا سواه.
- قوله: «السُّنن» - بضم السين -: أي الطرق. يشير إلى الطرق التي تخالف دينه الذي شرعه تعالى لعباده.
- قوله: «قلتم - والذي نفسي بيده -»: حلف ﷺ على ذلك تأكيدًا لهذا الخبر وتعظيمًا له، «كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾»، وإن لم يسموها آلهة، أخبر أن التبرك بالأشجار يجعلها آلهة - وإن لم يسموها آلهة -؛ ولذلك شبه قولهم هذا بقول

بني إسرائيل لموسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾؛ فظهر بهذا الحديث أن التعلق على الأشجار والأحجار وغيرها لطلب البركة بها شركٌ في العبادة كشرك عباد الأصنام.

■ قوله: «لتركبن سنن من كان قبلكم»: أي اليهود والنصارى، وقد وقع كما أخبر به ﷺ في هذه الأمة؛ فركبوا طريق من كان قبلهم ممن ذكرنا، كما هو في الأحاديث الصحيحة؛ كحديث: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذُو الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ؛ حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحَرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ». قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟»، وهو في «الصحيحين» عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وفي رواية: «ومن الناس إلا أولئك؟»^(١).



فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النجم.

الثانية: معرفة صورة الأمر الذي طلبوا.

الثالثة: كونهم لم يفعلوا.

الرابعة: كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك، لظنهم أنه يحبه.

الخامسة: أنهم إذا جهلوا هذا فغيرهم أولى بالجهل.

السادسة: أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم.

السابعة: أن النبي ﷺ لم يعذرهم في الأمر؛ بل رد عليهم بقوله: «الله أكبر، إنها السنن؛ لَتَبْعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ». فغلظ الأمر بهذه الثلاث.

الثامنة: الأمر الكبير، وهو المقصود: أنه أخبر أن طلبهم كطلب بني إسرائيل لما قالوا لموسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا﴾.

التاسعة: أن نفي هذا من معنى «لا إله إلا الله»، مع دقته وخفائه على أولئك.

العاشرة: أنه حلف على الفتيا، وهو لا يحلف إلا لمصلحة.

الحادية عشرة: أن الشرك فيه أكبر وأصغر، لأنهم لم يرتدوا بهذا.

الثانية عشرة: قولهم: «ونحن حدثاء عهد بكفر»، فيه أن غيرهم لا يجهل ذلك.

الثالثة عشرة: التكبير عند التعجب، خلافاً لمن كرهه.

الرابعة عشرة: سد الذرائع.

الخامسة عشرة: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية.

السادسة عشرة: الغضب عند التعليم .

السابعة عشرة: القاعدة الكلية لقوله : «إنها السنن» .

الثامنة عشرة: أن هذا عِلْمٌ من أعلام النبوة، لكونه وقع كما أخبر .

التاسعة عشرة: أن كلَّ ما ذمَّ الله به اليهود والنصارى في القرآن

أنه لنا .

العشرون: أنه متقرَّرٌ عندهم أن العبادات مبناهما على الأمر، فصار

فيه التنبيه على مسائل القبر . أما «من ربُّك؟» فواضح، وأما «من

نبيُّك؟» فمن إخباره بأنباء الغيب . وأما «ما دينُك؟» فمن قولهم:

«اجعل لنا» إلى آخره .

الحادية والعشرون: أن سُنَّةَ أهل الكتاب مذمومة كسنة المشركين .

الثانية والعشرون: أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه، لا يؤمَّنُ

أن يكون في قلبه بقيةٌ من تلك العادة، لقولهم: «ونحن حدثاء عهد

بكفر» .



[١٠] باب: ما جاء في الذبح لغير الله

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام].

وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر].

عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: «لعن الله من ذبح لغير الله. لعن الله من لعن والديه. لعن الله من آوى محدثاً؛ لعن الله من غير منار الأرض». رواه مسلم ^(١).

وعن طارق بن شهاب: أن رسول الله ﷺ قال: «دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب». قالوا: وكيف ذلك - يا رسول الله -؟ قال: «مر رجلان على قوم لهم صنم، لا يجوزُهُ أحدٌ حتى يقرب له شيئاً، فقالوا لأحدهما: قرب. قال: ليس عندي شيء أقرب. قالوا له: قرب ولو ذباباً. فقرب ذباباً، فخلوا سبيله؛ فدخل النار. وقالوا للآخر: قرب. فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله ﷻ، فضربوا عنقه؛ فدخل الجنة». رواه أحمد ^(٢).

الشرح

■ قوله: «باب: ما جاء في الذبح لغير الله. وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ...﴾ الآية»:

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح موقوفاً، ولم أجده مرفوعاً: وقد تقدم.

□ قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «يأمره تعالى أن يخبر المشركين - الذين يعبدون غير الله، ويذبحون له -: أنه أخلص لله صلاته وذبيحته؛ لأن المشركين يعبدون الأصنام، ويذبحون لها، فأمره تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى» انتهى.

فالصلوات الخمس هي أعظم فرائض الإسلام بعد الشهادتين.

■ قوله: ﴿صَلَاتِي﴾: يشمل الفرائض والنوافل، والصلوات كلها عبادة. وقد اشتملت على نوعي الدعاء: دعاء المسألة، ودعاء العبادة:

- فما كان فيها من السؤال والطلب فهو دعاء مسألة.

- وما كان فيها من الحمد والثناء، والتسبيح والركوع والسجود، وغير ذلك من الأركان والواجبات = هو دعاء عبادة.

وهذا هو التحقيق في تسميتها «صلاة»؛ لأنها اشتملت على نوعي الدعاء الذي هو صلاة لغةً وشرعاً. قرره شيخ الإسلام وابن القيم رَحِمَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى.

■ قوله: ﴿وَسُكِّي﴾: قال الثوري عن السدي عن سعيد بن جبير «﴿وَسُكِّي﴾: ذبحي»، وكذلك قال الضحاك.

■ قوله: ﴿وَحَيَايَ وَمَمَاتِي﴾: أي ما آتية في حياتي وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح.

■ قوله: ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾: خالصاً لوجهه.

■ قوله: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾: أي: من هذه

الأمة، وهذا قول أئمة التفسير^(١).

والمقصود: أن هذه الآية دلت على أن أقوال العبد وأعماله الباطنة والظاهرة لا يجوز أن يُصرف منها شيءٌ لغير الله - كائنًا من كان -، فمن صرف منها شيئًا لغير الله فقد وقع فيما نفاه تعالى من الشرك بقوله: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام]. والقرآن كله في تقريره هذا التوحيد في عبادته، وبيانه، ونفي الشرك والبراءة منه.

■ قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر]:

□ قال شيخ الإسلام: «أمره أن يجمع بين هاتين العبادتين - وهما الصلاة والنسك - الدالتان على القرب والتواضع، والافتقار وحسن الظن، وقوة اليقين، وطمأنينة القلب إلى الله، وإلى عِدَّتِهِ^(٢)، عكس أهل الكبر والنفرة وأهل الغنى عن الله؛ الذين لا حاجة لهم في صلاتهم إلى ربهم، والذين لا ينحرون له خوفًا من الفقر؛ ولهذا جمع بينهما في قوله: ﴿قُلْ إِنْ صَلَّيْتُ وَاسْتَمَرْتُ...﴾ الآية» اهـ.

وقد قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [المائدة: ٣] الآية.

■ قوله: «عن عليٍّ عليه السلام»: وعلي بن أبي طالب هو الإمام أبو الحسن الهاشمي، ابن عم النبي صلى الله عليه وآله، وزوج ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام، كان من أسبق السابقين الأولين، ومن أهل بدر وبيعة الرضوان، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، ورابع الخلفاء الراشدين،

(١) وقال بعضهم: المراد: وأنا أول العاملين بأوامره عليه السلام.

(٢) العِدَّة: الوعد.

ومناقبه مشهورة ﷺ؛ قتله ابن ملجم الخارجي في رمضان سنة أربعين.

□ قال أبو السعادات: «أصل اللعن: الطرد والإبعاد من الله».

■ قوله: «من ذبح لغير الله»:

□ قال شيخ الإسلام: «قوله: ﴿وَمَا أَهْلَ بِهِ لغيرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]

ظاهره أنه ما ذبح لغير الله؛ مثل أن يقال: هذا ذبيحة لكذا، وإذا كان هذا هو المقصود فسواء لُفِظ به أو لم يُلفِظ، وتحريمُ هذا أظهر من تحريم ما ذُبح للحم، وقال فيه: «باسم المسيح» ونحوه، كما أن ما ذبحناه متقربين به إلى الله كان أذكى وأعظم مما ذبحناه للحم وقلنا عليه: «باسم الله»، فإذا حُرِّم ما قيل فيه: «باسم المسيح والزهرة»؛ فلأن يحُرِّم ما قيل فيه: «لأجل المسيح أو الزهرة»، أو قُصِد به ذلك = أولى، فإن العبادة لغير الله أعظم كفرًا من الاستعانة بغير الله، فعلى هذا لو ذبح لغير الله متقربًا إليه يحُرِّم، وإن قال فيه: «بسم الله»، كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة الذين يتقربون إلى الكواكب بالذبح والبخور ونحو ذلك، وإن كان هؤلاء مرتدين لا تُباح ذبيحتهم بحال... إلخ، ومن ذلك الذبح للجن.

■ قوله: «لعن الله من لعن والديه»: يعني أباه وأمه وإن علوا.

وفي «الصحيح» أن رسول الله ﷺ قال: «من الكبائر شتم الرجل والديه». قالوا: يا رسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: «نعم؛ يسبُّ أبا الرجل؛ فيسبُّ أباه، ويسبُّ أمه؛ فيسبُّ أمه»^(١).

■ قوله: «لعن الله من آوى محدثًا»: وهو بفتح الهمزة ممدودة،

(١) رواه البخاري (٥٩٧٣)، ومسلم (٩٠)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

أي: ضمّه إليه وحماه.

وأما «مُحدثاً»: فقال أبو السعادات: «يروى بكسر الدال وفتحها على الفاعل والمفعول».

فمعنى الكسر: من نصر جانياً وآواه، وأجاره من خصمه، وحال بينه وبين أن يُقتص منه.

والفتح: هو الأمر المبتدع نفسه.

ويكون معنى الإيواء فيه: الرضى به والنصر؛ فإنه إذا ارتضى بالبدعة وأقر فاعلها ولم ينكر عليه = فقد آواه.

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «هذه الكبيرة تختلف مراتبها باختلاف مراتب الحدث في نفسه؛ فكلما كان الحدث في نفسه أكبر كانت الكبيرة أعظم».

■ قوله: «لعن الله من غير منار الأرض» - بفتح الميم -: علامات حدودها، وهي التي توضع لتمييز حق الشركاء إذا اقتسموا ما بينهم في الأرض والدُّور.

□ قال في «النهاية»: «أي: معالمها وحدودها».

قلت: وذلك بأن يرفع ما جعل علامة على تمييز حقه من حق شريكه؛ فيأخذ من حق شريكه بعضه؛ فهذا ظلمٌ عظيم، وفي الحديث: «مَنْ ظَلَمَ شَبْرًا مِنَ الْأَرْضِ طَوَّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرْضِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(١)، فما أَجْهَلَ أَكْثَرَ الْخَلْقِ حَتَّى وَقَعُوا بِجَهْلِهِمْ وَظُلْمِهِمْ فِيمَا يَضُرُّهُمْ فِي دُنْيَاهُمْ وَأَخْرَاهُمْ! وذلك لضعف الإيمان بالمعاد والحساب على الأعمال والجنة والنار. نسأل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

(١) رواه البخاري (٣١٨٩)، ومسلم (١٦١٠)، من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

■ قوله: «عن طارق بن شهاب»: البجلي الأحمسي، أبو عبد الله.
قال أبو داود: «رأى النبي ﷺ ولم يسمع منه شيئاً».

□ قال الحافظ: «إذا ثبت أنه لقي النبي ﷺ فهو صحابي، وإذا ثبت أنه لم يسمع منه؛ فروايته عنه مرسل صحابي، وهو مقبول على الراجح».

وكانت وفاته - على ما جزم به ابن حبان - سنة ثلاث وثمانين.
□ قال ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى: «قال الإمام أحمد رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى: حدثنا أبو معاوية: [حدثنا] الأعمش، عن سليمان بن ميسرة، عن طارق بن شهاب يرفعه قال: «دخل الجنة رجل في ذباب...» الحديث».

■ قوله: «في ذباب»: أي من أجله.

■ قوله: «قالوا: وكيف ذلك - يا رسول الله -؟»: كأنهم - والله أعلم - تقالوا هذا العمل، وهو تقريبُ الذباب للصنم، فبين لهم النبي ﷺ أن من فعل هذا وما هو أعظم منه وجبت له النار.

■ قوله: «مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئاً، فقالوا لأحدهما: قرب، فقال: ليس عندي شيء أقرب، قالوا له: قرب ولو ذباباً، فحلبوا سبيله، فدخل النار؛ لأنه قصد غير الله بقلبه، أو انقاد بعمله؛ فوجبت له النار، ففيه معنى حديث مسلم الذي تقدم في «باب الخوف من الشرك» عن جابر مرفوعاً: «من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار»^(١)، فإذا كان هذا فيمن قرب للصنم ذباباً؛ فكيف بمن يستسمن الإبل والبقر والغنم؛ ليتقرب بنحرها وذبحها لمن كان

يعبده من دون الله من ميتٍ أو غائبٍ، أو طاغوتٍ أو مشهدٍ، أو شجرٍ أو حجرٍ، أو غير ذلك؟ وكان هؤلاء المشركون في أواخر هذه الأمة يَعُدُّونَ ذلك أفضل من الأضحية في وقتها الذي شُرعت فيه، وربما اكتفى بعضهم بذلك عن أن يضحي لشدة رغبته وتعظيمه ورجائه لمن كان يعبده من دون الله، وقد عمت البلوى بهذا وما هو أعظم منه.

■ قوله: «وقالوا للآخر: قرب، قال: ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله ﷻ. فضربوا عنقه، فدخل الجنة»: ففيه معرفة قدر الشرك في قلوب أهل الإيمان ونُفرتهم عنه، وصلابتهم في الإخلاص؛ كما في حديث أنس الذي في البخاري وغيره الآتي - إن شاء الله تعالى -: «ثلاثٌ من كن فيه وجد حلاوة الإيمان»، وفيه: «وأن يكره أن يعود في الكفر - بعد إذ أنقذه الله منه - كما يكره أن يُقذف في النار»^(١).

وفيه تفاوت الناس في الإيمان؛ لأن هذا الرجل الذي قَرَّب الذباب لم يكن له عملٌ يستحق به دخول النار قبل ما فعله مع هذا الصنم - كما هو ظاهر الحديث -، والله أعلم.



(١) صحيح: وقد تقدم.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾.

الثانية: تفسير ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنحَرْ﴾.

الثالثة: البداءة بلعنة مَنْ ذبح لغير الله.

الرابعة: لعنُ من لعن والديه، ومنه: أن تلعنَ والدَي الرجل؛ فيلعن والدَيْك.

الخامسة: لعنُ من آوى مُحدثًا؛ وهو الرجل يُحدثُ شيئًا يجب فيه حق الله، فيلتجئُ إلى من يُجيرُه من ذلك.

السادسة: لعن من غيّر منار الأرض، وهي المراسيم التي تُفرق بين حقّ وحق جارك، فتغيّرُها بتقديم أو تأخير.

السابعة: الفرق بين لعن المعيّن ولعن أهل المعاصي على سبيل العموم.

الثامنة: هذه القصةُ العظيمة، وهي قصة الذباب.

التاسعة: كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده؛ بل فعله تخلصًا من شرهم.

العاشرة: معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين، كيف صبر ذلك على القتل ولم يوافقهم على طلبتهم، مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر.

الحادية عشرة: أن الذي دخل النار مسلم؛ لأنه لو كان كافرًا لم يقل: «دخل النار في ذباب».

الثانية عشرة: فيه شاهدٌ للحديث الصحيح: «الجنة أقرب إلى أحدكم

من شراك نعله، والنارُ مثل ذلك»^(١).
الثالثة عشرة: معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم، حتى عند عبدة الأوثان.



❦ [١١] باب: لا يُذبح لله بمكانٍ يُذبح فيه لغير الله ❦

وقول الله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا لِلَّهِ وَجْهَ الْمُطَهَّرِينَ﴾ (١٠٨) [التوبة].

وعن ثابت بن الضحَّاك رضي الله عنه قال: نذر رجل أن ينحر إبلاً ببوانة، فسأل النبي ﷺ، فقال: «هل كان فيها وثنٌ من أوثان الجاهلية يُعبد؟»، قالوا: لا. قال: «فهل كان فيها عيدٌ من أعيادهم؟»، قالوا: لا. فقال رسول الله ﷺ: «أوفِ بنذرِك؛ فإنه لا وفاء لنذرٍ في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابنُ آدم». رواه أبو داود، وإسناده على شرطهما ^(١).

الشرح

■ قوله: «باب: لا يُذبح لله بمكانٍ يُذبح فيه لغير الله»: أشار رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى إلى ما كان الناس يفعلونه في نجدٍ وغيرها قبل دعوتهم إلى التوحيد؛ من ذبحهم للجن لطلب الشفاء منهم لمرضاهم، ويتخذون للذبح لهم مكاناً مخصوصاً في دُورهم، فنفى الله سبحانه الشرك بهذه الدعوة الإسلامية، فله الحمد على زوال الشرك والبدع والفساد؛ بطلعة الداعي إلى توحيد رب العالمين.

■ قوله: «وقول الله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا...﴾ الآية: أي: مسجد الضرار المذكور في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا

وَتَقَرَّبًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِصْرًا دَا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلِيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدَ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ﴿التوبة﴾، وهو مسجد قباء، فقد أسس على التقوى من أول يوم قدم فيه ﷺ المدينة مهاجرًا، وكان أهل مسجد الضرار قد بنوه قبل خروج النبي ﷺ إلى غزوة تبوك، فأتوه فسألوه أن يصلي فيه، وذكروا له أنهم بنوه للضعفاء وأهل العلة في الليلة الشاتية؛ فقال: «إِنَّا عَلَى سَفَرٍ، وَلَكِنْ إِذَا رَجَعْنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ»، فلما قفل ﷺ راجعًا إلى المدينة، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعضه، نزل الوحي بخبر المسجد، فبعث إليه وهدمه قبل قدومه إلى المدينة - صلوات الله وسلامه عليه -، وأنزل الله فيه هذه الآيات ^(١).

ووجه مطابقة الآية للترجمة: أن هذا المسجد لما أسس على معصية الله والكفر به صار محل غضب، فنهى الله نبيه ﷺ أن يقوم فيه لوجود العلة المانعة، وخرج مخرج الخصوص، والنهي عام، وما كان مثله من الأمكنة فإنه يُعْطَى حكمه؛ لأن المعصية صيرته محلًا خبيثًا، وأثرت فيه بالنهي عن العبادة فيه، ويقابل ذلك المساجد، وهي أشرف بقاع الأرض، قال تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ أَذْنُ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْقُدُوسِ وَالْأَصَالِ ﴿٢٦﴾ رِجَالٌ﴾ [النور] الآية. فما أحسن هذا القياس! ويأتي تقريره في الحديث في الباب - إن شاء الله تعالى -.

■ قوله: «عن ثابت بن الضحاك»: أي ابن خليفة الأشهلي، صحابي

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» (٢١١/٤).

مشهور، روى عنه أبو قلابة وغيره، مات سنة أربع وستين.

■ قوله: «بئوانة» - بضم الباء، وقيل بفتحها -: قال البغوي: موضع في أسفل مكة دون يَلَمْلَم. قال أبو السعادات: هضبة من وراء ينبع.

■ قوله: «فهل كان فيها وثنٌ من أوثان الجاهلية يعبد؟»: فيه المنع من الوفاء بالنذر إذا كان في المكان وثن - ولو بعد زواله -. قاله المصنف رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، وهو شاهد الترجمة.

■ قوله: «فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟»:

□ قال شيخ الإسلام: «العيد اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجهٍ معتاد؛ عائد إما بعود السنة، أو بعود الأسبوع، أو الشهر ونحوه، والمراد به هنا: الاجتماع المعتاد من اجتماع أهل الجاهلية، فالعيد يجمع أمورًا:

منها: يوم عائد؛ كيوم الفطر ويوم الجمعة.

ومنها: اجتماع فيه.

ومنها: أعمال تتبع ذلك من العبادات والعادات.

وقد يختص العيد بمكان بعينه، وقد يكون مطلقًا، وكل من هذه الأمور قد يسمى عيدًا:

- في الزمان كقول النبي ﷺ في يوم الجمعة: «إن هذا يومٌ جعله الله للمسلمين عيدًا»^(١).

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (١٠٩٨)، والدَّارَقُطْنِي في «العلل» (٤٥/٢)، من حديث ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. وَضَعَفَهُ الإمام البوصيري، وَحَسَّنَهُ الشيخ الألباني عند ابن ماجه، وَصَحَّحَهُ لغيره الشيخ شعيب الأرناؤوط عنده =

- وللإجماع والأعمال؛ كقول ابن عباس رضي الله عنه: «شهدت العيد مع رسول الله ﷺ»^(١).

- والمكان؛ كقول النبي ﷺ «لا تتخذوا قبري عيداً»^(٢).

وقد يكون لفظ «العيد» اسماً لمجموع اليوم والعمل فيه - وهو الغالب -؛ كقول النبي ﷺ «دعهما - يا أبا بكر -؛ فإن لكل قوم عيداً»^(٣) انتهى.

وقد أحدث هؤلاء المشركون أعياداً عند القبور التي تُعبد من دون الله، ويسمونها عيداً، كمولد البدوي بمصر وغيره؛ بل هي أعظم لما يوجد فيها من الشرك والمعاصي العظيمة.

□ قال المصنف رحمته الله تعالى: «وفيه استفصال المفتي، والمنع من الوفاء بالنذر بمكان عيد الجاهلية ولو بعد زواله».

قلت: وفيه المنع من اتخاذ آثار المشركين محلاً للعبادة؛ لكونها صارت محلاً لما حرم الله من الشرك والمعاصي، والحديث وإن كان في النذر فيشمل كل ما كان عبادةً لله، فلا تُفعل في هذه الأماكن الخبيثة التي اتُّخذت محلاً لما يُسخط الله تعالى، فبهذا صار الحديث شاهداً للترجمة.

= - أيضاً - (١٩٧/٢).

ورواه مالك (٥٩)، والشافعي (٢٦٨)، والبيهقي في «الكبرى» (٥٧٥٢)، من حديث ابن السباق رحمته الله - رسلاً -، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٢٥٨).

(١) رواه البخاري (٩٦٢) - واللفظ له -، ومسلم (٨٨٤).

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) رواه البخاري (٣٩٣١)، ومسلم (٨٩٢)، من حديث أمنا عائشة رضي الله عنها.

والمصنف رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى لم يُرد التخصيص بالذبح، وإنما ذكر الذبح كالمثال.

وقد استشكل جعل محلّ اللات بالطائف مسجداً.

والجواب - والله أعلم -: أنه لو ترك هذا المحل في هذه البلدة لكان يخشى أن تُفتتن به قلوبُ الجاهل؛ فيرجع إلى جعله وثناً كما كان يفعل فيه أولاً، فجعله مسجداً - والحالة هذه - يُنسي ما كان يفعل فيه، ويذهب به أثرُ الشرك بالكلية، فاختص هذا المحل لهذه العلة، وهي قوة المعارض. والله أعلم.

■ قوله: «فأوفِ بنذرك»: وذلك لعدم المانع.

■ قوله: «فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله»: فالحديث دلٌّ على أن اتخاذ أماكن الشرك والمعاصي لا يجوز أن يُعبد الله فيها، ونذرٌ ذلك معصيةٌ لا يجوز الوفاء به.

■ قوله: «ولا فيما لا يملك ابن آدم»:

□ قال في شرح «المصابيح»: «يعني إذا أضاف النذر إلى معين لا يملكه، بأن قال: إن شفى الله مريضاً فله عليّ أن أعتق العبد الفلاني^(١) ونحو ذلك، فأما إذا التزم في الذمة بأن قال: إن شفى الله مريضاً فله عليّ أن أعتق رقبةً - وهو في تلك الحال لا يملكها ولا قيمتها -، فإذا شفى الله مريضه ثبت ذلك في ذمته».

■ قوله: «رواه أبو داود وإسناده على شرطهما»: أي البخاري ومسلم. وأبو داود اسمه سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد الأزدي السجستاني، صاحب الإمام أحمد بن حنبل، ومصنف

(١) في المطبوع: «عبدى فلان!» والصحيح - إن شاء الله - ما أثبتّه.

«السنن» و«المراسيل» وغيرها، ثقة إمام حافظ من كبار العلماء،
مات سنة خمس وسبعين ومئتين رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.



فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾.

الثانية: أن المعصية قد تؤثر في الأرض، وكذلك الطاعة.

الثالثة: رد المسألة المشككة إلى المسألة البيّنة؛ ليزول الإشكال.

الرابعة: استفصال المفتي إذا احتاج إلى ذلك.

الخامسة: أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به، إذا خلا من

الموانع.

السادسة: المنع منه إذا كان فيه وثنٌ من أوثان الجاهلية، ولو بعد

زواله.

السابعة: المنع منه إذا كان فيه عيدٌ من أعيادهم، ولو بعد زواله.

الثامنة: أنه لا يجوز الوفاء بما نُذر في تلك البقعة؛ لأنه نذر

معصية.

التاسعة: الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم، ولو لم يقصده.

العاشرة: لا نذر في معصية.

الحادية عشرة: لا نذر لابن آدم فيما لا يملك.



❦ [١٢] باب: من الشرك النذر لغير الله ❦

وقول الله تعالى: ﴿يُؤْفُونَ بِالْأَنْذَرِ﴾ [الإنسان].

وقوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾

[البقرة: ٢٧٠].

وفي «الصحيح» عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ نذر أن يطيع الله فليطعه؛ وَمَنْ نذر أن يعصي الله فلا يعصه» ^(١).

الشرح

■ قوله: «باب: من الشرك النذر لغير الله، وقول الله تعالى: ﴿يُؤْفُونَ بِالْأَنْذَرِ...﴾ الآية»:

□ قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى: «أي يتعبدون لله تعالى فيما أوجبه عليهم من فعل الطاعات الواجبة بأصل الشرع، وما أوجبه على أنفسهم بطريق النذر».

■ قوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾:

□ قال ابن كثير: «يخبر الله تعالى بأنه عالمٌ بجميع ما يعمله العاملون من النفقات والمنذورات، وتضمن ذلك مجازاتهم على ذلك أوفر الجزاء للعاملين به ابتغاء وجهه».

□ قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «وأما النذر لغير الله؛ كالنذر للأصنام والشمس والقمر والقبور ونحو ذلك = فهو شرك».

□ وقال - فيمن نذر للقبور ونحوها دهناً لتُنَوَّرَ به، ويقول: إنها

تقبل النذر كما يقوله بعض المشركين -: «فهذا النذر معصيةٌ باتفاق المسلمين؛ لا يجوز الوفاء به، وكذلك إذا نذر مالا للسدنة أو المجاورين العاكفين بتلك البقعة؛ فإن فيهم شبهة من السدنة التي كانت عند العزى ومناة؛ يأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله، والمجاورون هناك فيهم شبهة من الذين قال فيهم الخليل عليه السلام: ﴿مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أُسِّدَ لَهَا عِبَادُكُمْ﴾ [الأنبياء]، فالنذر لأولئك السدنة والمجاورين في هذه البقاع نذرٌ معصية، وفيه شبهة من النذر لسدنة الصلبان والمجاورين عندها» انتهى.

وذلك لأن الناذر لله وحده علّق رغبته به وحده؛ لعلمه بأنه تعالى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، فتوحيد القصد هو توحيد العبادة، ولهذا ترتب عليه وجوب الوفاء فيما نذره طاعة لله، والعبادة إذا صُرفت لغير الله صار ذلك شركاً بالله؛ لالتفاتة إلى غيره تعالى فيما يُرغب فيه أو يُرهب؛ فقد جعله شريكاً لله في العبادة، فيكون قد أثبت ما نفتته «لا إله إلا الله» من إلهية غير الله. ولم يُثبت ما أثبتته من الإخلاص.

وكل هذه الأبواب التي ذكرها المصنف رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى تدل على أن من أشرك مع الله غيره بالقصد والطلب فقد خالف ما نفتته «لا إله إلا الله»، فعكس مدلولها؛ فأثبت ما نفتته، ونفى ما أثبتته من التوحيد.

□ وهذا معنى قول شيخنا: «وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب».

فكل شرك وقع - أو قد يقع - فهو ينافي كلمة الإخلاص وما تضمنته من التوحيد.

□ قال الرافعي في «شرح المنهاج»: «وأما النذر للمُشاهد التي على قبر وليٍّ أو شيخ، أو على اسمٍ مَنْ حلَّها من الأولياء، أو تردد في تلك البقعة أو المشهد أو الزاوية، أو تعظيمٌ من دُفن بها، أو نُسبت إليه، أو بُنيت على اسمه = فهذا النذر باطلٌ غير منعقد؛ فإن معتقدهم أن لهذه الأماكن خصوصيات، ويرَوْنَ أنها مما يُدفع به البلاء، ويُستجلب به النعماء، ويُستشفى بالنذر لهما من الأدواء، حتى إنهم لينذرون لبعض الأحجار لَمَّا قيل لهم: إنه استند إليها عبدٌ صالح، وينذرون لبعض القبور السُّرُج والشمع والزيت، ويقولون: «القبر الفلاني أو المكان الفلاني يقبل النذر»، يعنون بذلك أنه يحصل به الغرض المأمول من شفاء مريض، أو قدوم غائب، وسلامة مال، وغير ذلك من أنواع نذر المجازاة، فهذا النذر على هذا الوجه باطلٌ لا شك فيه؛ بل نذر الزيت والشمع ونحوهما للقبور باطل مطلقاً، ومن ذلك نذر الشموع الكثيرة العظيمة وغيرها لقبر إبراهيم الخليل عليه السلام، ولقبر غيره من الأنبياء والأولياء؛ فإن الناذر لا يقصد بذلك إلا الإيقادَ على القبر تبرُّكاً وتعظيمًا؛ ظانًّا أن ذلك قرْبَةٌ؛ فهذا مما لا ريب في بطلانه، والإيقاد المذكور محرم؛ سواء انتفع به منتفعٌ أم لا».

□ وقال الشيخ قاسم الحنفي في شرح «درر البحار»: «النذر الذي ينذره أكثرُ العوام على ما هو مشاهد؛ كأن يكون لإنسان غائبٌ أو مريض، أو له حاجة؛ فيأتي إلى بعض الصلحاء، ويجعل على رأسه سترة، ويقول: «يا سيدي فلان، إن رد الله غائبي أو قُضيت حاجتي

فلك من الذهب كذا، أو من الفضة كذا، أو من الطعام كذا، أو من الماء كذا، أو من الشمع والزيت كذا» = فهذا النذر باطل بالإجماع لوجوه:

منها: أنه نذر لمخلوق، والنذر للمخلوق لا يجوز؛ لأنه عبادة، والعبادة لا تكون لمخلوق.

ومنها: أن المنذور له ميت، والميت لا يملك شيئاً.

ومنها: أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله تعالى، واعتقاد ذلك كفر.

□ إلى أن قال: «إذا علمت هذا، فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وينتقل إلى ضرائح الأولياء تقرباً إليهم = فحرام بإجماع المسلمين». نقله عنه ابن نجيم في «البحر الرائق»، ونقله المرشدي في «تذكرته» وغيرهما عنه، وزاد: «وقد ابتلي الناس بهذا؛ لا سيما في مولد البدوي».

□ وقال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي رَحِمَهُ اللهُ فِي الرَّدِ عَلَى مَنْ أَجَازَ الذَّبْحَ وَالنَّذْرَ لِلْأَوْلِيَاءِ: «فهذا الذبح والنذر إن كان على اسم فلان؛ فهو لغير الله تعالى؛ فيكون باطلاً، وفي التنزيل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ أَسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٣٢]، والنذر لغير الله إشراك مع الله كالذبح لغيره» انتهى.

■ قوله: «وفي الصحيح»: أي صحيح البخاري.

■ قوله: «عن عائشة»: هي أم المؤمنين، زوج النبي ﷺ، وابنة الصديق ﷺ، وأعلم النساء بحديث رسول الله ﷺ، تزوجها النبي

ﷺ وهي بنت سبع، ودخل بها وهي ابنة تسع، وأفضل أزواج النبي ﷺ إلا خديجة؛ ففيها خلاف؛ بل لا يقال: خديجة أفضل، ولا عائشة أفضل.

والتحقيق: أن لخديجة من الفضائل في بدء الوحي ما ليس لعائشة من سبقتها إلى الإيمان بالنبي ﷺ، وتأييده في تلك الحال التي بُدئ بالوحي فيها؛ كما في «صحيح البخاري» وغيره^(١)، فما زالت كذلك حتى توفيت ﷺ قبل الهجرة، ولعائشة من العلم بالأحاديث والأحكام ما ليس لخديجة؛ لعلمها بأحوال النبي ﷺ، ونزول القرآن، وبيان الحلال والحرام، وكان الصحابة ﷺ بعد وفاته ﷺ يرجعون إليها فيما أشكل عليهم من أحوال النبي وحدثه - صلوات الله وسلامه عليه -، ورضي عن أصحابه وأزواجه، توفيت سنة سبع وخمسين ﷺ.

■ قوله: «من نذر أن يطيع الله فليطعه»: لأنه نذره لله خالصاً؛ فوجب عليه الوفاء به؛ فصار عبادة، وقد أجمع العلماء على أن من نذر طاعةً لشرط يرجوه كـ«إن شفى الله مريضاً فعليّ أن أتصدق بكذا»، ونحو ذلك، وجب عليه - إن حصل له ما علق نذره على حصوله -، إلا أن أبا حنيفة قال: «لا يلزمه الوفاء إلا بما جنسه واجب بأصل الشرع كالصوم، وأما ما ليس كذلك فلا يجب عليه الوفاء به».

■ قوله: «ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه»: زاد الطحاوي: «وليكفر عن يمينه»^(٢). وقد أجمع العلماء أنه لا يجوز الوفاء بنذر

(١) رواه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠)، من حديث أمنا عائشة ﷺ.

(٢) صحيح: رواه الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٢١٤٤)، وصححه =

المعصية، واختلفوا: هل تجب فيه كفارة يمين؟ على قولين هما روايتان عن أحمد: أحدهما: تجب، وهو المذهب، وروي عن ابن مسعود وابن عباس، وبه قال أبو حنيفة وأصحابه.



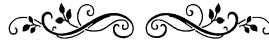
= الشيخ شعيب الأرناؤوط، لكنه نقل عن الحافظ ابن حجر في «التلخيص» (١٧٥/٤) أن الإمام ابن القطان شكك في هذه الزيادة.

فيه مسائل:

الأولى: وجوب الوفاء بالنذر.

الثانية: إذا ثبت كونه عبادةً لله، فصَرَفُهُ إلى غيره شرك.

الثالثة: أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به.



❦ [١٣] باب: من الشرك الاستعاذة بغير الله ❦

وقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ (١) [الجن].

وعن خولة بنت حكيم رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك». رواه مسلم ^(١).

الشرح

■ قوله: «باب: من الشرك الاستعاذة بغير الله»: الاستعاذة: الالتجاء والاعتصام، فالعائد قد هرب إلى ربه والتجأ إليه مما يخافه عموماً وخصوصاً.

□ قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «وما يقوم بالقلب من الالتجاء والاعتصام به، والانطراح بين يدي الرب، والافتقار إليه، والتذلل له = أمرٌ لا تحيط به العبارة» انتهى.

وقد أمر الله عباده في كتابه بالاستعاذة به في مواضع كقوله: ﴿وَأِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٢٠٠) [الأعراف]، وقال: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (١٨) [النحل]، وفي المعوذتين وغير ذلك، فهو عبادة لا يجوز أن تصرف لغير الله كغيرها من أنواع العبادة.

■ قوله: «وقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾»

الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ [الجن]:

□ قال أبو جعفر بن جرير رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في تفسير هذه الآية: «عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: كان رجالٌ من الإنس يبيت أحدهم بالوادي في الجاهلية؛ فيقول: «أعوذ بعزير هذا الوادي»؛ فزادهم ذلك إثماً، وقال بعضهم: فزاد الإنسُ الجنَّ باستعاذتهم بعزيرهم جرأةً عليهم، وازدادوا هم بذلك إثماً.

وقال مجاهد: فازداد الكفار طغياناً.

وقال ابن زيد: وزادهم الجن خوفاً.

وقد أجمع العلماء على أنه لا تجوز الاستعاذة بغير الله.

□ وقال ملا علي قاري الحنفي رَحِمَهُ اللهُ: «لا تجوز الاستعاذة بالجن؛ فقد ذم الله الكافرين على ذلك» - وذكر الآية -، «وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَلْمَعَشَرُ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْبَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَلْجَاءَ الَّذِي أَجَلَتْ لَنَا﴾ [الأنعام: ١٢٨] الآية. فاستمتع الإنسي بالجنّي: في قضاء حوائجه، وامتنال أوامره، وإخباره بشيء من المغيبات، واستمتع الجنّي بالإنسي تعظيمه إياه، واستعاذته به، وخضوعه له» انتهى ملخصاً.

□ قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «وفيه أن كون الشيء يحصل به منفعةٌ دنيويةٌ من كف شر أو جلب نفع = لا يدل على أنه ليس من الشرك».

■ قوله: «خولة بنت حكيم»: ابن أمية السلمية؛ يقال لها: أم شريك، ويقال: إنها هي الواهة^(١)، وكانت قبل تحت عثمان بن

(١) أي: التي وهبت نفسها للحبيب ﷺ، كما ذكر الله تعالى في الآية (٥٠) من سورة «الأحزاب».

مظعون. قال ابن عبد البر: «وكانت صالحة فاضلة».

■ قوله: «أعوذ بكلمات الله التامات»: شرع الله لأهل الإسلام أن يستعيذوا به؛ لا كما يفعله أهل الجاهلية من الاستعاذة بالجن، فشرع الله تعالى للمسلمين أن يستعيذوا بأسمائه وصفاته.

□ قال القرطبي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «قيل: معناه: الكلمات التي لا يلحقها نقص ولا عيب كما يلحق كلام البشر. وقيل: معناه: الكافية الشافية. وقيل: الكلمات هنا هي القرآن، فإن الله أخبر عنه أنه هدى وشفاء. وهذا الأمر على جهة الإرشاد إلى ما يُدفع به الأذى، وعلى هذا فحق المستعيذ بالله تعالى وبأسمائه وصفاته أن يصدق الله في التجاءه إليه، ويتوكل في ذلك عليه، ويحضر ذلك في قلبه، فمن فعل ذلك وصل إلى منتهى طلبه ومغفرة ذنبه».

□ قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «وقد نص الأئمة - كأحمد وغيره - على أنه لا يجوز الاستعاذة بمخلوق، وهذا مما استدلوا به على أن كلام الله ليس بمخلوق، قالوا: لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه استعاذ بكلمات الله، وأمر بذلك، ولهذا نهى العلماء عن التعازيم والتعاويز التي لا يُعرف معناها؛ خشية أن يكون فيها شرك».

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «ومن ذبح للشيطان ودعاه واستعاذ به وتقرب إليه بما يحب = فقد عبده - إن لم يسم ذلك عبادة -، ويسميه: «استخدامًا»، وصدق، هو استخدام من الشيطان له؛ فيصير من خدام الشيطان وعابديه، ولذلك يخدمه الشيطان، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة، فإن الشيطان لا يخضع له ولا يعبد كما يفعل هو به».

■ قوله: «من شر ما خلق»:

□ قال ابن القيم: «من شر كل ذي شر في أي مخلوق قام به الشر؛ من حيوان أو غيره، إنسيًا أو جنيًا، أو هامةً أو دابةً، أو ريحًا أو صاعقةً، أي نوع كان من أنواع البلاء في الدنيا والآخرة.

و«ما» - هاهنا - موصولة ليس إلا، وليس المراد بها العموم الإطلاقي؛ بل المراد التقييدي الوصفي، والمعنى: من شر كل مخلوق فيه شر، لا من شر كل ما خلقه الله؛ فإن الجنة والأنبياء والملائكة ليس فيهم شر، والشر يقال على شيئين: على الألم، وعلى ما يفضي إليه^(١)».



(١) قال الشيخ رشيد رضا رَحِمَهُ اللهُ فِي طَبْعَتِهِ ص (٤٦٨): «لا بد أن يريد بالألم الحسي والمعنوي. ولو قال: الضرر؛ لكان أعم» اهـ.

فيه مسائل:

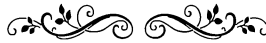
الأولى: تفسير آية الجن.

الثانية: كونه من الشرك.

الثالثة: الاستدلال على ذلك بالحديث؛ لأن العلماء استدّلوا به على أن كلمات الله غير مخلوقة. قالوا: لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك.

الرابعة: فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره.

الخامسة: أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية - من كف شرٍّ أو جلب نفع - لا يدلُّ على أنه ليس من الشرك.



[١٤] باب: من الشرك أن يستغيث بغير الله،

أو يدعو غيره

وقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَفْعَلُ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلَتْ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (١٦) وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ﴿١٧﴾ [يونس].

وقوله: ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١﴾ [الأحقاف].

وقوله: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢].

وروى الطبراني بإسناده: أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق؛ فقال النبي ﷺ: «إنه لا يُستغاثُ بي؛ إنما يستغاثُ بالله» (١).

الشرح

■ قوله: «باب: من الشرك أن يستغيث بغير الله تعالى، أو يدعو غيره».

□ قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «الاستغاثة: هي طلب الغوث، وهو إزالة الشدة؛ كالاستنصار طلب النصر، والاستعانة طلب العون» اهـ.

قلت: فبين الاستغاثة والدعاء عموم وخصوص مطلق؛ يجتمعان في مادة، وهو دعاء المستغيث، وينفرد الدعاء الذي هو مطلق الطلب أو السؤال من غير المستغيث، وقد نهى تعالى عن دعاء غيره الأخص والأعم في كتابه - كما يأتي بيانه -؛ فكل ما قصد به غير الله مما لا يقدر عليه إلا الله - كدعوة الأموات والغائبين - فهو من الشرك الذي لا يغفره الله، والأدلة على ذلك من القرآن والسنة أكثر من أن تحصر.

■ وقوله: «﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾»: ففي هذه الآية النهي عن أن يدعى أحد من دونه تعالى، وأخبر تعالى أن غيره لا يضر ولا ينفع.

■ قوله: «﴿فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾»: والظلم في هذه الآية هو الشرك؛ كما قال تعالى عن لقمان: «﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾» (١٣) [لقمان].

■ وقوله: «﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ﴾»: هذا في حق المستغيث، أخبر الله تعالى أنه هو الذي يتفضل على من سأل، ولا يقدر أحد أن يمنعه شيئاً من فضل الله عليه، فهو المعطي والمانع، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وفي هذا المعنى ما في حديث ابن عباس، وفيه: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك» (١).

فمن تدبر هذه الآية وما في معناها، علم أن ما وقع فيه الأكثر من دعوة غير الله هو الظلم العظيم، والشرك الذي لا يغفر، وأنهم

قد أثبتوا ما نفته «لا إله إلا الله» من الشرك في الإلهية، ونفوا ما أثبتته من الإخلاص؛ كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ۚ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر]، و«الدين» هو طاعة الله فيما أمر به وشرعه، ونهى عنه وحرمه، وأعظم ما أمر به التوحيد والإخلاص، وألاً يقصد العبد بشيء من عمله سوى الله تعالى الذي خلقه لعبادته، وأرسل بذلك رسله، وأنزل به كتبه ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. وأعظم ما نهى عنه الشرك به في ربوبيته وإلهيته.

■ قوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾ [٥] وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾ [الأحقاف]: فهذه الآية تبين وتوضح ما تقرّر في الآية قبلها، فأخبر تعالى أنه لا أضل ممن يدعو أحداً من دونه كائناً من كان، وأخبر أن المدعو لا يستجيب لما طلب منه من ميتٍ أو غائب، أو ممن لا يقدر على الاستجابة مطلقاً من طاغوتٍ ووثن، فليس لمن دعا غير الله إلا الخيبة والخسران.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ﴾، كما قال في آية يونس: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ...﴾، إلى قوله: ﴿فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغْفِيلِينَ﴾ [٢٩]. [يونس].

ثم قال: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [٦] [الأحقاف]: فلا يحصل للمشرك يوم القيامة إلا نقيض قصده، فيتبرأ [المدعو] منه ومن عبادته، ويُنكر ذلك عليه أشد الإنكار، وقد صار المدعو للداعي عدواً.

ثم أخبر تعالى أن ذلك الدعاء عبادة بقوله: ﴿وَكَاثُرًا بِعِبَادَتِهِمْ كُفْرِينَ﴾؛ فدلّت - أيضًا - على أن دعاء غير الله عبادة له، وأن الداعي له في غاية الضلال، وقد وقع من هذا الشرك في هذه الأمة ما عمّ وطمّ، حتى أظهر الله من يُبينه بعد أن كان مجهولاً عند الخاصة والعامة - إلا من شاء الله تعالى -، وهو في الكتاب والسنة في غاية البيان، لكن القلوب انصرفت إلى ما زين لها الشيطان، كما جرى للأمم مع الأنبياء والمرسلين لما دَعَوْهُمْ إلى توحيد الله، جرى لهم من شدة العداوة ما ذكره الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [الذاريات]. ويشبه هذه الآية في المعنى [قوله جَلَّ وَعَلَا]: ﴿ذَلِكَ كُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشِرْكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر]؛ أخبر تعالى أن ذلك الدعاء شرك بالله، وأنه لا يغفره لمن لقيه به.

فتدبر هذه الآيات وما في معناها؛ كقوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن]، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾﴾ [الجن]، وهو في القرآن أكثر من أن يستقصى.

■ قوله: «﴿أَمَنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ مَعَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٦٢]: وهذا مما أقر به مشركو العرب وغيرهم في جاهليتهم؛ كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [العنكبوت]؛ أخبر تعالى أنهم يخلصون الدعاء له إذا وقعوا في شدة.

□ قال أبو جعفر بن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ مَعَ اللَّهِ﴾ يفعل هذه الأشياء بكم وينعم عليكم؟ وقوله: ﴿قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ﴾ (١٦) يقول: تذكروا قليلاً من عظمة الله وأياديه عندكم تذكرون وتعتبرون حجج الله عليكم يسيراً؛ فلذلك أشركتم بالله غيره في عبادته».

■ قوله: «وروى الطبراني»: هو الإمام الحافظ سليمان بن أحمد ابن أيوب اللخمي الطبراني، صاحب المعاجم الثلاثة وغيرها، روى عن النسائي وإسحاق بن إبراهيم الديري وخلق كثير، مات سنة ستين وثلاثمئة، روى هذا الحديث عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

■ قوله: «فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق...» الحديث:

□ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «إن النبي ﷺ كان يقدر أن يغيثهم منه» (١).

قلت: فلعله أراد أن النبي ﷺ كان يقدر أن يترك المنافقين أن يفعل بهم ما يستحقونه، ولكنه لم يفعل مخافة أن يفتتن بعض المؤمنين من قبيلة المنافق، وفي السنة ما يدل على ذلك كما فعل مع ابن أبي وغيره (٢).

وقيل: إن النبي ﷺ كان يقدر أن يغيثهم من ذلك المنافق؛ فيكون نهيه ﷺ عن الاستغاثة به حمايةً لجناب التوحيد، وسدًا

(١) هذا وما يأتي على افتراض صحة الحديث، ولم يصح كما سلف.

(٢) رواه البخاري (٤٩٠٥)، ومسلم (٢٥٨٤)، من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

لذرائع الشرك؛ كنظائره مما للمستغاث به قدرةٌ عليه مما كان يستعمل لغةً وشرعاً، مخافةً أن يقع من أمته الاستغاثةُ بمن لا يضر ولا ينفع، ولا يسمع ولا يستجيب من الأموات والغائبين والطواغيت والشياطين والأصنام وغير ذلك، وقد وقع من هذا الشرك العظيم ما عمّت به البلوى - كما تقدم ذكره -؛ حتى إنهم أشركوهم مع الله في ربوبيته وتدبير أمر خلقه، كما أشركوهم معه في إلهيته وعبوديته، والوسائل لها حكم الغايات في النهي عنها. والله أعلم.



فيه مسائل:

الأولى: أن عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص.

الثانية: تفسير قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾.

الثالثة: أن هذا هو الشرك الأكبر.

الرابعة: أن أصلح الناس لو فعله إرضاءً لغيره صار من الظالمين.

الخامسة: تفسير الآية التي بعدها.

السادسة: كون ذلك لا ينفع في الدنيا، مع كونه كفرًا.

السابعة: تفسير الآية الثالثة.

الثامنة: أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله، كما أن الجنة لا تُطلب إلا منه.

التاسعة: تفسير الآية الرابعة.

العاشرة: أنه لا أضلّ ممن دعا غير الله.

الحادية عشرة: أنه غافلٌ عن دعاء الداعي، لا يدري عنه.

الثانية عشرة: أن تلك الدعوة سببٌ لبغض المدعوّ للداعي، وعداوته له.

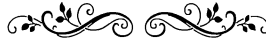
الثالثة عشرة: تسمية تلك الدعوة عبادةً للمدعو.

الرابعة عشرة: كفر المدعوّ بتلك العبادة.

الخامسة عشرة: هي سبب كونه أضلّ الناس.

السادسة عشرة: تفسير الآية الخامسة.

السابعة عشرة: الأمر العجيب، وهو إقرارُ عَبْدَةِ الأوثان أنه لا يجيب المضطر إلا الله؛ ولأجل هذا يدعونه في الشدائد مخلصين له الدين.
الثامنة عشرة: حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد، والتأدب مع الله ﷻ.



﴿١٥﴾ **باب: قول الله تعالى:** ﴿أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (١١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٢﴾ ﴿[الأعراف]

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكَكُمْ وَلَا يَنْتَنُكَ مِثْلُ خَيْرٍ ﴿١٤﴾ [فاطر].

وفي «الصحيح» عن أنس رضي الله عنه قال: شُجَّ النبي ﷺ يوم أُحُد، وكُسرت رِبَاعِيَّتُهُ، فقال: «كيف يُفْلح قومُ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟»، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] ^(١).

وفيه: عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول - إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر -: «اللهم العن فلانًا وفلانًا» - بعدما يقول: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد» -، فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ...﴾ الآية ^(٢).

وفي رواية: «يدعو على صفوان بن أمية، وسهل بن عمرو، والحارث بن هشام، فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾» ^(٣).

وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام رسول الله ﷺ حين أنزل عليه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء]؛ فقال: «يا معشر قريش - أو كلمة نحوها -، اشتروا أنفسكم، لا أُعْغِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا. يا عباسُ بنَ عبدالمطلب، لا أُعْغِي عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا. يا صفية - عمة

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) صحيح: وقد تقدم.

رسول الله ﷺ، - لا أغني عنك من الله شيئاً. ويا فاطمة بنت محمد، سألني من مالي ما شئت، لا أغني عنك من الله شيئاً»^(١).

الشرح

■ قوله: «باب: قول الله تعالى: ﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (١١١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١١٢﴾ [الأعراف]: وهذا مما احتج به تعالى على المشركين لما وقع منهم من اتخاذ الشفعاء والشركاء في العبادة؛ لأنهم مخلوقون؛ فلا يصلح أن يكونوا هم شركاء لمن هم خلقه وعبيده، وأخبر أنهم مع ذلك ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ أي: لمن سألهم النصرة ﴿وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ﴾، فإذا كان المدعو لا يقدر أن ينصر نفسه؛ فلأن لا ينصر غيره من باب الأولى، فبطل تعلق المشرك بغير الله بهذين الدليلين العظيمين؛ وهو:

[الدليل الأول]: كونهم عبيداً لمن خلقهم لعبادته، والعبد لا يكون معبوداً.

الدليل الثاني: أنه لا قدرة لهم على نفع أنفسهم؛ فكيف يرجى منهم أن ينفعوا غيرهم؟!

فتدبر هذه الآية وأمثالها في القرآن العظيم.

■ وقوله: «﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ...﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا يَنْتَظِرُكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ (١٤) [فاطر]: ابتداء تعالى هذه الآيات بقوله: ﴿ذَلِكَ كُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾؛ يخبر الخبير أن الملك له وحده، والملوك

وجميع الخلق تحت تصرفه وتديره؛ ولهذا قال: ﴿وَالَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، فإن من كانت هذه صفته فلا يجوز أن يُرغب في طلب نفع أو دفع ضرر إلى أحد سوى الله تعالى وتقدس؛ بل يجب إخلاص الدعاء له - الذي هو من أعظم أنواع العبادة -، وأخبر تعالى أن ما يدعوه أهل الشرك لا يملك شيئاً، وأنهم لا يسمعون دعاء من دعاهم، ولو فرض أنهم يسمعون فلا يستجيبون لداعيهم، وأنهم يوم القيامة يكفرون بشركهم، أي: ينكرونه ويتبرؤون ممن فعله معهم، فهذا الذي أخبر به الخبير: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران]، وأخبر أن ذلك الدعاء شركٌ به، وأنه لا يغفره لمن لقيه به، فأهل الشرك ما صدقوا الخبير، ولا أطاعوه فيما حكم به وشرع؛ بل قالوا: إن الميت يسمع، ومع سماعه ينفع، فتركوا الإسلام والإيمان رأساً؛ كما ترى عليه الأكثرين من جهلة هذه الأمة.

■ قوله: «في الصحيح عن أنس قال: شج النبي ﷺ يوم أحد وكسرت رباعيته؛ فقال: «كيف يُفلح قومٌ شجوا نبيهم؟»، فنزلت ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨] الآية. وفيه عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول - إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر -: «اللهم العن فلاناً وفلاناً» - بعدما يقول: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد» -، فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية. وفي رواية: «يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام، فنزلت ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ وأسلم هؤلاء وحسن إسلامهم».

■ قوله: «في الصحيح»: أي الصحيحين، علقه البخاري عن حميد

عن ثابت عن أنس، ووصله أحمد والترمذي والشافعي عن حميد عن أنس، وقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف]. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

والمقصود: أن الذي له الأمر كله والمُلْك كله لا يستحق غيره شيئاً من العبادة؛ ولهذا المعنى قال لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصر]، فالذي ليس له من الأمر شيء هو خيرةُ الله من خلقه؛ ما زال يدعو الناس أن يخلصوا العبادة للذي له الأمر كله - وهو الله تعالى -، فهذا دينه ﷺ الذي بُعث به، وأمر أن يبلغه أُمته ويدعوهم إليه، كما تقدم في باب «الدعاء إلى شهادة ألا إله إلا الله»، فإياك أن تتبع سبيلاً غير سبيل المؤمنين الذي شرعه الله ورسوله لهم وخصهم به.

■ قوله: «وفيه عن أبي هريرة»: أي في صحيح البخاري، واختلف في اسم أبي هريرة، وصحح النووي أن اسمه عبدالرحمن بن صخر، وهو دؤسي، من حفاظ الصحابة، حفظ من الحديث ما لم يحفظه غيره، كما في صحيح البخاري عن وهب بن منبه عن أخيه: سمعت أبا هريرة رضي الله عنه يقول: «ما من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثاً عنه مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو؛ فإنه كان يكتب ولا أكتب»^(١)، مات سنة سبع أو ثمان أو تسع وخمسين، وهو ابن ثمان وسبعين سنة. وهذا الحديث له طرق كثيرة في الصحيحين والمسند والسنن وغيرها.

(١) رواه البخاري (١١٣).

■ قوله «يا معشر قريش» - أو كلمة نحوها - «اشتروا أنفسكم»:
أي: بالإيمان بالله ورسوله، واتباعه فيما جاءكم به، مما أنزل
عليه من توحيد الله تعالى في العبادة، وترك ما كنتم تعبدونه من
دونه من الأوثان والأصنام؛ فإنهم بعد ذلك الشرك صاروا عبيداً
لمن لا يضر ولا ينفع، ولا يستجيب ولا يسمع إلا هو، وهم قد عرفوا
أن ما كانوا يفعلونه من عبادة غير الله شرك بالله؛ فإنهم كانوا
يقولون في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه
وما ملك»^(١). فسبحان الله! كيف جاز في عقولهم أن المملوك
يكون شريكاً لمالكة؟ وقد قال تعالى: ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ
مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ
كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ
عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ [الروم].

■ قوله: «لا أغني عنكم من الله شيئاً»: هذا هو معنى ما تقدم من
أنه تعالى هو المتصرف في خلقه بما شاء؛ مما اقتضته حكمته في
خلقهم وعلمهم بهم، والعبء لا يعلم إلا ما علمه الله، ولا ينجو أحد من
عذابه وعقابه إلا بإخلاص العبادة له وحده، والبراءة من عبادة
ما سواه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ
وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ (٧٢) [المائدة].

والنبي ﷺ في هذا الحديث أنذر الأقربين نذارة خاصة، وأخبر
أنه لا يغني عنهم من الله شيئاً، وبلغهم وأعذر إليهم، فأنذر قريشاً
ببطونها، وقبائل العرب في مواسمها، وأنذر عمه وعمته وابنته

(١) أي: إلا شريكاً هو ملك لك، وأنت تملكه، ولا يملك هو شيئاً!

- وهم أقرب الناس إليه - ، وأخبر أنه لا يغني عنهم من الله شيئاً ، إذا لم يؤمنوا به ويقبلوا ما جاء به من التوحيد وترك الشرك به .

■ قوله : «سليني من مالي ما شئت» : لأن هذا هو الذي يقدرُ عليه ﷺ ، وما كان أمره إلى الله سبحانه فلا قدرة لأحد عليه - كما في هذا الحديث . - ولما مات أبو طالب ، وكان يحوط رسول الله ﷺ ويحميه ، ولم ينكر ملة عبد المطلب من الشرك بالله ، وقال ﷺ : «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك»^(١) = فأنزل الله تعالى : ﴿ مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ [التوبة] ، فأخبر أن أبا طالب من أصحاب النار لما مات على غير شهادة ألا إله إلا الله ، فلم ينفعه حمايته النبي ﷺ من أن يكون من المشركين ، ولا الاعتراف بأن النبي ﷺ على الحق بدون البراءة من الشرك ؛ لأنه لم يبرأ من ملة أبيه ، فكل تعلق على غير الله من طلب شفاعته أو غيرها شرك بالله ، يكون عليه وبالاً في الدنيا والآخرة ، والشفاعة لا تكون إلا لأهل الإخلاص خاصة ؛ كما قال تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُمْحَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ... ﴾ [الأنعام : ٥١] ، والآيات في هذا المعنى كثيرة ، وكذلك الأحاديث . والله أعلم .

وسياتي في «باب الشفاعه» - إن شاء الله تعالى - .



فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين .

الثانية: قصة أحد .

الثالثة: قنوت سيد المرسلين، وخلفه سادات الأولياء يؤمنون في الصلاة .

الرابعة: أن المدعو عليهم كفار .

الخامسة: أنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار، منها: شجهم نبيهم، وحرصهم على قتله . ومنها: التمثيل بالقتلى، مع أنهم بنو عمهم .

السادسة: أنزل الله عليه في ذلك: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ .

السابعة: قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ﴾، فتاب عليهم فآمنوا .

الثامنة: القنوت في النوازل .

التاسعة: تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم .

العاشر: لعن المعين في القنوت .

الحادية عشرة: قصته ﷺ لما أنزل عليه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ .

الثانية عشرة: جدّه ﷺ؛ بحيث فعل ما نسب بسببه إلى الجنون، وكذلك لو يفعله مسلم الآن .

الثالثة عشرة: قوله ﷺ للأبعد والأقرب: «لا أغني عنكم من الله شيئاً»، حتى قال: «يا فاطمة بنت محمد، لا أغني عنك من الله شيئاً» . فإذا صرح - وهو سيد المرسلين - بأنه لا يغني شيئاً عن سيدة نساء العالمين، وآمن الإنسان أنه ﷺ لا يقول إلا الحق، ثم نظر فيما وقع

في قلوب خواص الناس اليوم = تبين له التوحيدُ وغربة الدين .



﴿١٦﴾ **باب: قول الله تعالى:** ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾
قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ [سبا]

في «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، ينفذهم ذلك، ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾، فيسمعها مستترق السمع، ومستترق السمع هكذا بعضه فوق بعض - وصفه سفيان بكفه، فحرفها وبدد بين أصابعه -، فيسمع الكلمة، فيلقاها إلى من تحته، ثم يلقاها الآخر إلى من تحته، حتى يلقاها على لسان الساحر أو الكاهن. فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقاها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مئة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟ فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء»^(١).

وعن النّوّاس بن سميان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله تعالى أن يوحى بالأمر تكلم بالوحي، فأخذت السماوات منه رجفة - أو قال: رعدة - شديدة خوفاً من الله ﷻ؛ فإذا سمع ذلك أهل السماوات صعقوا، وخروا لله سُجَّدًا. فيكون أول من يرفع رأسه جبريل عليه السلام، فيكلّمه الله من وحيه بما أراد. ثم يمرّ جبريل على الملائكة، كلما مر بسماء سألها ملائكتها: ماذا قال ربنا - يا جبريل -؟ فيقول جبريل: قال الحق، وهو العليّ الكبير، فيقولون كلهم مثلكما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله ﷻ»^(٢).

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) ضعيف: وقد تقدم.

الشرح

■ قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾: أي زال عنها الفزع. قاله ابن عباس وغيره؛ ذكر تعالى هذه الآية في سياق قوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سبأ: ٢٢].

□ وقال ابن جرير: «قال بعضهم: الذين فُزِّعَ عن قلوبهم الملائكة، قالوا: وإنما فُزِّعَ عن قلوبهم من غشية تصيبهم عند سماع كلام الله ﷻ بالوحي».

□ قال ابن كثير: «وهو الحق الذي لا مرية فيه لصحة الأحاديث فيه والآثار».

□ وقال أبو حيان: «تظاهرت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أن قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ إنما هي في الملائكة إذا سمعت الوحي إلى جبريل، وأمر الله تعالى به؛ سَمِعَتْ كَجَرِّ السلسلة الحديد على الصفوان، فتفزع عند ذلك تعظيمًا وهيبةً».

قال: «وبهذا المعنى من ذكر الملائكة في صدر الآيات تتسق هذه الآية على الأولى، ومن لم يشعر أن الملائكة مشارٌ إليهم من أول قوله: ﴿الَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ لم تتصل هذه الآية بما قبلها».

وهذه الآيات تقطع عروق الشرك بأمر أربعة:

الأول: أنهم لا يملكون مثقال ذرة مع الله، والذي لا يملك مثقال ذرة في السماوات والأرض لا ينفع ولا يضر؛ فهو تعالى هو الذي يملكهم ويدبرهم ويتصرف فيهم وحده.

الثاني: قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ﴾: أي في السماوات والأرض، أي: وما لهم شركٌ مثقالِ ذرةٍ من السماوات والأرض.

الثالث: قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾: والظهير: المُعين؛ فليس لله معين من خلقه؛ بل هو الذي يعينهم على ما ينفعهم لكمال غناه عنهم، وضرورتهم إلى ربهم ﷻ فيما قلّ وكثر من أمور دنياهم وأخراهم.

الرابع: قوله: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾: فلا يشفع عنده أحدٌ إلا بإذنه.

وأخبر تعالى أن من اتخذ شفيعاً من دونه حُرِمَ شفاعته الشفعاء، قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس]؛ لأن اتخاذ الشفعاء شركٌ؛ لقوله تعالى في حقهم: ﴿سُبْحَنَهُ وَعَلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس]، والمشركُ منفيةٌ عنه الشفاعه في حقه؛ كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿١٨﴾﴾ [المدثر]، وقال: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرْكُم مَّا خَوَّلْتُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَصَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام]؛ وذلك أن متخذَ الشفيع لا بد أن يرغب إليه ويدعوه، ويرجوه ويخافه ويحبه؛ لما يؤمله منه، وهذه من أنواع العبادة التي لا يُصرف منها شيء لغير الله؛ وذلك هو الشرك الذي ينافي الإخلاص.

■ قوله: «في الصحيح»: أي صحيح البخاري.

ففي هذا الحديث أن مَنْ عرف الله تعالى ذلَّ له تعظيماً ومهابةً

وخوفًا؛ لا سيما عند سماع كلامه تعالى؛ لأن قوله: «إذا قضى الله الأمر»: أي بكلامه ووحيه إلى جبريل.

■ وقوله: «في السماء»: يدل على العلو؛ ففيه إثبات كلام الله، وعلوه على خلقه على ما يليق بجلاله وعظمته إثباتًا بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل.

وهذا الحديث ونحوه مما احتج به أهل السنة على الجهمية والأشاعرة والكلائية وغيرهم من أهل البدع ممن ألد بالتعطيل في أسماء الله وصفاته.

■ قوله: «خَضَعَانًا»: مصدر خضع.

■ قوله: «لقوله»: صريح في أنهم سمعوا قوله، وأنه بصوت، وأن ذلك ينفذ جميع الملائكة - أي يسمعونهم كلهم -.

■ قوله: «﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾»: أي: زال عنها الفزع.

■ قوله: «فيسمعها مسترق السمع»، أي: الكلمة التي سمعتها الملائكة وتحدثوا بها.

■ قوله: «(ومسترق السمع بعضه فوق بعض هكذا) وصفه سفيان»: راوي الحديث، وهو ابن عيينة «بكفه».

■ قوله: «فيسمع الكلمة»: يعني مسترق السمع، «فيلقيها إلى من تحته من الشياطين، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته؛ حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن» الحديث.

■ قوله: «فيكذب معها»: أي الساحر أو الكاهن «مئة كذبة، فيصدق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء»: لقبول الناس للباطل.

■ قوله: «وعن النواس بن سَمْعَانَ»: وسمعان بكسر السين ابن خالد الكلابي، ويقال له: الأنصاري، صحابي، ويقال: إن أباه صحابي - أيضًا -.

■ وقوله: «إذا أراد الله تعالى»: فالإرادة صفة من صفات الله ﷻ، وهي نوعان: شرعية، وقدرية، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦] الآية، ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ [الكهف: ٨٢]، وقال: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] ونحو هذه الآيات.

■ قوله: «أن يوحى بالأمر»: فيه بيان معنى ما تقدم في الحديث قبله من قوله: «إذا قضى الله الأمر».

■ قوله: «تكلم بالوحي»: فيه التصريح بأنه يتكلم بالوحي، فيوحيه إلى جبريل عليه السلام، ففيه الردُّ على الأشاعرة في قولهم: إن القرآن عبارة عن كلام الله.

■ قوله: «أخذت السماوات منه رجفة» - أو قال: رعدة - شديدة خوفاً من الله ﷻ: في هذه معرفة عظمة الله، ويوجب للعبد شدة الخوف منه تعالى، وفيه إثبات العلو.

■ قوله: «فإذا سمع ذلك أهل السماوات صَعِقُوا وَخَرُّوا لِلَّهِ سَجْدًا»: هيبةٌ وتعظيمًا لربهم، وخشيةٌ لما سمعوا من كلامه تعالى وتقدس.

■ قوله: «فيكون أول من يرفع رأسه جبريل»: لأنه ملك الوحي ﷺ.

■ قوله: «فيكلمه الله من وحيه بما أراد»: فيه التصريح بأنه تعالى يوحى إلى جبريل بما أَرَادَهُ من أمره - كما تقدم في أول الحديث -.

■ قوله: «ثم يمرّ جبريل على الملائكة؛ كلما مر بسماء سأله ملائكتها»: وهذا - أيضًا - من أدلة علو الرب تعالى وتقدس.

■ قوله: «ماذا قال ربنا - يا جبريل -؟ فيقول: قال الحق، فيقولون كلهم مثلما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله ﷻ»: وهذا دليل بأنه تعالى قال ويقول.

وأهل البدع من الجهمية ومن تلقى عنهم كالأشاعرة جحدوا ما أثبتته الله تعالى في كتابه، وأثبتته رسوله ﷺ في سنته من علوه وكلامه وغير ذلك من صفات كماله التي أثبتتها لنفسه، وأثبتتها له رسوله والمؤمنون من الصحابة والتابعين وتابعيهم من أهل السنة والجماعة على ما يليق بجلال الله وعظمته؛ تشبيهات اختلقوها ما أنزل الله بها من سلطان.



فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية .

الثانية: ما فيها من الحجة على إبطال الشرك، خصوصاً من تعلق على الصالحين، وهي الآية التي قيل: إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب.

الثالثة: تفسير قوله: ﴿قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾.

الرابعة: سبب سؤالهم عن ذلك.

الخامسة: أن جبرائيل يجيبهم بعد ذلك بقوله: «قال: كذا وكذا».

السادسة: ذكر أن أول من يرفع رأسه جبرائيل.

السابعة: أنه يقول [هذا] لأهل السماوات كلهم؛ لأنهم يسألونه.

الثامنة: أن العشي يعم أهل السماوات كلهم.

التاسعة: ارتجاف السماوات لكلام الله.

العاشرة: أن جبرائيل هو الذي ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله.

الحادية عشرة: ذكر استراق الشياطين.

الثانية عشرة: صفة ركوب بعضهم بعضاً.

الثالثة عشرة: سبب إرسال الشهب.

الرابعة عشرة: أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وتارة يلقيها في أذن وليه من الإنس قبل أن يدركه.

الخامسة عشرة: كون الكاهن يصدق بعض الأحيان.

السادسة عشرة: كونه يكذب معها مئة كذبة.

السابعة عشرة: أنه لم يصدق كذبه إلا بتلك الكلمة التي سمعت من

السماء.

الثامنة عشرة: قبول النفوس للباطل، كيف يتعلقون بواحدة، ولا يعتبرون بمئة كذبة؟!

التاسعة عشرة: كونهم يتلقى بعضهم من بعض تلك الكلمة، ويحفظونها، ويستدلّون بها.

العشرون: إثبات الصفات، خلافاً للمعطلة.

الحادية والعشرون: أن تلك الرجفة والغشي خوف من الله ﷻ.

الثانية والعشرون: أنهم يخرون لله سُجَّدًا.



❦ [١٧] باب: الشفاعة ❦

وقول الله ﷻ: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١].

وقوله: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤].

وقوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقوله: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَبَرَضَىٰ﴾ (١٦) [النجم].

وقوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ (١٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ. [سبا].

□ قال أبو العباس: «نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك، أو قسط منه، أو يكون عوناً لله. ولم يبق إلا الشفاعة؛ فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨]؛ فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة - كما نفاها القرآن -، وأخبر النبي ﷺ: «أنه يأتي فيسجدُ لربه ويحمده» - لا يبدأ بالشفاعة أولاً - . ثم يقال له: «ارفع رأسك، وقل يُسمع، وسل تُعط، واشفع تُشفع» (١).

وقال له أبو هريرة: مَنْ أسعدُ الناس بشفاعتك؟ قال: «مَنْ قال:

لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ»^(١).

فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله. وحقيقته: أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص؛ فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع، ليُكرمه وينال المقام المحمود.

فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك؛ ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع. وقد بيّن النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص. اهـ كلامه.

الشرح

■ قوله: «باب الشفاعة»: الشفاعة نوعان:

النوع الأول: شفاعة منفية في القرآن، وهي الشفاعة للكافر والمشرِك.

قال تعالى: ﴿مَنْ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقال: ﴿فَمَا نَنْفَعُهُمْ شَفْعَةُ الشَّفَاعِينَ﴾ [المدثر].

وقال: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفْعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة]، ونحو هذه الآيات:

كقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ

(١) صحيح: وقد تقدم.

هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْتِفُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴿يونس: ١٨﴾.

يخبر تعالى أن من اتخذ هؤلاء شفعاء عند الله، أنه لا يعلم أنهم يشفعون له بذلك، وما لا يعلمه لا وجود له، فنفي وقوع هذه الشفاعة، وأخبر أنها شركٌ بقوله: ﴿سُبْحَنَهُ، وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١٨).

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾، إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ (٢). [الزمر]. فأبطل شفاعة من اتخذ شفعياً يزعم أنه يقربه إلى الله، وهو يبعده عنه وعن رحمته ومغفرته؛ لأنه جعل لله شريكاً يرغب إليه ويرجوه، ويتوكل عليه ويحبه، كما يحب الله تعالى أو أعظم.

النوع الثاني: الشفاعة التي أثبتها القرآن، وهي خالصة لأهل الإخلاص، وقيدها تعالى بأمرين:

الأمر الأول: إذنه للشافع أن يشفع، كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. وإذنه تعالى لا يصدر إلا إذا رحم عبده الموحد المذنب، فإذا رحمه تعالى أذن للشافع أن يشفع له.

الأمر الثاني: رضاه عمن أذن للشافع أن يشفع فيه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، فالإذن بالشفاعة له بعد الرضا كما في هذه الآية، وهو سبحانه لا يرضى إلا التوحيد.

■ قوله: ﴿وَأَنْذِرْ﴾: الإنذار هو الإعلام بأسباب المخالفة والتحذير منها.

■ قوله: ﴿يَهِيءُ﴾: أي القرآن، ﴿الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُنْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾،

وهم أهل الإخلاص الذين لم يتخذوا لهم شفيعاً، بل أخلصوا قصدهم وطلبهم وجميع أعمالهم لله وحده، ولم يلتفتوا إلى أحد سواه فيما يرجون نفعه ويخافون ضره.

□ قال الفضيل بن عياض: «ليس كل خلقه عاتب، إنما عاتب الذين يعقلون».

■ قوله: «﴿لَيْسَ لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾»:

□ قال الزجاج: «موضع «ليس» نصب على الحال؛ كأنه قال: متخلّين من ولي وشفيع، والعامل فيه ﴿يَخَافُونَ﴾».

■ قوله: «﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾»: أي فيعملون في هذه الدار عملاً ينجيهم الله به من عذاب يوم القيامة، وتركوا التعلق على الشفعاء وغيرهم؛ لأنه ينافي الإخلاص الذي لا يقبل الله من أحد عملاً بدونه.

■ قوله: «﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾»: دلت الآية أن الشفاعة له سبحانه، لأنها لا تقع إلا لأهل التوحيد بإذنه ﷻ، كما قال تعالى في الآية السابقة. وقال تعالى: «﴿يَذَرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ» [يونس: ٣] الآية، فلا شفاعة إلا لمن هي له سبحانه؛ ولا تقع إلا ممن أذن له فيها، فتدبر هذه الآيات العظيمة في اتخاذ الشفعاء.

■ وقوله: «﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾»: يُبطل التعلق على غيره سبحانه؛ لأنه الذي انفرد بملك كل شيء؛ فليس لأحد في ملكه مثقال ذرةٍ دونه سبحانه وبحمده. والإسلام هو أن تُسلم قلبك وجوارحك لله بالإخلاص، كما في «المسند» عن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال لرسول الله ﷺ: فبالذي بعثك بالحق؛ ما

بعثك به؟ قال: «الإسلام». قال: وما الإسلام؟ قال: «أن تُسلم قلبك، وأن توجّه وجهك إلى الله، وأن تصلي الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة»^(١)، والآيات في بيان الإخلاص كثيرة، وهو ألا يلتفت القلب ولا الوجه في جميع الأعمال كلها إلا لله وحده، كما قال تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غافر: ١٤]، فأمره تعالى بإخلاص الدعاء له وحده، وأخبر أنه الدين الذي تصحّ معه الأعمال وتقبل. □ قال شيخ الإسلام: «الإخلاص محبة الله وإرادة وجهه».

■ قوله: «﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾»: تقدم معنى هذه الآية.

■ قوله: «﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾»: فإذا كان هذا في حق الملائكة الذين وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ (٣٦) لَا يَسْقُونَهُ، بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ أَرْضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنْتِ إِلَهُ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢١) [الأنبياء]، فظهر من هذه الآيات المحكمات ما يبين حقيقة الشفاعة المثبتة في القرآن التي هي ملك لله لا يملكها غيره، وقيد حصولها بقيدتين كما في هذه الآية وغيرها،

(١) حسن: رواه أحمد (٣/٥)، وابن أبي شيبة (١٤/١٤٢)، وأبو داود (٢١٤٢)، والمروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٤٠٣)، والطبراني في «الكبير» (١٩/١٠٣٤)، وفي «الأوسط» (٦٣٩٨)، والبيهقي في «الكبرى» (٧/٣٠٥)، وابن حبان (١٦٠)، وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط في «المسند» (٣٣/٢٢٥)، وصحّحه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٣٦٩)، وفي «الإرواء» (٣٢/٥).

كما تقدم قريباً إذنه للشافع أن يشفع، كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ورضاه عمن أراد رحمته ممن أذنب من الموحدين، فاختصت الشفاعة بأهل الإخلاص خاصة، وأن اتخاذ الشفعاء من دين المشركين قد أنكره الله عليهم فيما تقدم من الآيات.

■ قوله: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ الآيتين:

□ وقال أبو العباس رحمه الله: «نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملك أو قسط منه، أو يكون عوناً لله، ولم يبق إلا الشفاعة، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]؛ فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة كما نفاها القرآن، وأخبر النبي ﷺ «أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده»، لا يبدأ بالشفاعة أولاً؛ ثم يقال له: «ارفع رأسك، وقُلْ تُسمع، وسل تعط، واشفع تشفع»^(١).

وقال له أبو هريرة رضي الله عنه: من أسعد الناس بشفاعتك - يا رسول الله -؟ قال: «من قال: «لا إله إلا الله» خالصاً من قلبه»^(٢)، فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله.

وحقيقته: أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص؛ فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع؛ ليكرمه وينال المقام

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

المحمود، فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك؛ ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بيّن النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص». انتهى كلامه رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، وفيه تحقيق لأمر الشفاعة، وجمعٌ للأدلة. واللهُ تعالى أعلم.



فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيات .

الثانية: صفة الشفاعة المنفية .

الثالثة: صفة الشفاعة المثبتة .

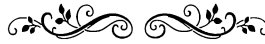
الرابعة: ذكر الشفاعة الكبرى؛ وهي المقام المحمود .

الخامسة: صفة ما يفعله ﷺ، وأنه لا يبدأ بالشفاعة أولاً، بل يسجد؛ فإذا أذن له شَفَعَ .

السادسة: من أسعد الناس بها؟

السابعة: أنها لا تكون لمن أشرك بالله .

الثامنة: بيان حقيقتها .



﴿١٨﴾ [باب: قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾

وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾] [القصص]

وفي «الصحيح» عن ابن المسيب عن أبيه قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ وعنده عبد الله بن أبي أمية وأبو جهل، فقال له: «يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله». فقال له: أترغب عن ملة عبدالمطلب؟ فأعاد عليه النبي ﷺ، فأعادا. فكان آخر ما قال: هو على ملة عبدالمطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال النبي ﷺ: «لأستغفرنَّ لك ما لم أُنه عنك». فأنزل الله ﷻ: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١٣﴾﴾ [التوبة]. وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾^(١).

الشرح

■ قوله: «باب: قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾»:

□ قال ابن كثير رحمه الله تعالى: «يقول تعالى لرسوله ﷺ: ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، أي: ليس إليك ذلك إنما عليك البلاغ، ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، وله الحكمة البالغة والحجة الدامغة، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ

يَشَاءُ ﴿البقرة: ٢٧٢﴾، وقال: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

قلت: والمنفي هاهنا هداية التوفيق والقبول؛ فإن أمر ذلك إلى الله وحده، وهو القادر عليه. وأما الهداية المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٤]؛ فإنها هداية الدلالة والبيان، فهو المبين عن الله والهدال على دينه وشرعه.

■ قوله: «وفي الصحيح عن ابن المسيب»: أي في الصحيحين. وابن المسيب هو سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب بن عمرو ابن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشي المخزومي، أحد العلماء والفقهاء الكبار السبعة من التابعين، اتفق أهل الحديث أن مراسيله أصح المراسيل، وقال ابن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع علماً منه، مات في التسعين وقد ناهز الثمانين، وأبوه المسيب صحابي بقي إلى خلافة عثمان رضي الله عنه، وكذلك جده حزن صحابي استشهد باليامة.

■ قوله: «لما حضرت أبا طالب الوفاة»: أي علاماتها ومقدماتها.

■ قوله: «جاءه رسول الله ﷺ»: يحتمل أن يكون المسيب حضر مع الاثنين؛ فإنهما من بني مخزوم وهو - أيضاً - مخزومي، وكان الثلاثة إذ ذاك كفاراً، فقتل أبو جهل على كفره وأسلم الآخرين.

■ قوله: «يا عم، قل: لا إله إلا الله»: أمره بقولها لعلم أبي طالب بأنها دلت على نفي الشرك بالله، وإخلاص العبادة له وحده، فإن من قالها عن علم ويقين وقبول، فقد أنكر الشرك وتبرأ منه، وكذلك الحاضرون يعلمون بما دلت عليه من نفي الشرك والبراءة منه،

ولهذا عارضوا قول النبي ﷺ بقولهم: «أترغب عن ملة عبد المطلب؟»، لأن ملة عبد المطلب الشرك بعبادة الأوثان، كما كانت قریش وغيرهم في جاهليتهم كذلك.

■ قوله: «كلمة»: قال القرطبي بالنصب على أنه بدل من «لا إله إلا الله»، ويجوز الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف.

■ قوله: «أحاج لك بها عند الله»: لأنه لو قالها في تلك الحال لقبلت منه ودخل بها في الإسلام.

■ قوله: «فقالا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟»: ذكرناه الحجة الملعونة التي يحتج بها المشركون على المرسلين، كقول فرعون لموسى: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾ [طه]، وكقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف].

■ قوله: «فأعاد عليه النبي ﷺ فأعاد»: فيه مضرة أصحاب السوء والحذر من قربهم والاستماع لهم، ففيه معنى قول الناظم:

إذا ما صحبت القوم فاصحب خيارهم

ولا تصحب الأردى فتردى مع الردي

■ قوله: «فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله»:

□ قال الحافظ: «هو تأكيد من الراوي في نفي وقوع ذلك من أبي طالب».

□ قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «وفيه الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه».

■ قوله: «فقال النبي ﷺ: (لأستغفرن لك ما لم أنه عنك):» اللام لام القسم.

□ قال النووي: «فيه جواز الحلف من غير استحلاف».

□ قال ابن فارس: «مات أبو طالب ولسول الله ﷺ تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يومًا، وتوفيت خديجة أم المؤمنين ﷺ بعد موت أبي طالب بثمانية أيام».

■ قوله: «فأنزل الله: ﴿مَا كَانِ لِلنَّاسِ الْإِيمَانُ أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾»: والظاهر أن هذه الآية نزلت في أبي طالب؛ فإن الإتيان بالفاء المفيدة للترتيب في قوله: «فأنزل الله» بعد قوله: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنك» يفيد ذلك، وقد ذكر العلماء لسبب نزول هذه الآية أسبابًا آخر فلا منافاة؛ [فإن] الآية الواحدة قد يتعدد نزولها^(١)، وفيه تحريم الاستغفار للمشركين وموالاتهم ومحبتهم.



(١) لكن الأصل عدم التعدد.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

الثانية: تفسير قوله: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

الثالثة - وهي المسألة الكبرى -: تفسير قوله ﷺ: «قل: لا إله إلا الله»، بخلاف ما عليه من يدعي العلم.

الرابعة: أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ إذا قال للرجل: «قل: لا إله إلا الله»؛ فقبح الله من أبو جهل أعلم منه بأصل الإسلام.

الخامسة: جدّه ﷺ ومبالغته في إسلام عمه.

السادسة: الرد على من زعم إسلام عبد المطلب وأسلافه.

السابعة: كونه ﷺ استغفر له فلم يُغفر له، بل نُهي عن ذلك.

الثامنة: مضرّة أصحاب السوء على الإنسان.

التاسعة: مضرّة تعظيم الأسلاف والأكابر.

العاشرة: الشبهة للمبطلين في ذلك؛ لاستدلال الجاهلية بذلك.

الحادية عشرة: الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم؛ لأنه لو قالها

لنفعته.

الثانية عشرة: التأمل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالين؛ لأن

في القصة أنهم لم يجادلوه إلا بها، مع مبالغته ﷺ وتكريره؛ فلاجل عظمتها ووضوحها عندهم اقتصروا عليها.

❁ [١٩] باب: ما جاء في أن سبب كفر بني آدم ❁

وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين

وقول الله ﷻ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١].
 □ وفي «الصحيح» عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣] قال: «هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا، وسمّوها بأسمائهم، ففعلوا. ولم تُعبد، حتى إذا هلك أولئك ونُسي العلم عُبدت».

□ وقال ابن القيم: «قال غير واحد من السلف: لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم».

الشرح

■ قوله: «باب: ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين»: قد أنذر ﷺ أمته من الغلو، وأبلغ في الإنذار تحذيرًا عما وقع من جهلة هذه الأمة - كما سيأتي ذكره -.

■ قوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ...﴾ الآية: الغلو هو الإفراط في التعظيم بالقول والاعتقاد، أي: لا ترفعوا المخلوق عن منزلته التي أنزله الله. والخطاب وإن كان لأهل الكتاب فهو تحذيرٌ لهذه الأمة أن يفعلوا مع نبيهم ﷺ كما فعلت النصراني مع المسيح وأمه، واليهود مع العزيز، وقد وقع ذلك الشرك في العبادة في هذه الأمة نظمًا ونشراً؛ كما في كلام البوصيري والبرعي

وغيرهما، وفيما فعلوه من الغلو والشرك محادةً لله ولكتابه ولرسول الله ﷺ، فأين ما وقع فيه هؤلاء الجهلة من قول من قال للنبي ﷺ: «أنت سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا»^(١). فكره ذلك ﷺ أشد الكراهة - كما سيأتي في الكلام على هذا الحديث إن شاء الله تعالى -، وقول القائل: ما شاء الله وشئت؛ فقال: «أجعلتني لله ندًا؟ بل ما شاء الله وحده»^(٢).

□ قال شيخ الإسلام: «ومن تشبه من هذه الأمة باليهود والنصارى وغلا في الدين بإفراط فيه أو تفريط فقد شابههم».

□ قال: «وعليٌّ رضي الله عنه حرَّق الغالية من الرافضة، فأمر بأخاديد خُدَّت لهم عند باب كِنْدَة فقتلهم فيها. واتفق الصحابة على قتلهم، لكن ابن عباس مذهبه أن يُقتلوا بالسيف من غير تحريق، وهو قول أكثر العلماء».

■ قوله: «في الصحيح»: أي صحيح البخاري، وهذا الأثر اختصره المصنف رحمه الله، والذي في البخاري عن ابن عباس: «صارت الأوثان التي في قوم نوح في العرب بعدُ:

- أما «وَد»: فكانت لكلب بدومة الجندل.
- وأما «سواع»: فكانت لهذيل.
- وأما «يغوث» فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ.
- وأما «يعوق» فكانت لهمدان.
- وأما «نسر» فكانت لحمير لآل ذي الكلاع.

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

أسماء رجال صالحين في قوم نوح...» إلى آخره.

■ قوله: «أن انصبوا» بكسر المهملة.

■ قوله: «أنصاباً»: جمع نُصْب، وهي الأصنام التي صوروها على

صور الصالحين.

■ قوله: «ففعّلوا ولم تعبد؛ حتى إذا هلك أولئك ونُسي العلم

عبدت»: الذي في البخاري: «ونُسخ العلم»؛ فلعل الذي هنا رواية،

فصارت هذه الأصنام بهذا التصوير على صور الصالحين سُلماً إلى

عبادتها، وكلُّ ما عُبد من دون الله - من قبر أو مَشهد أو صنم أو

طاغوت - فالأصل في عبادته هو الغلو كما لا يخفى على ذوي

البصائر، كما جرى لأهل مصر وغيرهم؛ فإن أعظم آلهتهم أحمدُ

البدوي، وهو لا يُعرف له أصل ولا فضل ولا علم ولا عبادة، ومع

هذا فصار أعظم آلهتهم، مع أنه لا يُعرف إلا أنه دخل المسجد يوم

الجمعة فبال فيه ثم خرج ولم يصل، ذكره السخاوي عن أبي حيان!

فزيّن لهم الشيطان عبادته؛ فاعتقدوا أنه يتصرف في الكون، ويطفئ

الحريق، ويُنجي الغريق، وصرفوا له الإلهية والربوبية وعلم الغيب،

وكانوا يعتقدون أنه يسمّعهم ويستجيب لهم من الديار البعيدة، وفيهم

من يسجد على عتبة حَضْرته، وكان أهل العراق ومن حولهم - كأهل

عمان - يعتقدون في عبدالقادر الجيلاني كما يعتقد أهل مصر في

البدوي، وعبدالقادر من متأخري الحنابلة وله كتابه «الغنية»، وغيره

ممن قبله وبعده من الحنابلة مَنْ هو أفضل منه في العلم والزهد،

لكن فيه زهدٌ وعبادة، وفُتِنُوا به أعظم فتنةٍ كما جرى من الرافضة

مع أهل البيت، وسببُ ذلك الغلو دعوى أن له كرامات، وقد جرت

الكرامات لمن هو خيرٌ منه وأفضل؛ كبعض الصحابة والتابعين،

وهكذا حال أهل الشرك مع من فُتِنوا به .

وأعظمُ من هذا عبادة أهل الشام لابن عربي، وهو إمام أهل الوحدة - الذين هم أكفر أهل الأرض -، وأكثر من أن يعتقد فيه هؤلاء، لا فضل له ولا دين كأناس بمصر وغيرها، وجرى في نجد قبل هذه الدعوة مثل هذا، وفي الحجاز واليمن وغيرهما من عبادة الطواغيت والأشجار والأحجار والقبور ما عمّت به البلوى؛ كعبادتهم للجن، وطلبهم الشفاعة منهم. والأصل في ذلك الغلوّ تزيين الشيطان.

وذكر أهل السير أن التلبية من عهد إبراهيم عليه السلام: «لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك»، حتى كان عمرو بن لُحَيّ الخزاعي، فبينما هو يلبيّ تَمَثَّلَ له الشيطان في صورة شيخ يلبي معه؛ فقال: «لبيك لا شريك لك»، فقال الشيخ: «إلا شريكاً هو لك»؛ فأنكر ذلك عمرو وقال: «ما هذا؟ فقال الشيخ: تملكه وما ملك؛ فإنه لا بأس بهذا»، فقالها عمرو؛ فدانت بها العرب.



وعن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم؛ إنما أنا عبد؛ فقولوا: عبد الله ورسوله». أخرجاه ^(١).

و[عن ابن عباس رضي الله عنهما] قال: قال رسول الله ﷺ: «ياكم والغلو؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو» ^(٢).

ولمسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «هلك المتنطعون». قالها ثلاثاً ^(٣).

الشرح

■ قوله: «عن عمر»: هو ابن الخطاب بن نفيل - بنون وفاء مصغر - العدوي أمير المؤمنين، وأفضل الصحابة بعد الصديق رضي الله عنه، ولي الخلافة عشر سنين ونصفاً، فامتلات الدنيا عدلاً، وفتحت في أيامه ممالك كسرى وقيصر، واستشهد في ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين من الهجرة.

■ قوله: «لا تطروني»: الإطراء هو الغلو، «كما أطرت النصارى ابن مريم»، كما قال تعالى: ﴿يَتَأْهَلَلُ الْكِتَابُ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

■ قوله: «إنما أنا عبد فقولوا: عبد الله ورسوله»: أمرهم ﷺ ألا يتجاوزوا هذا القول، وقد أمر الله عباده بالصلاة والسلام عليه؛

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) صحيح: وقد تقدم.

لأن أشرف مقامات الأنبياء العبودية الخاصة والرسالة.

■ قوله: «وقال: قال رسول الله ﷺ: (إياكم والغلو؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو)»: هذا الحديث ذكره المصنف رحمه الله تعالى بدون ذكر راويه، وقد رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس، وهذا اللفظ رواية أحمد عن ابن عباس.

□ قال شيخ الإسلام رحمه الله: «هذا عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال».

■ قوله: «ولمسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «هلك المتنطعون» - قالها ثلاثاً»:

□ قال الخطابي: «المتنطع: المتعمق في الشيء، المتكلف في البحث عنه على مذهب أهل الكلام الداخلين فيما لا يعنيه، الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم».

□ وقال أبو السعادات: «هم المتعمقون الغالون في الكلام، المتكلمون بأقصى حلوهم».

□ وقال النووي: «فيه كراهة التقعر في الكلام بالتشدد، وتكلف الفصاحة، واستعمال وحشي اللغة، ودقائق الإعراب في مخاطبة العوام ونحوهم».

■ قوله: «قالها ثلاثاً»: أي قال هذه الكلمة ثلاث مرات؛ مبالغة في التعليم والإبلاغ، فقد بلغ البلاغ المبين - صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين -.

ووجه مناسبة هذا الحديث للترجمة: أن الغلو من التنطع والزيادة؛ لما فيه من الخروج إلى ما يوصل إلى الشرك بالله.



فيه مسائل:

الأولى: أن من فهم هذا الباب وبابين بعده = تبين له غربَةُ الإسلام، ورأى مِنْ قُدْرَةِ اللَّهِ وتقليبه للقلوب العجب.

الثانية: معرفة أول شرك حدث في الأرض: أنه بشبهة الصالحين.

الثالثة: أول شيءٍ غَيَّرَ به دين الأنبياء، وما سبب ذلك؟ مع معرفة أن الله أرسلهم.

الرابعة: قبول البدع، مع كون الشرائع والفِطَر تَرُدُّها.

الخامسة: أن سبب ذلك كله مَزْجُ الحق بالباطل، فالأول: محبة الصالحين. والثاني: فَعَلَ أناس من أهل العلم والدين شيئاً أرادوا به خيراً، فظن مَنْ بعدهم أنهم أرادوا به غيره.

السادسة: تفسير الآية التي في سورة نوح.

السابعة: جِبَلَةُ الْآدَمِيِّ فِي كَوْنِ الْحَقِّ يَنْقُصُ فِي قَلْبِهِ، وَالْبَاطِلُ

يَزِيدُ.

الثامنة: فيه شاهدٌ لما نُقِلَ عن السلف أن البدع سبب الكفر.

التاسعة: معرفةُ الشيطان بما تَوَوَّلَ إليه البدعة، ولو حَسُنَ قَصْدُ

الفاعل.

العاشرة: معرفة القاعدة الكلية، وهي النهي عن الغلو، ومعرفة ما

يُؤَوِّلُ إِلَيْهِ.

الحادية عشرة: مَضَرَةُ الْعُكُوفِ عَلَى الْقَبْرِ لِأَجْلِ عَمَلٍ صَالِحٍ.

الثانية عشرة: معرفة النهي عن التماثيل، والحكمة في إزالتها.

الثالثة عشرة: معرفة عظم شأن هذه القصة، وشدة الحاجة إليها مع

الغفلة عنها.

الرابعة عشرة - وهي أعجب وأعجب -: قراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث، ومعرفتهم بمعنى الكلام، وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم، حتى اعتقدوا أن فعل قوم نوح أفضل العبادات، واعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه هو الكفر المبيح للدم والمال [فقط].

الخامسة عشرة: التصريح بأنهم لم يريدوا إلا الشفاعة.
 السادسة عشرة: ظنهم أن العلماء الذين صوّروا الصور أرادوا ذلك.
 السابعة عشرة: البيان العظيم في قوله: «لا تُطْرُونِي كما أطرتِ النصارى ابن مريم». فصلوات الله وسلامه على من بلغ البلاغ المبين.
 الثامنة عشرة: نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين.
 التاسعة عشرة: التصريح بأنها لم تُعبد حتى نُسي العلم، ففيها بيان معرفة قدر وجوده، ومضرة فقده.
 العشرون: أن سبب فقد العلم موث العلماء.



باب: ما جاء من التفليظ فيمن عبد الله عند

قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده؟!

في «الصحيح» عن عائشة رضي الله عنها: أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور؛ فقال: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً، وصوّروا فيه تلك الصور؛ أولئك شرارُ الخلق عند الله» ^(١).

فهؤلاء جمعوا بين فتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل. ولهما عنها قالت: لما نزل برسول الله ﷺ، طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها؛ فقال - وهو كذلك -: «لعنة الله على اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». يُحذّر ما صنعوا، ولولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً. أخرجاه ^(٢).

ولمسلم عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس، وهو يقول: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل؛ فإن الله قد اتخذني خليلاً - كما اتخذ إبراهيم خليلاً - ولو كنت متخذاً من أمّتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً. ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد؛ ألا فلا تتخذوا القبور مساجد؛ فإني أنهاكم عن ذلك» ^(٣).

فقد نهى عنه في آخر حياته. ثم إنه لعن - وهو في السياق -

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) صحيح: وقد تقدم.

مَنْ فَعَلَهُ. والصلاةُ عندها من ذلك - وإن لم يُبْنَ مسجد -، وهو معنى قولها: «خشي أن يتخذ مسجداً»؛ فإن الصحابة لم يكونوا لَيَبْنُوا حول قبره مسجداً، وكلُّ موضع قُصِدَت الصلاة فيه فقد اتُّخذ مسجداً؛ بل كل موضع يصلَّى فيه يسمى «مسجداً»، كما قال ﷺ: «جُعِلَت لي الأرضُ مسجداً وطهوراً»^(١).

ولأحمد - بسندٍ جيد - عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «إِنَّ مِنْ شَرِّ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُم السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءُ، وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْقُبُورَ مَسَاجِدَ». ورواه أبو حاتم في «صحيحه»^(٢).

الشرح

■ قوله: «باب: ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده؟»: فكل ما كان وسيلةً إلى الشرك فهو حرام؛ لكونه يُوقِعُ في الشرك بالله وعبادة ما سواه، كما في الأحاديث.

■ قوله: «في الصحيح»: أي الصحيحين.

■ قوله: «أن أم سلمة»: هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عمرو بن مخزوم القرشية المخزومية، تزوجها النبي ﷺ بعد أبي سلمة سنة أربع، وقيل ثلاث، وكانت قد هاجرت مع أبي سلمة إلى الحبشة، تُوفيت سنة اثنتين وستين.

■ قوله: «ذكرت لرسول الله ﷺ»: وفي «الصحيحين»: أن أم حبيبة وأم سلمة، ذكرتا ذلك لرسول الله ﷺ.

و«الكنيسة» - بفتح الكاف والنون -: متعبّد النصارى.

■ قوله: «رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور»: لأن أم سلمة هاجرت مع زوجها أبي سلمة إلى الحبشة، ثم رجعا إلى مكة؛ فهاجرا منها إلى المدينة، والحبشة دينهم النصرانية وفيهم من أسلم.

■ قوله: «فقال: (أولئك)»: بكسر الكاف خطاب للمرأة.

■ قوله: «إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح»: هذا - والله أعلم - شك من الراوي.

■ قوله: «أولئك شرار الخلق عند الله»: ولم يذكر غير بناء المساجد والتصوير؛ لكونه ذريعةً إلى عبادة من بنّوا عليه المسجد، وصوروا صورته، فبذلك صاروا أشرار الخلق، فانظر إلى ما وقع في هذه الأمة من ذرائع الشرك والوقوع فيه، مما هو أعظم من هذا، كالبناء على القبور، وتعظيمها وعبادتها، ومع ذلك يعتقدونه دينًا، وهو الشرك الذي حرّمه الله، وأرسل الرسل وأنزل الكتب بالنهاي عنه.

■ قوله: «فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين فتنة القبور وفتنة التماثيل»: هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، لم يذكره المصنف رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى؛ لأن ذلك معلوم عند من يقرأ هذا الكتاب.

■ قوله: «الخميسة»: كساء له أعلام، والشاهد للترجمة.

■ قوله ﷺ: «لعنة الله على اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»: فلعنهم ﷺ على تحري الصلاة عندها، وإن كان المصلي إنما يصلي لله، فمن كان يصلي عند القبور ويتخذها مساجد فهو ملعون؛ لأنه ذريعةٌ إلى عبادتها؛ فكيف إذا عبّد أهل القبور

والغائبين بأنواع العبادة، وسألهم ما لا قدرة لهم عليه؟ وهذا هو الغاية التي يكون اتخاذ القبور مساجد ذريعة إليها، واللعنة ليست مختصة باليهود والنصارى؛ بل تعم من فعل فعلهم وما هو أعظم منه، وهذا هو الذي أراه عليه السلام من لعنة اليهود والنصارى على هذا الفعل تحذيرًا لأمته أن يفعلوا ما فعلته اليهود والنصارى، فيقع بهم من اللعنة ما وقع بهم.

■ قوله: «ولولا ذلك»: أي: ما كان يحذر من اتخاذ قبر النبي عليه السلام مسجدًا، «لأبرز قبره» مع قبور أصحابه بالبقيع.

■ قوله: «غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا»: روي بفتح الخاء وضمها، فعلى الفتح يكون هو الذي خشي عليه السلام، وأمرهم أن يدفنوه في المكان الذي قبض فيه. وعلى رواية الضم يحتمل أن يكون الصحابة هم الذين خافوا أن يقع ذلك من بعض الأمة فلم يُبرزوا قبره خشية أن يقع ذلك من بعض الأمة غلوًا وتعظيمًا؛ لما أبدى وأعاد من النهي والتحذير ولعن فاعله.

□ قال القرطبي: «ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي عليه السلام؛ فأعلوا حيطان تربته، وسدوا المداخل إليها، وجعلوها مُحَدَقَةً بقبره عليه السلام، خافوا أن يُتخذ موضع قبره قبلَةً إذا كان مستقبل المصلين، فتصوّر الصلاة إليه بصورة العبادة، فبنوا جدارين من رُكني القبر الشماليين، وحرّفوهما حتى التقيا على زاويةٍ مثلثة من ناحية الشمال؛ حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره» اهـ.

قلت: فبذلك صان الله قبره وقبل دعوته بقوله: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم

مساجد»^(١).

■ قوله: «عن جُنْدُب بن عبد الله»: أي ابن سفيان البجلي، وينسب إلى جده، صحابي مشهور، مات بعد الستين.

□ قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «أما بناء المساجد على القبور فقد نهى عنه في آخر حياته، ثم إنه لعن - وهو في السياق - من فعله، والصلاة عندها من ذلك - وإن لم يُبين مسجد -، وهو معنى قولها: «خشي أن يتخذ مسجدًا»؛ فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدًا. وكل موضع قُصد الصلاة فيه فقد اتُخذ مسجدًا؛ بل كل موضع يُصلّى فيه يسمى مسجدًا، كما قال: ﷺ «جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»^(٢).

فقد صرح عامة الطوائف بالنهي عنه للأحاديث الصحيحة، وصرح أصحابنا وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريمه.

□ قال: «ولا ريب في القطع بتحريمه».

ثم ذكر الأحاديث في ذلك.

□ إلى أن قال: «وهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين والملوك وغيرهم تتعين إزالتها بهدم أو غيره، وهذا مما لا أعلم فيه خلافًا بين العلماء المعروفين».

وقوله: «فقد نهى عنه في آخر حياته، ثم إنه لعن - وهو في السياق - من فعله. والصلاة عندها من ذلك وإن لم يبين مسجد. وهو معنى قولها: «خشي أن يتخذ مسجدًا؛ فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدًا وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

مسجدًا؛ بل كل موضع يصلّى فيه يسمى مسجدًا كما قال ﷺ: (جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا): هذا ذكره شيخنا وهو من تقرير شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى على هذه الأحاديث.

■ قوله: «ولأحمد - بسندٍ جيد - عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: «إن من شرار الناس من تُدرِكهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد». ورواه أبو حاتم في صحيحه»:

قلت: وقد وقع هذا في الأمة كثيرًا كما وقع في أهل الجاهلية قبل مبعث النبي ﷺ - كما لا يخفى على ذوي البصائر -، وقد زاد هؤلاء المتأخرون من هذه الأمة على ما وقع من أهل الجاهلية من هذا الشرك بأمور:

منها: أنهم يخلصون عند الاضطرار لغير الله، وينسون الله.
ومنها: أنهم يعتقدون أن آلهتهم من الأموات يتصرفون في الكون دون الله، وجمعوا بين نوعي الشرك في الإلهية والربوبية، وقد سمعنا ذلك منهم مشافهةً، ومن ذلك قول ابن كمال - من أهل عمان وأمثاله -: «إن عبدالقادر الجيلاني يسمع من دعاءه، ومع سماعه ينفع»! فزعم أنه يعلم الغيب وهو ميت؛ فلقد ذهب عقل هذا وضل، فكفر بما أنزله الله في كتاب كقوله: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (١٤) [فاطر]؛ فما صدّقوا الخبير فيما أخبر به عن آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله، ولا آمنوا بما أنزله الله في كتابه؛ بل بالغوا وعاندوا في رده، وكذبوا وألحدوا، وكابروا المعقول والمنقول؛ فالله المستعان.



فيه مسائل:

الأولى: ما ذكر الرسول ﷺ فيمن بنى مسجدًا يُعبد الله فيه عند قبر رجل صالح، ولو صحت نية الفاعل.

الثانية: النهي عن التماثيل، فإذا اجتمع الأمران تغلظ الأمر.

الثالثة: العبرة في مبالغته ﷺ في ذلك؛ كيف بيّن لهم هذا أولاً، ثم قبل موته بخمسٍ قال ما قال، ثم لما كان في السياق لم يكتفِ بما تقدم.

الرابعة: نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر.

الخامسة: أنه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم.

السادسة: لعنه إياهم على ذلك.

السابعة: أن مراده ﷺ تحذيره إيانا عن قبره.

الثامنة: العلة في عدم إبراز قبره.

التاسعة: في معنى اتخاذها مسجدًا.

العاشر: أنه قرّن بين من اتخذها مساجد، وبين من تقوم عليه الساعة؛ فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته.

الحادية عشرة: ذكر في خطبته قبل موته بخمس: الرد على الطائفتين اللتين هما شرار أهل البدع؛ بل أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقةً، وهم الرافضة والجهمية. وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور؛ وهم أول من بنى عليها المساجد.

الثانية عشرة: ما بُلي به ﷺ من شدة النزع.

الثالثة عشرة: ما أكرم به ﷺ من الخلّة.

الرابعة عشرة: التصريح بأنها أعلى من المحبة .

الخامسة عشرة: التصريح بأن الصديق عليه السلام أفضل الصحابة عليهم السلام .

السادسة عشرة: الإشارة إلى خلافته عليه السلام .



❦ [٢١] باب: ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين ❦

يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ

روى مالك في «الموطأ»: أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم لا تجعل قبوري وثناً يُعبد. اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(١).

□ ولابن جرير بسنده عن سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ﴾ [النجم]، قال: «كان يَلْتُمُ لَهُمُ السَّوِيقُ، فمات، فعكفوا على قبره».

□ وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: «كان يَلْتُمُ السَّوِيقُ للحاج».

□ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج». رواه أهل السنن^(٢).

الشرح

■ قوله: «باب: ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله. روى مالك في «الموطأ» أن رسول الله ﷺ قال: (اللهم لا تجعل قبوري وثناً يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد)»: وذلك أنه ﷺ خاف أن يقع من أمته في حقه كما وقع من اليهود والنصارى في حق أنبيائهم من عبادتهم من دون الله، وسبب ذلك الغلو فيهم؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلُ الْكِتَابِ

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) حسن: وقد تقدم.

لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾ [المائدة]، وكذلك رَغِبَ ﷺ إِلَى رَبِّهِ أَلَّا يَجْعَلَ قَبْرَهُ وَثْنًا يَعْبُدُ، وَقَدْ عُبدَتِ الْقُبُورُ بِأَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ - كما لا يخفى -، وتقدم في حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «ولولا ذلك لأبرز قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا»^(١)، وقد استجاب الله دعوة نبيه ﷺ، وصان قبره، وأحاطه بثلاثة جدران؛ كما قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

فأجاب ربُّ العالمين دعاءه وأحاطه بثلاثة الجدران

■ قوله: «ولابن جرير»: هو أبو جعفر بن جرير صاحب التفسير الكبير، وهو أَجَلُ التفسير وأحسنها، وهو من أئمة المسلمين المجتهدين، وله كتاب «الأحكام» رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

■ قوله: «كان يَلْتُمُ لَهُمُ السَّوِيقَ، فمات فعكفوا على قبره»: فيه شاهد للترجمة؛ فإنهم غَلَّوْا فِيهِ لِأَجْلِ صَلَاحِهِ، وَاتَّخَذُوهُ وَثْنًا بِتَعْظِيمِهِ وَعِبَادَتِهِ، وَصَارَ مِنْ أَكْبَرِ أَوْثَانِ أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ.

■ قوله: «وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ وَالْمُتَخَذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسَّرَجَ»: رواه أهل السنن»: هذا الحديث صحيح؛ صححه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، ويكفيك في الاحتجاج به رواية أهل السنن له، ولم يذكر أحد منهم له علة^(٢)، ولا معارض له.



(١) صحيح: وقد تقدم. (٢) فيه نظر، فطائفة من أهل العلم ضعفوه.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الأوثان.

الثانية: تفسير العبادة.

الثالثة: أنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه.

الرابعة: قرئه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد.

الخامسة: ذكر شدة الغضب من الله.

السادسة - وهي من أهمها -: معرفة صفة عبادة اللات التي هي من أكبر الأوثان.

السابعة: معرفة أنه قبر رجل صالح.

الثامنة: أنه اسم صاحب القبر، وذكر معنى التسمية.

التاسعة: لعنه زوارات القبور.

العاشرة: لعنه من أسرجها.



[٢٢] باب: ما جاء في حماية المصطفى ﷺ

جَنَابَ التَّوْحِيدِ، وَسَدَّهُ كُلَّ طَرِيقٍ يُوَصِّلُ إِلَى الشَّرِكِ

وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾ [التوبة].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قברי عيدًا، وصلوا عليّ؛ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم». رواه أبو داود بإسنادٍ حسن، ورواته ثقات ^(١).

وعن علي بن الحسين رضي الله عنه: أنه رأى رجلاً يجيء إلى فُرجةٍ كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخل فيها، فيدعو، فنهاه، وقال: ألا أحدثكم حديثًا سمعته من أبي، عن جدي، عن رسول الله ﷺ؟ قال: «لا تتخذوا قברי عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا، وصلوا عليّ؛ فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم». رواه في «المختارة» ^(٢).

الشرح

■ قوله: «باب: ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسدّه كل طريق يوصل إلى الشرك»: قد تقدم فيما سلف من الأبواب قبل هذا.

■ قوله: «وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾: ووجه الدلالة بالآية أنه ﷺ يعزُّ عليه كلُّ ما يؤثم الأمة ويشق عليهم، وأعظم ما يؤثم الأمة ويشق عليهم الشرك بالله قليله وكثيره، ووسائله، وما يقربُ منه من كبائر الذنوب، وقد بالغ ﷺ في النهي عن الشرك وأسبابه أعظم مبالغه - كما لا يخفى -، وقد كانت هذه حال أصحابه ﷺ في قطعهم الخيوط التي رُقي للمريض فيها ونحو ذلك من تعليق التمام.

■ قوله: «عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله: ﷺ «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قברי عيدًا، وصلوا عليّ؛ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»»: رواه أبو داود بإسناد حسن، ورواته ثقات: قال الحافظ محمد بن عبد الهادي: «هو حديث حسن جيد الإسناد، وله شواهد يرتقي بها إلى درجة الصحة».

نهاهم ﷺ أن يهجروا بيوتهم عن الصلاة فيها كما تُهجر القبور عن الصلاة إليها؛ مخافة الفتنة بها وما يفضي إلى عبادتها من دون الله؛ لأن النهي عن ذلك قد تقرر عندهم؛ فنهاهم أن يجعلوا بيوتهم كذلك.

قوله: «ولا تجعلوا قברי عيدًا»: فيه شاهد للترجمة.

□ قال شيخ الإسلام: «العيد: اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد، عائداً إما بعود السنّة، أو بعود الأسبوع، أو الشهر، أو نحو ذلك».

□ وقال ابن القيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «العيد ما يُعتاد مجيئه وقصده من زمان ومكان، مأخوذ من المعاودة والاعتیاد، فإذا كان اسماً للمكان

فهو الذي يُقصد فيه الاجتماع، وانتيا به للعبادة أو لغيرها، كما أن المسجد الحرام ومِنَى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله عيداً للحنفاء ومثابة^(١)، كما جعل أيام العيد فيها عيداً. وكان للمشركين أعيادٌ زمانية ومكانية، فلما جاء الله بالإسلام أبطلها، وعوّض الحنفاء منها عيد الفطر وعيد النحر وأيام منى، كما عوّضهم عن أعياد المشركين المكانية بالكعبة ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر.

■ قوله: «وعن علي بن الحسين عليهما السلام: أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي صلى الله عليه وآله فيدخل فيها فيدعو، فنهاه...»: الحديث؛ هذا الحديث رواه أبو يعلى والقاضي إسماعيل والحافظ الضياء في «المختارة».

□ قال شيخ الإسلام: «فانظر هذه السنة؛ كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت الذين لهم من رسول الله صلى الله عليه وآله قرب النسب وقرب الدار؛ لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم فكانوا له أضبط». انتهى.

■ قوله: «عن علي بن الحسين»: أي ابن علي بن أبي طالب المعروف بـ«زين العابدين» عليه السلام، أفضل التابعين من أهل بيته وأعلمهم. قال الزهري: «ما رأيت قرشيًّا أفضل منه»، مات سنة ثلاث وتسعين على الصحيح.

■ قوله: «أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة» - بضم الفاء وسكون الراء - وهي الكوة في الجدار، والخوخة ونحوهما.

■ قوله: «فيدخل فيها فيدعو فنهاه»: وهذا يدل على النهي عن

(١) مثابة: يعودون إليها بين حينٍ وحين.

قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاة عندها.

□ قال شيخ الإسلام: «ما علمت أحداً رخص فيه؛ لأن ذلك نوعٌ من اتخاذهِ عيداً، ويدل - أيضاً - على أن قَصْدَ القبر للسلام - إذا دخل ليصلي - منهى عنه؛ لأن ذلك لم يُشرع، وكره مالك لأهل المدينة كلما دخل إنسانُ المسجد أن يأتي قبر النبي ﷺ؛ لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك. قال: «ولن يُصلحَ آخرَ هذه الأمة إلا ما أصلح أولها». وكان الصحابة والتابعون رضي الله عنهم يأتون إلى مسجد النبي ﷺ فيصلون، فإذا قَضَوْا الصلاة قعدوا أو خرجوا، ولم يكونوا يأتون القبر للسلام؛ لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه عند دخول المسجد هو السنة، وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك، أو للصلاة والدعاء فلم يشرعه لهم؛ بل نهاهم عنه في قوله: «لا تتخذوا قبري عيداً، وصلُّوا عليّ؛ فإن صلاتكم تبلغني»، فبين أن الصلاة تصلُّ إليه من بُعدٍ، وكذلك السلام، ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد، وكانت الحجرة في زمانهم يُدخل إليها من الباب لَمَّا كانت عائشة رضي الله عنها فيها، وبعد ذلك إلى أن بُني الحائط الآخر، وهم مع ذلك التمكن من الوصول إلى قبره لا يدخلون إليه لا لسلام ولا لصلاة ولا لدعاء لأنفسهم ولا لغيرهم، ولا لسؤال عن حديثٍ أو علم، ولا كان الشيطان يطمع فيهم حتى يُسمعهم كلاماً أو سلاماً؛ فيظنون أنه هو كلمهم وأفتاهم وبيّن لهم الأحاديث، وأنه قد ردَّ عليهم السلام بصوتٍ يُسمع من خارج؛ كما طمع الشيطان في غيرهم فأضلهم عند قبره وقبر غيره؛ حتى ظنوا أن صاحب القبر يأمرهم وينهاهم ويحدثهم في الظاهر، وأنه يخرج من القبر، ويرونه خارجاً من القبر، ويظنون أن نفس أبدان الموتى خرجت تكلمهم، وأن

أرواح الموتى تجسدت لهم فرأوها.

والمقصود أن الصحابة رَضُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمْ لم يكونوا يعتادون الصلاة والسلام عليه عند قبره كما يفعل مَنْ بعدهم مِنَ الخلف.

قال سعيد بن منصور في «سننه»: حدثنا عبدالعزيز بن محمد: أخبرني سهيل بن أبي سهيل قال: رأني الحسن بن علي بن الحسين ابن علي بن أبي طالب عند قبر النبي ﷺ؛ فناداني وهو في بيت فاطمة يتعشى، فقال: هلمَّ إلى العشاء. قلت: لا أريده. قال: ما لي رأيْتُكَ عند القبر؟ فقلت: سلمت على النبي ﷺ، فقال: إذا دخلت المسجد فسلم، ثم قال لي: إن رسول الله ﷺ قال: «لا تتخذوا قبوري عيداً، ولا تتخذوا بيوتكم قبوراً، وصلوا عليّ؛ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم. لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء^(١).

قلت: وهو - أيضاً - له قربُ النسب وقرب الدار؛ فنهى عن المجيء إلى القبر للدعاء عنده، فالمجيءُ إلى القبر للسلام عليه وتحريُّ إجابة الدعاء ليس مما شرعه الله ورسوله لهذه الأمة، ولو كان مشروعاً لما تركه الخلفاء والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار، والذين اتبعوهم بإحسان من سادات أهل البيت وأئمة التابعين، ولَمَّا أنكروا على من فعله، وقولهم هو الحجة، وهو الذي

(١) المرفوع صحيح: رواه إسماعيل القاضي في «فضل الصلاة والسلام على النبي ﷺ» (٣٠) - بنحوه مع اختلاف -، ويشهد للمرفوع الحديث السابق، وانظر - لزماً -: تحقيق «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/٣٣٩ - تحقيق العلامة ناصر العقل).

دلت عليه الأحاديث - كحديث عائشة وحديث الباب وغيرهما -؛
 لعلم السلف بما أَرَادَهُ النبي ﷺ بنهيهِ عن الغلو، وخوفه مما وقع
 ممن غلا في الدين، واتبع غير سبيل المؤمنين؛ كما قال تعالى:
 ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بُيِّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ
 نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء].

ولمّا حدث الشرك بأرباب القبور في هذه الأمة، وتعظيمها
 وعبادتها= صارت تشد الرحال إليها لقصد دعائها، والاستغاثة بها،
 وبذل نفيس المال تقرباً إليها وتعظيم سدنّها. فيا لها مصيبةً ما
 أعظمها! نسأل الله السلامة من هذا الشرك وما يقرب منه أو يوصل
 إليه.



فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية براءة.

الثانية: إبعاده [ﷺ] أمته عن هذا الحمى غاية البعد.

الثالثة: ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته.

الرابعة: نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص، مع أن زيارته من أفضل الأعمال.

الخامسة: نهيه عن الإكثار من الزيارة.

السادسة: حثه على النافلة في البيت.

السابعة: أنه متقررٌ عندهم أنه لا يصلّي في المقبرة.

الثامنة: تعليله ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بُعد، فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القرب.

التاسعة: كونه ﷺ في البرزخ تُعرض أعمال أمته في الصلاة والسلام عليه.



﴿٢٣﴾ باب: ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَذَوُ الْقُدَّةِ بِالْقُدَّةِ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحَرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ». قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟». أخرجاه ^(١).

ولمسلم عن ثوبان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ رَوَىٰ لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنْ أُمْتِي سَيَبُلُغُ مُلْكُهَا مَا رَوَىٰ لِي مِنْهَا. وَأُعْطِيتُ الْكَزْنَ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ. وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمْتِي أَلَّا يُهْلِكَهَا بَسَنَةٍ بَعَامَةٍ، وَأَلَّا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ؛ فَيَسْتَبِيحَ بِيضَتَهُمْ. وَإِنْ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِذَا قُضِيَتْ قَضَاءٌ فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أُعْطِيتُكَ لِأُمْتِكَ أَلَّا أُهْلِكَهُمْ بَسَنَةٍ بَعَامَةٍ، وَأَلَّا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بِيضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّىٰ يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا» ^(٢).

ورواه البرقاني في «صحيحه»، وزاد: «وإنما أخاف على أمتي

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

الأئمة المضلين، وإذا وقع عليهم السيف لم يُرفع إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حيي من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان. وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون؛ كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين - لا نبي بعدي - . ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورّة؛ لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله ﴿١﴾.

الشرح

■ قوله: «باب: ما جاء أن بعض هذه الأمة تعبد الأوثان»: الوثن يطلق على كل من فُصد بنوع من أنواع العبادة من دون الله؛ من صنم، أو قبر، أو غيره؛ لقول الخليل عليه السلام: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧]، مع قوله: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظْلُهَا عَنكَيْنِ﴾ ﴿٧١﴾ [الشعراء].

■ قوله: «وقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾»:

□ روى ابن أبي حاتم عن عكرمة قال: «جاء حُيي بن أخطب وكعب بن الأشرف إلى أهل مكة؛ فقالوا: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم؛ فأخبرونا عنا وعن محمد، فقالوا: ما أنتم ومحمد؟ فقالوا: نحن نصل الأرحام، وننحر الكؤماء^(٢)، ونسقي الماء على اللبن، ونفك العُناة^(٣)، ونسقي الحجيح، ومحمد صُنْبُور^(٤) قطع أرحامنا،

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) الكؤماء: الناقة عظيمة السنام.

(٣) العُناة: الأسرى.

(٤) صنبور: منقطع لا عقب له.

واتبعه سُرَّاقُ الحجيج من غفار، فنحن خير أم هو؟ فقالوا: أنتم خيرٌ وأهدى سبيلاً، فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ...﴾ إلى قوله: ﴿هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا﴾ (٥١) [النساء: (١)].

■ وقوله: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠] الآية:

□ قال البغوي في «تفسيره»: ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ﴾ أخبركم ﴿بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَ﴾، يعني قولهم: لم نر أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم، ولا ديناً شراً من دينكم، فذكر الجواب بلفظ الابتداء كقوله: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِّنْ ذَلِكَُمُ النَّارُ﴾ [الحج: ٧٢].

وقوله: ﴿مَثُوبَةً﴾: ثواباً وجزاء؛ نصب على التفسير، ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾؛ فالقردة: أصحاب السبت، والخنازير: كفار مائدة عيسى.

وعن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: «أن المسخين كلاهما من أصحاب السبت، فشبابهم مُسخوا قردة، ومشايخهم مُسخوا خنازير»، ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ أي: وجعل منهم مَن عبد الطاغوت، أي أطاع الشيطان فيما سَوَّلَ له.

□ وفي «تفسير الطبري»: «قرأ حمزة: «وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ»؛ بضم الباء وجر التاء، وقرأ ابن عباس وابن مسعود وإبراهيم النخعي

(١) ضعيف جداً: رواه الطبري في «تفسيره» (٨٥/٥)، وابن أبي حاتم (٣/٩٦٧)، وعبد بن حميد - كما في «العُجَاب» (٨٨٧/٢) -، وضعَّفه جداً صاحباً «الاستيعاب في بيان الأسباب» (٤٠٩/١).

والأعمش وأبان بن تغلب: «وَعُبِدَ الطَّاغُوتِ»؛ بضم العين والباء وفتح الدال وخفض التاء.

قوله: ﴿أُولَئِكَ شَرٌّ مَكَانًا﴾ مما تظنون بنا ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ وهذا من باب استعمال أفعال التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر مشارك؛ كقوله: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا﴾ [الفرقان]. قاله ابن كثير.

■ قوله: «عن أبي سعيد أن رسول الله ﷺ قال: «لَتَتَّبِعَنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ؛ حَذَوِ الْقُدَّةَ بِالْقُدَّةِ؛ حتى لو دخلوا جُحَرَ ضَبٍّ لدخلتموه»؛ قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟» أخرجاه: وهذا سياق مسلم، فبين ﷺ في هذا أن كل ما وقع من أهل الكتاب - مما ذمهم الله به في هذه الآيات وغيرها - لا بد أن يقع جميعه في هذه الأمة، وهو الشاهد للترجمة.

■ قوله: «سَنَن» - بفتح المهملة -: أي طريق من كان قبلكم.

■ قوله: «حَذَوِ الْقُدَّةَ»: بنصب «حَذَوِ» على المصدر، و«الْقُدَّة» - بضم القاف -: واحدة الْقُدْذُ، وهو ريش السهم، أي: لتتبعن طريقهم في كل ما فعلوه، وتُشَبِّهُوهم في ذلك كما تُشَبِّهُ قُدَّةُ السهم الْقُدَّةَ الأخرى كما أخبر ﷺ.

□ قال سفيان بن عيينة: «مَنْ فسد من علمائنا ففيه شبهٌ من اليهود، ومن فسد من عُبَادنا ففيه شبه من النصارى» انتهى.

■ قوله: «عن ثوبان»: وهو مولى النبي ﷺ، ولازمه، ونزل بعده الشام، ومات بحمص سنة أربع وخمسين.

■ قوله: «زَوَى لِي الْأَرْضَ»:

□ قال التوربشتي: «زويْتُ الشيء: جمعته وقبضته، يريد تقريب البعيد منها حتى اطلع عليه اطلاقه على القريب ﷺ. وحاصله أنه طَوَّى له الأرض، وجعلها مجموعةً كهيئة كفٍّ في مرآةٍ ينظره. قال الطيبي: جمعها لي حتى أبصرت ما تملكه أمتي من أقصى المشرق والمغرب منها».

■ قوله: «وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها»:

□ قال القرطبي: «هذا الخبر وُجد مخبره كما قال، وكان ذلك من دلائل نبوته ﷺ؛ وذلك أن مُلْك أُمته اتسع إلى أن بلغ أقصى طنجة - بالنون والجيم -، الذي هو منتهى عمارة المغرب، إلى أقصى المشرق مما وراء خراسان والنهر، وكثيرٌ من بلاد الهند والسند والصين، ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة الجنوب والشمال ولذلك لم يذكر ﷺ أنه أَرِيه، ولا أخبر أن ملك أُمته يبلغه».

■ قوله: «زوي لي منها»: يحتمل أن يكون مبنياً للفاعل ^(١)، وأن يكون مبنياً للمفعول ^(٢).

■ قوله: «وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض»:

□ قال القرطبي: «يعني به كنز كسرى - وهو ملك الفرس -، وقيصر - وهو ملك الروم -، وقصورهما وبلادهما، وقد قال ﷺ: «والذي نفسي بيده لتُنْفَقَنَّ كنوزهما في سبيل الله» ^(٣)، وعبر بالأحمر عن كنز قيصر؛ لأن الغالب عندهم كان الذهب، وبالأبيض عن كنز

(١) أي: بلفظ: «زَوَّى».

(٢) أي: بلفظ: «زُوي».

(٣) رواه البخاري (٣١٢١)، ومسلم (٢٩١٩)، من حديث جابر بن سمره رضي الله عنه.

كسرى؛ لأن الغالب عندهم كان الجوهر والفضة، ووُجد ذلك في خلافة عمر.

■ قوله: «وإني سألت ربي لأمتي ألا يُهلكها بسنة بعامة»: هكذا ثبت في أصل المصنف بالباء، وهي رواية صحيحة في «صحيح مسلم»، وفي بعضها بحذفها.

□ قال القرطبي: وكأنها زائدة؛ لأن «عامه» صفة «السنة».

والسنة: الجذب الذي يكون به الهلاك العام.

■ قوله: «من سوى أنفسهم»: أي من غيرهم من الكفار من إهلاك بعضهم بعضاً، وسبي بعضهم بعضاً، كما هو مبسوط في التاريخ.

■ قوله: «فيستبيح بيضتهم»:

□ قال الجوهرى: «بيضة كل شيء: حوزته، وبيضة القوم: ساحتهم».

وعلى هذا فيكون معنى الحديث: أن الله لا يسلط العدو على كافة المسلمين حتى يستبيح جميع ما جازوه من البلاد والأرض، ولو اجتمع عليهم من بأقطار الأرض وهي جوانبها.

وقيل: بيضتهم: معظمهم وجماعتهم وإن قتلوا.

■ قوله: «حتى يكون بعضهم يُهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً»: الظاهر أن «حتى» هنا لانتهاء الغاية، أي أن أمر أمته ينتهي إلى أن يكون بعضهم يُهلك بعضاً.

■ قوله: «وإن ربي قال: يا محمد، إذا قضيت قضاءً فإنه لا يُردُّ»: هذا كما في الحديث: «ولا رادَّ لما قضيت»^(١).

(١) صحيح: رواه عبدالرزاق (٤٤٠/١٠)، والبيهقي في «الشعب» (٤٦٢٧)، =

■ قوله: «ورواه البرقاني في صحيحه»: هو الحافظ الكبير أبو بكر أحمد بن محمد بن غالب الخوارزمي الشافعي، ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمئة، ومات سنة خمس وعشرين وأربعمئة.

□ قال الخطيب: «كان ثبًا ورعًا، ولم نر في شيوخنا أثبت منه، عارفًا بالفقه، كثير التصانيف، صنف مسندًا ضمّنه ما اشتمل عليه الصحيحان، وجمع حديث الثوري وحديث شعبة وطائفة».

■ قوله: «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين»: أي الأمراء والعلماء والعُباد؛ فيحكمون فيهم بغير علم فيضلونهم؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام]، وقال: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الصافات]، وأمثال هذه الآيات كثير.

□ وعن زياد بن حدير قال: «قال لي عمر: هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قلت: لا، قال: يهدمه زلةُ العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة المضلين». رواه الدارمي.

■ قوله: «وإذا وقع عليهم السيف لم يُرفع إلى يوم القيامة»: وقد وقع ذلك، وما زالت الأمة كذلك، نسأل الله العافية في الدنيا والآخرة، وفيه ما هو حق؛ كقتال أهل التوحيد لأهل الشرك بالله، وجهادهم على تركهم الشرك^(١)، وقد منَّ الله بذلك على من أقامهم

= وعبد بن حميد (٣٩١)، والطبراني في «الكبير» (٣٨٦/٢٠)، وفي «الدعاء» (٦٨٦)، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه. وصحّحه الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٣١٣/١١). وكذا محقق «الشعب» (٤٩/٧).

(١) أي: كي يتركوا الشرك. والله تعالى أعلم.

في آخر هذا الزمان بالدعوة إلى توحيده، لكنَّ أهل الشرك بدؤوهم بالقتال، وأظهرهم الله عليهم؛ كما لا يخفى على من تدبر آيات هذا الدين في هذه الأزمنة.

■ قوله: «ولا تقوم الساعة حتى يلحق حيٌّ من أمتي بالمشركين»: الحي: واحد الأحياء، وهي القبائل، وفي رواية أبي داود: «حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين»^(١).

■ قوله: «وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان»: والفئام مهموز: الجماعات الكثيرة، قاله أبو السعادات. وهذا هو شاهد الترجمة. وقد استحكمت الفتنة بعبادة الأوثان؛ حتى إنه لا يُعرف أحد في هذه القرون المتأخرة أنكر ما وقع من ذلك، حتى أقام الله شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى الذي أنكره ونهى عنه، ودعا الناس إلى تَرْكِهِ، وإلى أن يعبدوا الله تعالى وحده لا شريك له في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، فرماه الملوك وأتباعهم بقُوسِ العداوة، فأظهره الله بالحجة، وأعز أنصاره على من ناوأهم، وبلغت دعوته مشارق الأرض ومغاربها، ولكن من الناس مَنْ عَرَفَ، ومنهم من أنكر، فانتفع بدعوته الكثير من أهل نجد والحجاز وعمان وغيرها، فله الحمد على هذه النعمة العظيمة؛ جعلنا الله [لها] شاكرين.

■ قوله: «وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون؛ كلهم يزعم أنه نبي»:

□ قال القرطبي: «قد جاء عددهم معيناً في حديث حذيفة قال:

(١) ورد بعدها في المطبوع كلمتا: «وكم؟! وكم?!». ولم أتبينها.

قال رسول الله ﷺ «يكون في أمتي كذابون دجالون سبع وعشرون؛ منهم أربع نسوة»: أخرجه أبو نعيم، وقال: هذا حديث غريب^(١)، وحديث ثوبان أصح من هذا.

□ قال القاضي عياض: «عُدَّ من تنبأ من زمن رسول الله ﷺ إلى الآن - ممن اشتهر بذلك وعُرف، واتبعه جماعة على ضلالته -؛ فوجد هذا العدد فيهم، ومن طالع كتب الأخبار والتاريخ عرف صحة هذا، وآخرهم الدجال الأكبر»^(٢).

■ قوله: «وأنا خاتم النبيين»: قال الحسن: «الخاتم الذي خُتم به»، يعني أنه آخر النبيين، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وإنما ينزل عيسى عليه السلام في آخر الزمان حاكمًا بشريعة محمد ﷺ، مصليًا إلى قبلته؛ فهو كآحاد أمته؛ بل هو أفضل هذه الأمة.

■ قوله: «ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصوره؛ لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم»:

□ قال النووي: «يجوز أن تكون الطائفة جماعةً متعددةً من أنواع المؤمنين؛ ما بين شجاع، وبصير بالحرب، وفقهه، ومحدث، ومفسر،

(١) صحيح: رواه أحمد (٣٩٦/٥)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٧٩/٤)، والبخاري (٢٨٨٨)، والطحاوي في «شرح المشكل» (٢٩٥٣)، والطبراني في «الكبير» (٣٠٢٦)، وفي «الأوسط» (٥٤٤٦)، وجوذه الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٨٧/١٣)، وصححه الشيخ شعيب الأرناؤوط في «المسند» (٣٨٠/٣٨).

(٢) وقد جمع الشيخ سيد بن حسين العفاني الكثير من المتنبيين في كتابه الطيب: «وا محمداه»؛ فراجع - مشكورًا -.

وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وزاهد، وعابد، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد؛ بل يجوز اجتماعهم في قُطر واحد، وافتراقهم في أقطار الأرض، ويجوز أن يجتمعوا في بلد واحد، وأن يكونوا في بعض دون بعض منه، ويجوز إخلاء الأرض منهم أولاً فثانياً، إلى ألا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد، فإذا انقضوا جاء أمر الله». انتهى ملخصاً مع زيادة فيه. قاله الحافظ.

□ قال المصنف: «وفيه الآية العظيمة: أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، والبشارة بأن الحق لا يزول بالكلية». ■ قوله: «حتى يأتي أمر الله»: الظاهر أن المراد به ما روي من قبض من بقي من المؤمنين بالريح الطيبة، ووقوع الآيات العظام، ثم لا يبقى إلا شرار الناس. ■ وقوله: «تبارك وتعالى»:

□ قال ابن القيم رحمه الله: «البركة هي فعلة، والفعل منها «بارك»، ويتعدى بنفسه تارة، وبأداة «على» تارة، وبأداة «في» تارة. والمفعول منها «مبارك»، وهو ما جعل منها كذلك؛ فكان مباركاً بجعله تعالى».

والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها «تبارك»، ولهذا لا يقال لغيره ذلك، ولا يصح إلا له ﷻ؛ فهو سبحانه المتبارك، وعبداه ورسوله المبارك.

وأما صفته «تبارك» فمختصة به؛ كما أطلقها على نفسه في قوله: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك]؛ أفلا تراها كيف اطردت في القرآن، جارية

عليه، مختصةً به؛ لا تطلق على غيره، وجاءت على بناء السعة والمبالغة كـ«تعالى وتعاظم» ونحوه! فجاء بناء «تبارك» على بناء «تعالى»؛ الذي هو دال على كمال العلو ونهايته، فكذلك «تبارك» دال على كمال بركته وعظمتها وسعتها، وهذا معنى قول من قال من السلف: (تبارك: تعاظم). وقال ابن عباس: (جاء بكل بركة)».



فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النساء.

الثانية: تفسير آية المائدة.

الثالثة: تفسير آية الكهف.

الرابعة - وهي من أهمها -: ما معنى الإيمان بالجبوت والطاغوت؟ هل هو اعتقاد قلب، أو هو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها؟

الخامسة: قولهم: إن الكفار - الذين يعرفون كفرهم - أهدى سبيلاً من المؤمنين.

السادسة - وهي المقصودة بالترجمة -: أن هذا لا بد أن يوجد في هذه الأمة، كما تقرر في حديث أبي سعيد.

السابعة: التصريح بوقوعها - أعني عبادة الأوثان - في هذه الأمة في جموع كثيرة.

الثامنة: العجب العجيب: خروج من يدعي النبوة، مثل المختار، مع تكلمه بالشهادتين، وتصريحه أنه من هذه الأمة، وأن الرسول حق، وأن القرآن حق. وفيه: أن محمداً خاتم النبيين، ومع هذا يُصدّق في هذا كله مع التضاد الواضح! وقد خرج المختار في آخر عصر الصحابة، وتبعه فئام كثيرة.

التاسعة: البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضى؛ بل لا تزال عليه طائفة.

العاشر: الآية العظمى: أنهم - مع قتلهم - لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم.

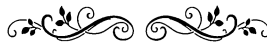
الحادية عشرة: أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة .

الثانية عشرة: ما فيهن من الآيات العظيمة :

- منها: إخباره بأن الله زوى له المشارق والمغارب، وأخبر بمعنى ذلك، فوق كما أخبر، بخلاف الجنوب والشمال .
 - وإخباره بأنه أعطي الكنزين .
 - وإخباره بإجابة دعوته لأمته في الاثنتين .
 - وإخباره بأنه مُنع الثالثة .
 - وإخباره بوقوع السيف، وأنه لا يُرفع إذا وقع .
 - وإخباره بإهلاك بعضهم بعضًا، وسبى بعضهم بعضًا .
 - وخوفه على أمته من الأئمة المضلين .
 - وإخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة .
 - وإخباره ببقاء الطائفة المنصورة .
- وكل هذا وقع كما أخبر، مع أن كل واحدةٍ منها من أبعد ما يكون في العقول .

الثالثة عشرة: حصرُ الخوف على أمته من الأئمة المضلين .

الرابعة عشرة: التنبيه على معنى عبادة الأوثان .



﴿٢٤﴾ باب: ما جاء في السحر

وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبِّ وَالطَّغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

□ قال عمر: «الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان».

□ وقال جابر: «الطواغيت كهانٌ كان ينزل عليهم الشيطان، في كل حيٍّ واحد».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات». قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»^(١).

وعن جندب مرفوعاً: «حدُّ الساحر ضربُه بالسيف». رواه الترمذي، وقال: «الصحيح أنه موقوف»^(٢).

□ وفي «صحيح البخاري» عن بَجَالَةَ بْنِ عَبْدِ قَالَ: «كتب عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة. قال: فقتلنا ثلاث سواحر».

□ وصحَّ عن حفصة رضي الله عنها: «أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتهَا، فقتلت».

□ وكذلك صح عن جندب رضي الله عنه.

□ قال أحمد: «عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ».

الشرح

■ قوله: «باب: ما جاء في السحر»: أي والكهانة.

السحر في اللغة: عبارة عما خفي ولطف سببه، ولهذا جاء في الحديث: «إن من البيان لسحراً»^(١)، وهذا من التشبيه البليغ؛ شبهه بالسحر لكونه بالبيان يحصل منه ما يحصل من السحر.

□ قال أبو محمد المقدسي في «الكافي»: «السحر عزائم ورقى، ومنه ما يؤثر في القلوب والأبدان، فيمرض ويقتل، ويفرق بين المرء وزوجه، قال تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وقال: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾^(٢) [الفلق]: يعني السواحر اللاتي ينفثن في سحرهن».

ولولا أن للسحر حقيقة لم يأمر بالاستعاذة منه، واختلفوا هل يكفر الساحر أو لا؟ فذهب طائفة من السلف إلى أنه يكفر، وبه قال مالك وأبو حنيفة وأحمد، قال أصحابه: إلا أن يكون سحره بأدوية وتدخين وسقي شيء يضر فلا يكفر.

ومما يدل على أنه كفر: قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

■ وقوله: «﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾»: قال عمر: الجبت: السحر. والطاغوت: الشيطان. وتقدم كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في حد «الطاغوت»، وأن له أفراداً؛ منها عبادة غير الله، فالمعبود طاغوت

(١) صحيح: وقد تقدم.

- كما دلت عليه الآيات -، ومنهم الكهان، ومن يحكم بغير الحق، أو يأمر بما يخالف الحق، أو يرضى به، وغير ذلك.

■ قوله: «الطواغيت كهان»: أراد أن الكهان من الطواغيت.

■ قوله: «كان ينزل عليهم الشيطان»: أراد الجنس لا الشيطان الذي هو إبليس خاصة؛ بل تنزل عليهم الشياطين، ويخاطبونهم، ويخبرونهم بما يسترقونه من السمع؛ فيصدقون مرةً، ويكذبون مئةً.

■ قوله: «وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (اجتنبوا السبع الموبقات). قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: (الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات): كذا أورده المصنف رحمه الله تعالى غير معزو، وقد رواه البخاري ومسلم.

«اجتنبوا»: أي: ابعدوا، وهو أبلغ من قوله: دعوا أو اتركوا؛ لأن النهي عن القربان أبلغ؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

■ قوله: «الموبقات» - بموحدة وقاف -: أي المهلكات، وسميت هذه موبقات لأنها تُهلك فاعلها في الدنيا بما يترتب عليها من العقوبات، وفي الآخرة من العذاب.

وفي حديث ابن عمر عند البخاري في «الأدب المفرد» مرفوعاً قال: «الكبائر تسع...»، وذكر السبعة المذكورة: «والإلحاد في

الحرم، وعقوق الوالدين»^(١).

■ قوله: «الشرك بالله»: هو أن يجعل لله ندا يدعوه أو يرجوه كما يرجو الله.

□ قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

والشرك فاحذره فشرْكُ ظاهر ذا القِسْمُ ليس بقابلِ الغُفرانِ
وهو اتخاذُ الند للرحمنِ أيًّا كان من حجرٍ ومن إنسانِ
يدعوه أو يرجوه ثم يخافه ويحبه كمحبة الديانِ
وبدأ به لأنه أعظم ذنب عُصي الله به؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ
الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان] «والسحر» تقدم تعريفه.

■ قوله: «وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق»: أي نفس المسلم المعصوم، وقتل المعاهد كما في الحديث: «من قتل معاهدًا لم يَرَحْ رائحة الجنة»^(٢).

وذهب ابن عباس وأبو هريرة إلى أنه لا توبة لمن قتل مؤمنًا متعمدًا.

وذهب جمهور الأمة - سلفًا وخلفًا - إلى أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله، فإن تاب وأناب وعمل صالحًا بَدَّلَ اللهُ سيئاته حسنات؛ كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ

(١) صحيح: رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٨)، واللالكائي في «شرح أصول الاعتقاد» (١٩٢٥)، وابن الجعد (٣٣٠٣)، والبيهقي في «الكبرى» (٥٧٣/٣)، والطبري في «تهذيب الآثار» (٣١٤)، وصحَّحه الشيخ الألباني في «الأدب المفرد»، وفي «الصحيحة» (٢٨٩٨).

(٢) رواه البخاري (٣١٦٦)، من حديث عبدالله بن عمرو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿١٨﴾، إلى قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ ﴿٧٠﴾ [الفرقان].

■ قوله: «وأكل الربا»: أي: تناوله بأي وجه، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥] الآيات.

□ قال ابن دقيق العيد: «وهو يجر لسوء الخاتمة نعوذ بالله من ذلك».

قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ ﴿١٣٠﴾ [آل عمران].

وفي الحديث: «الربا نَيْفٌ وسبعون حُوبًا»^(١)؛ أيسرها مثل أن ينكح الرجل أمه»^(٢).

■ قوله: «وأكل مال اليتيم»: يعني التعدي فيه، وعبر بالأكل لأنه أعم وجوه الانتفاع؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ ﴿١٠﴾ [النساء].

■ قوله: «والتولي يوم الزحف»: أي الإدبار عن الكفار وقت التحام

(١) الحُوب: الذنب.

(٢) ضعيف: رواه البيهقي في «الشُّعَب» (٦٤٨٩)، من حديث ابن عباس رضي الله عنه. وعزاه الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب» (٥٠٣/٣) لابن أبي الدنيا والطبراني - أيضًا -، وضعفه - مصدراً إياه بصيغة التمریض -، وضعفه - كذلك - الشيخ الألباني في «ضعيف الترغيب» (١٦٧٨)، وحسنه محقق «شعب الإيمان» (٨٢/٩) لشواهده، فالله أعلم.

القتال؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِدْ يُؤْمِدْ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [١٦] [الأنفال].

■ قوله: «وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» - وهو بفتح الصاد -: المحفوظات من الزنا، وبكسرهما: الحافظات فروجهن منه، والمراد الحرائر العفيفات. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ...﴾ [النور: ٢٣] الآية.

■ قوله: «عن جندب»: رواه الطبراني في ترجمة جندب بن عبدالله البجلي.

□ قال الحافظ: «والصواب أنه غيره، وقد رواه ابن قانع والحسن ابن سفيان من وجهين، عن الحسن، عن جندب الخير: «أنه جاء إلى ساحر فضربه بالسيف حتى مات»، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ... فذكره».

■ قوله: «حد الساحر ضربه بالسيف»: روي بالهاء وبالتاء، وكلاهما صحيح.

وبهذا الحديث أخذ أحمد ومالك وأبو حنيفة؛ فقالوا: يقتل الساحر. وروي ذلك عن عمر وعثمان وابن عمر وحفصة وجندب ابن عبدالله، وجندب بن كعب، وقيس بن سعد، وعمر بن عبدالعزيز.

ولم ير الشافعي عليه القتل بمجرد السحر إلا إن عمل في سحر ما يبلغ الكفر به. قال ابن المنذر: وهو رواية عن أحمد.

والأول أولى للحديث والأثر عن عمر، وعمل به الناس في

خلافته من غير كبير.

■ قوله: «وفي صحيح البخاري عن بَجَالَة بن عبدة قال: كتب عمر: «أن اقتلوا كل ساحر وساحرة». فقتلنا ثلاث سواحر»: هذا الأثر رواه البخاري - كما قال المصنف -، لكن لم يذكر قتل السواحر.

■ قوله: «عن بَجَالَة» - بفتح الموحدة بعدها جيم - «ابن عبدة» - بفتحيتين - التميمي العنبري بصري ثقة.

■ قوله: «كتب عمر بن الخطاب أن اقتلوا كل ساحر وساحرة»: وظاهره أنه يقتل من غير استتابة، وهو كذلك على المشهور عن أحمد، وبه قال مالك؛ لأن علم السحر لا يزول بالتوبة.

وعن أحمد: يستتاب، فإن تاب قبلت توبته؛ وبه قال الشافعي؛ لأن ذنبه لا يزيد على الشرك، والمشرک يستتاب وتقبل توبته، ولذلك صح إيمان سحرة فرعون وتوبتهم.

■ قوله: «وصح عن حفصة رضي الله عنها: أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت»: هذا الأثر رواه مالك في «الموطأ»، وحفصة هي أم المؤمنين بنت عمر بن الخطاب، تزوجها النبي ﷺ بعد خنيس بن حذافة، وماتت سنة خمس وأربعين.

■ وقوله: «وكذا صح عن جندب»: أشار المصنف بهذا إلى قتل الساحر، كما رواه البخاري في «تاريخه» عن أبي عثمان النهدي قال: «كان عند الوليد رجل يلعب، فذبح إنساناً، وأبان رأسه، فعجبنا، فأعاد رأسه، فجاء جندب الأزدي فقتله».

ورواه البيهقي في «الدلائل» مطولاً، وفيه: «فأمر به الوليد

فسجن...» فذكر القصة بتمامها، ولها طرق كثيرة.

■ قوله: «قال أحمد: عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ»: أحمد هو الإمام أحمد بن حنبل، أي: صح قتل الساحر عن ثلاثة.



فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة.

الثانية: تفسير آية النساء.

الثالثة: تفسير الجبت والطاغوت، والفرق بينهما.

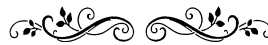
الرابعة: أن الطاغوت قد يكون من الجن، وقد يكون من الإنس.

الخامسة: معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي.

السادسة: أن الساحر يكفر.

السابعة: أنه يُقتل ولا يستتاب.

الثامنة: وجود هذا في المسلمين على عهد عمر، فكيف بعده؟



﴿ ٢٥ ﴾ باب: بيان شيء من أنواع السحر

قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، عن حيان بن العلاء، حدثنا قَطْنُ بن قَبِيصَةَ، عن أبيه أنه سمع النبي ﷺ قال: «إن العيافة والطَّرْقَ والطَّيْرَةَ من الجِبْتِ»^(١).

□ قال عوف: «العيافة: زجر الطير. والطَّرْق: الخط يُخَطُّ بالأرض».

والجبت:

□ قال الحسن: «رنة الشيطان». إسناده جيد.

ولأبي داود والنسائي وابن حبان في «صحيحه» المسند منه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ اقْتَبَسَ شَعْبَةً من النجوم فقد اقْتَبَسَ شَعْبَةً من السَّحَرِ، زاد ما زاد». رواه أبو داود، وإسناده صحيح^(٢).

وللنسائي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «مَنْ عَقَدَ عَقْدَةً ثم نفث فيها فقد سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ فقد أَشْرَكَ. ومن تعلَّقَ شيئاً وُكِّلَ إليه»^(٣).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أَلَا هَلْ أَنْبَأُكُمْ ما الْعَصَةُ؟ هي النَّمِيمَةُ، القَالَةُ بين الناس». رواه مسلم^(٤).

(١) حسن - إن شاء الله - : وقد تقدم.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) ضعيف: وقد تقدم.

(٤) صحيح: وقد تقدم.

ولهما عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن من البيان لِسِحْرًا»^(١).

الشرح

- قوله: «قال أحمد»: هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل.
- و«محمد»: هو ابن جعفر المشهور بـ«غُنْدَر» الهذلي البصري، ثقة مشهور، مات سنة ست ومئتين.
- و«عوف»: هو ابن أبي جميلة - بفتح الجيم - العبدى البصري المعروف بـ«عوف الأعرابي»؛ ثقة، مات سنة ست أو سبع وأربعين، وله ست وثمانون سنة.
- و«حيان بن العلاء»: - بالتحية -، ويقال: حيان بن مخارق، أبو العلاء البصري مقبول.
- و«قَطَن» - بفتحيتين -: أبو سهلة البصري صدوق.
- قوله: «عن أبيه»: هو قَبِيصة - بفتح أوله - ابن مُخَارِق - بضم الميم -، أبو عبد الله الهلالي صحابي نزل البصرة.
- قوله: «(إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت)». قال عوف: العيافة: زجر الطير، والطرق: الخط يخط بالأرض؛ والطيرة: التفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها، وهو من عادة العرب، وكثير في أشعارهم؛ يقال: عاف يَعِيف: إذا زجر وحُدس وظن.
- قوله: «والطرق: الخط يخط بالأرض»: هكذا فسرهُ عوف وهو كذلك.

□ قال أبو السعادات: «هو الضرب بالحصى الذي يفعله النساء».

■ قوله: «والجبت»: أي السحر.

■ قوله: «قال الحسن: رنة الشيطان».

□ قلت: ذكر إبراهيم بن محمد بن مفلح: أن في «تفسير بقي بن مخلد»: «أن إبليس رن أربع رنات^(١): رنة حين لُعن، ورنه حين أُهبط، ورنه حين ولد رسول الله ﷺ، ورنه حين أنزلت فاتحة الكتاب».

□ وروى الحافظ الضياء في «المختارة»: «الرنين: الصوت».

وقد رن يرن رنينًا، وبهذا يظهر معنى قول الحسن ﷺ.

■ قوله: «وعن ابن عباس ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس شعبةً من النجوم فقد اقتبس شعبةً من السحر؛ زاد ما زاد». رواه أبو داود بإسناد صحيح: ولذا صححه النووي والذهبي، ورواه أحمد وابن ماجه.

■ قوله: «من اقتبس»: قال أبو السعادات: قبست العلم وأقبست إذا علمته. انتهى.

■ قوله: «شعبة»: أي: طائفة. ومنه الحديث: «الحياء شعبةٌ من الإيمان»^(٢)، أي جزء منه.

■ قوله: «فقد اقتبس شعبةً من السحر»: المحرم تعلُّمه.

□ قال شيخ الإسلام: «فقد صرح رسول الله ﷺ بأن علم النجوم

(١) الرنة: الصرخة.

(٢) رواه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥)، من حديث أبي هريرة ﷺ.

من السحر، وقد قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ [طه].

■ قوله: «زاد ما زاد»: أي كلما زاد من تعلم النجوم زاد في السحر، وفي الإثم الحاصل بزيادة الاقتباس من شُعبه؛ فإن ما يعتقدونه في النجوم من التأثير باطل، كما أن تأثير السحر باطل. والله أعلم.

■ قوله: «وللنسائي من حديث أبي هريرة: (من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلق شيئاً وكل إليه)»: هذا الحديث ذكره المصنف رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى من حديث أبي هريرة، وعزاه للنسائي، وقد رواه النسائي مرفوعاً، وحسنه ابن مفلح.

■ قوله: «وللنسائي»: هو الإمام الحافظ أحمد بن شعيب بن علي ابن سنان بن بحر بن دينار، أبو عبد الرَّحْمَنِ، صاحب «السنن الكبرى» و«المجتبى»^(١) وغيرهما، روى عن محمد بن المثنى، وابن بشار، وقتيبة، وخلق، وكان إليه المنتهى في العلم بعلل الحديث، مات سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمئة، وله ثمانون سنة.

■ قوله: «من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر»: قال تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ [الفلق]؛ يعني السواحر اللاتي يفعلن ذلك، والنفث هو دون التفل.

■ وقوله: «ومن تعلق شيئاً وكل إليه»: أي من علّق قلبه بشيء - بحيث يرجوه ويخافه - وكله الله إلى ذلك الشيء، ومن قصر تعلقه على الله وحده كفاه ووقاه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى

(١) «المجتبى» جمعه الإمام ابن السني تلميذ النسائي رَحِمَهُمَا اللهُ، واختصره من كتاب شيخه «السنن الكبرى».

اللَّهُ فَهُوَ حَسْبُهُ» [الطلاق: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، ومن تعلق قلبه بغير الله في رجاء نفع أو دفع ضرر فقد أشرك.

■ قوله: «ألا أنبئكم ما العضة؟»: بفتح المهملة وسكون المعجمة. ثم فسرهما بقوله: «هي النميمة، القالة بين الناس»، فأطلق عليها العضه؛ لأن النمام يعمل عمل الساحر.

□ وذكر ابن عبد البر عن يحيى بن أبي كثير قال: «يفسد النمام والكذاب في ساعة ما لا يُفسد الساحر في سنة».

□ وقال أبو الخطاب في «عيون المسائل»: «ومن السحر السعي بالنميمة والإفساد بين الناس».

□ قال ابن حزم: «واتفقوا على تحريم الغيبة والنميمة في غير النصيحة الواجبة. وفيه دليل على أنها من الكبائر».

■ قوله: «القالة بين الناس»، ومنه الحديث: «ففتشت القالة بين الناس». أي: كثرة القول وإيقاع الخصومة.

■ قوله: «ولهما عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: (إن من البيان لسحراً)»: البيان: الفصاحة والبلاغة.

□ قال ابن عبد البر: «تأوله طائفة على الذم؛ لأن السحر مذموم. وذهب أكثر أهل العلم وجماعة أهل الأدب إلى أنه على المدح؛ لأن الله تعالى مدح البيان».

□ قال: «وقال عمر بن عبدالعزيز رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى - لرجل سأله عن حاجة، فأحسن المسألة، فأعجبه قوله -: هذا والله السحر الحلال» انتهى.

والأول أصح، والمراد به البيان الذي فيه تمويهٌ على السامع وتلبيس؛ كما قال بعضهم:

في زخرف القول تزيينٌ لباطله والحقُّ قد يعتريه سوءٌ تعبيرِ
مأخوذ من قول الآخر:

تقول هذا مُجأجُ النحلِ تمدُّه وإن تشا قلتَ: ذا قِيءُ الزنابيرِ^(١)
مدحًا وذمًّا وما جاوزتَ وصفهما والحقُّ يعتريه سوءٌ تعبيرِ
■ قوله: «إن من البيان لسحراً»: هذا من التشبيه البليغ؛ لكون ذلك يعمل عمل السحر؛ فيجعل الحق في قالب الباطل، والباطل في قالب الحق؛ فيستميل به قلوب الجهال حتى يقبل الباطل وينكر الحق.

وأما البيان الذي يوضح الحق ويقرره، ويبطل الباطل ويبينه = فهذا هو الممدوح، وهكذا حال الرسل وأتباعهم؛ ولهذا علت مراتبهم في الفضائل، وعظمت حسناتهم.



فيه مسائل:

الأولى: أن العيافة والطُّرُق والطيرة من الجبت.

الثانية: تفسير العيافة والطرق.

الثالثة: أن علم النجوم من أنواع السحر.

الرابعة: أن العَقْد مع النفث من ذلك.

الخامسة: أن النميمة من ذلك.

السادسة: أن من ذلك بعض الفصاحة.



[٢٦] باب: ما جاء في الكهان ونحوهم

روى مسلم في «صحيحه» عن بعض أزواج النبي ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا، فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَصَدَّقَهُ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا»^(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا؛ فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ». رواه أبو داود^(٢).

وللأربعة والحاكم - وقال: صحيح على شرطهما - عن أبي هريرة رضي الله عنه: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»^(٣).

ولأبي يعلى - بسند جيد - عن ابن مسعود مثله موقوفًا.
وعن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعًا: «لَيْسَ مَنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تَطَيَّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تَكَهَّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ. وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ». رواه البزار بإسناد جيد^(٤).

ورواه الطبراني في «الأوسط» بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله: «وَمَنْ أَتَى...» إلى آخره^(٥).

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) صحيح: وقد تقدم.

(٤) صحيح: وقد تقدم.

(٥) صحيح: وقد تقدم.

□ قال البغوي: «العرّاف: الذي يدّعي معرفة الأمور بمقدماتٍ يستدلُّ بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك. وقيل: هو الكاهن. والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيّبات في المستقبل. وقيل: الذي يخبر عما في الضمير».

□ وقال أبو العباس بن تيمية: «العراف: اسم للكاهن والمنجم والرمّال ونحوهم، ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق».

□ وقال ابن عباس رضي الله عنهما - في قوم يكتبون أبا جاد، وينظرون في النجوم -: «ما أَرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ خَلْقٍ».

الشرح

■ قوله: «باب: ما جاء في الكهان ونحوهم»: الكاهن هو الذي يأخذ عن مسترق السمع، وكانوا قبل المبعث كثيرًا، وأما بعد المبعث فإنهم قلُّوا؛ لأن الله حرس السماء بالشهب، وأكثر ما يقع في هذه الأمة ما يخبر به الجنُّ مواليهم من الإنس عن الأشياء الغائبة مما يقع في الأرض من الأخبار، فيظنه الجاهل كشفًا وكرامةً، وقد اغتر بذلك كثير من الناس يظنون ذلك المخبر لهم عن الجن وليًا لله، وهو من أولياء الشيطان؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمَعَشَرُ الْجِنُّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَمَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مُوَكَّلَةٌ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٢٨] الآية.

■ قوله: «عن بعض أزواج النبي ﷺ»: هي حفصة، ذكره أبو مسعود الثقفي؛ لأنه ذكر هذا الحديث في «الأطراف» في مسندها.

□ قال البغوي: «العراف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك، وقيل: هو الكاهن. والكاهن: هو الذي يُخبر عن المغيِّبات في المستقبل، وقيل: الذي يخبر عما في الضمير».

□ وقال شيخ الإسلام: «العراف: اسم للكاهن والمنجم والرمَّال ونحوهم».

□ وقال - أيضًا -: «والمنجم يدخل في اسم العرَّاف».

□ وقال ابن القيم: «من اشتهر بإحسان الزجر عندهم سمَّوه عائفًا وعرافًا».

■ قوله: «لم تقبل له صلاة أربعين يومًا»:

□ قال النووي وغيره ما معناه: «إنه لا ثواب له فيها، وإن كانت مجزئةً بسقوط الفرض عنه. ولا بد من هذا التأويل في هذا الحديث؛ فإن العلماء متفقون على أنه لا يلزم من أتى العراف إعادة صلاة أربعين ليلة». انتهى ملخصًا.

■ قوله: «وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»: رواه أبو داود: وفي رواية أبي داود: «أو امرأة - قال مسدد: امرأته - حائضًا، أو أتى امرأة - قال مسدد: امرأته - في دبرها= فقد برئ مما أنزل على محمد ﷺ».

■ قوله: «وللأربعة والحاكم - وقال: صحيح على شرطهما - عن ...: «من أتى عرافًا أو كاهنًا، فصدقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»: هكذا بيَّض المصنف لاسم الراوي، وقد رواه أحمد

والبيهقي والحاكم عن أبي هريرة مرفوعاً.

■ قوله: «من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»:

□ قال القرطبي: «المراد بـ«المُنْزَل»: الكتاب والسنة».

■ قوله: «ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله مرفوعاً»: أبو يعلى اسمه: أحمد بن علي بن المثنى الموصلي، الإمام صاحب التصانيف كالمسند وغيره. روى عن يحيى بن معين، وأبي خيثمة، وأبي بكر بن أبي شيبة وخلق، وكان من الأئمة الحفاظ، مات سنة سبع وثلاثمئة.

وهذا الأثر رواه البزار - أيضاً -، ولفظه: «من أتى كاهناً أو ساحراً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ». وفي هذه الأحاديث التصريح بكفره.

■ قوله: «ليس منا»: دليل على نفي الإيمان الواجب، وهو لا ينافي ما تقدم من أن الطيرة شرك والكهانة كفر.

■ قوله: «رواه البزار»: هو أحمد بن عمرو بن عبد الخالق أبو بكر البزار البصري، صاحب «المسند الكبير»، روى عن ابن بشار، وابن المثنى، وخلق. مات سنة اثنتين وتسعين ومئتين.

■ قوله: «قال ابن عباس في قوم يكتبون أبا جاد وينظرون في النجوم: ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق»: هذا الأثر رواه الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً، وإسناده ضعيف^(١).

(١) موضوع: رواه الطبراني في «الكبير» (٤٨/١١)، وابن الأعرابي في =

■ قوله: «ما أرى»: يجوز فتح الهمزة بمعنى: لا أعلم، ويجوز ضمها بمعنى: لا أظن. وكتابة أبي جاد وتعلُّمها لمن يدعي بها علم الغيب هو الذي يسمى علم الحروف، وهو الذي فيه الوعيد، وأما تعلمها للتهجي وحساب الجُمَّل فلا بأس به.

■ قوله: «وينظرون في النجوم»: أي ويعتقدون أن لها تأثيرًا في باب التنجيم. وفيه الحذر من كل علم لا تُعلم صحته من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وقد ورد النهي عنها، والتحذير من قرب أهلها وسؤالهم وتصديقهم فيما أخبروا به من باطلهم، فما أكثر من يغتر بهذه الأمور!



= «معجمه» (١٧٢٨)، وأفاد الإمام الهيثمي في «المجمع» (١١٦/٥) أن في إسناده كذابًا، وبنحوه أفاد الشيخ حسين الداراني في تحقيق «المجمع» (٣٦٣/١١).

ولفظه: «رُبَّ معلِّم حروف أبي جاد دارسٍ في النجوم ليس له عند الله خلاقٌ يوم القيامة».

فيه مسائل:

الأولى: أنه لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن.

الثانية: التصريح بأنه كفر.

الثالثة: ذكر من تُكهن له.

الرابعة: ذكر من تُطير له.

الخامسة: ذكر من سحر له.

السادسة: ذكر من تعلم أبا جاد.

السابعة: ذكر الفرق بين الكاهن والعراف.



[٢٧] باب: ما جاء في النُّشْرة

عن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ سُئِلَ عن النُّشْرة؟ فقال: «هي من عمل الشيطان». رواه أحمد بسندٍ جيد، وأبو داود ^(١).

□ وقال: «سئل أحمد عنها فقال: ابن مسعود يكره هذا كله».

□ وفي البخاري عن قتادة: «قلت لابن المسيب: رجلٌ به طِبُّ، أو يؤخِّذُ عن امرأته؛ أَيَحُلُّ عنه أو ينشُر؟ قال: لا بأس به؛ إنما يريدون به الإصلاح، أما ما ينفع فلم يُنْه عنه» اهـ.

□ وروي عن الحسن أنه قال: «لا يَحُلُّ السحرَ إلا ساحر».

□ قال ابن القيم: «النشرة: حلُّ السحر عن المسحور، وهي

نوعان:

أحدهما: حلُّ بسحرٍ مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يُحمل قول الحسن، فيتقرب الناشرُ والمنتشر إلى الشيطان بما يُحب، فيُبطلُ عمله عن المسحور.

والثاني: النُّشْرة بالرقية والتعوذات والدعوات والأدوية المباحة؛ فهذا جائز».

الشرح

■ قوله: «باب: ما جاء في النُّشْرة»: بضم النون - كما في القاموس -.

(١) صحيح: وقد تقدم.

□ قال أبو السعادات: «النشرة: ضرب من العلاج والرقية يعالج به مَنْ كان يُظن أن به مسًّا من الجن، سُميت نشرة؛ لأنه يُنشر بها عنه ما خامره من الداء، أي: يكشف ويزال».

□ قال ابن الجوزي: «النشرة: حل السحر عن المسحور، ولا يكاد يقدر عليه إلا من يعرف السحر».

■ قوله: «عن جابر أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة فقال: «هي من عمل الشيطان»، رواه أحمد بسند جيد وأبو داود، وقال سئل أحمد عنها فقال: ابن مسعود يكره هذا كله»: هذا الحديث رواه أحمد، ورواه عنه أبو داود في «سننه»، وحسن الحافظ إسناده.

■ قوله: «سئل عن النشرة»: الألف واللام في النشرة للعهد، أي النشرة المعهودة التي كان أهل الجاهلية يصنعونها، «هي من عمل الشيطان».

■ قوله: «عن قتادة»: هو ابن دِعامَة - بكسر الدال -، ثقة فقيه حافظ، من أحفظ التابعين وأئمة التفسير. قالوا: إنه ولد أكمه، مات سنة بضع عشرة ومئة.

■ قوله: «رجل به طُبُّ» - بكسر الطاء -: أي سحر، يقال: طُبُّ الرجل بالضم إذا سُحر.

■ قوله: «يؤخَذ» - بفتح الواو مهموزًا، وتشديد الخاء المعجمة، وبعدها ذال معجمة -، أي: يحبس عن امرأته، لا يصل إلى جماعها، والأخْذة - بضم الهمزة -: الكلام الذي قاله الساحر.

■ قوله: «أُيْحَلُّ» - بضم الياء وفتح الحاء -: مبني للمفعول.

■ قوله: «أو ينشَر» - بتشديد المعجمة -.

■ قوله: «لا بأس به»: يعني أن النشرة لا بأس بها؛ لأنهم يريدون بها الإصلاح، وهذا من ابن المسيب يُحمل على نوع من النشرة لا يعلم أنه سحر.

■ قوله: «وروي عن الحسن أنه قال: (لا يَحُلُّ السَّحَرُ إِلَّا سَاحِرًا)»: هذا الأثر ذكره ابن الجوزي في «جامع المسانيد». والحسن هو ابن أبي الحسن - واسمه يَسَارٌ بالتحية والمهمله - البصري الأنصاري مولاهم، ثقة فقيه إمام، من خيار التابعين، مات سنة عشر ومئة وقد قارب التسعين.

ومما جاء في صفة النشرة الجائزة:

□ ما روى ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ليث بن أبي سليم قال: «بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر - بإذن الله تعالى -، تقرأ في إناء فيه ماء، ثم يُصب على رأس المسحور: الآية التي في سورة يونس: ﴿مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَبْطَلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾^(٨١)، إلى قوله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾^(٨٢) [يونس]، وقوله: ﴿فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١١٨) [الأعراف] إلى آخر الآيات الأربع، وقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَحَرٍ وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقَى﴾^(٩١) [طه].»

□ وقال ابن بطال: «في كتاب وهب بن منبه: أن يأخذ سبع ورقات من سدرٍ أخضر، فيدقُّه بين حجرين، ثم يضربه بالماء ويقرأ فيه آية الكرسي والقواقل^(١)، ثم يحسو منه ثلاث حسوات، ثم يغتسل به = يذهب عنه كل ما به، وهو جيد للرجل إذا حبس عن

(١) القواقل: ما يبدأ بـ«قل»، مثل سورتي الإخلاص، والمعوذتين، ونحو ذلك.

أهله» (١).



(١) هذا والذي قبله لا يعدُّ حجةً شرعية.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن النشرة.

الثانية: الفرق بين المنهَى عنه والمرخَّص فيه مما يزيل الإشكال.



❦ [٢٨] باب: ما جاء في التطيُّر ❦

وقول الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَلَيْتُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (١٣) [الأعراف].

وقوله: ﴿قَالُوا طَلَيْتُكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ (١١) [يس].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا عدوى ولا طيرة، ولا هامة ولا صفر». أخرجه .
زاد مسلم: «ولا نوء ولا غول»^(١).

ولهما عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة، ويُعجبني الفأل». قالوا: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيبة»^(٢).
ولأبي داود - بسند صحيح - عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ؛ فقال: «أحسنها الفأل، ولا ترُدُّ مسلماً؛ فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»^(٣).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «الطيرة شرك، الطيرة شرك، وما منا إلا، ولكن الله يذهب بالتوكل». رواه أبو داود والترمذي - وصححه -، وجعل آخره من قول ابن مسعود^(٤).

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) حسن: وقد تقدم.

(٤) صحيح: وقد تقدم.

الشرح

■ قوله: «باب: ما جاء في التطير»: أي من النهي عنه والوعيد.

و«الطيرة» - بكسر الطاء، وفتح الياء وقد تسكن - اسم مصدر من تطير طيرةً، وأصله التطير بالسوانح والبوارح^(١) من الطير والظباء وغيرهما، وكان ذلك التطير يصدُّهم عن مقاصدهم، فنفاه الشرع وأبطله، وأخبر أنه لا تأثير له في جلب نفع ودفع ضرر.

□ قال المدائني: «سألت رؤبة بن العجاج قلت: ما السانح؟ قال: ما ولّاك ميامنه^(٢)، قلت: فما البارح؟ قال: ما ولّاك مياسره، والذي يجيء من أمامك هو الناطح والنطيح، والذي يجيء من خلفك هو القاعدة والقعيد».

■ قوله: «وقول الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَيَّرْتُمُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنْ أَكْثَرْتُمُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١٣) [الأعراف]: وذكر تعالى هذه الآية في سياق قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ﴾ [الأعراف: ١٣١]: أي نحن الجديرون والحقيقون به، ونحن أهلها، ﴿وَإِنْ تُصِيبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾: أي بلاء وقحط ﴿يَطِيرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾؛ فيقولون: هذا بسبب موسى وأصحابه أصابنا بشؤمهم؛ فقال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَيَّرْتُمُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾.

□ قال ابن عباس: ﴿طَيَّرْتُمُمْ﴾: ما قُضي عليهم وقُدِّر لهم.

□ وفي رواية: «شؤمهم عند الله ومن قبله».

أي: إنما جاءهم الشؤم من قبله بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورساله.

(١) يأتي معناهما قريبًا.

(٢) أي: طار ناحية اليمين.

قوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾: أي أن أكثرهم جهال لا يدرون، ولو فهموا وعقلوا لعلموا أنه ليس فيما جاء به موسى ﷺ إلا الخير والبركة والسعادة والفلاح لمن آمن به واتبع قوله.

■ وقوله: «﴿قَالُوا طَئِرُكُمْ مَعَكُمْ...﴾» [يس: ١٩]: الآية، المعنى: حظكم وما نالكم من شرٍّ معكم بسبب أفعالكم وكفركم ومخالفتكم الناصحين، ليس هو من أجلنا ولا بسببنا؛ بل يبيغكم وعدوانكم، فطائر الباغي الظالم معه، فما وقع به من الشرور فهو سببه الجالب له، وذلك بقضاء الله وقدره وحكمته وعدله.

■ قوله: «﴿أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ﴾»: أي من أجل أننا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله قابلتمونا بهذا الكلام؟ ﴿بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يس].

■ قوله: «لا عدوى»:

□ قال أبو السعادات: «العدوى اسم من الإعداء، كالعدوى يقال: أعداه الداء يعديه إعداءً: إذا أصابه مثل ما بصاحب الداء».

■ قوله: «ولا طيرة»:

□ قال ابن القيم: «يحتمل أن يكون نفياً أو نهياً، أي: لا تطيروا، ولكن قوله في الحديث: «ولا عدوى ولا صفر ولا هامة»: يدل على أن المراد النفي، وإبطال هذه الأمور التي كانت الجاهلية تعانيها، والنفي في هذا أبلغ من النهي؛ لأن النفي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره، والنهي إنما يدل على المنع منه.

قال عكرمة: (كنا جلوساً عند ابن عباس، فمر طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خير، خير، فقال له ابن عباس: لا خير ولا شر)، فبادره بالإنكار عليه لئلا يعتقد تأثيره في الخير والشر. وخرج

طاووس مع صاحب له في سفر، فصاح غراب فقال الرجل: خير، فقال طاووس: (وأي خير عند هذا، لا تصحبني). انتهى ملخصًا.

■ قوله: «ولا هامة»: بتخفيف الميم على الصحيح.

□ قال الفراء: «الهامة: طيرٌ من طير الليل». كأنه يعني البومة.

□ قال ابن الأعرابي: «كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت

أحدهم يقول: نعت إليّ نفسي، أو أحدًا من أهل داري، فجاء الحديث بنفي ذلك وإبطاله».

■ وقوله: «ولا صَفَر» - بفتح الفاء -.

□ روى أبو عبيدة في «غريب الحديث» عن رؤية أنه قال: «هي

حيةٌ تكون في البطن، تصيب الماشية والناس، وهي أعدى من الجرب عند العرب».

وعلى هذا فالمراد بنفيه ما كانوا يعتقدونه من العدوى، وممن

قال بهذا سفيان بن عيينة، والإمام أحمد، والبخاري، وابن جرير.

وقيل: المراد به شهر صَفَر. والنفي لما كان أهل الجاهلية

يفعلونه في النسيء، وكانوا يحلون المحرم ويحرمون صفر مكانه.

وهذا قول مالك.

□ وروى أبو داود عن محمد بن راشد عن سمعه يقول: «إن

أهل الجاهلية يتشاءمون بصفر ويقولون: إنه شهر مشؤوم، فأبطل

ذلك النبي ﷺ».

□ قال ابن رجب: «ولعل هذا أشبه الأقوال، والتشاؤم بصفر

كتشاؤم أهل الجاهلية بشؤال بالنكاح فيه خاصة».

■ قوله: «ولا نوء»: سيأتي الكلام عليه في بابه.

■ قوله: «ولا غُول» - هو بالضم -: اسم وجمعه: أغوال وغيلان، وهو المراد هنا، والمعنيُّ بقوله: «لا غول» أنها لا تستطيع أن تضل أحدًا مع ذكر الله والتوكل عليه. ومنه الحديث: «إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان»^(١)، أي ادفعوا شرَّها بذكر الله تعالى.

■ قوله: «ولهما عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل)». قالوا: وما الفأل؟ قال: (الكلمة الطيبة)».

□ قال أبو السعادات: الفأل - مهموز -: فيما يَسُرُّ ويسوء، والطيرة: لا تستعمل إلا فيما يسوء، وربما استُعملت فيما يسر.

■ قوله: «قالوا: وما الفأل؟ قال: (الكلمة الطيبة)»: بيَّن ﷺ أن الفأل يعجبه، فدل على أنه ليس من الطيرة المنهي عنها.

□ قال ابن القيم: «ليس الإعجاب بالفأل ومحبه بشيء من الشرك؛ بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة، وموجب الفطرة الإنسانية التي تميل إلى ما يوافقها ويلائمها، والله تعالى جعل في غرائز الناس من الإعجاب بسماع الاسم الحسن ومحبه وميل نفوسهم إليه، وكذلك جعل فيها الارتياح والاستبشار والسرور باسم الفلاح والسلام والنجاح والتهنئة والبشرى والفوز والظفر ونحو ذلك. فإذا سمعتِ

(١) ضعيف: رواه أحمد (٣/٣٠٥)، وعبدالرزاق (٩٢٤٧)، وأبو داود (٢٥٧٠)، وابن ماجه (٣٢٩)، وابن خزيمة (٢٥٤٩)، وأبو يعلى (٢٢١٩)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٥٢٣)، من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه. وقال الإمام الهيثمي في «المجمع» (٤٨٧/٢): «رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح»، وضعفه الشيخ شعيب الأرنؤوط في «المسند» (١٧٩/٢٢)، والشيخ الألباني في «الضعيفة» (١٤٠)، والشيخ حسين الداراني في تحقيق «المجمع» (٣٨/٨).

الأسماعُ أصدادها أوجب لها ضدَّ هذه الحال فأحزنتها، وأثار ذلك لها خوفًا وتطيرًا وانكماشًا وانقباضًا عما قصدته وعزمت عليه، فأورث لها ضررًا في الدنيا، ونقصًا في الإيمان، ومقارفةً للشرك.

■ قوله: «عن عقبه بن عامر»: هكذا وقع في نسخ «التوحيد»، وصوابه: عن عروة بن عامر القرشي، كذا أخرجه أحمد وأبو داود وغيرهما. وهو مكى اختلف في نسبه؛ فقال أحمد: عن عروة بن عامر القرشي، وقال غيره: الجهني، واختلف في صحبته، فقال الماوردي: له صحبة، وذكره ابن حبان في ثقات التابعين، وقال المزي: لا صحبة له تصح.

□ قال ابن القيم: «أخبر عليه السلام أن الفأل من الطيرة، وهو خيرها، فأبطل الطيرة، وأخبر أن الفأل منها؛ ففضل بين الفأل والطيرة لما بينهما من الامتياز والتضاد، ونفع أحدهما ومضرة الآخر».

■ قوله: «ولا ترُدُّ مسلمًا»: قال الطيبي: تعريضٌ بأن الكافر بخلافه.

■ قوله: «اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»: أي لا تأتي الطيرة بالحسنات، ولا تدفع المكروهات؛ بل أنت - وحدك لا شريك لك - الذي تأتي بالحسنات وتدفع السيئات.

والحسنات هنا: النعم، والسيئات: المصائب، ففيه نفي تعلق القلب بغير الله في جلب نفع أو دفع ضرر، وهذا هو التوحيد، وهو دعاءٌ مناسب لمن وقع في قلبه شيءٌ من الطيرة، وتصريح بأنها لا تجلب نفعًا، ولا تدفع ضررًا، ويُعدُّ من اعتقدها سفيهاً مشركاً.

■ قوله: «ولا حول ولا قوة إلا بك»: والحوّل: التحوّل والانتقال

من حالٍ إلى حال، والقوة على ذلك بالله وحده، ففيه التبري من الحول والقوة والمشية بدون حول الله وقوته ومشيته، وهذا هو التوحيد في الربوبية، وهو الدليل على توحيد الإلهية الذي هو إفراذ الله تعالى بجميع أنواع العبادة، وهو توحيد القصد والإرادة، وقد تقدم بيان ذلك بحمد الله.

قوله: «وعن ابن مسعود مرفوعاً: «الطيرة شرك. الطيرة شرك وما منا إلا... ولكن الله يذهبه بالتوكل»، رواه أبو داود والترمذي وصححه، وجعل آخره من قول ابن مسعود»: ولفظ أبي داود: «الطيرة شرك» - ثلاثاً -، وهذا صريح في تحريم الطيرة، وأنها من الشرك؛ لما فيها من تعلق القلب بغير الله.

□ قال ابن مفلح: «الأولى القطع بتحريمها؛ لأنها شرك، وكيف يكون الشرك مكروهاً الكراهة الاصطلاحية؟!».

■ قوله: «وما منا إلا»:

□ قال أبو القاسم الأصبهاني والمنذري: «في الحديث إضمار التقدير: وما منا إلا وقد وقع في قلبه شيء من ذلك». انتهى.

■ قوله: «ولكن الله يذهبه بالتوكل»: لكن إذا توكلنا على الله في جلب النفع ودفع الضرر = أذهب الله تعالى عنا بتوكلنا عليه وحده.

■ قوله: «وجعل آخره من قول ابن مسعود»:

□ قال ابن القيم: «وهو الصواب؛ فإن الطيرة نوع من الشرك».



ولأحمد من حديث ابن عمرو: «مَنْ رَدَّتْهُ الطَّيْرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: «أَنْ تَقُولَ: اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ»^(١).

وله من حديث الفضل بن عباس رضي الله عنه: «إِنَّمَا الطَّيْرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ»^(٢).

الشرح

■ قوله: «ولأحمد من حديث ابن عمرو: «مَنْ رَدَّتْهُ الطَّيْرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ». قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: أَنْ يَقُولَ: (اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ)»: هذا الحديث رواه أحمد، والطبراني عن عبدالله بن عمرو بن العاص، وفي إسناده ابن لهيعة، وبقيّة رجاله ثقات.

■ قوله: «من حديث ابن عمرو»: هو عبدالله بن عمرو بن العاص ابن وائل السهمي، أبو محمد، وقيل: أبو عبدالرَّحْمَنِ، أحد السابقين المكثرين من الصحابة. وأحد العبادلة الفقهاء، مات في ذي الحجة ليالي الحرّة على الصحيح بالطائف.

■ قوله: «مَنْ رَدَّتْهُ الطَّيْرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ فَقَدْ أَشْرَكَ»: وذلك أَنَّ الطَّيْرَةَ هي التشاؤم بالمرئي والمسموع، فإذا ردتّه عن سفرٍ أو عمل أو حاجة = فقد أشرك بما يخامر قلبه من الخوف من ذلك؛ فيكون شركاً بهذا الاعتبار.

■ قوله: «قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: «أَنْ يَقُولَ: اللَّهُمَّ لَا خَيْرَ

(٢) ضعيف: وقد تقدم.

(١) حسن: وقد تقدم.

إلا خيرك... إلخ»: فيه تفويض الأمور إلى الله تقديرًا وتدبيرًا وخلقًا، والبراءة مما فيه تعلقٌ بغير الله تعالى كائنًا من كان.

■ قوله: «ولا إله غيرك»: أي: لا معبود مستحق سواك. فإذا قال ذلك، وأعرض عما وقع في قلبه، ولم يلتفت إليه، واستمر على فعل ما عزم عليه توكلاً على الله وتفويضًا إليه = كفر الله عنه ما وقع في قلبه من ذلك.

■ قوله: «وله من حديث الفضل بن العباس رضي الله عنه: (إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك)»: هذا الحديث عند الإمام أحمد من حديث الفضل ابن العباس؛ قال: خرجت مع رسول الله ﷺ... فساقه إلى أن قال: «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك».

والفضل: هو ابن العباس بن عبدالمطلب، ابن عم النبي ﷺ. قال ابن معين: قُتل يوم اليرموك.

وقال غيره: قتل يوم مَرَج الصُّفَر سنة ثلاث عشرة، وهو ابن اثنتين وعشرين سنة.

وقال أبو داود: قُتل بدمشق، وكان عليه درع النبي ﷺ.

■ قوله: «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك»: هذا حد الطيرة المنهي عنها؛ أنها ما يحمل الإنسان على المضيي فيما أراد، أو يمنعه من المضيي فيه كذلك، وأما الفأل الذي كان يحبُّه ﷺ ففيه نوع بشارة فيُسَرُّ به العبد، ولا يعتمد عليه، بخلاف الطيرة، فافهم الفرق.



فيه مسائل:

الأولى: التنبيه على قوله: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَلَرْتَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ﴾، مع قوله: ﴿قَالُوا طَلَرْتُمْ مَعَكُمْ﴾.

الثانية: نفي العدو.

الثالثة: نفي الطيرة.

الرابعة: نفي الهامة.

الخامسة: نفي الصَّفر.

السادسة: أن الفأل ليس من ذلك؛ بل مستحب.

السابعة: تفسير الفأل.

الثامنة: أن الواقع في القلوب من ذلك مع كراهته لا يضر؛ بل يُذهب الله بالتوكل.

التاسعة: ذكر ما يقول مَنْ وَجَدَهُ.

العاشرة: التصريح بأن الطيرة شرك.

الحادية عشرة: تفسير الطيرة المذمومة.



❦ [٢٩] باب: ما جاء في التنجيم ❦

□ قال البخاري في «صحيحه»: «قال قتادة: خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجومًا للشياطين، وعلامات يُهتدى بها. فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به» انتهى.

□ «وكره قتادة تعلُّم منازل القمر، ولم يرخص ابن عيينة فيه». ذكره حرب عنهما.

□ ورخص في تعلُّم المنازل أحمد وإسحاق.

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، ومصدِّق بالسحر، وقاطع الرحم». رواه أحمد وابن حبان في «صحيحه»^(١).

الشرح

■ قوله: «باب: ما جاء في التنجيم»:

□ قال شيخ الإسلام: «هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية».

□ وقال الخطابي: «علم النجوم المنهي عنه: هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي ستقع في مستقبل الزمان، كأوقات هبوب الرياح، ومجيء المطر، وتغيُّر الأسعار، وما في معناها من الأمور التي يزعمون أنها تدرك معرفتها بمسير الكواكب

(١) حسن: وقد تقدم.

في مجاريها واجتماعها وافتراقها؛ يدعون أن لها تأثيراً في السفليات، وهذا منهم تحكّم على الغيب، وتعاطٍ لعلمٍ قد استأثر الله به؛ فلا يعلم الغيب سواه.

■ قوله: «قال البخاري في «صحيحه»: قال قتادة: خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينةً للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به» انتهى: هذا الأثر علقه البخاري في «صحيحه»، وأخرجه عبدالرزاق، وعبد بن حميد، وابن جرير، وابن المنذر، وغيرهم، وأخرجه الخطيب في كتاب «النجوم» عن قتادة بلفظ أطول من هذا.

وقول قتادة رحمه الله يدل على أن علم التنجيم هذا قد حدث في عصره؛ فأوجب له إنكاره على من اعتقده وتعلق به، وهذا العلم مما ينافي التوحيد، ويوقع في الشرك؛ لأنه ينسب الحوادث إلى غير من أحدثها - وهو الله سبحانه - بمشيئته وإرادته؛ كما قال تعالى: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٣]، وقال: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

■ قوله: «خلق الله هذه النجوم لثلاث»: قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٥]. وفيه إشارة إلى أن النجوم في السماء الدنيا؛ كما روى ابن مردويه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «أما السماء الدنيا فإن الله خلقها من دخان، ثم رفعها، وجعل فيها سراجاً وقمرًا منيراً، وزينها بمصابيح النجوم، وجعلها رجوماً للشياطين، وحفظها من كل شيطان رجيم»^(١).

(١) ضعيف: رواه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٧٢/٧٨)، ولا يصح.

■ قوله: «وعلامات»: أي دلالات على الجهات.

■ «يَهْتَدَىٰ بِهَا»: أي يهتدي بها الناس في ذلك؛ كما قال تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالْجَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧]:

أي ليعرفوا بها جهة قصدهم.

فإن قيل: المنجم قد يصدق.

قيل: صدقه كصدق الكاهن، يصدق في كلمة، ويكذب في مئة، وصدقه ليس عن علم؛ بل قد يوافق قدرًا فيكون فتنةً في حق من صدقه.

■ قوله: «وكره قتادة تعلم منازل القمر، ولم يرخص فيه ابن

عينة، ذكره حرب عنهما، ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق»:

□ قال الخطابي: «أما علم النجوم الذي يُدْرَك من طريق المشاهدة،

والخبر الذي يُعرف به الزوال، وتُعلم به جهة القبلة، فإنه غير داخل

فيما نُهي عنه؛ وذلك أن معرفة هذا العلم يصح علمه بالمشاهدة.

وأما ما يُستدل به من النجوم على جهة القبلة فإنها من الكواكب،

رَصَدَهَا أهل الخبرة بها، الذين لا شك في عنايتهم بأمر الدين،

ومعرفتهم بها، وصدقهم فيما أخبروا به، مثل أن يشاهدها بحضرة

الكعبة، ويشاهدها على حال الغيبة عنها؛ فكان إدراكهم الدلالة منها

بالمعينة، وإدراكنا ذلك بقبول خبرهم إذ كانوا عندنا غير متهمين

في دينهم، ولا مقصرين في معرفتهم» انتهى.

□ وروى ابن المنذر عن مجاهد: «أنه لا يرى بأسًا أن يتعلم

الرجل من النجوم ما يهتدي به».

□ قال ابن رجب: «والمأذون في تعلمه: علم التسيير، لا علم

التأثير؛ فإنه باطلٌ محرمٌ قليله وكثيره. أما علم التسيير فيتعلم منه ما يحتاج إليه للاهتداء، ومعرفة القبلة والطرق، [وهو] جائز عند الجمهور».

■ قوله: «ذكره حرب عنهما»: هو الإمام الحافظ حرب بن إسماعيل، أبو محمد الكرماني الفقيه، من أجلة أصحاب الإمام أحمد، روى عن أحمد، وإسحاق، وابن المديني، وابن معين، وغيرهم، وله كتاب «المسائل» التي سأل عنها الإمام أحمد وغيره، مات سنة ثمانين ومئتين.

وأما إسحاق: فهو ابن إبراهيم بن مخلد بن يعقوب الحنظلي النيسابوري، الإمام المعروف بابن راهويه، روى عن ابن المبارك وأبي أسامة وابن عيينة وطبقتهما، قال أحمد: إسحاق عندنا من أئمة المسلمين، وروى عنه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم، وروى هو - أيضًا - عن أحمد، مات سنة تسع وثلاثين ومئتين.

■ قوله: «وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: (ثلاثة لا يدخلون الجنة...)»: الحديث: هذا الحديث رواه - أيضًا - الطبراني والحاكم، وقال: صحيح، وأقره الذهبي.

■ قوله: «عن أبي موسى»: هو عبد الله بن قيس بن سليم بن خضار - بفتح المهملة، وتشديد الضاد -، أبو موسى الأشعري، صحابي جليل، مات سنة خمسين.

■ قوله: «ثلاثة لا يدخلون الجنة»: الشاهد للترجمة: «ومُصدّقٌ بالسحر»، وفي هذا الحديث كما تقدم في نظائره؛ كقوله: «من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ».

واختار الإمام أحمد رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى أن مثل هذه الأحاديث تَمُرُّ كما جاءت من غير تأويل.

□ قال الذهبي في «الكبائر»: «ويدخل فيه تعلم السيمياء وعِلْمُهَا، وعَقْدُ المرء من زوجته، ومحبة الزوج لامرأته، وبغضها وبغضه، وأشباه ذلك بكلمات مجهولة». انتهى باختصار.



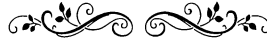
فيه مسائل:

الأولى: الحكمة في خلق النجوم.

الثانية: الرد على من زعم غير ذلك.

الثالثة: ذكرُ الخلاف في تعلم المنازل.

الرابعة: الوعيد فيمن صدّق بشيءٍ من السحر، ولو عرف أنه باطل.



❦ [٣٠] باب: ما جاء في الاستسقاء بالأنواء ❦

وقول الله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾ [الواقعة].

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة».

وقال: «النائحة إذا لم تثب قبل موتها تُقام يوم القيامة، وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب». رواه مسلم ^(١).

ولهما عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟»، قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافر، فأما من قال: مُطِرْنَا بفضل الله ورحمته؛ فذلك مؤمنٌ بي، كافر بالكوكب. وأما من قال: مُطِرْنَا بنوء كذا وكذا؛ فذلك كافرٌ بي، مؤمنٌ بالكوكب» ^(٢).

ولهما من حديث ابن عباس بمعناه، وفيه: «قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا». فأنزل الله هذه الآيات: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّو تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفِيهِذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَيَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾ [الواقعة] ^(٣).

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) صحيح: وقد تقدم.

الشرح

■ قوله: «باب: ما جاء في الاستسقاء بالأنواء، وقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ﴾»: أي من الوعيد، والمراد نسبة السقي ومجيء المطر إلى الأنواء، جمع نوء، وهي منازل القمر.

□ قال أبو السعادات: «وهي ثمان وعشرون منزلة؛ ينزل القمر كل ليلة منزلة منها؛ كما قال تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩] يسقط في المغرب كل ثلاث عشرة ليلة منزلة له مع طلوع الفجر، وتطلع أخرى مقابلتها ذلك الوقت من المشرق، وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر، وينسبونه إلى النجم الساقط، ويقولون: مُطرنا بنوء كذا وكذا، وإنما سمي نوء؛ لأنه إذا سقط منها الساقط ناء الطالع بالمشرق، أي نهض وطلع».

■ قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ﴾: روى الإمام أحمد والترمذي - وحسنه -، وابن جرير، وابن أبي حاتم، والضياء في «المختارة» عن علي عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿وَجَعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾: يقول: شُكركم: ﴿أَنْتُمْ تُكَذِّبُونَ﴾: تقولون: مُطرنا بنوء كذا وكذا»^(١).

وروي ذلك عن علي، وابن عباس، وقتادة، والضحاك، وعطاء الخراساني وغيرهم، وهو قول جمهور المفسرين، وبه يظهر وجه

(١) حسن: رواه أحمد (٨٩/١)، والترمذي (٣٢٩٥)، والطبري (٢٧/٢٠٧)، والبزار (٥٩٣)، والخرائطي في «مساوي الأخلاق» (٧٨٤)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٥٢١٥)، وقال الإمام الترمذي: «حسن غريب»، وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط في «المسند» (٨٧/٢)، وعند الترمذي (٤٨٨/٥)، بينما ضعفه الشيخ الألباني عند الترمذي.

استدلال المصنف رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى بِالْآيَةِ .

□ وقال ابن القيم: «أي: تجعلون حظكم من هذا الرزق - الذي به حياتكم - التكذيب به - يعني القرآن -؟ قال الحسن: تجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون، قال: وخسر عبداً لا يكون حظه من القرآن إلا التكذيب».

■ قوله: «عن أبي مالك الأشعري»: أبو مالك اسمه الحارث الشامي، صحابي تفرد عنه بالرواية أبو سلام، وفي الصحابة أبو مالك الأشعري اثنان غير هذا.

■ قوله: «أربعٌ في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن»: ستفعلها هذه الأمة إما مع العلم بتحريمها، أو مع الجهل بذلك؛ مع كونها من أعمال الجاهلية؛ [وهو] يدل على أنه يجب على كل مسلم أن يجتنبها.

والمراد بالجاهلية هنا: ما قبل المبعث، وفاعلها آثمٌ يجب أن ينهى عنها، ومتى وُجد الشرك وجدت هذه الأمور المنكرة وغيرها من المنكرات.

□ قال شيخ الإسلام: «أخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم ذمًا لمن لم يتركه، وهذا يقتضي أن كل ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذمومٌ في دين الإسلام، وإلا لم يكن في إضافة هذه المنكرات إلى الجاهلية ذمٌ لها، ومعلوم أن إضافتها إلى الجاهلية خرج مخرج الذم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْرَحْ تَبْرِجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣]؛ فإن في ذلك ذمًا للتبرج، وذمًا لحال أهل الجاهلية الأولى؛ وذلك يقتضي المنع من مشابعتهم في الجملة».

■ قوله: «والفخر بالأحساب»: أي التعاضم على الناس بالآباء ومآثرهم؛ وذلك جهل عظيم؛ إذ لا كرم إلا بالتقوى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَى﴾ [الحجرات: ١٣].

ولأبي داود عن أبي هريرة مرفوعاً: «إن الله قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمنٌ تقى، أو فاجرٌ شقي، الناس بنو آدم، وآدم خلق من تراب. لِيَدَعَنَّ رَجُلٌ فخرَهُم بأقوام إنما هم فحمٌ جهنم، أو ليكوننَّ أهون على الله من الجُعْلان»^(١)...، الحديث^(٢).

■ قوله: «والطعن في الأنساب»: أي الوقوع فيها بالعيب والنقص. ولما عيّر أبو ذر رجلاً بأمه قال النبي ﷺ: «أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية» متفق عليه^(٣).

□ «فدل على أن الطعن في الأنساب من عمل أهل الجاهلية، وأن المسلم قد يكون فيه شيء من هذه الخصال المسماة بـ«جاهلية» ويهودية ونصرانية، ولا يوجب ذلك كفره ولا فسقه». قاله شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

■ قوله: «واستسقاء بالنجوم»: تقدم معناه.

(١) الجُعْلان: حشرات تشبه الخنافس.

(٢) حسن: رواه أحمد (٣٦١/٢)، وأبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٦)، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (٦٠/٢)، والبيهقي في «الشعب» (٥١٢٧)، وفي «السنن» (٢٣٢/١٠)، وفي «الآداب» (٤٢٢)، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٣٤٥٨)، والخطيب البغدادي في «تاريخه» (١٨٨/٦)، وقال الإمام الترمذي: «حسن غريب»، وحسنه - أيضاً - الشيخ الألباني، والشيخ شعيب الأرناؤوط في «المسند» (٣٤٩/١٤).

(٣) صحيح: وقد تقدم.

فإذا قال قائلهم: «مطرنا بنجم كذا وبنوء كذا» فلا يخلو:

- إما أن يعتقد أن له تأثيراً في نزول المطر؛ فهذا شرك وكفر؛
نسبة المطر لغير من أنزله وهو الله وحده.

- وإما مع إطلاق هذا اللفظ، فقد صرح ابن مفلح في «الفروع»
بتحريمه، وكذلك صاحب «الإنصاف»، ولم يذكر خلافًا.

■ قوله: «والنياحة»: أي رفع الصوت بالندب على الميت، وضرب
الخدود، وشق الجيوب ونحو ذلك، وهي من الكبائر؛ لشدة الوعيد
والعقوبة كما في هذا الحديث.

■ قوله: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها»: فيه تنبيه على أن التوبة
تكفر الذنب.

■ قوله: «تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»:
السربال واحد السراويل، وهي الثياب والقمص، هذه سراويل أهل
النار؛ يعني: يلطّخُن بالقطران حتى يكون اشتعال النار بأجسادهن
أعظم، ورائحتهن أنتن.

□ وروى عن ابن عباس: «أن القطران هو النحاس المذاب».

■ قوله: «وعن زيد بن خالد الجهني»: صحابي مشهور، مات سنة
ثمان وستين، وقيل غير ذلك، وله خمس وثمانون سنة.

■ قوله: «صلى لنا»: أي بنا، قال الحافظ: «وفيه إطلاق ذلك
مجازاً».

■ قوله: «بالحديبية»: بتخفيف يائها وقد تشقل.

■ قوله: «على إثر» - بكسر الهمزة، وسكون الشاء المثناة على
المشهور -: وهو ما يعقب الشيء.

■ قوله: «سماء»: أي مطر.

■ قوله: «فلما انصرف من صلاته»: أي: إلى المأمومين.

■ قوله: «هل تدرون؟»: لفظ استفهام، ومعناه التنبيه. وفي النسائي: «ألم تسمعوا ما قال ربكم الليلة؟»، وفيه إلقاء العالم المسألة على أصحابه ليختبرهم.

■ قوله: «قالوا: الله ورسوله أعلم»: فيه حسن الأدب للمسؤول إذا سئل عما لا يعلم؛ أن يَكَلِّ العلم إلى عالمه، وذلك يجب.

■ قوله: «أصبح من عبادي مؤمن بي»: لأنه نسب الفعل إلى فاعله الذي لا يقدر عليه غيره.

■ قوله: «وكافر»: إذا اعتقد أن للنوء تأثيراً في إنزال المطر، فهذا كفر؛ لأنه شرك في الربوبية والمشرک كافر.

■ قوله: «فأما من قال: مُطَرْنَا بفضل الله ورحمته»: فالفضل والرحمة صفتان لله تعالى.

■ قوله: «ولهما من حديث ابن عباس معناه»، وفيه: قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا، فأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوْقِعِ النُّجُومِ﴾ (٧٥)، إلى قوله: ﴿تَكْذِبُونَ﴾ (٨٢) [الواقعة]. تقدم معناه قريباً.



فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الواقعة.

الثانية: ذكر الأربع التي من أمر الجاهلية.

الثالثة: ذكر الكفر في بعضها.

الرابعة: أن من الكفر ما لا يُخرج من الملة.

الخامسة: قوله: «أصبح من عبادي مؤمنٌ بي وكافر». بسبب نزول النعمة.

السادسة: التفطن للإيمان في هذا الموضع.

السابعة: التفطن للكفر في هذا الموضع.

الثامنة: التفطن لقوله: «لقد صدق نوءٌ كذا وكذا».

التاسعة: إخراج العالم للمتعلم المسألة بالاستفهام عنها؛ لقوله: «أتدرون ماذا قال ربكم؟».

العاشرة: وعيدُ النائحة.



﴿٣١﴾ باب: قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ

مِن دُونِ اللَّهِ أَدَادًا يُحِبُّوهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة]

وقوله: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾ [التوبة: ٢٤].

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين». أخرجاه ^(١).

ولهما عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حُلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ - بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ - كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ».

وفي رواية: «لا يجد أحدٌ حُلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى...» إلى آخره ^(٢).

□ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مَنْ أَحَبَّ فِي اللَّهِ، وَأَبْغَضَ فِي اللَّهِ، وَوَالَى فِي اللَّهِ، وَعَادَى فِي اللَّهِ، فَإِنَّمَا تَنَالُ وَلايَةَ اللَّهِ بِذَلِكَ. وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعَمَ الْإِيمَانِ - وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصُومُهُ - حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ؛ وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُوَاخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا؛ وَذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شَيْئًا». رواه ابن جرير.

□ وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَنَقَطَعتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾

[البقرة]، قال: «المودة».

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

الشرح

■ قوله: «باب: قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]:

□ قال في «شرح المنازل»: «أخبر تعالى أن من أحب شيئاً من دون الله كما يحب الله فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً، فهذا نداء في المحبة لا في الخلق والربوبية، فإن أحداً من أهل الأرض لا يُثبت هذا الند بخلاف ند المحبة؛ فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً في المحبة والتعظيم» اهـ.

قلت: وقد وقع الشرك في الربوبية - أيضاً - في كثير من الخاصة والعامة في آخر هذه الأمة؛ فاعتقدوا أن لهؤلاء الأموات تصرفاً في الكون ونحو ذلك.

■ قوله: «﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية»:

□ قال ابن كثير: «إن كانت هذه الأشياء أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله؛ ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾: أي انتظروا ماذا يحل بكم من عقابه».

■ قوله: «لا يؤمن»: أي الإيمان الواجب، والمراد كماله، حتى يكون الرسول ﷺ أحبَّ إلى العبد من ولده ووالده والناس أجمعين؛ وذلك يقتضي تعظيم أمره ونهيه، واتباعه في ذلك دون من سواه، ومن كان كذلك فقد أحبَّ الله كما في آية المحبة.

■ قوله: «أخرجاه»: أي البخاري ومسلم.

■ قوله: «ولهما عنه»: أي البخاري ومسلم «عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ...» الحديث.

■ قوله: «ثلاث» أي خصال.

□ قال شيخ الإسلام: «أخبر النبي ﷺ أن هذه الثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان؛ لأن وجود الحلاوة للشيء يتبع المحبة له، فمن أحب شيئاً واشتهاه إذا حصل له مراده فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك، واللذة أمرٌ يحصل عقيب إدراك الملائم الذي هو المحبوب أو المشتهى».

□ قال: «فحلاوة الإيمان المتضمنة للذة والفرح تتبع كمال محبة العبد لله؛ وذلك بثلاثة أمور: تكميل هذه المحبة، وتفرغها، ودفع ضدها، فتكميلها: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما؛ فإن محبة الله ورسوله لا يكتفى فيها بأصل الحب؛ بل لابد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما».

قلت: ومن لازم محبة الله محبة أنبيائه ورسله وملائكته وكتبه والصالحين من عباده، وكراهة ما يكرهه سبحانه، ومعاداة أعدائه، وموالاته أوليائه، فلا يحصل كمال محبة الله الواجبة إلا بكمال ذلك، وإيثاره على ما تهواه النفوس مما يخالف ذلك.

■ قوله: «أحب إليه مما سواهما»: ثنى الضمير هنا لتلازم المحبتين. والله أعلم.

■ قوله: «كما يكره أن يقذف في النار»: أي يستوي عنده الأمران.

■ قوله: «وفي رواية: (لا يجد)»: هي عند البخاري في «الأدب المفرد»، ولفظه: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه

إلا لله، وحتى أن يُقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه. وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما».

■ قوله: «من أحب في الله»: أي أحب أهل الإيمان بالله وطاعته من أجل ذلك.

■ قوله: «وأبغض في الله»: أي أبغض من كفر بالله وأشرك به وعصاه لارتكابه ما يسخط الله، وإن كان أقرب الناس إليه، كما قال تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ...﴾ [المجادلة: ٢٢].

■ قوله: «ووالى في الله»: بالمحبة والنصرة بحسب القدرة.

■ قوله: «وعادى في الله»: من كان عدواً لله ممن أشرك وكفر وظاهر بالمعاصي، فتجب عداوته بما يقدر عليه.

■ قوله: «فإنما تنال ولاية الله بذلك»: أي توليه لعبده، وولاية بفتح الواو.

وفي الحديث: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله، والبغض في الله» رواه الطبراني^(١).

■ قوله: «ولن يجد عبداً طعم الإيمان...» إلى آخره، أي: لا يحصل له ذوق الإيمان وبهجته ولذته وسروره والفرح به، وإن كثرت صلاته وصومه، حتى يكون كذلك. قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس].

■ قوله: «وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا؛ وذلك لا يجدي على أهله شيئاً»: يعني أنه إذا ضعف داعي الإيمان أحب دنياه، وأحب لها، وواخى لأجلها، وهذا هو الغالب على أكثر الخلق؛ محبة دنياهم، وإيثار ما يهْوونه على ما يحبه الله ورسوله؛ وذلك لا يجدي على أهله شيئاً؛ بل يضر في العاجل والآجل، فالله المستعان.

■ قوله: «وقال ابن عباس في قوله ﷻ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] قال: المودة»، أي التي كانت بينهم؛ خانتهم أحوج ما كانوا إليها، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَلَيَعَلَّنَّ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: ٢٥].



فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة.

الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة: وجوب محبته ﷺ، وتقديمها على النفس والأهل والمال.

الرابعة: أن نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام.

الخامسة: أن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها.

السادسة: أعمال القلب الأربع التي لا تُنال ولاية الله إلا بها، ولا

يجد أحد طعم الإيمان إلا بها.

السابعة: فهم الصحابي للواقع: أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا.

الثامنة: تفسير ﴿وَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ﴾.

التاسعة: أن من المشركين من يحب الله حبًا شديدًا.

العاشرة: الوعيد على من كانت الثمانية أحب إليه من دينه.

الحادية عشرة: أن من اتخذ نداءً تساوي محبته محبة الله فهو الشرك

الأكبر.



﴿٣٢﴾ باب: قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ

أَوْلِيَآءَهُ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران]

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨].

وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً: «إِنْ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللَّهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللَّهِ، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُوْتِكِ اللَّهُ. إِنْ رِزْقَ اللَّهِ لَا يَجْزُهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّه كِرَاهِيَةٌ كَارِهِ»^(١).

وعن عائشة رضي الله عنها: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ التَّمَسَّ رِضَى اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسُ. وَمَنْ التَّمَسَّ رِضَى النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ، سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسُ». رواه ابن حبان في «صحيحه»^(٢).

الشرح

■ قوله: «باب: قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ، فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾»:

□ قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: «ومن كيد عدو الله أنه يخوِّف المؤمنين جنده وأوليائه لئلا يجاهدوهم، ولا يأمرهم

بمعروف، ولا ينهؤهم عن منكر، وأخبر تعالى أن هذا من كيد الشيطان وتخويفه، ونهانا أن نخافهم.

□ قال: «والمعنى عند جميع المفسرين: يخوفهم بأوليائه. قال قتادة: يُعْظِّمُهم في صدوركم، فكلما قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمانه قوي خوفه منهم، فدلّت هذه الآية على أن الخلاص من الخوف من كمال شروط الإيمان. وسبب نزول الآية مذكور في التفاسير والسير».

■ قوله: «وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ ءَامِنٍ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ﴾»: أخبر تعالى أن مساجد الله لا يعمرها إلا أهل الإيمان بالله واليوم الآخر، الذين آمنوا بقلوبهم، وعملوا بجوارحهم، وأخلصوا له الخشية دون من سواه، فلا تكون المساجد عامرة إلا بالإيمان الذي معظمه التوحيد، مع العمل الصالح الخالص من شوائب الشرك والبدع، وذلك كله داخل في مسمى الإيمان المطلق عند أهل السنة والجماعة.

■ قوله: «﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ﴾»:

□ قال ابن عطية: «يريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة، ولا محالة أن الإنسان يخشى المحاذير الدنيوية، وينبغي أن يخشى في ذلك كله قضاء الله وتصريفه».

قلت: لأن النفع والضرر إنما يكون بمشيئته وإرادته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

□ وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «والخوف عبودية القلب، فلا يصلح إلا لله؛ كالذل، والمحبة، والتوكل، والرجاء... وغيرها من عبودية القلب».

■ قوله: «﴿فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾»:

□ قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: «يقول: إن أولئك هم المهتدون، وكل «عسى» في القرآن فهي واجبة».

■ قوله: «﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلنَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾» الآية:

□ قال ابن القيم: «الناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين: إما أن يقول أحدهم: آمنا، وإما ألا يقول ذلك؛ بل يستمر على السيئات والكفر، فمن قال: «آمنا» امتحنه ربه وابتلاه. و«الفتنة»: الابتلاء والاختبار، ومن لم يقل: «آمنا»، فلا يحسب أنه يُعْجِزُ اللَّهَ ويفوته ويسبقه، فلا بد من حصول الألم لكل نفس آمنت، أو رغبت عن الإيمان، لكنَّ المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداءً، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، والمُعْرِضُ عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداءً، ثم يصير له الألم الدائم. والإنسان لابد أن يعيش مع الناس، والناس لهم تصورات وإرادات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، وإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه، وإن وافقهم حصل له العذاب تارةً منهم، وتارةً من غيرهم».

□ إلى أن قال: «فالحزم كل الحزم في الأخذ بما قالت أم المؤمنين لمعاوية: «من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً». فمن هداه الله، وألهمه رشده، ووقاه شر نفسه = امتنع من الموافقة على فعل المحرم، وصبر على عداوتهم، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، كما كانت للرسل وأتباعهم».

ثم أخبر تعالى عن حال الداخل في الإيمان، وأنه إذا أُوذِيَ في الله جعل فتنة الناس له هي أذاهم، ونيلهم إياه بالمكروه - وهو الألم الذي لا بد أن ينال الرسل وأتباعهم ممن خالفهم -؛ جعل ذلك في فراره منه، وتركه السبب الذي يناله به = كعذاب الله الذي فر منه المؤمنون بالإيمان، فالمؤمنون لكمال بصيرتهم فروا من ألم عذاب الله إلى الإيمان، وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قريب، وهذا من ضعف بصيرته فرّ من ألم أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم، ففر من ألم عذابهم إلى ألم عذاب الله، فجعل ألم فتنة عذاب الناس في الفرار منه بمنزلة عذاب الله، وغبن كل الغبن؛ إذ استجار من الرمضاء بالنار، وفر من ألم ساعة إلى ألم الأبد، وإذا نصر الله جنده وأوليائه، قال: إني كنت معكم، والله عليم بما انطوى عليه صدره من النفاق» اهـ.

■ قوله: «وعن أبي سعيد مرفوعاً: (إن من ضعف اليقين أن تُرضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على ما لم يؤتكَ الله، إن رزق الله لا يجزُّه حرص حريص، ولا تردُّه كراهية كاره)»: هذا الحديث رواه أبو نعيم في «الحلية»، والبيهقي، وأعله بمحمد بن مروان السدي، وقال: ضعيف، وتمايم هذا الحديث: «وأنه بحكمته جعل الرّوح والفرح في الرضا واليقين، وجعل الهمّ والحزن في الشك والسخط».

■ قوله: «(إن من ضعف اليقين): الضعف - بفتح وسكون، وتضم ضاده مع سكون العين^(١)، وتحرك عينه مع فتح الضاد^(٢) -: ضد القوة.

(٢) أي: ضعف.

(١) أي: ضعف.

□ قال ابن مسعود: «اليقين الإيمان كله، والصبر نصف الإيمان».

■ قوله: «أن ترضي الناس بسخط الله»: أي أن تؤثر رضاهم على ما يرضي الله، وذلك إذا لم يقم بقلبه من إعظام الله وإجلاله وهيبته ما يمنعه من إثارة رضى المخلوق بما يجلب له سخط خالقه وربّه ومليكه الذي يتصرف في القلب. وبهذا الاعتبار يدخل في نوع من الشرك؛ لأنه أثر رضى المخلوق على رضى الله، وتقرب إليه بما يسخط الله، ولا يسلم من هذا إلا مَنْ سلّمه الله تعالى.

■ قوله: «وأن تحمدهم على رزق الله»: أي على ما وصل إليك من أيديهم؛ بأن تضيفه إليهم، وتحمدهم عليه، والله تعالى هو الذي كتبه لك وسيّره لك، فإذا أراد أمرًا قيض له أسبابًا، ولا ينافي هذا حديث: «مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ»^(١)؛ لكون الله ساقه على أيديهم؛ فتدعو لهم أو تكافئهم؛ لحديث: «مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافَتْوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تَكافئونه، فادعوا له حتى تَرَوْا أَنْكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»^(٢).

(١) صحيح: رواه أحمد (٢/٢٩٥)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢١٨)، والطيالسي (٢٦١٣)، وأبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤)، وابن جبان (٣٤٠٧)، والخطيب في «الجامع لأخلاق الراوي» (٤٩٩)، والبيهقي في «الشُّعَب» (٨٦٩٦)، وفي «الكبرى» (٣٠٢/١)، وفي «الآداب» (١٩٤)، وأبو نُعيم في «الحلية» (١٦٥/٧)، وأبو الشيخ في «الأمثال» (١١٠)، وابن بشران في «الأمالي» (٢٦٤)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٨٢٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وقال الإمام الترمذي: «حسن صحيح»، وصحّحه الشيخ الألباني عنده، والشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق «المسند» (٣٢٢/١٣).

(٢) صحيح: وقد تقدم.

■ قوله: «وأن تدمهم على ما لم يؤتكَ الله»: لأنه لم يقدر لك ما طلبته على أيديهم؛ فلو قدر ساقه إليك. فمن علم أن الله وحده هو المتفرد بالعطاء والمنع بمشيئته وإرادته، وأنه الذي يرزق العبد بسبب وبلا سبب، ومن حيث لا يحتسب = لم يسأل حاجته إلا من الله وحده، ولعل ما منع من ذلك يكون خيرًا له، ويُحسنُ الظن بالله سبحانه، ولا يرغب إلا إليه، ولا يخاف إلا من ذنبه، وقد قرر هذا المعنى في الحديث بقوله: «إن رزق الله لا يجزئه حرصُ حريص، ولا ترده كراهية كاره».

□ وقال شيخ الإسلام: «اليقين يتضمن القيام بأمر الله تعالى، وما وعد الله به أهل طاعته، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتديره. فإذا أَرْضيتهم بسخط الله، ولم تكن موقنًا لا بوعده ولا برزقه؛ فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك إما ميلٌ إلى ما في أيديهم؛ فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم. وإما ضعفُ تصديقه بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب في الدنيا والآخرة، فإنك إذا أَرْضيتَ الله نصرَكَ ورزقَكَ وكفاكَ مؤنتهم. وإرضائهم بما يُسخطه إنما يكون خوفًا منهم، ورجاءً لهم، وذلك من ضعف اليقين.

وأما إذا لم يقدر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك؛ فالأمر في ذلك إلى الله لا لهم؛ فإنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، فإذا ذممتهم على ما لم يقدر لك كان ذلك من ضعف يقينك، فلا تخفهم ولا ترجهم، ولا تدمهم من جهة نفسك وهواك، ولكن من حمده الله ورسوله منهم فهو المحمود، ومن ذمه الله ورسوله منهم فهو المذموم، ودل الحديث على أن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأعمال من مسمى الإيمان».

■ قوله: «من التمس»: أي طلب.

□ قال شيخ الإسلام: «وكتبت عائشة إلى معاوية، ويروى أنها رفعتة: «من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يُغنوا عنه من الله شيئاً»، هذا لفظ المرفوع، ولفظ الموقوف: «من أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس ذاماً»، وهذا من أعظم الفقه في الدين، فإن من أرضى الله بسخطهم كان قد اتقاه، وكان عبده الصالح، والله يتولى الصالحين، والله كافٍ عبده، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۖ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق]، والله يكفيه مؤنة الناس بلا ريب، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يُغنوا عنه من الله شيئاً؛ كالظالم الذي يَعُصُّ على يديه، وأما كون حامده ينقلب ذاماً فهذا يقع كثيراً، ويحصل في العاقبة؛ فإن العاقبة للتقوى؛ لا تحصل ابتداءً عند أهوائهم» انتهى.



فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران.

الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة: تفسير آية العنكبوت.

الرابعة: أن اليقين يَضْعُف وَيَقْوَى.

الخامسة: علامة ضعفه، ومن ذلك هذه الثلاث.

السادسة: أن إخلاص الخوف لله من الفرائض.

السابعة: ذكر ثواب من فعله.

الثامنة: ذكر عقاب من تركه.



﴿٣٣﴾ باب: قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾

إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾ [المائدة]

وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ﴿٢﴾ [الأنفال].

وقوله: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٦٦﴾ [الأنفال].

وقوله: ﴿وَبَرِّزْهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣].

□ وعن ابن عباس رضي الله عنه قال: «حسبنا الله ونعم الوكيل؛ قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد عليه السلام حين قالوا له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ ﴿١٧٣﴾ [آل عمران] رواه البخاري ^(١).

الشرح

■ قوله: «باب: قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾»: □

قال أبو السعادات: «يقال: توكل بالأمر: إذا ضمن القيام به».

وأراد المصنف بهذه الترجمة بالآية: بيان أن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله؛ لأنه من أجمع أنواع العبادة الباطنة؛ فإن تقديم المعمول يفيد الحصر، فلا يحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة إلا بكمال التوكل على الله كما في هذه الآية.

(١) صحيح: وقد تقدم.

□ قال الإمام أحمد: «التوكل عمل القلب».

□ قال ابن القيم في الآية المترجم بها: «فجعل التوكل على الله شرطاً في الإيمان، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه».

□ قال شيخ الإسلام: «وما رجا أحد مخلوقاً أو توكل عليه إلا خاب ظنه فيه؛ فإنه شرك ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الظُّيُورُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيحٍ﴾ [الحج] اهـ».

والتوكل قسمان:

أحدهما: التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله؛ كالتوكل على الأموات والغائبين ونحوهم من الطواغيت = فهذا شرك أكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة منه.

وأما التوكل على الأحياء الحاضرين والسلطان ونحوهم - فيما أقدرهم الله عليه من رزق أو دفع أذى ونحو ذلك -، فهو نوع شرك أصغر، والمباح أن يوكل شخصاً بالنيابة عنه في التصرف فيما له التصرف فيه من أمور دنياه، كالبيع والشراء، والإجارة والطلاق والعتاق وغير ذلك؛ فهذا جائز بالإجماع، لكن لا يقول: توكلت عليه؛ بل يقول: وكَّلْتُهُ؛ فإنه لو وكله فلا بد أن يتوكل في ذلك على الله سبحانه».

■ قوله: «وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾» الآية:

□ قال ابن عباس في الآية: «المنافقون لا يدخل في قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه. ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون على الله، ولا يصلُّون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة

أموالهم، فأخبر تعالى أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين؛ فقال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾؛ فأدوا فرائضه». رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

□ وقال السُّدِّي في قوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: «هو الرجل يريد أن يظلم - أو قال: يَهْمُ بمعصية -؛ فيقال له: اتق الله فيوجل قلبه». رواه ابن أبي شيبة وابن جرير.

■ قوله: ﴿وَإِذَا تَلَّيْت عَلَيْهِمْ آيَاتَهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾: استدل الصحابة والتابعون ومن تبعهم من أهل السنة بهذه الآية ونظائرها على زيادة الإيمان ونقصانه.

■ قوله: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾: أي يعتمدون عليه، ويفوضون إليه أمورهم، فلا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، وهو من أعظم الأسباب في حصول المطالب الدنيوية والأخروية.

وفي الآية وصف المؤمنين حقًا بثلاث مقامات من مقامات الإحسان؛ تستلزم حصول الإيمان الواجبة والمستحبة.

■ قوله: ﴿يَتَأَيَّأُ النَّبِيُّ حَسْبَكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾:

□ قال ابن القيم: «أي: الله وحده كافيك وكافي أتباعك؛ فلا تحتاجون معه إلى أحد». وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية.

■ قوله: «وقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾»:

□ قال ابن القيم وغيره: «أي كافي، ومن كان الله كافيّه وواقيه فلا مطمع فيه لعدو، ولا يضره إلا أذى لا بد منه كالحر والبرد والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ به مراده فلا يكون أبدًا. قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاءً من نفسه، وجعل جزاء

التوكل عليه نفس كفايته؛ فقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ أي كافي، فلم يقل: فله كذا وكذا من الأجر كما قال في الأعمال؛ بل جعل الله سبحانه نفسه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله، وكادته السماوات والأرض ومن فيهن = لجعل له مخرجاً، وكفاه ونصره» انتهى.

■ قوله: «حسبنا الله»: تقدم معناه.

■ قوله: «وَنِعَمَ الْوَكِيلُ»: أي نعم من توكل عليه المتوكلون، ومخصوص «نعم» محذوف؛ تقديره: نعم الوكيل الله.

■ قوله: «قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار»: قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَنْتَارُ كُوفٍ بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء] الآية.

■ قوله: «وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعَمَ الْوَكِيلُ﴾»: وذلك بعد منصور قريش والأحزاب من أحد، فمر بهم ركب من عبد القيس؛ فقالوا: «أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة. قالوا: هل أنتم مبلغون عنا محمدًا رسالاً؟ قالوا: نعم، قالوا: فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه؛ لنستأصل بقيتهم. فمرَّ الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال أبو سفيان؛ فقال: «حسبنا الله ونعم الوكيل»^(١).

(١) ضعيف: رواه ابن إسحاق في «المغازي» (٤٥/٣، ٤٧ - ابن هشام)، والطبري في «تفسيره» (١١٩/٤)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٣١٥/٣)، وضعفه صاحب «الاستيعاب في بيان الأسباب» (٣٣٣/١).

وفي الحديث: «إذا وقعتُم في الأمر العظيم؛ فقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل»^(١).



(١) ضعيف: رواه ابن مردويه في «تفسيره»، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه - كما في «كنز العمال» (١٧٤٢) -، وضعفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (١٧٤٢).

فيه مسائل:

- الأولى: أن التوكل من الفرائض.
- الثانية: أنه من شروط الإيمان.
- الثالثة: تفسير آية الأنفال.
- الرابعة: تفسير الآية في آخرها.
- الخامسة: تفسير آية الطلاق.
- السادسة: عظم شأن هذه الكلمة.
- السابعة: أنها قول إبراهيم ومحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَسَلَّمَ في الشدائد.



﴿٣٤﴾ باب: قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾

فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١١﴾ [الأعراف]

وقوله: ﴿وَمَنْ يَقْطَعْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الصَّالُّونَ﴾ [الحجر].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سُئِلَ عن الكبائر؟ فقال: «الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله»^(١).

□ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «أكبر الكبائر: الإشراف بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله». رواه عبدالرازق.

الشرح

■ قوله: «باب: قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾»: أراد المصنف رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى أن الأمن من مكر الله يدل على ضعف الإيمان، فلا يبالي صاحبه بما ترك من الواجبات، وفعل من المحرمات، لعدم خوفه من الله بما فعل أو ترك، وهذا من أعظم الذنوب، وأجمعها للعيوب.

ومعنى الآية: أن الله ﷻ لما ذكر حال أهل القرى المكذبين للرسول، بيّن أن الذي حملهم على ذلك هو الأمن من مكر الله، وعدم الخوف منه؛ وذلك أنهم آمنوا مكر الله لَمَّا استدرجهم بالسراء والنعم؛ فاستبعدوا أن يكون ذلك مكرًا.

□ قال الحسن: «من وسع عليه فلم ير أنه يُمَكَّرُ به فلا رأي له».

□ وقال قتادة: «بَغَتِ الْقَوْمَ أَمْرُ اللَّهِ، وما أخذ قوم قط إلا عند سلوتهم وغربتهم؛ فلا تغتروا بالله».

□ وقال إسماعيل بن رافع: «مِنَ الْأَمْنِ مِنْ مَكْرِ اللَّهِ إِقَامَةُ الْعَبْدِ عَلَى الذَّنْبِ يَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ الْمَغْفِرَةَ». رواه ابن أبي حاتم.

■ قوله: «﴿وَمَنْ يَفْنُطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾»: القنوط: استبعاد الفرج واليأس منه، وهو يقابل الأمن من مكر الله، وكلا الأمرين ذنب عظيم، لما في القنوط من سوء الظن بالله.

■ قوله: «﴿إِلَّا الضَّالُّونَ﴾»: أي عن الهدى.

■ قوله: «وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الكبائر فقال: «الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله»: هذا الحديث رواه البزار وابن أبي حاتم من طريق شبيب بن بشر. قال ابن معين: ثقة، وليّنه ابن أبي حاتم. وقال ابن كثير: في إسناده نظر، والأشبه أن يكون موقوفًا.

■ قوله: «الشرك بالله»: وهو أكبر الكبائر؛ ولهذا بدأ به.

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «الشرك هُضْمٌ لِلرَّبُوبِيَّةِ، وَتَنْقُصٌ لِلْإِلَهِيَّةِ، وسوء ظن برب العالمين» انتهى.

■ قوله: «واليأس من روح الله»: أي قطع الرجاء والأمل من الله تعالى فيما يخافه ويرجوه؛ وذلك إساءةٌ ظن بالله، وجهلٌ به وبسعة رحمته وجوده ومغفرته.

■ قوله: «والأمن من مكر الله»: أي من استدراجه للعبد، وسلبه ما أعطاه من الإيمان، نعوذ بالله من ذلك؛ وذلك جهلٌ بالله وبقدرته، وثقة بالنفس وعُجبٌ بها. وهذه الثلاث من أكبر الكبائر؛ فهي كبيرة

جدًّا، نسأل الله اجتنابها.

وذكر هذه الثلاث لجمعها للشر كله، وبُعْدِها عن الخير، وقد وقع فيها الكثير قديمًا وحديثًا، نسأل الله العافية في الدنيا والآخرة.

■ قوله: «والقنوط من رحمة الله»:

□ قال أبو السعادات: «هو أشد اليأس».

وينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإذا غلب الرجاء في حال الصحة فسد القلب؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [١٢] [الملك]، وقال: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [٣٧] [النور].



فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الأعراف .

الثانية: تفسير آية الحجّر .

الثالثة: شدة الوعيد فيمن آمن مكر الله .

الرابعة: شدة الوعيد في القنوط .



[٣٥] باب: من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

وقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (١١) [التغابن].

□ قال علقمة: «هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم».

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اثنان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت» (١).

ولهما عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية» (٢).

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة» (٣).

وقال ﷺ: «إنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ؛ فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى، وَمَنْ سَخَطَ فَلَهُ السُّخْطُ». حسنه الترمذي (٤).

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) صحيح: وقد تقدم.

(٤) حسن: وقد تقدم.

الشرح

■ قوله: «باب: من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله»:

□ قال الإمام أحمد: «ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً من كتابه».

وفي الحديث الصحيح: «الصبر ضياء». رواه أحمد ومسلم^(١).

□ قال عمر رضي الله عنه: «وجدنا خير عيشنا بالصبر» رواه البخاري.

□ قال علي رضي الله عنه: «إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد،

ثم رفع صوته فقال: إنه لا إيمان لمن لا صبر له».

واعلم أن الصبر على ثلاثة أقسام:

- صبر على ما أمر الله به.

- وصبر عما^(٢) نهى الله عنه.

- وصبر على ما قدره الله من المصائب.

- زاد شيخ الإسلام: والصبر عن الأهواء المخالفة للشرع.

■ قوله: «وقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ﴾»: وأول

الآية: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾: أي بمشيئته وإرادته كما

قال في الآية الأخرى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا

فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد].

■ قوله: «قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة؛ فيعلم أنها من

عند الله فيرضى ويسلم»: هذا الأثر رواه ابن جرير، وابن أبي

(١) رواه مسلم (٢٢٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في المطبوع: «على ما»، ولعل الأصح ما أثبتته.

حاتم، وروى عن ابن مسعود.

و«علقمة»: هو ابن قيس بن عبد الله النخعي الكوفي، ولد في حياة النبي ﷺ، وسمع من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وابن مسعود وعائشة وغيرهم، وهو من كبار التابعين وعلمائهم وثقاتهم، مات بعد الستين.

وفي هذا الأثر دليل على أن الأعمال من مسمى الإيمان.

وفي الآية بيان أن من ثواب الصبر هداية القلب.

■ قوله: «وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (اثنتان في الناس هما بهم كفرٌ: الطعن في النسب، والنياحة على الميت)»: أي هما بالناس كفرٌ حيث كانتا من أعمال الجاهلية، وهما قائمتان بالناس، ولا يَسَلَمُ منهما إلا من سلَّمه الله، فأطلق الكفر على من قامت به خصلةٌ من هاتين الخصلتين، لكن ليس من قام به شعبةٌ من شعب الكفر يصير كافراً الكفر المطلق، كما أنه ليس من قام به شعبةٌ من شعب الإيمان يصير مؤمناً الإيمان المطلق، ففرق بين الكفر المعرّف باللام - كما في قوله: «ليس بين العبد وبين الكفر أو الشرك إلا ترك الصلاة»^(١) -، وبين كُفْرٍ مُنْكَرٍ في الإثبات.

■ قوله: «الطعن في النسب»: أي عيبه، ويدخل فيه أن يقال: هذا ليس ابن فلان، مع ثبوت نسبه^(٢).

(١) رواه مسلم (٨٢)، من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) قال الشيخ رشيد رضا رَحِمَهُ اللهُ في طبعته ص(٥٦٠): «يريد بثبوت عدم وجود دلائل ظاهرة، أو حكم شرعي ينفيه، فلا يجوز الطعن بمستور النسب ومجهوله، بل الناس مأمونون على أنسابهم» اهـ.

■ قوله: «والنياحة على الميت»: أي رفع الصوت بالندب، وتعداد فضائله؛ لما فيه من السخط على قدر الله المنافي للصبر.

■ قوله: «من ضرب الخدود»:

□ قال الحافظ: «خص الخد لكونه الغالب، وإلا فضرب بقية الوجه مثله».

■ قوله: «ودعا بدعوى الجاهلية»:

□ قال شيخ الإسلام: «هو ندب الميت».

□ وقال ابن القيم: «الدعاء بدعوى الجاهلية كالدعاء إلى القبائل والعصبية، ومثله التعصب إلى المذاهب والطوائف والمشايخ وتفضيل بعض على بعض، يدعو إلى ذلك، ويوالي عليه ويعادي عليه، فكل هذا من دعوى الجاهلية، وقد يعفى عن الشيء اليسير من ذلك إذا كان صدقًا، كما يعفى عن البكاء إذا كان على غير وجه النوح والتسخط. نص عليه أحمد».

■ قوله: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا»:

□ قال شيخ الإسلام: «المصائب نعمة؛ لأنها مكفرات للذنوب، وتدعو إلى الصبر؛ فيثاب عليها، وتقضي الإنابة إلى الله تعالى، والذل له، والإعراض عن الخلق... إلى غير ذلك من المصالح، فنفس البلاء يكفر الله به الخطايا، وهذا من أعظم النعم، فالمصائب رحمة ونعمة في حق عموم الخلق، إلا أن يدخل صاحبها بسببها في معاصي أعظم مما كان قبل ذلك، فتكون شرًا عليه من جهة ما أصابه في دينه؛ فإن من الناس من إذا ابتلي بفقر أو مرض أو جوع حصل له من الجزع والنفاق، ومرض القلب، والكفر الظاهر، وترك بعض

الواجبات، وفعل بعض المحرمات = ما يوجب له ضرراً في دينه. فهذا كانت العافية خيراً له من جهة ما أورثته المصيبة، لا من جهة نفس المصيبة، كما أن من أوجبت له المصيبة صبراً وطاعةً كانت في حقه نعمةً دينية؛ فهي بعينها فعلُ الرب ﷻ رحمةً للخلق، واللّه ﷻ محمودٌ عليها، فمن ابتلي فرُزق الصبر كان الصبر عليه نعمةً في دينه، وحصل له - مع ما كُفّر من خطايا - رحمة، وحصل له بشائه على ربه صلاةٌ ربه عليه؛ قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٥٧]، وحصل له غفران السيئات ورفع الدرجات؛ فمن قام بالصبر الواجب حصل له ذلك» اهـ ملخصاً.

■ قوله: «قال النبي ﷺ: (إن عظم الجزاء): بكسر العين وفتح الظاء فيهما، ويحتمل ضمها مع سكون الظاء^(١).

□ قال ابن القيم: «(إن عظم الجزاء مع عظم البلاء) إذا صبر واحتسب، فإنه حينئذ يثاب على ما تولد منها، وهو ظاهر».

■ قوله: «وإن الله تعالى إذا أحب قومًا ابتلاهم»: وفي الحديث: سئل النبي ﷺ: أي الناس أشد بلاء؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل؛ يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابَةٌ اشتد بلاؤه. وإن كان في دينه رقةٌ ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة». رواه الدارمي وابن ماجه والترمذي وصححه^(٢).

(١) أي: عظم.

(٢) صحيح: رواه أحمد (١٧٢/١)، وفي «الزهد» (٢٩٤)، وعبد بن حميد (١٤٦)، والدارمي (٢٧٨٣)، وابن أبي شيبة (٢٣٣/٣)، والطيالسي (٢١٥)، =

■ قوله: «من رضي فله الرضا»: أي من الله، «ومن سخط فله السخط» كذلك.



= والترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وابن حبان (٢٩٠٠)، والحاكم (٤١/١)، والبزار (١١٥٥)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣٦٨/١)، وبحشل في «تاريخ واسط» ص (٢٥٣)، والبيهقي في «الكبرى» (٣٧٢/٣)، وفي «الشعب» (٩٧٧٥)، والطحاوي في «شرح المشكل» (٢٢٠٢)، والشاشي في «مسنده» (٦٧)، وابن أبي الدنيا في «المرض والكفارات» (٣)، من حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه. وقال الإمام الترمذي: «حسن صحيح»، وصحّحه الشيخ الألباني عنده، وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق «المسند» (٧٨/٣).

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية التغابن.

الثانية: أن هذا من الإيمان بالله.

الثالثة: الطعن في النسب.

الرابعة: شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية.

الخامسة: علامة إرادة الله بعبده الخير.

السادسة: علامة إرادة الله به الشر.

السابعة: علامة حب الله للعبد.

الثامنة: تحريم السخط.

التاسعة: ثواب الرضى بالبلاء.



❦ [٣٦] باب: ما جاء في الرياء ❦

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَحَدًا ۝﴾ [الكهف].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «قال تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك؛ من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري، تركته وشركه». رواه مسلم ^(١).

وعن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟». قالوا: بلى - يا رسول الله -. قال: «الشرك الخفي؛ يقوم الرجل فيصلي، فيزيّن صلاته لما يرى من نظر رجل». رواه أحمد ^(٢).

الشرح

■ قوله: «باب: ما جاء في الرياء»: أي من النهي عنه والتحذير.

■ قوله: «وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾»: أي ليس لي من الربوبية ولا من الإلهية شيء، بل ذلك كله لله وحده لا شريك له أوحاه إليّ ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ ويخافه ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَحَدًا ۝﴾ [الكهف].

□ قال شيخ الإسلام: «أما اللقاء فقد فسرهُ طائفة من السلف والخلف بما يتضمن المعاينة، وقالوا: لقاء الله يتضمن رؤيته ﷻ يوم القيامة»، وذكر الأدلة على ذلك.

□ قال ابن القيم في الآية: «أي كما أنه إلهٌ واحد لا إله إلا هو، فكَذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده لا شريك له، فكما تفرد بالإلهية يجب أن ينفرد بالعبودية، فالعمل الصالح هو الخالص من الرياء المقيد بالسنة» اهـ.

فتضمنت الآية النهي عن الشرك كله قليله وكثيره.

■ قوله: «من عمل عملاً أشرك فيه غيري»: أي قصد بعمله غيري من المخلوقين.

■ «تركته وشركه»:

□ قال الطيبي: «الضمير المنصوب في قوله: «تركته» يجوز أن يرجع إلى العمل».

□ قال ابن رجب: «واعلم أن العمل لغير الله أقسام:

- فتارةً يكون رياءً محضاً؛ كحال المنافقين؛ كما قال تعالى: ﴿يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء]، وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر من مؤمن في فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر في فرض الصدقة الواجبة أو الحج أو غيرهما من الأعمال الظاهرة، أو التي يتعدى نفعها؛ فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابطٌ، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة.

- وتارة يكون العمل لله، ويشاركه الرياء؛ فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه».

وذكر أحاديث تدل على ذلك؛ منها هذا الحديث، وحديث شداد ابن أوس مرفوعاً: «من صلى يرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك، وإن الله ﷻ يقول: أنا خير قسيم لمن أشرك بي، فمن أشرك

بي شيئاً فإن حَشَدَهُ^(١) عمله وقليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به؛ أنا عنه غني». رواه أحمد^(٢).

□ قال الإمام أحمد - فيمن يأخذ جُوعاً على الجهاد -: «إذا لم يخرج لأجل الدراهم فلا بأس؛ كأنه خرج لدينه، فإن أعطي شيئاً أخذه».

□ ثم قال^(٣): «وأما إذا كان أصل العمل لله، ثم طرأ عليه نية الرياء، فإن كان خاطراً ثم دفعه، فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه فهل يحبط عمله أم لا، ويجازى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف، قد حكاها الإمام أحمد وابن جرير، ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يجازى بنيته الأولى وهو مروي عن الحسن وغيره».

■ قوله: «عن أبي سعيد»: هو الخدري وتقدم.

(١) في المطبوع: «جدة»، والمثبت من جُلِّ مصادر التخريج، وورد في بعضها - أيضاً -: «جسده»، وفي أخرى: «خيرته». وعلى ما أثبتته فمعنى: «حَشَدَهُ»: جميع عمله.

(٢) ضعيف: رواه أحمد (١٢٥/٤)، وأبو داود الطيالسي (١١٢٠)، والطبراني في «الكبير» (٧١٣٩)، والحاكم (٣٢٩/٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/٢٦٨)، والبيهقي في «الشعب» (٦٨٤٤)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١٧٨/٢٦)، وقال الإمام الهيثمي في «المجمع» (٢٢٠/١٠)، وقال: «رواه أحمد، وفيه شهر بن حوشب، وثقه أحمد وغير واحد، وبقية رجاله ثقات». وضعفه الشيخ شعيب الأرناؤوط في «المسند» (٣٦٤/٢٨)، والشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (١٧٤٩)، والشيخ حسين الداراني في تحقيق «المجمع» (١٤٦/٢١).

(٣) أي: ابن رجب رَحِمَهُ اللهُ.

■ قوله: «الشرك الخفي»: سماه خفيًّا لأنه عملٌ قلب، لا يعلمه إلا الله، ولأن صاحبه يُظهر أن عمله لله، وقد قصد غيره أو شركه فيه بتزيين صلاته لأجله. ولا خلاف أن الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله، وكذلك المتابعة.

□ قال ابن القيم: «وأما الشرك الأصغر فكيسير الرياء، والتصنع للخلق، والحلف بغير الله، وقول الرجل للرجل: «ما شاء الله وشئت، وهذا من الله ومنك، وأنا بالله وبك، وما لي إلا الله وأنت، وأنا متوكل على الله وعليك، ولولا الله وأنت لم يكن كذا وكذا». وقد يكون هذا أكبر بحسب حال قائله ومقصده». اهـ.



فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الكهف .

الثانية: الأمر العظيم في ردّ العمل الصالح إذا دخله شيءٌ لغير الله .

الثالثة: ذكر السبب الموجب لذلك ؛ وهو كمال الغنى .

الرابعة: أن من الأسباب: أنه تعالى خيرُ الشركاء .

الخامسة: خوف النبي ﷺ على أصحابه من الرياء .

السادسة: أنه فسّر ذلك بأن يصلي المرء لله، لكن يزينها لما يرى من نظر رجل إليه .



﴿٣٧﴾ باب: من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُخْسُونَ﴾ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا الْكَارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطُلَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ [هود].

في «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهَمِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعَسَّ عَبْدُ الْخَمِيلَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رِضْيٍ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخَطٌ؛ تَعَسَّ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شَبِكَ فَلَا انْتَقَشَ. طَوْبُ لِعَبْدٍ آخَذٍ بَعْنَانَ فَرَسَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَشَعَثَ رَأْسُهُ، مَغْبِرَةً قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنْ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُوْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ» (١).

الشرح

■ قوله: «باب: من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا»: أراد المصنف رحمه الله بهذه الترجمة وما بعدها أن العمل لأجل الدنيا كالرياء في بطلان العمل إن استرسل معه، كمن يطلب العلم لتحقيق وظيفة التعليم، كحال أهل المدارس وأئمة المساجد والمجاهدين ونحوهم؛ ممن يقصد بعمله الصالح أمرَ دُنيا، وقد وقع ذلك كثيراً؛ حتى إن منهم من يحرص على سفر الجهاد لما يحصل له فيه من جهة أمير الجيش واجتماعه به، وأمره له ونهيهِ وقربه منه، ونحو ذلك.

■ قوله: «﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوفَ إِلَيْهِمْ أَعْمَلْتُمْ فِيهَا...﴾»
الآيتين:

□ قال ابن عباس: «﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي ثوابها ﴿وَزِينَتَهَا﴾ أي مالها، ﴿نُوفَ﴾ نوفر ﴿إِلَيْهِمْ﴾ ثواب ﴿أَعْمَلْتُمْ﴾ بالصحة والسرور في المال والأهل والولد ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُحْصُونَ﴾ لا ينقصون، ثم نسختها ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ...﴾ [الإسراء: ١٨] الآية». رواه البخاري في ناسخه.

وأخرج ابن جرير بسنده المتصل عن شُفِيِّ بن مَاتِع، عن أَبِي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ إِذَا كَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نَزَلَ لِيَقْضِيَ بَيْنَهُمْ، وَكُلُّ أُمَّةٍ جَائِيَةٌ، فَأُولَ مَنْ يَدْعُو بِهِ رَجُلٌ قَدْ جَمَعَ الْقُرْآنَ، وَرَجُلٌ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَرَجُلٌ كَثِيرُ الْمَالِ، فيقول الله تعالى للقارئ: أَلَمْ أَعْلَمُكَ مَا أُنْزِلْتُ عَلَى رَسُولِي؟ قال: بلى - يا رب -. قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقومُ آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت. ويقول الله تعالى: بل أردت أن يقال: فلان قارئ؛ فقد قيل. ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له: أَلَمْ أَوْسَعْ عَلَيْكَ حَتَّى لَمْ أَدْعُكَ تَحْتَاجَ إِلَى أَحَدٍ؟ قال: بلى - يا رب -. قال: فما عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصلُ الرحم وأتصدق. فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جواد؛ فقد قيل ذلك. ويؤتى بالذي قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فيقال له: فماذا قُتِلْتَ؟ فيقول: أُمِرْتُ بِالْجِهَادِ فِي سَبِيلِكَ؛ فَقَاتَلْتُ حَتَّى قُتِلْتُ، فيقول الله له: كذبت. وتقول الملائكة: كذبت. ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جريء، وقد قيل ذلك»، ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال: «يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسْعَرُ بِهِمُ

النار يوم القيامة»^(١).

■ قوله: «في الصحيح»: أي صحيح البخاري.

■ قوله: «تَعَس»: بكسر العين ويجوز الفتح -: أي سقط، والمراد هنا: هلك. قاله الحافظ.

□ وقال أبو السعادات: «يقال: تعس يتعس: إذا عثر وانكب لوجهه، وهو دعاء عليه بالهلاك».

■ قوله: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم»: سماه عبدًا له لكونه هو المقصود بعمله؛ فصار عبدًا له؛ لأنه عبده بذلك العمل.

■ قوله: «تعس عبد الخميصة»:

□ قال أبو السعادات: «هي ثوب خزٌّ أو صوف معلم».

■ و«الخميلة» - بفتح الخاء المعجمة -.

□ قال أبو السعادات: «ذات الخَمَل: ثياب لها خَمَلٌ من أي شيء كان».

والمراد كل ما كان من الدنيا نقدًا أو عَرَضًا؛ لأنه ذكر النوعين.

■ قوله: «وانتكس»:

□ قال أبو السعادات: «أي انقلب على رأسه، وهو دعاء عليه بالخيبة».

■ قوله: «وإذا شيك فلا انتقش»: أي إذا أصابته شوكة فلا يقدر على إخراجها بالمناقش^(٢). قاله أبو السعادات.

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) المنقاش: الملقاط.

□ قال شيخ الإسلام: «فسماه النبي ﷺ عبد الدينار والدرهم، وعبد القطيفة، وعبد الخميصة، وذكر ما فيه، وهو دعاء عليه بلفظ الخبر، وهو قوله: «تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش»، وهذه حال من إذا أصابه شرٌّ لم يخرج منه ولم يفلح؛ لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولا خلاص من المكروه. وهذه حال من عبد المال، وقد وَصَفَ ذلك بأنه إن أُعْطِيَ رضي، وإن مُنِعَ سخط، فراضاه لغير الله، وسَخَطَه لغير الله. وهكذا حال من كان متعلقًا برياسة أو صورة ونحو ذلك من أهواء نفسه، إن حصل له رضي، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبدٌ ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له؛ إذ الرِّق والعبودية في الحقيقة رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده».

□ إلى أن قال: «وهكذا - أيضًا - حال من طلب المال؛ فإن ذلك يستعبده ويسترقه، وهذه الأمور نوعان:

فمنها: ما يحتاج إليه العبد، كما يحتاج إلى طعامه وشرابه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك، فهذا يطلبه من الله، ويرغب إليه فيه، فيكون المال عنده يستعمله في حاجته؛ بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه؛ من غير أن يستعبده فيكون هلوًا.

ومنها: ما لا يحتاج إليه العبد؛ فهذا ينبغي ألا يعلق قلبه به، فإذا تعلق قلبه صار مستعبدًا، ومعتمدًا على غير الله؛ فلا يبقى معه حقيقة العبودية لله، ولا حقيقة التوكل على الله؛ بل فيه شعبة من العبادة لغير الله، وشعبة من التوكل على غيره، وهذا أحق الناس بقوله ﷺ: «تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميصة»، وهذا هو عبدٌ لهذه الأمور، ولو طلبها

من الله فإن الله إذا أعطاه إياه رضي، وإن منعه إياها سخط، وإنما عبّد الله من يُرضيه ما يُرضي الله، ويُسخطه ما يسخط الله، ويُحب ما أحب الله ورسوله، ويبغض ما أبغض الله ورسوله، ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله، فهذا الذي استكمل الإيمان اهـ. ملخصًا.

■ قوله: «طوبى لعبد»: روى الإمام أحمد عن حسن بن موسى قال: سمعت عبد الله بن لهيعة: حدثنا درّاج أبو السمح: أن أبا الهيثم حدثه عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله، طوبى لمن رآك وآمن بك. قال: «طوبى لمن رآني وآمن بي، ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني». قال له رجل: وما طوبى؟ قال: «شجرة في الجنة مسيرة مئة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»^(١). له شواهد في الصحيحين^(٢).

وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبّه هاهنا أثرًا غريبًا عجيبًا:

□ قال وهب: «إن في الجنة شجرة يُقال لها طوبى؛ يسير الراكب في ظلها مئة عام لا يقطعها، زهرها رباط»^(٣)، وورقها برود»^(٤)،

(١) الأكماء: الأوعية.

(٢) ضعيف: رواه أحمد (٧١/٣)، وأبو يعلى (١٣٧٤)، والخطيب في «تاريخ بغداد» (٩١/٤)، والطبري في «تفسيره» (١٤٩/١٣)، وابن حبان (٧٢٣٠)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٤٨٧)، والآجري في «الشرعة» (٦٢٤)، وابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» (١٤٣)، وضعّفه الشيخ شعيب الأرناؤوط في «المسند» (٢١٢/١٨).

ولبعض فقراته شواهد - كما قال المصنف -.

(٣) الرباط: الملاءة الرقيقة. (٤) البرود: الأكسية الشخينة.

وقضبانها عنبر^(١)، وبطحائرها ياقوت^(٢)، وترابها كافور، ووخلها مسك، يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل، وهي مجلس لأهل الجنة؛ فبينما هم في مجلسهم إذ أتتهم الملائكة من ربهم يقودون نُجُجًا مزمومة^(٣) بسلاسل من ذهب، وجوهها كالمصابيح من حسننها، ووبرها كخز المرعزي^(٤) من لينه، عليها رحال ألواحها من ياقوت، ودفوفها^(٥) من ذهب، وثيابها من سندس وإستبرق؛ فيُنِيخُونَهَا^(٦)، ويقولون: إن ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه وتسلموا عليه، قال: فيركبونها، قال: فهي أسرع من الطائر، وأوطأ^(٧) من الفراش؛ خبًا من غير مهنة^(٨)؛ يسير الرجل إلى جنب أخيه، وهو يكلمه ويناجيه، لا تصيب أذن راحلة منها أذن صاحبته، ولا برك راحلة برك الأخرى^(٩)؛ حتى إن الشجرة لتتنحى عن طريقهم لئلا تفرق بين الرجل وأخيه.

قال: فيأتون إلى الرَّحْمَنِ الرحيم؛ فيُسْفِرُ لهم عن وجهه الكريم

(١) لعل المراد رائحة أعوادها جميلة كالعنبر. ويطلق العنبر - أيضًا - على مادة صلبة.

(٢) البطحاء: الحجارة الصغيرة.

(٣) نُجُجًا مزمومة: إبلاً مشدودة معدة للركوب.

(٤) خز المرعزي: أنفاس أنواع الحرير.

(٥) الدفوف: الأطراف.

(٦) يُنِيخُونَهَا: ينزلونها على الأرض.

(٧) أوطأ: ألين وأنعم.

(٨) أي: تجري بهم جريًا رفيقًا وقورًا.

(٩) البرك: الجانب.

حتى ينظروا إليه، فإذا رأوه قالوا: اللهم أنت السلام، ومنك السلام، وحقُّ لك الجلال والإكرام. قال: فيقول ﷺ عند ذلك: أنا السلام، ومني السلام، وعليكم حَقَّتْ رحمتي ومحبتي، مرحبًا بعبادي الذين خَشَوْنِي بالغيب، وأطاعوا أمري. قال: فيقولون: ربنا، إنا لم نعبدك حق عبادتك، ولم نقدِّرك حق قدرك؛ فأذنْ لنا بالسجود قدامك، قال: فيقول الله: إنها ليست دار عبادةٍ ولا نصب، ولكنها دارٌ مُلكٍ ونعيم، وإنِّي قد رفعتُ عنكم نَصَبَ العبادة؛ فسلوني ما شئتم؛ فإن لكل رجل منكم أمنيته. فيسألونه حتى إن أقصرهم أمنيَّةً ليقول: رب، تنافَسَ أهل الدنيا في دنياهم فتضايقوا. رب، فأتني مثل كل شيء كانوا فيه من يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا، فيقول الله تعالى: «لقد قُصِرْتُ بك أمنيَّتُك، ولقد سألتَ دون منزلتك، هذا لك مني؛ لأنه ليس في عطائي نكد، ولا قِصْرٌ يد. قال: ثم يقول: اعرضوا على عبادي ما لم تبلغ أمانيتُهم التي في أنفسهم. فيكون فيما يعرضون عليهم براذينٌ مقرَّنة^(١)، على كل أربعة منها سرير من ياقوتةٍ واحدة، على كل سرير منها قبةٌ من ذهب مفرغة، في كل قبة منها فُرْشٌ من فرش الجنة مظاهرة^(٢)، في كل قبة منها جاريتان من الحور العين، على كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة، وليس في الجنة لونٌ إلا وهو فيهما، ولا طيبٌ إلا قد عَبِقَ بهما، ينفذُ ضوء وجوههما غِلْظَ القبة^(٣)؛ حتى يظن من يراها أنهما دون القبة، يُرى

(١) البراذين: نوعٌ فاره من الخيول. المُقرَّنة: الملتصقة ببعضها.

(٢) مظاهرة: مرصوفة فوق بعضها. أو ظاهرٌ جمالها جميعًا.

(٣) أي: يرى جمال وجوههما من خلف القبة.

مخهما^(١) من فوق كالسلك الأبيض في ياقوتة حمراء، يريان له من الفضل على صحابته كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل، ويرى لهما مثل ذلك^(٢)، ثم يدخل إليهما، فيحييانه ويقبلانه ويعانقانه، ويقولان له: ما ظننا أن الله يخلق مثلك. ثم يأمر الله الملائكة فيسيرون بهم صفًا في الجنة، حتى ينتهي كل رجل منهم إلى منزلته التي أعدت له اهـ.

■ قوله: «أشعث»: مجرورة بالفتحة؛ لأنه اسم لا ينصرف للوصف ووزن الفعل.

■ و«رأسه»: مرفوع على الفاعلية، وهو طائر الشعر^(٣)؛ أشغله الجهاد في سبيل الله عن التنعم بالأدهان وتسريح الشعر.

■ قوله: «مغبرة قدماه»: هو بالجر صفة ثانية لـ«عبد».

■ قوله: «إن كان في الحراسة»: أي حامية الجيش عن أن يهجم العدو عليهم.

■ قوله: «كان في الحراسة»: أي غير مقصّر فيها ولا غافل.

■ قوله: «وإن كان في الساقة كان في الساقة»: أي في مؤخرة الجيش، يقلّب نفسه في مصالح الجهاد، وبما فيه حفظ المجاهدين من عدوهم.

□ قال الخلخالي: «المعنى ائتماره لما أمر، وإقامته حيث أقيم، لا يفقد مكانه، وإنما ذكر الحراسة والساقة لأنهما أشد مشقة».

(١) المُنخ: لُبُّ الساق.

(٢) أي: يرى كلُّ منهما الآخر أجمل شيء في خلق الله.

(٣) هذا معنى «الشَّعث»، والمقصود: ثائر الشعر، غير منظم.

■ قوله: «إن استأذن لم يؤذن له»: أي استأذن على الأمراء ونحوهم لم يأذنوا له؛ لأنه لا جاه له عندهم ولا منزلة، لأنه ليس من طلابها، وإنما يطلب ما عند الله.

■ قوله: «وإن شفع لم يُشفع»: يعني لو أَلجأته الحال إلى أن يشفع له في أمر يحبه الله ورسوله، لم تُقبل له شفاعة عند الأمراء ونحوهم.

وعن عثمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «حرسُ ليلةٍ في سبيل الله أفضلُ من ألف ليلةٍ يُصام نهارها ويُقام ليلها»^(١).

□ وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبد الله بن المبارك: قال عبد الله بن محمد - قاضي نصيبين -: حدثني محمد بن إبراهيم بن أبي سكينه: أنه أَملى عليه عبد الله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس، وواعده الخروج، وأنفذها معه إلى الفضيل بن عياض في سنة سبعين ومئة:

يا عابدَ الحرمين لو أبصرتنا علمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضبُ خدَّه بدموعه فنُحورنا بدمائنا تتخضبُ

(١) حسن: رواه أحمد (٦١/١)، وإسحاق بن راهويه في «مسنده» - كما في «النكت الظراف» (٢٦٠/٧) -، وابن أبي عاصم في «الجهاد» (١٥٠)، والبزار (٣٥٠)، والطبراني (١٤٥)، والحاكم (٨١/٢)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢١٤/٦)، وفي «معرفة الصحابة» (٢٨٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٤٢٣٤)، وصحَّحه الحاكم، ووافقه الذهبي، وحسَّنه الشيخ شعيب الأرناؤوط في «المسند» (٤٨٨/١)، وضعَّفه الشيخ الألباني في «ضعيف الجامع» (٢٧٠٤).

أو كان يُتَعَبُ خَيْلَهُ فِي بَاطِلٍ فَخِيوَلْنَا يَوْمَ الصَّبِيحَةِ تَتَعَبُ
 رِيحُ الْعَبِيرِ لَكُمْ وَنَحْنُ عَبِيرُنَا رَهَجُ السَّنَابِكِ وَالْغَبَارُ الْأَطْيَبُ^(١)
 وَلَقَدْ أَتَانَا مِنْ مَقَالِ نَبِينَا قَوْلٌ صَحِيحٌ صَادِقٌ لَا يَكْذِبُ
 لَا يَسْتَوِي غَبَارُ خَيْلِ اللَّهِ فِي أَنْفِ امْرِئٍ وَدُخَانُ نَارٍ تَلْهَبُ
 هَذَا كِتَابُ اللَّهِ يَنْطِقُ بَيْنَنَا لَيْسَ الشَّهِيدُ بِمَيِّتٍ لَا يُكْذِبُ

قال: فلقيت الفضيل بكتابه في المسجد الحرام، فلما قرأه ذرفت عيناه. فقال: صدق أبو عبدالرحمن، ونصحتني، ثم قال: أنت ممن يكتب الحديث؟ قلت: نعم. قال لي: اكتب هذا الحديث. وأملئ عليّ الفضيل بن عياض:

حدثنا منصور بن المعتمر، عن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة أن رجلاً قال: يا رسول الله، علّمني عملاً أنال به ثواب المجاهدين في سبيل الله، فقال: «هل تستطيع أن تصلي فلا تفطر، وتصوم فلا تفطر؟»، فقال: يا رسول الله، أنا أضعف من أن أستطيع ذلك، ثم قال النبي ﷺ: «فوالذي نفسي بيده لو طوّقت ذلك ما بلغت فضل المجاهدين في سبيل الله، أما علمت أن فرس المجاهد لَيَسْتَنُّ في طَوْلِهِ^(٢)؛ فيُكْتَبُ له بذلك حسنات»^(٣).



(١) رهج السنابك: غبار الحوافر.

(٢) يستن: يتحرك. الطّول - بكسر الطاء وفتح الواو -: الحبل. أي: كلما تحرك في حبله كُتبت لصاحبه الحسنات.

(٣) رواه البخاري (٢٧٨٥)، ومسلم (١٨٧٨).

فيه مسائل:

الأولى: إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة.

الثانية: تفسير آية هود.

الثالثة: تسمية الإنسان المسلم عبدَ الدينار والدرهم والخميصة.

الرابعة: تفسير ذلك بأنه إن أُعطي رضي، وإن لم يُعطَ سخط.

الخامسة: قوله: «تعس وانتكس».

السادسة: قوله: «وإذا شيك فلا انتقش».

السابعة: الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات.



﴿٣٨﴾ باب: من أطاع العلماء والأمرء في تحريم

ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله؛ فقد اتخذهم

أرباباً من دون الله

□ وقال ابن عباس: «يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟!».

□ وقال الإمام أحمد: «عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته؛ يذهبون إلى رأي سفيان! والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور]، أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك؛ لعله إذا ردَّ بعض قوله [ﷺ] أن يقع في قلبه شيء من الزينغ فيهلك».

وعن عدي بن حاتم رضي الله عنه: أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة]، فقلت له: إنا لسنا نعبدهم. قال: «أليس يُحَرِّمُونَ ما أحلَّ الله فتحرمونه؟ ويحلُّون ما حَرَّمَ الله فتحلُّونه؟»، فقلت: بلى. قال: «فتلك عبادتهم». رواه أحمد والترمذي وحسنه ^(١).

الشرح

■ قوله: «باب: من أطاع العلماء والأمرء في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله فقد اتخذهم أرباباً من دون الله»: فيه

(١) حسن: وقد تقدم.

إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب].

■ قوله: «وقال ابن عباس: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله ﷺ وتقولون: قال أبو بكر وعمر»:
□ قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «أجمع العلماء على أن من استبان له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد».
□ وقال الإمام مالك رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «ما منّا إلا رادٌّ ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر ﷺ».
□ وعن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: «ليس أحد إلا يؤخذ من قوله ويُدع غير النبي ﷺ».

■ قوله: «وقال الإمام أحمد بن حنبل: عجت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور] أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيف فيهلك»:

□ قال الإمام أحمد: «نظرت في المصحف، فوجدت طاعة الرسول في ثلاثة وثلاثين موضعاً». ثم جعل يتلو: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور].

و«سفيان»: هو الثوري، الإمام الزاهد العابد، الثقة الفقيه، وكان له أصحاب يأخذون عنه، ومذهبه مشهور.

وقد عمت البلوى بهذا المنكر^(١) الذي أنكره الإمام أحمد؛

(١) يعني التعصب للآراء في مقابلة السنة الغراء.

خصوصًا فيمن ينتسب إلى العلم والإفتاء والتدريس، وزعموا أنه لا يأخذ بأدلة الكتاب والسنة إلا المجتهد، والاجتهاد قد انقطع! وقد أخطئوا في ذلك.

وقد استدل الإمام أحمد رحمته الله بقوله عليه السلام: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورَةً، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك»^(١) أن الاجتهاد لا ينقطع.

وحكى ابن عبد البر الإجماع على أن المقلد لا يكون من أهل العلم^(٢).

والأئمة لم يقصروا في البيان؛ بل نهوا عن تقليدهم إذا استبانت السنة.

□ قال أبو حنيفة: «إذا جاء الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصحابة رضي الله عنهم فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن التابعين فنحن رجال وهم رجال».

□ وقال: «إذا قلت قولاً، وكتاب الله يخالفه؛ فتركوا قولي لكتاب الله تعالى، قيل: إذا كان قول رسول الله صلى الله عليه وسلم يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم. قيل: إذا كان قول الصحابة يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لقول الصحابة».

وتقدم قول الإمامين مالك والشافعي.

فعلى من اشتغل بمصنفات أهل مذهبه أن ينظر في أقوال

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) انظر: «القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد» مع «الإقليد في أدلة الاجتهاد والتقليد»، للعلامة الشوكاني بعنايتي.

المخالفين، وما استدلوا به؛ فيكون متبعًا للدليل مع من كان معه، وبالله التوفيق.

■ قوله: «عن عدي بن حاتم»: أي الطائي المشهور بالسخاء^(١) والكرم، قدم عديُّ على رسول الله ﷺ في شعبان سنة تسع من الهجرة، فأسلم وعاش مئة وعشرين سنة.

وقد أشار المصنف رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى بترجمة الباب إلى هذا الحديث وما في معناه.

وفيه دليل على أن طاعة الأحرار والرهبان في معصية الله عبادة لهم من دون الله.

□ قال شيخنا في «المسائل»: «فتغيرت الأحوال، وآلت إلى هذه الغاية؛ فصار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، ويسمونها الولاية، وعبادة الأحرار هي العلم والفقه! ثم تغيرت الحال إلى أن عُبد من ليس من الصالحين، وعبد بالمعنى الثاني مَنْ هو من الجاهلين».

□ وعن زياد بن حدير قال: «قال لي عمر: هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قلت: لا. قال: يهدمه زلَّةُ العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة المضلين». رواه الدارمي.

جعلنا الله وإياكم من الذين يَهْدُونَ بالحق وبه يعدلون. فكم ضلَّ مَنْ ضلَّ، وزلَّ مَنْ زلَّ!



(١) والمشهور المقصود هنا هو حاتم، وليس عديًّا رَحِمَهُ اللهُ.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النور.

الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة: التنبيه على معنى «العبادة» التي أنكرها عدي.

الرابعة: تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر، وتمثيل أحمد بسفيان.

الخامسة: تغيير الأحوال إلى هذه الغاية؛ حتى صار عند الأكثر

عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، وتسمى «الولاية»، وعبادة الأخبار

هي العلم والفقه، ثم تغيرت الحال إلى أن عبد من دون الله من

ليس من الصالحين، وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين.



﴿٣٩﴾ **باب: قول الله تعالى:** ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ

أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى
الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ ۚ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا
بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ رَأَيْتَ
الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ
مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ
إِن أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء]

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾

[البقرة].

وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِ يَتَّبِعُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

[المائدة].

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن
أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به». قال النووي: «حديث
صحيح، رؤيانه في كتاب «الحجة» بإسناد صحيح»^(١).

□ وقال الشعبي: «كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود
خصومة، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد - لأنه عَرَفَ أنه لا يأخذ
الرشوة - . وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود - لعلمه أنهم يأخذون
الرشوة - . فاتفقا أن يأتيا كاهناً في جُهينة فيتحاكما إليه، فنزلت:

(١) حسن - إن شاء الله - : وقد تقدم.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ...﴾ الآية^(١).

□ وقيل: «نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما: نترافع إلى النبي ﷺ، وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف. ثم ترافعا إلى عمر رضي الله عنه، فذكر له أحدهما القصة. فقال للذي لم يرخص برسول الله ﷺ: أكذلك؟ قال: نعم. فضربه بالسيف فقتله»^(٢).

الشرح

■ قوله: «باب: قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظُّلُمَاتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾ [النساء: ٦٠] الآية.

□ قال العماد ابن كثير: «والآية ذامّة لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت هاهنا، وكل من عبد شيئاً دون الله بأي نوع كان من أنواع العبادة كالديعة والاستغاثة = فإنما عبد الطاغوت».

- فإن كان المعبود صالحاً كانت عبادة العابد له واقعة على الشيطان الذي أمره بعبادته وزينها له؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَرَبُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبا]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يونس]، والآية بعدها.

- وإن كان ممن يدعو إلى عبادة نفسه كالطواغيت، أو كان شجرًا أو حجرًا أو قبرًا - كالات والعزى ومناة وغير ذلك مما كان يتخذه المشركون لهم أصنامًا على صور الصالحين والملائكة أو غير ذلك - فهي من الطاغوت الذي أمر الله عباده أن يكفروا بعبادته ويتبرؤوا منه، ومن عبادة كل معبود سوى الله كائنًا من كان.

فالتوحيد هو الكفر بكل ما عُبد من دون الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٨٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف] الآية، فلم يستثن من كل معبودٍ إلا الذي فطره ﷻ، هذا معنى «لا إله إلا الله» كما تقدم في قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ﴾ [المتحنة: ٤]، إلى قوله: ﴿حَقٌّ تُوْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [المتحنة: ٤]، وكذلك من خالف حكم الله ورسوله بأن حكم بين الناس بغير ما أنزل الله، أو مع الجهل بذلك، أو طلب ذلك أن يُتبع عليه، أو أطاعه فيما لا يعلم أنه حق؛ إذا كان المطيع له لا يبالي أكان أمره حقًا أم لا = فهو طاغوت بلا ريب، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ﴾؛ لأن الكفر بالطاغوت ركن التوحيد - كما في آية البقرة -؛ فإذا لم يحصل هذا الركن لم يكن قد نفى ما نفته «لا إله إلا الله».

■ قوله: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾: أي بعيدًا عن الهدى؛ ففي هذه الآية أربعة أمور:
الأول: أنه من إرادة الشيطان.

الثاني: أنه ضلال.

الثالث: تأكيده بالمصدر.

الرابع: وصفه بالبعد عن سبيل الحق والهدى.

فسبحان الله! ما أعظم القرآن! وما أنفعه لمن تدبره! وما أبلغه! وما أدله على أنه كلام رب العالمين؛ أوحاه إلى رسوله الكريم، وبلغه عبده الصادق الأمين - صلوات الله وسلامه عليه -.

■ قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾: فإن المنافق يكره الحق وأهله، ويهوى ما يخالفه من الباطل، وهذه حال أهل النفاق.

□ قال العلامة ابن القيم: «هذا دليل على أن من دُعي إلى تحكيم الكتاب والسنة فأبى = أنه من المنافقين».

قلت: فما أكثرهم - لا كثرهم الله -.

□ قال: ﴿يَصُدُّونَ﴾ لازم، وهو بمعنى يُعرضون؛ لأن مصدره ﴿صُدُّودًا﴾.

فما أكثر من اتصف بهذا الوصف؛ خصوصًا من يدعي العلم! فإنهم صدّوا عما توجبه الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله إلى أقوال من يخطئ كثيرًا ممن ينتسب إلى مذهب من مذاهب الأربعة في تقليدهم من لا يجوز تقليده فيما يخالف الدليل، فصار المتبع للرسول ﷺ من أولئك غريبًا، وقد عمت البلوى بهذا.

■ قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾:

□ قال أبو العالية في الآية: «يعني: لا تعصوا في الأرض؛ لأن من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصية الله فقد أفسد في الأرض؛

لأن صلاح الأرض والسماء إنما هو بطاعة الله ورسوله». ومناسبة الآية للترجمة: أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعمال المنافقين، وهو من الفساد في الأرض، وفي الآية التنبيه على عدم الاغترار بأقوال أهل الأهواء وإن زخرفوها بالدعوى. ■ قوله: «﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾»:

□ قال أبو بكر بن عياش في الآية: «إن الله بعث محمدًا ﷺ إلى أهل الأرض وهم في فساد، فأصلحهم الله بمحمد ﷺ؛ فمن دعا إلى خلاف ما جاء به محمد ﷺ فهو من المفسدين في الأرض».

□ قال ابن القيم: «قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي والدعاء إلى غير طاعة الله؛ بعد إصلاح الله إياها ببعث الرسل وبيان الشريعة والدعاء إلى طاعة الله، فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به هو أعظم فساد في الأرض؛ بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك، والدعوة إلى غير الله، وإقامة معبود غيره ومطاع ومتبع غير رسول الله ﷺ هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا بأن يكون الله وحده هو المعبود المطاع، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول ﷺ، فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع ولا طاعة، ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله، وكل فتنة في العالم وبلاء وشر وقحط وتسليط عدو وغير ذلك = فسببه مخالفة رسوله، والدعوة إلى غير الله ورسوله». انتهى.

وبما ذكرنا يتبين مطابقة الآية للترجمة.

■ قوله: «وقول الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِيَّةِ يَبْغُونَ...﴾ الآية»:

□ قال ابن كثير: «ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المشتمل على كل خير والنهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله؛ كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الجهالات والضلالات؛ وكما يحكم به التتار من السياسات المأخوذة عن جنكيزخان الذي وضع لهم كتابًا مجموعًا من أحكام اقتبسه من شرائع شتى، وفيها كثيرٌ من الأحكام أخذها عن مجرد نظره، وصار في بنيه شرعًا يقدمونه على الحكم بالكتاب والسنة، ومن فعل ذلك فهو كافر يجب قتاله؛ حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم بسواه في قليل ولا كثير».

■ قوله: «﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾»: استفهام إنكار؛

أي: لا حكم أحسن من حكمه، وهذا من باب استعمال «أفعل التفضيل» فيما ليس له في الطرف الآخر مشارك، أي: ومن أعدل من الله حكمًا لمن عقل عن الله شرعه، وآمن وأيقن أنه تعالى أحكم الحاكمين، وأرحم بعباده من الوالدة بولدها، العليم بمصالح عباده، القادر على كل شيء، الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

■ قوله: «عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن

أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»:

قال النووي: حديث صحيح رويناه في كتاب «الحجة» بإسناده صحيح: هذا الحديث رواه الشيخ أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي في كتاب «الحجة على تارك المحجة» بإسناد صحيح - كما قال المصنف عن النووي - .

ورواه الطبراني، وأبو بكر بن عاصم، والحافظ أبو نعيم في «الأربعين» التي شَرَطَ لها أن تكون في صحاح الأخبار.

وشاهده في القرآن: قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا سَلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥]، وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، وقوله: ﴿فَإِنْ لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَكُونُ بِنِعْمَتِ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [القصص: ٥٠]، ونحو هذه الآيات.

■ قوله: «حتى يكون هواه تبعًا لما جئتُ به»: الهوى - بالقصر - أي: ما تهواه وتحبه نفسه، فإن كان الذي يحبه وتميل إليه نفسه ويعمل به تابعًا لما جاء به الرسول ﷺ لا يخرج عنه إلى ما يخالفه = فهذه صفة أهل الإيمان المطلق؛ الذي يوجب لصاحبه الجنة والنجاة من النار، وإن كان بخلاف ذلك، أو في بعض أحواله أو أكثرها؛ انتفى عنه من الإيمان كماله الواجب؛ فيطلق عليه «مؤمن» بقيد، لنقص إيمانه بالمعصية؛ كما في حديث أبي هريرة: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»^(١)؛ فيكون مسلمًا، ومعه مطلق الإيمان الذي لا يصح إسلامه إلا به.

وهذا التوحيد الذي لا يشوبه شرك ولا كفر، هذا هو الذي يذهب إليه أهل السنة والجماعة خلافًا للخوارج والمعتزلة؛ فإن الخوارج يكفرون بالذنوب، والمعتزلة لا يطلقون عليه الإيمان، ويقولون بتخليده في النار، وكلا الطائفتين ابتدع في الدين، وترك ما دل عليه الكتاب والسنة، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ

(١) رواه البخاري (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧).

وَيَعْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴿٤٨﴾ [النساء: ٤٨]؛ فقيّد مغفرة ما دون الشرك بالمشيئة، وتواترت الأحاديث بما يحقق ما ذهب إليه أهل السنة: فقد أخرج البخاري وغيره، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «يخرج من النار من قال: «لا إله إلا الله»، وفي قلبه وزن شعيرة من خير، ويخرج من النار من قال: «لا إله إلا الله»، وفي قلبه وزن بُرّة من خير. ويخرج من النار من قال: «لا إله إلا الله»، وفي قلبه وزن ذرة من خير»^(١).

■ قوله: «وقال الشعبي: كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد؛ لأنه عرف أنه لا يأخذ الرشوة، وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود... إلخ: في قصة عمر وقتله المنافق الذي طلب التحاكم إلى كعب بن الأشرف دليل على قتل من أظهر الكفر والنفاق، وكان كعب بن الأشرف هذا شديد العداوة للنبي ﷺ والأذى له، والإظهار لعداوته؛ فانتقض به عهده، وحلّ به قتله، وقصة قتله مذكورة في كتب الأحاديث والسير وغيرها»^(٢).



(١) رواه البخاري (٤٤)، ومسلم (١٩٣).

(٢) رواه البخاري (٤٠٣٧)، ومسلم (١٨٠١)، من حديث جابر بن عبد الله

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النساء، وما فيها من الإعانة على معرفة فهم الطاغوت.

الثانية: تفسير آية البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ...﴾ الآية.

الثالثة: تفسير آية الأعراف: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا...﴾.

الرابعة: تفسير ﴿أَفَحُكْمَ الْجَهْلِ يَتَّبِعُونَ...﴾.

الخامسة: ما قال الشعبي في سبب نزول الآية الأولى.

السادسة: تفسير الإيمان الصادق والكاذب.

السابعة: قصة عمر مع المنافق.

الثامنة: كون الإيمان لا يحصل لأحدٍ حتى يكون هواه تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ.



❦ [٤٠] باب: من جحد شيئاً من الأسماء والصفات ❦

وقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد].

□ وفي «صحيح البخاري»: «قال عليّ: حَدَّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذِّبَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؟»^(١).

□ وروى عبدالرزاق، عن معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه: عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أنه رأى رجلاً انتفض لما سمع حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم في الصفات - استنكاراً لذلك -، فقال: ما فَرَّقَ هؤلاء؟! يجدون رِقَّةً عند مُحْكَمِهِ، ويَهْلِكُونَ عند متشابهه؟! انتهي».

ولما سمعت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر «الرَّحْمَنَ» أنكروا ذلك، فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾.

الشرح

■ قوله «باب: من جحد شيئاً من الأسماء والصفات. وقول الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾» الآية: سبب نزول الآية معلوم، وهو أن قريشاً جحدوا اسم «الرَّحْمَنَ» عناداً؛ قال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠] ف«الرَّحْمَنَ» اسمه وصفته، ف«الرحمة» وصفه القائم به، فإذا كان المشركون جحدوا اسماً من أسمائه الذي دل على كماله تعالى؛ فجحدوا معناه كجحد لفظه = فإن الجهمية يزعمون أنها لا تدل على صفة قائمة

بالله تعالى، وتبعهم على ذلك طوائف من المعتزلة والأشاعرة،
فلهذا كفرهم كثيرٌ من أهل السنة.

□ قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

ولقد تقلد كفرهم خمسون في عشرٍ من العلماء في البلدان
واللالكائي الإمام حكاه عنهم بل حكاه قبله الطبراني
فإن هؤلاء الجهمية ومن وافقهم من أهل الكلام على التعطيل =
جحدوا ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسول الله ﷺ من صفات
كمالهِ ونعوت جلالهِ، وبنوا هذا التعطيل على أصلٍ فاسدٍ أصْلوه من
عند أنفسهم، ولم يفهموا من صفات الله إلا ما فهموه من خصائص
صفات المخلوقين، فشبهوا الله في ابتداء آرائهم الفاسدة بخلقه،
ثم عطّلوه من صفات كمالهِ، وشبّهوه بالناقصات والجمادات
والمعدومات، فشبهوا أولاً، وعطلوا ثانياً، وشبهوا ثالثاً بكل ناقص
أو معدوم، فتركوا ما دل عليه صريح الكتاب والسنة، وما عليه
سلف الأمة من إثبات ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله على
ما يليق بجلالهِ وعظمتهِ، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل؛ كما
قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى].

وقد صنف أئمة السنة - لما حدثت بدعة الجهمية - مصنفاتٍ
كثيرةً في الرد عليهم؛ كالإمام أحمد، وابنه عبد الله، والخلال، وأبي
بكر الأثرم، وعثمان بن سعيد الدارمي، وإمام الأئمة محمد بن
خزيمة، وأبي عثمان الصابوني، وخلق من أئمة السنة لا يمكن
حصرهم، وكذلك من بعدهم كأبي محمد موفق الدين، وشيخ الإسلام
ابن تيمية، وابن قيم الجوزية، ومن في طبقتهم كالعماد ابن كثير،

والحافظ ابن الهادي، وابن رجب، والذهبي، وغيرهم من أهل السنة والجماعة، وكتبهم مشهورة موجودة بين أهل السنة والجماعة. فله الحمد على ظهور الحق ونشره، والدعوة إليه، والمحافظة عليه.

■ قوله: «قال عليّ: (حدّثوا الناس بما يعرفون؛ أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟)»: وهذا - والله أعلم -، قاله حين كثر القصاص في خلافته، وصاروا يذكرون أحاديث ليست من الأحاديث المعروفة، ولهذا كثر الوضع بهذا السبب، وغير المعروف يحتمل أن يكون فيه ما يصح وفيه ما لا يصح؛ فإذا سمعه من لم يعرفه أنكره وربما كان حقاً؛ فلا ينبغي التحديث إلا بما صح وثبت واشتهر عند المحدثين والفقهاء، وما ليس كذلك فلا ينبغي أن يحدث به؛ لاحتمال أن يكون غير صحيح، وقد كان أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان ينهى عن القصص؛ لما فيه من التساهل في النقل، ويقول: «لا يقص إلا أمير أو مأمور».

■ قوله: «روى عبدالرزاق»: هو ابن همام الصنعاني المحدث، محدث اليمن، صاحب التصانيف، أكثر الرواية عن معمر بن راشد صاحب الزهري، وهو شيخ عبدالرزاق، يروي عنه كثيراً.

■ و«مَعْمَر» - بفتح الميمين وسكون العين -: أبو عروة بن أبي عمرو بن راشد، الأزدي الحراني ثم اليماني، من أصحاب محمد بن شهاب الزهري، ويروي عنه كثيراً.

■ قوله: «عن ابن طاووس»: هو عبدالله بن طاووس اليماني. قال معمر: كان من أعلم الناس بالعربية. وقال ابن عيينة: مات سنة اثنتين وثلاثين ومئة.

■ قوله: «عن أبيه»: هو طاوس بن كيسان الجَنَدِي - بفتح الجيم والنون -، الإمام العالم، قيل: اسمه ذكوان. قاله ابن الجوزي.
قلت: وهو من أئمة التفسير، ومن أوعية العلم.

□ قال في «تهذيب الكمال»: «عن الوليد الموقري، عن الزهري قال: قدمت على عبد الملك بن مروان؛ فقال: من أين قدمت - يا زهري -؟ قلت: من مكة، قال: من خَلَفْتَ يسودها وأهلها؟ قلت: عطاء بن أبي رباح، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي، قال: فبم سادهم؟ قلت: بالديانة والرواية. قال: إن أهل الديانة والرواية لينبغي أن يسودوا. قال: فمن يسود أهل اليمن؟ قلت: طاووس بن كيسان، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي، قال: فبم سادهم؟ قلت: بما ساد به عطاء، قال: إنه لينبغي ذلك، قال: فمن يسود أهل مصر؟ قلت: يزيد بن أبي حبيب. قال: فمن العرب أم من الموالي، قلت: من الموالي، قال: فمن يسود أهل الشام؟ قلت: مكحول، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي؛ عبد نوبي أعتقته امرأة من هذيل. قال: فمن يسود أهل الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهران. قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي، قال: فمن يسود أهل خراسان؟ قلت: الضحاك بن مزاحم، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي، قال: فمن يسود أهل البصرة؟ قلت: الحسن البصري، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي، قال: ويلك! ومن يسود أهل الكوفة؟ قلت: إبراهيم النخعي، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من العرب، قال: ويلك - يا زهري -، فرجت عني والله؛ لتسودن الموالي على العرب حتى يُخطب لها على

المنابر، والعرب تحتها، قلت: يا أمير المؤمنين، إنما هو دين؛ من حفظه ساد، ومن ضيعه سقط».

■ قوله: «ما فرَّق هؤلاء؟»: يستفهم من أصحابه، يشير إلى أناس ممن يحضرون مجلسه، فإذا سمعوا شيئاً من محكم القرآن حصل منهم فرَّق - أي خوف -، فإذا سمعوا شيئاً من أحاديث الصفات انتفضوا كالمنكرين للمعنى، ولا يتم الإيمان إلا بقبول اللفظ بمعناه الذي دل عليه ظاهراً، فإن لم يُقبل معناه، أو رده، أو شك فيه لم يكن مؤمناً به؛ فيكون هلاكاً.

وقد ظهر من البدع في زمن ابن عباس بدعة القدرية كما في «صحيح مسلم» وغيره، فقتل من دعائهم غيلان؛ قتله هشام بن عبد الملك لما أصر على قوله بنفي القدر، ثم بعد ذلك أظهر الجعد ابن درهم بدعة الجهمية فقتل، قتله خالد بن عبد الله القسري يوم الأضحى بعد صلاة العيد.

□ قال الذهبي: «حدثنا وكيع عن إسرائيل بحديث: «إذا جلس الرب على الكرسي»^(١)؛ فاقشعر رجل عند وكيع، فغضب وكيع، وقال: أدركنا الأعمش وسفيان يحدثون بهذه الأحاديث، ولا ينكرونها». أخرجه عبد الله في «الرد على الجهمية».

والواقع من أهل البدع وتحريفهم لمعنى الآيات يبين معنى قول ابن عباس. وسبب هذه البدع جهل أهلها وقصورهم في الفهم، وعدم

(١) هذا مروى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه. انظر: «كتاب العرش» للإمام الذهبي (١٥٤/٢ - ١٥٥). والأثر رواه عبد الله بن أحمد في كتاب «السنة» (٥٨٥، ٥٨٧)، وصححه الحافظ الذهبي رحمته الله.

أخذ العلوم الشرعية على وجهها، وتلقيها من أهلها العارفين لمعناها؛ الذين وفقهم الله تعالى لمعرفة المراد، والتوفيق بين النصوص، والقطع بأن بعضها لا يخالف بعضاً، ورد المتشابه إلى المحكم، وهذه طريقة أهل السنة والجماعة في كل زمانٍ ومكان، فله الحمد؛ لا نُحصى ثناءً عليه.

■ قوله: «ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر الرَّحْمَنَ أنكروا ذلك؛ فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ الآية»:

□ روى ابن جرير عن ابن عباس قال: «كان النبي ﷺ يدعو ساجداً: «يا رحمن، يا رحيم»، فقال المشركون: هذا يزعم أنه يدعو واحداً، وهو يدعو مثنى مثنى. فأنزل الله: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء: ١١٠]»^(١).



(١) ضعيف: رواه الطبري (١٢٣/١٥)، وإسناده ضعيف؛ كما أفادني فضيلة الشيخ أبو عمر الذهبي - حفظه الله -.

فيه مسائل:

الأولى: عدم الإيمان بجحد^(١) شيء من الأسماء والصفات.

الثانية: تفسير آية الرعد.

الثالثة: ترك التحديث بما لا يفهم السامع.

الرابعة: ذكر العلة: أنه يُفضي إلى تكذيب الله ورسوله، ولو لم يتعمد المنكر.

الخامسة: كلام ابن عباس لمن استنكر شيئاً من ذلك، وأنه أهلكه.



(١) أي: مع جحد.

﴿٤١﴾ باب: قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل]

﴿٨٣﴾ [النحل]

□ قال مجاهد ما معناه: «هو قول الرجل: هذا مالي ورثته عن آبائي».

□ وقال عون بن عبد الله: «يقولون: لولا فلان لم يكن كذا».

□ وقال قتبية: «يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا».

□ وقال أبو العباس - بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه: «إن الله تعالى قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر...» الحديث وقد تقدم^(١) -: «وهذا كثير في الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به. قال بعض السلف: «هو كقولهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقاً»، ونحو ذلك مما هو جارٍ على السنة كثير».

الشرح

■ قوله: «باب: قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ الآية»: □

□ قال ابن جرير: «فإن أهل التأويل اختلفوا في المعنى بالنعمة؛ فذكر عن سفيان عن السدي: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ قال: محمد ﷺ. وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنهم يعرفون أن ما عُدَّ الله - تعالى ذكره - في هذه السورة من النعم من عند الله، وأن الله

(١) صحيح: وقد تقدم.

هو المنعم عليهم بذلك، ولكنهم ينكرون ذلك؛ فيزعمون أنهم ورثوه عن آبائهم».

□ وأخرج عن مجاهد: «﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ قال: هي المساكن، والأنعام، وما يرزقون منها، والسراويل من الحديد والشياب، يعرف هذا كفار قريش، ثم ينكرونه بأن يقولوا: هذا كان لأبائنا فورثونا إياه».

■ قوله: «وقال عون بن عبد الله: يقولون: لولا فلان لم يكن كذا»: عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي، أبو عبد الله، الكوفي الزاهد، عن أبيه، وعائشة، وابن عباس، وعنه قتادة وأبو الزبير والزهري، وثقه أحمد وابن معين. قال البخاري: مات بعد العشرين ومئة.

واختار ابن جرير القول الأول، واختار غيره أن الآية تعم ما ذكره العلماء في معناها، وهو الصواب.

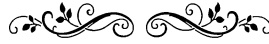
■ قوله: «وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به. قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقًا، ونحو ذلك مما هو جار على السنة كثير» اهـ.

وكلام شيخ الإسلام يدل على أن حكم هذه الآية عام فيمن نسب النعم إلى غير الله، وأسند أسبابها إلى غيره مما هو مذكور في كلام المفسرين المذكور بعضه هنا، وذلك من أنواع الشرك كما لا يخفى.



فيه مسائل:

- الأولى: تفسير معرفة النعمة وإنكارها.
- الثانية: معرفة أن هذا جارٍ على ألسنة كثير.
- الثالثة: تسمية هذا الكلام إنكارًا للنعمة.
- الرابعة: اجتماع الضدين في القلب.



﴿ ٤٢ ﴾ [باب: قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾]

وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ [البقرة]

□ قال ابن عباس في الآية: «الأنداد: هو الشرك، أخفى من ديب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل؛ وهو أن يقول: والله وحياتك يا فلان، وحياتي. ويقول: لولا كلبه هذا لأتانا اللصوص. ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص. وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت. وقول الرجل: لولا الله وفلان. لا تجعل فيها فلاناً؛ هذا كله به شرك». رواه ابن أبي حاتم.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ حَلَفَ بغير الله فقد كفر أو أشرك». رواه الترمذي، وحسنه، وصححه الحاكم ^(١).

□ وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «لَأَنْ أَحْلِفَ بِاللَّهِ كاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بغيره صادقاً».

وعن حذيفة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان». رواه أبو داود بسند صحيح ^(٢).

□ وجاء عن إبراهيم النخعي: «أنه يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك. ويجوز أن يقول: بالله ثم بك. قال: ويقول: لولا الله ثم فلان؛ ولا تقولوا: لولا الله وفلان».

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

الشرح

■ قوله: «باب: قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾»: الند: المِثْل والنظير، وجعلُ الند لله هو صرف أنواع العبادة أو شيء منها لغير الله؛ كحال عبدة الأوثان الذين يعتقدون فيمن دَعَوْه ورجَّوه أنه ينفعهم ويدفع عنهم، ويشفع لهم، قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

□ قال العماد ابن كثير في «تفسيره»: «قال أبو العالية: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال: عدلاء شركاء، وهكذا قال الربيع ابن أنس، وقتادة، والسدي، وأبو مالك، وإسماعيل بن أبي خالد. وقال ابن عباس: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾: أي لا تشركوا بالله شيئاً من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه ربكم لا يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذي يدعوكم الرسول إليه من توحيده هو الحق الذي لا شك فيه.

وقال مجاهد: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال: تعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل».

■ قوله: «وعن ابن عباس في الآية: (الأنداد: هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل...)» إلخ: وهذا من ابن عباس تنبيه بالأدنى من الشرك على الأعلى.

■ قوله: «وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)»: يحتمل أن يكون شكاً من الراوي، ويحتمل أن تكون «أو» بمعنى الواو؛ فيكون قد كفر وأشرك، ويكون من باب «كفر دون كفر».

■ قوله: «وقال ابن مسعود: (لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقًا)»: ومن المعلوم أن الحلف بالله كاذبًا من الكبائر، لكن الشرك أكبر من الكبائر وإن كان أصغر - كما تقدم -.

■ قوله: «وعن حذيفة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان)»: وذلك لأن العطف بالواو يقتضي المساواة؛ لأنها في وضعها لمطلق الجمع، بخلاف «الفاء» و«ثم»، وتسوية المخلوق بالخالق بكل نوع من العبادة شرك، وهذا ونحوه من الشرك الأصغر.

■ قوله: «وعن إبراهيم النخعي: (أنه يكره أن يقول: أعوذ بالله وبك، ويجوز أن يقول: بالله ثم بك. قال: ويقول: لولا الله ثم فلان، ولا تقولوا: لولا الله وفلان)»: إبراهيم هو النخعي، وهذا فيما يقدر عليه الحي الحاضر؛ بخلاف من ليس كذلك ممن لا يسمع كلامًا ولا يرد جوابًا كالأموات والغائبين.



فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة في الأنداد.

الثانية: أن الصحابة رضي الله عنهم يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر.

الثالثة: أن الحلف بغير الله شرك.

الرابعة: أنه إذا حلف بغير الله صادقاً؛ فهو أكبر من اليمين الغموس.

الخامسة: الفرق بين «الواو» و«ثم» في اللفظ.



﴿٤٣﴾ باب: ما جاء فيمن لم يَقْنَعْ بالحلف بالله

عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحلفوا بآبائكم. مَنْ حَلَفَ بِاللَّهِ فَلْيَصِدُقْ؛ وَمَنْ حَلَفَ لَهُ بِاللَّهِ فَلْيَرْضَ؛ وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ» رواه ابن ماجه بسند حسن ^(١).

الشرح

■ قوله: «لا تحلفوا بآبائكم»: تقدم أنه لا يجوز الحلف بغير الله في حق كل أحد.

■ قوله: «من حلف بالله فليصدق»: وهذا مما أوجبه الله على عباده قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة]، وقال: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِمَا نَزَّلَتْ إِلَهُ﴾ [النحل: ١٠٥].

■ قوله: «(ومن حلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله)»: هذا من حق المسلم على المسلم؛ أن يقبل منه إذا حلف له متعذراً. والحديث يدل على الوجوب، ومن حقه عليه أن يحسن به الظن إذا لم يتبين كذبه؛ كما في الأثر عن عمر: «ولا تظنَّ بكلمة خرجت من أخيك شرًّا وأنت تجد لها في الخير محملاً»، وهو من حسن الخلق ومكارم الأخلاق، وكمال العقل وقوة الدين.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن الحلف بالآباء.

الثانية: الأمر للمحلف له بالله أن يرضى.

الثالثة: وعيد من لم يرض.



﴿٤٤﴾ باب: قول: «ما شاء الله وشئت»

عن قتيبة [رضي الله عنه]: أن يهوديًا أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون؛ تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة. فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: «ورب الكعبة»، وأن يقولوا: «ما شاء الله ثم شئت». رواه النسائي وصححه (١).

وله - أيضًا - عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت. فقال: «أجعلني لله ندًا؟! [بل] ما شاء الله وحده» (٢).

ولابن ماجه عن الطفيل - أخي عائشة لأمها - قال: رأيتُ كاني أتيتُ على نفر من اليهود، قلتُ: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: عزيزُ ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. ثم مررتُ بنفرٍ من النصارى، فقلتُ: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: المسيحُ ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبحتُ أخبرتُ بها من أخبرت، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته، قال: «هل أخبرتُ بها أحدًا؟»، قلتُ: نعم. قال: فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإن طفيلًا رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمةً كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده» (٣).

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) صحيح: وقد تقدم.

الشرح

■ قوله: «قُتِيلَة» - بمثناة، مصغرة - بنت صيفي الأنصارية، صحابية مهاجرة، لها حديث في «سنن النسائي»، وهو المذكور في الباب، ورواه عنها عبدالله بن يسار الجعفي.

وفيه قبول الحق ممن جاء به، وفيه بيان النهي عن الحلف بالكعبة وغيرها؛ مع أنها بيت الله التي حَبُّها وقصْدُها بالحج والعمرة فريضة، وأنت ترى ما وقع مما يخالف ذلك من الحلف بالكعبة ودعائها، وكذا مقام إبراهيم، وقلَّ مَنْ يسلم من هذا ممن يَحُجُّ من أهل الآفاق وأهل مكة، كما كان يفعل بغيرها، والكعبة عَظَمَها الله بأن جعل حجها ركنًا على من استطاع، وشرع العبادة عندها، وخصها بالفضل، فالمشروع إنما هو الطواف بها والصلاة إليها؛ لا الحلف بها ونحوه من الشرك في العبادة؛ ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩].

■ قوله: «(إنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت)»: والعبد وإن كانت له مشيئة؛ فمشيئته تابعة لمشيئة الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩].

وفي هذه الآية والحديث الرد على القدرية والمعتزلة نفاة القدر؛ الذين يثبتون للعبد مشيئة تخالف ما أَرَادَهُ الله من العبد وما شاءه، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

وفي الحديث: «أول ما خلق الله القلم؛ فقال له: اكتب، فجرئ بما

هو كائنٌ إلى يوم القيامة». وهو في «الصحيحين» وغيرهما^(١).

■ قوله: «وله - أيضًا - عن ابن عباس: أن رجلاً قال للنبي ﷺ ما شاء الله وشئت فقال: (أجعلني لله ندًا؟ بل ما شاء الله وحده): هذا يبين ما تقدم من أن هذا شرك؛ لأن المعطوف بالواو يساوي المعطوف بالمعطوف عليه؛ لأن الواو وُضعت لمطلق الجمع، فلا يجوز أن يُجعل المخلوق مثل الخالق في شيء من الإلهية والربوبية - ولو في أقل شيء -، كما تقدم في الرجلين اللذين قرب أحدهما ذبابةً للصنم فدخل النار^(٢).

وفيه: أن النبي ﷺ حَمَى حَمَى التوحيد وسد طرق الشرك في الأقوال والأعمال.

■ قوله: «عن الطفيل»: هو الطفيل بن عبد الله بن سخبرة، أخو عائشة لأُمها؛ له حديث عند ابن ماجه، وهو ما ذكره المصنف رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في الباب.

وهذه الرؤيا حقُّ أقرها رسول الله ﷺ، وعمل بمقتضاها؛ فنهاهم أن يقولوا: «ما شاء الله وشاء محمد»، وأمرهم أن يقولوا: «ما شاء الله وحده». وقد بَلَغَ ﷺ البلاغ المبين، وأنذر عن الشرك، وحذر عن قليله وكثيره، فانظر إلى ما وقع من الشرك العظيم في هذه الأمة؛ ينادون الميت من مسافة شهر أو شهرين أو أكثر، ويعتقدون فيه أنه ينفع ويضر، ويسمع ويستجيب من تلك المسافة، وجعلوا الأموات شركاء لله في الملك والتدبير وعلم الغيب، وغير

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) ضعيف مرفوعًا: وقد تقدم.

ذلك من خصائص الربوبية، وتركوا نبيهم وما جاء به، وما قاله وما نهى عنه؛ كأنهم لم يسمعوا كتابًا ولا سنةً، وقد بعثه الله بالنبى عن الشرك كما ترى، فما زال يدعو الناس إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، حتى أكمل الله لهم به الدين وأتم عليهم النعمة، لكن رجعوا من الكمال إلى الضلال، ومن سبيل النجاة إلى سبيل الهلاك. وهذه وإن كانت رؤيا منام فقد أقرها رسول الله ﷺ، وأخبر أنها حق.



فيه مسائل:

الأولى: معرفة اليهود بالشرك الأصغر.

الثانية: فهم الإنسان إذا كان له هوى.

الثالثة: قوله ﷺ: «أجعلتني لله ندًا؟»، فكيف بمن قال:

يا أكرمَ الخلقِ من لي ألُوذُ بهِ سواكَ عند حلولِ الحادثِ العممِ

والبيتين بعده؟!

الرابعة: أن هذا ليس من الشرك الأكبر لقوله: «يمنعني كذا وكذا».

الخامسة: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي.

السادسة: أنها قد تكون سببًا لشرع بعض الأحكام.



[٤٥] باب: من سب الدهر فقد آذى الله

وقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية].

وفي «الصحيح» عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «قال تعالى: يؤذيني ابنُ آدم؛ يسبُّ الدهر، وأنا الدهر؛ أقلبُ الليل والنهار». وفي رواية: «لا تسبُّوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر» (١).

الشرح

■ قوله: «باب: من سب الدهر فقد آذى الله». وقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾:

□ قال العماد ابن كثير في «تفسيره»: «يخبر الله تعالى عن دهرية الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد، وقالوا: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾: أي ما ثم إلا هذه الدار؛ يموت قوم، ويعيش آخرون، ولا ثمَّ معادٌ ولا قيامة، وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد، ويقولوه الفلاسفة الإلهيون منهم، وهم ينكرون البداءة والرجعة؛ ولهذا قال عنهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾. قال سبحانه: ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية]؛ أي: يتوهمون ويتخيلون».

■ قوله: «عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: (قال الله تعالى: يؤذيني ابن آدم؛ يسب الدهر، وأنا الدهر؛ أقلب الليل والنهار)».

وفي رواية: (لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر):

□ قال في «شرح السنة»: «حديث متفق على صحته، أخرجاه من طريق معمر من أوجه عن أبي هريرة».

□ قال: «ومعناه: أن العرب كانت من شأنها ذم الدهر وسبه عند النوازل؛ لأنهم كانوا ينسبون إليه ما يصيبهم من المصائب والمكاره؛ فيقولون: أصابتهم قوارع الدهر، وأبادهم الدهر، فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد سبوا فاعلها، فكان مرجع سبها إلى الله ﷻ، إذ هو الفاعل في الحقيقة للأمور التي يصفونها؛ فنهوا عن سب الدهر». انتهى باختصار.

ونسبة الفعل إلى الدهر ومسبته كثيرة في أشعار المولدين كابن المعتز والمتنبي وغيرهما، وليس منه وصف السنين بالشدّة لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ [يوسف: ٤٨] الآية.

□ قال بعض الشعراء:

إن الليالي من الزمان مهولةٌ تُطوى وتُنشر بينها الأعمارُ
فقصارُهن مع الهموم طويلةٌ وطوالهن مع السرور قصارُ
وقال أبو تمام:

أعوامٌ وصلٍ كاد يُنسي طيبها ذكرُ النوى فكأنها أيامُ
ثم انبرت أيامٌ هجرٍ أعقت نحوي أسى فكأنها أعوامُ
ثم انقضت تلك السنون وأهلها فكأنها وكأنهم أحلامُ



فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سبِّ الدهر.

الثانية: تسميته: أذَى لله.

الثالثة: التأمل في قوله: «فإن الله هو الدهر».

الرابعة: أنه قد يكون سائبًا، ولو لم يقصده بقلبه.



﴿ ٤٦ ﴾ باب: التسمي بـ «قاضي القضاة» ونحوه

في «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن أخرج اسم عند الله رجلٌ تسمَّى: «مَلِكُ الْأَمْلاكِ». لا مالك إلا الله». قال سفيان: مثل «شاهان شاه». وفي رواية: «أغيظُ رجلٍ على الله يوم القيامة وأخبثُه»^(١). قوله: «أخرج»: يعني: أوضع.

الشرح

■ قوله: «في الصحيح عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: (إن أخرج اسم عند الله رجلٌ تسمَّى: ملك الأملاك. لا مالك إلا الله)»؛ لأن هذا اللفظ إنما يصدق على الله؛ فهو ملك الأملاك؛ لأنه هو الملك في الحقيقة، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، يتصرف في الملوك وغيرهم بمشيئته وإرادته؛ كما قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦] الآية، فلا ينبغي أن يعظم المخلوق بما يشبه ما يُعظم به الخالق جَلَّ وَعَلَا، وما كان مثل ذلك فيُنهي عنه كالذي ترجم به المصنف؛ لأنه لا يصدق هذا المعنى إلا على الله، فلا يصلح أن يسمى به المخلوق؛ لأن كل لفظ يقتضي التعظيم والكمال لا يكون إلا له - تعالى وتقدس - دون غيره.

■ قوله: «قال سفيان: مثل شاهان شاه»: عند العجم عبارة عن

(١) صحيح: وقد تقدم.

«ملك الأملاك»؛ ولهذا مثل به سفيان.

■ قوله: «وفي رواية: (أغبط رجل على الله)»: أغبط من الغبط، وهو مثل الغضب والبغض؛ فيكون بغيطاً إلى الله مغضوباً عليه، وهذا من الصفات التي تُمَرُّ كما جاءت من غير تحريف، ولا تأويل ولا تشبيه ولا تمثيل، والله أعلم.

■ قوله: «وأخبثه»: وهو يدل - أيضاً - على أن هذا خبيثٌ عند الله إذا رضي بذلك لتعظيم الناس له بما لا يستحقه، وعدم إنكاره وكرهته لذلك.

■ قوله: «أخنع: يعني أوضع»: وهذا المذكور ينافي كمال التوحيد الذي دلت عليه كلمة الإخلاص، فيكون فيه شائبةٌ من الشرك - وإن لم يكن أكبر -.



فيه مسائل:

الأولى: النهي عن التسمي بـ«مَلِك الأملاك».

الثانية: أن ما في معناه مثله، كما قال سفيان.

الثالثة: التفطن للتغليظ في هذا ونحوه، مع القطع بأن القلب لم يقصد معناه.

الرابعة: التفطن أن هذا لإجلال الله سبحانه.



[٤٧] باب: احترام أسماء الله تعالى،

وتغيير الاسم لأجل ذلك

عن أبي شريح أنه كان يُكنى أبا الحكم، فقال له النبي ﷺ: «إن الله هو الحكم، وإليه الحكم». فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني، فحكمت بينهم، فرضي كلا الفريقين. فقال: «ما أحسن هذا! فما لك من الولد؟». قال: شريح، ومسلم، وعبدالله. قال: «فمن أكبرهم؟»، قلت: شريح. قال: «فأنت أبو شريح». رواه أبو داود وغيره^(١).

الشرح

■ قوله: «عن أبي شريح»: هو الخزاعي؛ اسمه خويلد بن عمرو، وأسلم يوم الفتح، له عشرون حديثاً؛ اتفقا على حديثين، وانفرد البخاري بحديث. وعنه أبو سعيد المقبري، ونافع بن جبير، وطائفة، قال ابن سعد: مات بالمدينة سنة ثمان وستين.

■ قوله: «يكنى»: الكنية: ما صُدِّرَ بـ«أب» أو «أم» ونحو ذلك؛ كـ«أبي محمد»، واللقب: ما ليس كذلك كـ«زين العابدين».

■ وقوله ﷺ: «(إن الله هو الحكم وإليه الحكم)»: أي هو سبحانه الحكم في الدنيا والآخرة، يحكم بين خلقه في الدنيا بوحيه الذي أنزله على أنبيائه ورسله، وما من قضية إلا وله فيها حكم مما أنزله على نبيه من الكتاب والحكمة، لكن قد يخفى على المجتهد؛

فإن المجتهدين - وإن اختلفوا في بعض الأحكام - فلا بد أن يكون المصيب فيهم واحدًا، فمن رزقه الله قوة الفهم، وأعطاه ملكة يقتدر بها على فهم الصواب من أقوال العلماء = أدرك ما هو الصواب من ذلك.

■ وقوله: «(إليه الحكم)»: في الدنيا والآخرة؛ كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]. وقال: ﴿فَإِنْ نَزَعْنَاهُ مِنْ شَيْءٍ فَردُّهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩] الآية. فالحكم إلى الله هو الحكم إلى كتابه، والحكم إلى رسوله هو الحكم إليه في حياته، وإلى سنته بعد وفاته.

■ قوله: «فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم؛ فرضي كلا الفريقين»: والمعنى - والله أعلم - أن أبا شريح كان مرضيًا عندهم؛ يتحرى ما يصلحهم إذا اختلفوا، فيرضون صلحه؛ فسمّوه: «حكمًا»، وأما ما يحكم به الجهلة من الأعراب ونحوهم من سوائف آبائهم وأهوائهم فليس من هذا الباب؛ لما فيه من النهي الشديد، والخروج عن حكم الله ورسوله إلى ما يخالفه، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]، وهذا كثير، فمن الناس من يحكم بين الخصمين برأيه وهواه، ومنهم من يتبع في ذلك سلفه، ويحكم بما كانوا يحكمون به، وهذا كفر إذا استقر وغلب على من تصدى لذلك ممن يرجع الناس إليه إذا اختلفوا.

■ قوله ﷺ: «(فما لك من الولد؟)»: قال: شريح ومسلم وعبدالله. قال: (فمن أكبرهم؟)، قلت: شريح. قال: (فأنت أبو شريح): فكناه

بالكبير، وهو السنة، وغيّر كنيته بـ«أبي الحكم»؛ لأن الله هو الحكم على الإطلاق، ومنه تسمية الأئمة بـ«الحكام»، فينبغي ترك ذلك، والنهي عنه لهذا الحديث، وهذا قد حدث في الناس قريباً.



فيه مسائل:

الأولى: احترام أسماء الله وصفاته، ولو كلامًا لم يقصد معناه.

الثانية: تغيير الاسم لأجل ذلك.

الثالثة: اختيار أكبر الأبناء للكنية.



[٤٨] باب: من هزل بشيء فيه ذكر الله

أو القرآن أو الرسول

وقول الله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِإِلَهِهِ وَعِبَادِهِ وَرُسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [١٥] [التوبة].

عن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد بن أسلم وقتادة - دخل حديث بعضهم في بعض - أنه قال رجل في غزوة تبوك: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء - يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القراء - . فقال له عوف ابن مالك: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ. فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه. فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ - وقد ارتحل وركب ناقته -، فقال: يا رسول الله، إنما كنا نخوض، ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق.

قال ابن عمر رضي الله عنهما: كأي أنظر إليه متعلقاً بنسعة ناقة رسول الله ﷺ، وإن الحجارة تنكب رجليه، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب. فيقول له رسول الله ﷺ: «أبِإِلَهِهِ وَعِبَادِهِ وَرُسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ» [١٥] لَا تَعْدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ [التوبة]»، ما يلتفت إليه وما يزيده عليه» (١).

الشرح

■ قوله: «باب: من هزل بشيء فيه ذكر الله، أو القرآن، أو

الرسول: «أي فقد كفر.» وقول الله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ الآية: «

□ قال العماد ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في «تفسيره»: «قال أبو معشر المدني: عن محمد بن كعب القرظي وغيره قالوا: قال: رجل من المنافقين: ما أرى قراءنا هؤلاء إلا أرغبنا بطونا، وأكذبنا ألسنة، وأجبنا عند اللقاء. فرفع ذلك لرسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته؛ فقال: يا رسول الله ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، فقال: ﴿أَبِاللهِ وَإِيَّائِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ إلى قوله: ﴿مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة]، وإن رجليه لينسفان الحجارة، وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ، وهو متعلق بنسعة ناقة رسول الله ﷺ».

قوله: ﴿لَا تَعْدَرُوا فَدَّ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾: أي بهذا المقال الذي استهزأتم به، ﴿إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ نَعَذِّبْ طَائِفَةً﴾: أي لا يعفى عن جميعكم، ولا بد من عذاب بعضكم ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة» انتهى.

□ وقال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «وقد أمره الله تعالى أن يقول: ﴿فَدَّ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، وقول من يقول: إنهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولاً بقلوبهم = لا يصح؛ لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر، فلا يقال: ﴿فَدَّ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾؛ فإنهم لم يزالوا كافرين في نفس الأمر، وإن أريد: إنكم أظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان، فهم لم يظهروا للناس إلا لخواصهم، وهم مع خواصهم ما زالوا كذلك، ولا يدل اللفظ على أنهم ما زالوا منافقين» اهـ.

وفيه بيان أن الإنسان قد يكفر بكلمةٍ يتكلم بها، أو عمل يعمل به، وأشدّها خطرًا إرادات القلوب، فهي كالبحر الذي لا ساحل له، ومن هذا الباب الاستهزاء بالعلم وأهله، وعدم احترامهم لأجله.



فيه مسائل:

الأولى - وهي العظيمة - : أن من هزل بهذا أنه كافر.

الثانية: أن هذا هو تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائنًا من كان.

الثالثة: الفرق بين النميمة، وبين النصيحة لله ولرسوله.

الرابعة: الفرق بين العفو الذي يحبُّه الله، وبين الغلظة على أعداء الله.

الخامسة: أن من الاعتذار ما لا ينبغي أن يُقبل.



﴿٤٩﴾ باب: باب قول الله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْنَهُ رَحْمَةً﴾

مَنَا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ [فصلت]

□ قال مجاهد: «هذا بعلمي، وأنا محقق به».

□ وقال ابن عباس: «يريد: من عندي».

□ وقوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ [القصص: ٧٨].

□ قال قتادة: «على علم مني بوجوه المكاسب».

□ وقال آخرون: «على علم من الله أني له أهل».

□ وهذا معنى قول مجاهد: «أوتيته على شرف».

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى؛ أراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكاً، فأتى الأبرص، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لونٌ حسن، وجلدٌ حسن، ويذهب عني الذي قد قذرنى الناس به». قال: «فمسحه، فذهب عنه قذره، فأعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً. قال: فأبى المال أحب إليك؟ قال: الإبل أو البقر - شك إسحاق -، فأعطي ناقه عشاء، وقال: بارك الله لك فيها».

قال: «فأتى الأقرع، فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعرٌ حسن، ويذهب عني الذي قد قذرنى الناس به. فمسحه، فذهب عنه، وأعطي شعراً حسناً، فقال: أي المال أحب إليك؟ قال: البقر أو الإبل. فأعطي بقرة حاملاً، وقال: بارك الله لك فيها».

فأتى الأعمى، فقال: أيُّ شيء أحبُّ إليك؟ قال: أن يرُدَّ الله إليَّ بصري فأبصرَ به الناس. فمسحه، فردَّ الله إليه بصره، قال: فأني المال أحبُّ إليك؟ قال: الغنم، فأعطي شاةً والدًا.

فأنج هذان، وولّد هذا؛ فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم.

قال: «ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجلٌ مسكين؛ قد انقطعت بي الحال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك. أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال، بغيراً أتبلغ به في سفري. فقال: الحقوق كثيرة. فقال: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرُك الناس فقيراً، فأعطاك الله ﷻ المال؟ فقال: إنما ورثت هذا المالَ كابرًا عن كابر. فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأقرع في صورته، فقال له مثلما قال لهذا، ورد عليه مثلما رد عليه هذا. فقال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت.

قال: «وأتى الأعمى في صورته، فقال: رجلٌ مسكين وابن سبيل، قد انقطعت بي الحال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك. أسألك بالذي ردَّ عليك بصرك شاةً أتبلغ بها في سفري. فقال: قد كنت أعمى فردَّ الله إليَّ بصري، فخذ ما شئت، ودع ما شئت، فوالله لا أجهدُك اليوم بشيءٍ أخذته لله. فقال: أمسك مالك؛ فإنما ابتليتم؛ فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك». أخرجاه ^(١).

الشرح

■ قوله: «باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذَقْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا

مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسْتَه لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي ﴿﴾ الآية: ذكر المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى عن ابن عباس وغيره من المفسرين في هذه الآية ما يكفي ويشفي في المعنى:

■ قال: «قال مجاهد: هذا بعلمي وأنا محقوق به، وقال ابن عباس: يريد: من عندي».

■ وقوله: «﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ قال قتادة: ...» إلخ وليس ما ذكره اختلافاً، وإنما هو أفراد المعنى.

■ قوله: «وعن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: ((إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى، أراد الله أن يبتليهم؛ فبعث إليهم ملكاً...)) الحديث. وهذا حديث عظيم؛ يبين حال من كفر النعم، وحال من شكرها.

□ قال ابن القيم: «أصل الشكر هو الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له والذل والمحبة، فمن لم يعرف النعمة؛ بل كان جاهلاً بها لم يشكرها، ومن عرفها، ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها - أيضاً -، ومن عرف النعمة والمنعم، لكن جحدها كما يجحد المنكر لنعمة المنعم فقد كفرها، ومن عرف النعمة والمنعم وأقر بها ولم يجحدها، ولكن لم يخضع له، ويحبه ويرضى به وعنه لم يشكرها - أيضاً -، ومن عرفها وعرف المنعم بها، وأقر بها، وخضع للمنعم بها، وأحبه، ورضي عنه، واستعملها في محابه وطاعته = فهذا هو الشاكر لها، فلا بد في الشكر من علم القلب، وعمل يتبع العلم، وهو الميل إلى المنعم ومحبه والخضوع له» اهـ.

■ قوله: «قذرنى الناس به»: أي بكراهة رؤيته وقربه منهم.



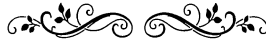
فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية .

الثانية: ما معنى: ﴿لَيَقُولَنَّ هَذَا لِى﴾؟

الثالثة: ما معنى قوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾؟

الرابعة: ما في هذه القصة العجيبة من العبر العظيمة .



﴿٥٠﴾ باب: قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَلَاحًا جَعَلَا

لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَلَّى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف]

□ قال ابن حزم: «اتفقوا على تحريم كل اسم معبدٍ لغير الله؛ كعبد عمرو، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك؛ حاشا عبد المطلب».

□ وعن ابن عباس في الآية قال: «لما تغشاها آدم حملت، فأتاها إبليس، فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة، لتطيعاني، أو لأجعلن له قرني أيل، فيخرج من بطنك فيشققه، ولأفعلن ولأفعلن - يخوفهما -، سمياه: عبد الحارث. فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتًا، ثم حملت، فأتاها، فقال مثل قوله، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتًا. ثم حملت فأتاها، فذكر لهما، فأدركما حبُّ الولد، فسَمياه: عبد الحارث؛ فذلك قوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠]». رواه ابن أبي حاتم^(١).

□ وله - بسندٍ صحيح - عن قتادة قال: «شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته».

□ وله - بسندٍ صحيح - عن مجاهدٍ في قوله: ﴿لَيْنَ ءَاتَيْنَا صَلَاحًا﴾، قال: «أشفقا ألا يكون إنسانًا».

وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما.

الشرح

■ قوله: «باب: قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَلَاحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ

(١) الله أعلم بصحة السند. وإن صح فهو من الإسرائيليات.

فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَتَعَلَّىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ [الأعراف]:

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في معنى هذه الآية: حدثنا عمر بن إبراهيم: حدثنا قتادة، عن الحسن، عن سمرة، عن النبي ﷺ قال: «لما ولدت حواء طاف بها إبليس - وكان لا يعيش لها ولد -، فقال: سمّيه عبد الحارث فإنه يعيش. فسمته عبد الحارث، فعاش، فكان ذلك من وحي الشيطان وأمره»^(١).

□ وقال ابن جرير: حدثنا ابن وكيع: حدثنا سهل بن يوسف، عن عمر، وعن الحسن: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠]؛ قال: «كان هذا في بعض الملل، ولم يكن بآدم».

□ وعن ابن عباس قال: «كانت حواء تلد لآدم ﷺ أولادًا؛ فتعبد لهم لله، وتسميه: عبد الله، وعبيد الله، ونحو ذلك؛ فيصيبهم الموت، فأتاها إبليس وآدم فقال: أما إنكما لو تسميانه به لعاش. فولدت رجلًا، فسمّياه عبد الحارث؛ ففيه أنزل الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ...﴾ إلى آخر الآية».

■ قوله: «قال ابن حزم»: هو عالم الأندلس، أبو محمد علي بن أحمد بن سعد بن حزم القرطبي الظاهري، صاحب التصانيف؛ توفي سنة ست وخمسين وأربعمئة؛ له اثنتان وسبعون سنة.

(١) ضعيف: رواه أحمد (١١/٥)، والترمذي (٣٠٧٧)، والطبري في «تفسيره» (١٤٦/٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٦٣١/٥)، والحاكم (٥٤٥/٢)، والطبراني في «الكبير» (٦٨٩٥)، والرويانى (٨١٦)، وابن بشران في «الأمالي» (٧٧٨)، وضعّفه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيق «المسند» (٣٠٥/٣٣).

■ قوله: «اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله؛ كعبد عمرو، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك؛ حاشا عبدالمطلب»:

قلت: وعبدالمطلب هذا جد رسول الله ﷺ، وهو ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، وما فوق عدنان مختلف فيه. ولا ريب أنهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليه السلام.

حكى رحمته الله اتفاق العلماء على تحريم كل ما عبّد لغير الله؛ لأنه شرك في الربوبية والإلهية؛ لأن الخلق كلهم ملك لله وعبيد له، استعبدتهم بعبادته وحده، وتوحيده في ربوبيته وإلهيته، فمنهم من عبّد الله وحده في ربوبيته وإلهيته، ومنهم من أشرك به في إلهيته، وأقر له بربوبيته وأسمائه وصفاته، وأحكامه القدريّة جارية عليهم ولا بد؛ كما قال الله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ١٣]؛ فهذه العبودية العامة، وأما العبودية الخاصة فإنها تختص بأهل الإخلاص والطاعة، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] ونحوها.

■ قوله: «حاشا عبد المطلب»: هذا استثناء من العموم؛ لأنه ليس المقصود منه عبودية الرّق، وإنما هو اسمٌ علّق به لما أتى به عمّه المطلب من عند أخواله بني النجار من المدينة وهو صبي، فرأته قريش حين جاء به، وقد تغيّر لونه من السفر؛ فقالوا: عبدالمطلب، ثم تبين لهم أنه ابن أخيه هاشم؛ فصارت العبودية في هذا الاسم لا حقيقة لها ولا قصد، لكن غلب عليه؛ فصار لا يسمّى إلا به، وإلا فاسمه في الأصل شَيْبَة، وقد صار عبد المطلب معظماً في قريش

والعرب؛ فهو سيد قریش، وأشرفهم في جاهليته، وهو الذي حفر زمزم، وما جرى له في حفرها مذكور في السير وكتب الحديث، وصارت السقاية له وفي ذريته.

□ قال شيخنا في معنى قوله: ﴿فَلَمَّا أَتَاهُمَا صَاحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا﴾ [الأعراف: ١٩٠]: «إن هذا الشرك بمجرد تسميته لم يقصدا حقيقته التي أرادها إبليس، وهذا يزيل الإشكال، وهذا معنى قول قتادة: شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته».



فيه مسائل:

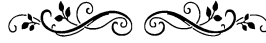
الأولى: تحريم كل اسم معبّد لغير الله .

الثانية: تفسير الآية .

الثالثة: أن هذا الشرك في مجرد تسمية لم تُقصد حقيقتها .

الرابعة: أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم .

الخامسة: ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة .



❦ [٥١] **باب: قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾** ❦

□ ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾: «يشركون».

□ وعنه: «سَمُّوا اللات من الإله، والعُزَّى من العزيز».

□ وعن الأعمش: «يُدخلون فيها ما ليس منها».

الشرح

■ قوله: «باب: قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا...﴾» الآية: أراد رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى بهذه الترجمة الردّ على من يتوسل بذوات الأموات، وأن المشروع هو التوسل بالأسماء والصفات والأعمال الصالحة.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا؛ مِنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ. وَهُوَ وَتَرٌ يَحِبُّ الْوَتَرَ»^(١). أخرجاه في الصحيحين من حديث سفيان.

وأخرجه الجرجاني عن صفوان بن صالح، عن الوليد بن مسلم، عن شعيب بسنده مثله، وزاد بعد قوله: «يحب الوتر»: «هو الله الذي لا إله إلا هو الرَّحْمَنُ، الرَّحِيمُ، الْمَلِكُ، الْقُدُّوسُ، السَّلَامُ، الْمُؤْمَنُ، الْمُهَيْمِنُ، الْعَزِيزُ، الْجَبَّارُ، الْمُتَكَبِّرُ، الْخَالِقُ، الْبَارِئُ، الْمَصُورُ، الْغَفَّارُ، الْقَهَّارُ، الْوَهَّابُ، الرَّزَّاقُ، الْفَتَّاحُ، الْعَلِيمُ، الْقَابِضُ، الْبَاسِطُ، الْخَافِضُ،

الرافع، المُعَزِّز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف،
 الخبير، الحليم، العظيم، الغفور، الشكور، العلي، الكبير، الحفيظ،
 المقيت، الحسيب، الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم،
 الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين،
 الولي، الحميد، المحصي، المبدئ، المعيد، المحيي، المميت، الحي،
 القيوم، الواحد، الأحد، الماجد، الفرد، الصمد، القادر، المقتدر،
 المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي،
 البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال
 والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المعطي، المانع، الضار،
 النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور»^(١).

□ ثم قال الترمذي: «ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء
 الحسنَى إلا في هذا الحديث، والذي عند بعض الحفاظ أن سرد
 الأسماء في هذا الحديث مدرج».

□ هذا ما ذكره العماد ابن كثير في «تفسيره»، ثم قال: «ليعلم
 أن الأسماء ليست منحصرةً في تسعة وتسعين؛ بدليل ما رواه أحمد،
 عن يزيد بن هارون، عن فضيل بن مرزوق، عن أبي سلمة الجهني،
 عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن عبد الله بن مسعود: أن

(١) ضعيف: رواه الترمذي (٣٥٠٧)، وابن جَبَّان (٨٠٨)، والحاكم (٦٢/١)،
 والبيهقي في «الشُّعْب» (١٠١)، وفي «الكبرى» (٢٧/١٠)، وفي «الاعتقاد»
 (١٩)، والطبراني في «الدعاء» (١١١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق»
 (١٣٩/٢٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وقال الإمام الترمذي: «ليس له
 إسنادٌ صحيح»، وضعَّفه الشيخ الألباني عند الترمذي، وكذا الشيخ شعيب
 الأرناؤوط ثمَّ (١١٥/٦).

النبي ﷺ قال: «ما أصاب أحدا قطُّ همٌّ ولا حزنٌ؛ فقال: اللهم إني عبدك، وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدلٌ فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علَّمته أحدا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وذهب حزني، وجلاء همي وغمي» إلا أذهب الله همَّه وحزنه، وأبدله مكانه فرحاً». فقيل: يا رسول الله، ألا نتعلمها؟ فقال: «بلى، ينبغي لمن سمعها أن يتعلمها»، وقد أخرجه أبو حاتم وابن حبان في صحيحه^(١).

□ وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يَلْحَدُونَ فِي أَصْنَانِهِ﴾

(١) حسن: رواه أحمد (٣٩١/١)، وابن أبي شيبة (٢٥٣/١٠)، وأبو يعلى (٥٢٩٧)، والشاشي (٢٨٢)، وابن حبان (٩٧٢)، والحاكم (٥٠٩/١)، والطبراني في «الكبير» (١٠٣٥٢)، وفي «الدعاء» (١٠٣٥)، والبزار (٣١٢٢ - زوائد)، وابن السني في «عمل اليوم» (٣٤٢)، والدينوري في «المجالسة» (١٨٠٩ - تهذيبي)، وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح على شرط مسلم، إن سلم من إرسال عبدالرحمن بن عبداللَّه، عن أبيه؛ فإنه مختلف في سماعه من أبيه»، فتعقبه الذهبي بقوله: «أبو سلمة لا يُدرى من هو، ولا رواية له في الكتب الستة». وذكره الإمام الهيثمي في «المجمع» (١٣٦/١٠)، وقال: «رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني والبزار، ورجال أحمد وأبي يعلى رجال الصحيح غير أبي سلمة الجهني، وقد وثقه ابن حبان». وصحَّحه الشيخ أحمد شاکر في تحقيق «المسند» (٢٦٧/٥)، وحسَّنه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٩٨)، والشيخ مشهور في «المجالسة» (١٤/٤)، بينما ضعَّفه الشيخ شعيب الأرناؤوط في «المسند» (٢٤٧/٦)، والشيخ حسين الداراني في تحقيق «مجمع الزوائد» (٢٩٠/٢٠).

[الأعراف: ١٨٠] قال: «يشركون».

□ وقال ابن أبي طلحة عن ابن عباس: «الإلحاد: التكذيب».

قلت: والشرك تكذيب من المشرك لما أنزله الله في كتابه وبعث به رسوله، كما جرى من قريش وغيرهم مع النبي ﷺ وأصحابه، وكما جرى من المشركين من هذه الأمة؛ فلم يأخذوا بالآيات المحكمات في تحريم الشرك والنهي عنه؛ بل كذبوا بالصدق، واعتمدوا على الكذب على الله وعلى كتابه ورسوله.

وأصل الإلحاد في كلام العرب: العدول عن القصد والميل.

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

وحقيقة الإلحاد فيها الميل بالإشراك والتعطيل والنكران وأسماء الرب تعالى كلها أسماء وأوصاف دلت على كماله جَلَّ وَعَلَا، والذي عليه أهل السنة والجماعة قاطبة - متقدمهم ومتأخرهم - إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه، ووصفه بها رسوله ﷺ على ما يليق بجلال الله وعظمته، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١١) [الشورى]، وأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات يُحتذى حذوه، فكما أنه يجب العلم بأن لله ذاتاً حقيقة لا تشبه شيئاً من ذوات المخلوقين، فله صفات حقيقة لا تشبه شيئاً من صفات المخلوقين، فمن جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله، أو تأوله على غير ما ظهر من معناه = فهو جهمي قد اتبع غير سبيل المؤمنين.

□ قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «فائدة جليلة: ما يجري صفة

أو خبرًا على الرب تعالى أقسام:

أحدها: ما يرجع إلى نفس الذات كقولك: ذات وموجود.

الثاني: ما يرجع إلى صفاتٍ منوعة؛ كالعليم والقدير، والسميع والبصير.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله؛ كالخالق والرازق.

الرابع: التنزيه المحض، ولا بد من تضمُّنه ثبوتًا؛ إذ لا كمال في العدم المحض، كالقدوس والسلام.

الخامس: ولم يذكره أكثر الناس، وهو الاسم الدال على جملة أوصاف عديدة، لا يختص بصفة معينة؛ بل دال على معانٍ؛ نحو: المجيد، العظيم، الصمد؛ فإن المجيد من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا، فإنه موضوع للسعة والكثرة والزيادة، فمنه: استمجد المَرْحُ والعَفَّار^(١)، وأمجد الناقة: علفها. ومنه: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [١٥] [البروج] صفة للعرش؛ لسعته وعظمته وشرفه.

وتأمل كيف جاء هذا الاسم^(٢) مقترنًا بطلب الصلاة من الله على رسوله كما عَلَّمَنَا ﷺ^(٣)؛ لأنه في مقام طلب المزيد، والتعرض لسعة العطاء وكثرته ودوامه، فأتى في هذا المطلوب باسم يقتضيه؛ كما تقول: «اغفر لي وارحمني؛ إنك أنت الغفور الرحيم»، فهو

(١) هذا من أمثال العرب، والمراد منه: الإكثار من العطاء طلبًا للمجد.

انظر: «مجمع الأمثال» للميداني (رقم: ٢٧٥٢).

(٢) يعني: المجيد.

(٣) يقصد: في تشهد الصلاة.

راجع إلى التوسل بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبّها إليه، ومنه الحديث الذي في المسند والترمذي: «أَلْظُّوا بـ: يا ذا الجلال والإكرام»^(١)، ومنه: «اللهم إني أسألك بأن لك الحمد؛ لا إله إلا أنت، المنان، بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام»^(٢)، فهذا سؤال له وتوسلٌ إليه بأسمائه وصفاته، فما أحقّ ذلك بالإجابة، وأعظمه موقعًا عند المسؤول، وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد.

السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدْرٌ زائد على مفرديهما؛ نحو: الغني الحميد، الغفور القدير، الحميد المجيد. وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القرآن؛ فإن الغنى صفة كمال، والحمد كذلك، واجتماع الغنى مع الحمد كمال آخر، فله ثناءٌ من غنائه، وثناءٌ من حمده، وثناء

- (١) صحيح: رواه أحمد (١٧٧/٤)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٢٨٠/٣)، والنسائي في «الكبرى» (١١٤٩٩)، والطبراني في «الكبير» (٤٥٩٤)، وفي «الدعاء» (٩٢)، والحاكم (٤٩٨/١)، والبيهقي في «الدعوات» (١٩٦)، وابن منده في «التوحيد» (٣٥٤)، والقضاعي (٦٩٣)، والرويانى (١٤٧٨)، وأبو نعيم في «معرفه الصحابة» (٢٧٦٠)، من حديث ربيعة بن عامر رضي الله عنه. وصحّحه الحاكم، ووافقه الذهبي، والشيخ شعيب الأرناؤوط في «المسند» (١٣٨/٢٩)، والشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٥٣٦).
- ورواه الترمذي (٣٥٢٥)، وأبو يعلى (٣٨٨٣)، والطبراني في «الدعاء» (٩٣)، وابن عدي في «الكامل» (٢٥٦١)، وابن أبي شيبة في «مسنده» - كما في «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٣٩٥/٣) -، من حديث أنس رضي الله عنه، وضعّفه الإمام الترمذي، بينما صحّحه الشيخ الألباني عنده، والشيخ شعيب الأرناؤوط ثم - أيضًا - (١٢٨/٦).
- (٢) صحيح: وقد تقدم.

من اجتماعهما، وكذلك الغفور القدير، والحميد المجيد، والعزیز
الحکیم؛ فتأمله؛ فإنه من أشرف المعارف».



فيه مسائل:

الأولى: إثبات الأسماء.

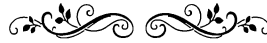
الثانية: كونها حسنى.

الثالثة: الأمر بدعائه بها.

الرابعة: ترك من عارض من الجاهلين الملحدين.

الخامسة: تفسير الإلحاد فيها.

السادسة: وعيد من ألد.



❦ [٥٢] باب: لا يقال: «السلام على الله» ❦

في «الصحيح» عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان وفلان؛ فقال النبي ﷺ: «لا تقولوا: السلام على الله؛ فإن الله هو السلام»^(١).

الشرح

■ قوله: «في الصحيح عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة قلنا: السلام على الله من عباده...» الحديث: هذا الحديث رواه البخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم عن ابن مسعود، وفي هذا الحديث النهي عن ذلك، وقد كان النبي ﷺ إذا انصرف من الصلاة المكتوبة استغفر ثلاثاً وقال: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام؛ تباركت يا ذا الجلال والإكرام»^(٢). وفي الحديث أن هذا هو تحية أهل الجنة لربهم ﷻ^(٣).

■ قوله: «فإن الله هو السلام»: أي: هو تعالى سأل من كل نقص، ومن كل تمثيل، فهو الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل عيب ونقص.

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) رواه مسلم (٥٩١)، من حديث ثوبان رضي الله عنه.

(٣) ضعيف: وورد في عدة أحاديث، فانظر: «مسند الإمام أحمد» (٢٣/

١٤٩)، و«ضعيف الجامع» (٩٤٨، ١٥٥٨)، و«الضعيفة» (١٥١٦).

□ قال في «البدائع»: «السلام اسم مصدر، وهو من ألفاظ الدعاء، يتضمن الإنشاء والإخبار، فجهة الخبرية فيه لا تُناقض الجهة الإنشائية، وهو معنى السلام المطلوب عند التحية، وفيه قولان مشهوران:

الأول: أن السلام هنا هو الله ﷻ، ومعنى السلام: نزلت بركته عليكم ونحو هذا، فاختر في هذا المعنى من أسمائه ﷻ اسم السلام دون غيره من الأسماء.

الثاني: أن السلام مصدر بمعنى السلامة، وهو المطلوب المدعو به عند التحية، ومن حجة أصحاب هذا القول أنه يأتي منكراً فيقول المسلم: «سلام عليكم»، ولو كان اسماً من أسماء الله لم يستعمل كذا. ومن حجتهم أنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى، وإنما المقصود منه الإيذان بالسلامة خبراً أو دعاء.

□ قال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «وفصل الخطاب أن يقال: الحق في مجموع القولين، فكلُّ منهما معه بعض الحق، والصواب في مجموعهما، وإنما يتبين ذلك بقاعدة؛ وهي أن حقَّ مَنْ دعا الله بأسمائه الحسنَى أن يتوسل في كل مطلب، ويسأل بالاسم المقتضي لذلك المطلوب المناسب لحصوله، حتى إن الداعي متشفعٌ إلى الله تعالى، متوسل به إليه، فإذا قال: «رب اغفر لي وتب عليّ؛ إنك التواب الغفور»، فقد سأل بأمرين، وتوسل إليه باسمين من أسمائه مقتضيين لحصول مطلوبه، فالمقام لما كان مقام طلب السلامة التي هي أهم عند الرجل، أتى في لفظها بصيغة اسم من أسماء الله، وهو «السلام» الذي تُطلب منه السلامة، وهو مقصود المسلم، فقد تضمن «سلام عليكم» اسماً من أسماء الله تعالى، وطلب السلامة منه، فتأمل هذه الفائدة.

وحقيقته: البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب، وعلى هذا المعنى تدور تصاريفه، فمن ذلك قولك: «سلمك الله»، ومن دعاء المؤمنين على الصراط: «اللهم سلّم سلم». ومنه: سلّم الشيء لفلان، أي: خلّص له وحده، كما قال تعالى: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ﴾ [الزمر: ٢٩]، أي خالصًا له وحده لا يملكه معه غيره، ومنه السّلم ضد الحرب؛ لأن كل واحد من المتحاربين يخلّص ويسلم من أذى الآخر، ولهذا بُني فيه على المفاعلة؛ فيقال: «المسالمة» مثل «المشاركة»، ومنه القلب السليم وهو النقي من الدغل والعيب، وحقيقته الذي قد سلّم لله وحده؛ فخلص من دغل الشرك وغله^(١) ودغل الذنوب والمخالفات، بل هو المستقيم على صدق حبه وحسن معاملته، وهذا هو الذي ضُمن له النجاة من عذابه والفوز بكرامته، ومنه أخذ «الإسلام» فإنه من هذه المادة؛ لأنه الاستسلام والانقياد له، والتخلص من شوائب الشرك، فسلم لربه، وخلص له، كالعبد الذي سلم لمولاه ليس له فيه شركاء متشاكسون، ولهذا ضرب سبحانه هذين المثليين للمسلم الخالص لربه، وللمشرك به.



(١) الدغل: الفساد. الغلُّ: القيد.

فيه مسائل:

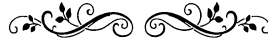
الأولى: تفسير السلام.

الثانية: أنه تحية.

الثالثة: أنها لا تصلح لله.

الرابعة: العلة في ذلك.

الخامسة: تعليمهم التحية التي تصلح لله.



❦ [٥٣] باب: قول: «اللهم اغفر لي إن شئت» ❦

في «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة؛ فإن الله لا مكرة له».

ولمسلم: «وليعظم الرغبة؛ فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه»^(١).

الشرح

■ قوله: «(لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت...)» الحديث: بخلاف العبد؛ فإنه قد يعطي السائل مسألته لحاجته إليه، أو لخوفه، أو رجائه؛ فيعطيه مسألته وهو كاره، فاللائق بالسائل للمخلوق أن يعلق حصول مسألته على مشيئة المسؤول؛ مخافة أن يعطيه وهو كاره، بخلاف رب العالمين؛ فإنه يعطي عبده ما أَرَادَهُ بفضلِهِ وكرمه وإحسانه، فالأدب مع الله ألا يعلق مسألته لربه بشيء لسعة فضله وإحسانه وجوده وكرمه، وفي الحديث: «ليعزم المسألة».

■ قوله: «ولمسلم: (وليعظم الرغبة)»: في سؤاله ربه حاجته؛ فإنه يعطي العظام كرمًا وجودًا وإحسانًا.

■ «فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه»: أي ليس ما أعطى عبده مما سألَه بعظيم عنده؛ لكمال فضله وجوده.

□ وقد قال بعض الشعراء في مخلوق يمدحه:

وَتَعْظُمُ فِي عَيْنِ الصَّغِيرِ صَغَارُهَا
وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ الْعَظِيمِ الْعِظَائِمُ
وَاللَّهُ تَعَالَى أَحَقُّ بِكُلِّ مَدْحَةٍ وَثَنَاءٍ.



فيه مسائل:

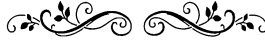
الأولى: النهي عن الاستثناء في الدعاء .

الثانية: بيان العلة في ذلك .

الثالثة: قوله : «ليعزم المسألة» .

الرابعة: إعظام الرغبة .

الخامسة: التعليل لهذا الأمر .



﴿٥٤﴾ باب: لا يقول: «عَبْدِي، وَأَمْتِي»

في «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقل أحدكم: أطمع ربك، وصي ربك؛ وليقل: سيدي ومولاي. ولا يقل أحدكم: عبدي وأمّتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلّامي»^(١).

الشرح

■ قوله: «في «الصحيح» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (لا يقل أحدكم: أطمع ربك...)) الحديث، هذه الألفاظ المنهي عنها - وإن كانت تطلق لغةً - فالنبي ﷺ نهى عنها تحقيقاً للتوحيد، وسدّاً لذرائع الشرك؛ لما فيها من التشريك في اللفظ؛ لأن الله هو رب العباد جميعهم، فإذا أُطلق على غيره ما يطلق عليه تعالى وقع الشبه في اللفظ، فينبغي أن يُجتنب هذا اللفظ في حق المخلوق من ذلك؛ فأرشدهم ﷺ إلى ما يقوم مقام هذا اللفظ؛ وهو قوله: «سيدي ومولاي».

■ وكذلك قوله: «لا يقل أحدكم: عبدي وأمّتي»؛ لأن العبيد عبيد الله، والإماء إماء الله. قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ١٣].



✍ فيه مسائل:

الأولى: النهي عن قول: «عبدني، وأمتي».

الثانية: لا يقول العبد: «ربي»، ولا يقال له: «أطعم ربك».

الثالثة: تعليم الأول قول: «فتاي، وفتاتي، وغلامي».

الرابعة: تعليم الثاني قول: «سيدي، ومولاي».

الخامسة: التنبيه للمراد، وهو تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ.



[٥٥] باب: لا يُردُّ من سأل بالله

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَأَلَ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافَتْوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تَكْفَتْوْنَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنْكُمْ قَدْ كَفَأْتُمُوهُ». رواه أبو داود والنسائي بسندٍ صحيح ^(١).

الشرح

ظاهر الحديث النهي عن رد السائل إذا سأل بالله، ويحتمل أن يكون المراد: فيما لا مشقة فيه على المسؤول ولا ضرر، فيكون من باب مكارم الأخلاق ومعالي الشيم، وربما كان السائل محتاجًا أو مضطرًا فيجب أن يعطى ما سأل، ويأثم المسؤول في منعه، فيؤخذ من ماله أضعاف ما منع على وجه يكرهه.

فباعتبار هذه الأمور ينبغي لمن أعطاه الله نعمة أن يؤدي حق الله فيها، ويعطي من سأل من فضول نعمة الله عليه؛ خصوصًا إذا سأل بالله تعالى؛ فيكون إعطاؤه تعظيمًا لمن سأل به؛ وهو الله تعالى.

■ قوله: «من استعاذ بالله فأعيذوه»: تعظيمًا لله تعالى، وتقربًا إليه بذلك.

■ قوله: «ومن دعاكم فأجيبوه»: هذا من حقوق المسلم على المسلم، ومن أسباب الألفة وسلامة الصدر وإكرام الداعي.

■ قوله: «ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه»: أي ينبغي المكافأة على المعروف، وهو من مكارم الأخلاق، وفيه السلامة من البخل وما يُذمُّ به.

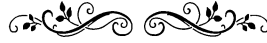
■ قوله: «فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له»: فيه أن الدعاء يقوم مقام المكافأة في حق من لم يجد ما يكافئ به.

■ قوله: «حتى تُرَوّأ» - بضم التاء -: أي تظنوا، وفي رواية أبي نَهِيك عن ابن عباس: «من سألكم بوجه الله فأعطوه».



فيه مسائل:

- الأولى: إعاذة من استعاذ بالله.
- الثانية: إعطاء من سأل بالله.
- الثالثة: إجابة الدعوة.
- الرابعة: المكافأة على الصنيعة.
- الخامسة: أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدر إلا عليه.
- السادسة: قوله: «حتى تروا أنكم قد كافأتموه».



❦ [٥٦] باب: لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة ❦

عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة». رواه أبو داود^(١).

الشرح

■ قوله: «باب: لا يسأل بوجه الله إلا الجنة»: ذكر فيه حديث جابر رواه أبو داود قال: قال رسول الله ﷺ «لا يسأل بوجه الله إلا الجنة».

وهنا سؤال، وهو أنه قد ورد في دعاء النبي ﷺ عند منصرفه من الطائف - حين كذبتة ثقيف - دعا بالدعاء المأثور: «اللهم أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي؛ إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني، أو إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن يحلّ عليّ غضبك، أو ينزل بي سخطك، لك العقبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بالله»^(٢).

(١) ضعيف: وقد تقدم.

(٢) حسن: رواه الطبراني في «الكبير» (٧٣/١٣)، وفي «الدعاء» (١٠٣٦)، والضياء في «المختارة» (١٨١/٩)، وابن عساكر في «التاريخ» (١٥١/٤٩)، والرافعي في «أخبار قزوين» (٨٣/٢)، وقوام السنة في «الحجة» (٥٤٢)، وابن عدي في «الكامل» (١١١/٦)، من حديث عبدالله بن جعفر رضي الله عنهما. وصححه الضياء - بإيراده في «المختارة» -، وقال الإمام الهيثمي في =

والحديث المروي في الأذكار: «اللهم أنت أحقُّ من دُكر، وأحقُّ من عُبد»، وفي آخره: «أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له السماوات والأرض»^(١)، ونحوه في الأحاديث المرفوعة. فيحتمل أن هذا فيما يكرهه العبد، لا فيما يحبه ويتمناه، ويحتمل غير هذا، والله أعلم.



= «المجمع» (٣٧/٦): «رواه الطبراني، وفيه ابن إسحاق - وهو مدلس ثقة -، وبقية رجاله ثقات»، وحسنه الشيخ عبدالرحمن قائد في تحقيقه لكتاب «الفوائد» للإمام ابن القيم (ص ١١٥ - ط: عالم الفوائد)، وكذا حسنه الشيخ حسين الداراني في تحقيق «المجمع» (٥٥/١٣)، بينما ضعفه الشيخ الألباني في «الضعيفة» (٢٩٣٣)، و«ضعيف الجامع» (١١٨٢).

(١) ضعيف: رواه الطبراني في «الكبير» (٢٦٤/٨)، وفي «الدعاء» (٣١٨)، من حديث أبي أمامة رضي الله عنه. وضعفه الإمام الهيثمي في «المجمع» (١٠/١٥٨)، والشيخ حسين الداراني في تحقيقه (٢٠٤/٢٠).

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن أن يُسأل بوجه الله إلا غاية المطالب.

الثانية: إثبات صفة الوجه.



﴿٥٧﴾ باب: ما جاء في «اللو»

وقول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا ههنا﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨].
في «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أنني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله، وما شاء فعل؛ فإن «لو» تفتح عمل الشيطان»^(١).

الشرح

■ قوله: «باب: في ما جاء في «اللو»: أي من الوعيد والنهي عنه عند الأمور المكروهة؛ كالمصائب إذا جرى بها القدر ونحوها.

■ قوله: «وقول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا ههنا﴾»: قاله بعض المنافقين يوم أحد لخوفهم وجزعهم وخورهم.

قال ابن إسحاق: فحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير قال: قال الزبير: «لقد رأيتني مع رسول الله ﷺ حين اشتد علينا الخوف، أرسل الله علينا النوم، فما منا رجل إلا ذقنه في صدره قال: فوالله إني لأسمع قول معتب بن قشير - ما أسمعه إلا كالحلم -: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا ههنا﴾ [آل عمران: ١٥٤]؛ فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله ﷻ: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا ههنا﴾

[آل عمران: ١٥٤] لقول معتب». رواه ابن أبي حاتم^(١).

□ وقال مجاهد عن جابر بن عبد الله: «نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبيي». يعني أنه هو الذي قال ذلك.

■ قوله: «في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز». الحديث: اختصر المصنف هذا الحديث وتمامه: «المؤمن القوي خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير...» إلى آخره.

■ قوله: «أحرص على ما ينفعك»: أي في دنياك وأخراك، وخص ما ينفع دون ما ليس كذلك مما فيه ضرر أو عدم نفع، وذلك لا يخرج عن الواجب والمستحب والمباح - إذا كان نافعا -.

■ قوله: «واستعن بالله»؛ لأنه لا يحصل له ذلك^(٢)، إلا إذا كان مستعينا بالله.

■ قوله: «ولا تعجز»: نهاه عن العجز؛ لأنه مما يُذم به عقلاً وشرعاً، فما أكثر ذلك في الناس! فكم فوت الإنسان على نفسه من الخير وهو يقدر عليه إذا رغب فيه واستعان بالله، ولا حول ولا قوة

(١) حسن: رواه ابن إسحاق في «المغازي» - كما في «الاستيعاب في بيان الأسباب» (٣١٦/١) -، والطبري في «تفسيره» (٩٤/٤)، والبزار في «مسنده» (٩٧٣)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦٢٠/٢)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٢٧٣/٣)، وأبو نعيم في «الدلائل» (٤٢١)، وإسحاق ابن راهويه في «مسنده» - كما في «تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (٢٣٣/١) -، والضياء في «الأحاديث المختارة» (٦١/٣)، وحسنه صاحب «الاستيعاب في بيان الأسباب» (٣١٦/١).

(٢) أي: منافع الدنيا والآخرة.

إلا بالله.

■ قوله: «وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا! ولكن قل: قَدَّرُ الله»: لأن ما قُدِّر يكون، فيجب الإيمان بالقدر والتسليم، وأرشده إلى أن يقول: «قَدَّرُ الله» أي: هذا قدر الله، والمبتدأ محذوف وتقديره «هذا قدر الله».

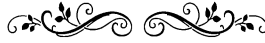
■ «وما شاء فعل»: لأن أفعاله تعالى إنما تصدر عن حكمة وعلم وفضل وعدل، ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف].

■ قوله: «فإن «لو» تفتح عمل الشيطان»: أي لما فيها من التأسف على ما فات والحزن؛ فيأثم في ذلك؛ وذلك من عمل الشيطان.



فيه مسائل:

- الأولى: تفسير الآيتين في آل عمران.
- الثانية: النهي الصريح عن قول: «لو» إذا أصابك شيء.
- الثالثة: تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان.
- الرابعة: الإرشاد إلى الكلام الحسن.
- الخامسة: الأمر بالحرص على ما ينفع، مع الاستعانة بالله.
- السادسة: النهي عن ضد ذلك، وهو العجز.



[٥٨] باب: النهي عن سب الرياح

عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا الرياح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الرياح، وخير ما فيها، وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الرياح، وشر ما فيها، وشر ما أمرت به». صححه الترمذي ^(١).

الشرح

■ قوله: «عن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال: «لا تسبوا الرياح...» الحديث: لأن الرياح خلق من خلق الله مدبر، وإنما تهب بمشيئة الله وقدرته، فيرجع السب إلى من خلقها وسخرها، وأرشد النبي ﷺ أمته إلى أن يقولوا ما ذكر في الحديث، وهو سؤاله تعالى خيرها وخير ما فيها، والاستعاذة به من شرها وشر ما فيها، وقد شرع الله لعباده أن يسألوه ما ينفعهم، ويستعيذوا به من شر ما يضرهم، وأن يكون ذلك منهم عبودية لله وحده، وطاعة له وإيماناً به، وهذه حال أهل التوحيد والإيمان؛ خلافاً لحال أهل الشرك والبدع.



فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الرياح.

الثانية: الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره.

الثالثة: الإرشاد إلى أنها مأمورة.

الرابعة: أنها قد تؤمر بخير، وقد تؤمر بشر.



﴿٥٩﴾ **باب: قول الله تعالى:** ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران]

وقوله: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السَّوِّ عَلَى دَائِرَةِ السَّوِّ﴾ [الفتح: ٦].

□ قال ابن القيم في الآية الأولى: فُسِّرَ هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل. وفُسِّرَ بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته؛ ففُسِّرَ بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يَتَمَّ أمرُ رسوله، وأن يظهره الله على الدين كله؛ وهذا هو ظن السوء الذي ظن المنافقون والمشركون في سورة الفتح. وإنما كان هذا ظنَّ السوء؛ لأنه ظنُّ غير ما يليق به سبحانه، وما يليق بحكمته وحمده ووعدده الصادق.

فمن ظن أنه يُدِيلُ الباطلَ على الحقِّ إدالةً مستقرةً يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قَدَرَهُ لحكمةٍ بالغةٍ يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيةٍ مجردة = فذلك ظن الذين كفروا، ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [ص]. وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم، وفيما يفعله غيرهم، ولا يَسْلَمُ من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته، وموجَبَ حكمته وحمده.

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله، وليستغفره من ظنه بربه ظن السوء. ولو فتشت مَنْ فتشت لرأيت عنده تعنتاً على القَدَرِ وملامةً له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا؛ فمستقلُّ

ومستكثر. وفتش نفسك: هل أنت سالم؟

فإن تنج منها تنج من ذي عزيمة وإلا فإني لا إخالك ناجيا

الشرح

■ قوله: «باب: قول الله تعالى: ﴿يَطْنُونَ بِاللَّهِ عَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾، وهذه الآية ذكرها الله تعالى في سياق قوله: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنَةً نُعَاسًا يَفْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ﴾: يعني: أهل الإيمان والثبات والتوكل الصادق، وهم الجازمون بأن الله تعالى ينصر رسوله ﷺ وينجز مأموله، ولهذا قال: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾؛ يعني لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف، ﴿يَطْنُونَ بِاللَّهِ عَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، كما قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْفَلِبَ الرُّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢]، وهكذا هؤلاء اعتقدوا أن المشركين لما ظهروا تلك الساعة ظنوا أنها الفيصلة، وأن الإسلام قد باد وأهله، وهذا شأن أهل الريب والشك؛ إذا حصل أمر من الأمور تحصل لهم هذه الأمور الشنيعة.

□ قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وقد فُسر هذا الظن الذي لا يليق بالله سبحانه: بأنه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل. وفسر بظنهم أن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته، ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمرُ رسوله، وأن يُظهره على الدين كله؛ هذا هو ظن السوء، ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ١٦].»

■ قوله: «(الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّكَ السَّوْءُ)»:

□ قال ابن جرير في «تفسيره»: «(وَيَعَذِّبُ الْمُتَفَقِينَ وَالْمُتَفَقِتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَةِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّكَ السَّوْءُ)»: أي الظالمين بالله أن لن ينصرك وأهل الإيمان بك على أعدائك، وأن يُظهر كلمته فيجعلها العليا على كلمة الكافرين به؛ وذلك كان السوء من ظنونهم التي ذكرها الله في هذا الموضع.

□ وقال ابن كثير: «(وَيَعَذِّبُ الْمُتَفَقِينَ وَالْمُتَفَقِتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَةِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّكَ السَّوْءُ)» أي: يتهمون الله ﷻ في حكمه، ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه أن يُقتلوا ويذهبوا بالكلية؛ ولهذا قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾.

■ «وهذا الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنما كان هذا ظن السوء؛ لأنه ظنٌ غير ما يليق به سبحانه، وما يليق بحكمه وحمده ووعد الصادق. فمن ظن أنه يدلل الباطل على الحق إدالةً مستقرةً يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدره لحكمةٍ بالغة يستحق عليها الحمد؛ بل زعم أن ذلك لمشية مجردة = فذلك ظن الذين كفروا ﴿قَوْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (٢٧) [ص].»



فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران.

الثانية: تفسير آية الفتح.

الثالثة: الإخبار بأن ذلك أنواعٌ لا تُحصَر.

الرابعة: أنه لا يَسْلَمُ من ذلك إلا من عَرَفَ الأسماء والصفات،
وعرف نفسه.



[٦٠] باب: ما جاء في منكري القدر

□ وقال ابن عمر: «والذي نفس ابن عمر بيده لو كان لأحدهم مثلُ أُحُدٍ ذهبًا، ثم أنفقه في سبيل الله، ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر».

ثم استدل بقول النبي ﷺ: «الإيمانُ أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره». رواه مسلم^(١).

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه قال لابنه: يا بني، إنك لن تجدَ طعمَ الإيمان حتى تعلمَ أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ أولَ ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. فقال: ربِّ، وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقاديرَ كل شيءٍ حتى تقوم الساعة». يا بني، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ مات على غير هذا فليس مني».

وفي روايةٍ لأحمد: «إن أولَ ما خلق الله تعالى القلم، فقال له: اكتب. فجرى في تلك الساعة بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة»^(٢).

وفي رواية لابن وهب قال رسول الله ﷺ: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره، أحرَّقه الله بالنار»^(٣).

وفي «المسند» و«السنن» عن ابن الديلمي قال: أتيت أبي بن كعب، فقلت: في نفسي شيءٌ من القدر، فحدَّثني بشيءٍ؛ لعلَّ الله

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) حسن: وقد تقدم.

يُذهبه من قلبي. فقال: «لو أنفقتَ مثلَ أُحَدٍ ذهبًا ما قَبِلَه اللهُ منك حتى تؤمنَ بالقَدَر، وتعلمَ أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو متَّ على غير هذا لكنت من أهل النار».

قال: فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت؛ فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ. حديث صحيح. رواه الحاكم في «صحيحه»^(١).

الشرح

■ قوله: «باب: ما جاء في منكري القدر»: أي من الوعيد.

■ قوله: «قال ابن عمر: والذي نفس ابن عمر بيده...»: حديث ابن عمر هذا أخرجه مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه. عن يحيى بن يعمر قال: «كان أول من تكلم في القدر بالبصرة معبدُ الجهني، فانطلقت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حاجين أو معتمرين؛ فقلنا: لو لقينا أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر! فوفق الله لنا عبد الله بن عمر داخلًا المسجد، فاكتنفته^(٢) أنا وصاحبي، فظننت أن صاحبي سيكلُ الكلام إليّ، فقلت: أبا عبد الرحمن، إنه ظهر قِبَلنا أناس يقرءون القرآن، ويتقفرون^(٣) العلم؛ يزعمون ألا قدر، وأن الأمر أنف^(٤)، فقال: إذا لقيت أولئك فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برآء مني،

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) اكتنفته: أحاطت به.

(٣) يتقفرون: ينقبون عنه.

(٤) أي: لم يسبق به قدر.

والذي يحلفُ به عبدُ الله بن عمر لو أن لأحدهم مثلَ أُحُدٍ ذهبًا فأنفقه ما قبَلَه الله منه حتى يؤمن بالقدر، ثم قال: حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ؛ إذ طلع علينا رجلٌ شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يُرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحدٌ؛ حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، ثم قال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام، قال: «الإسلام أن تشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلًا». قال: صدقت. فعجبنا له؛ يسأله ويصدقه! قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره». قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: «ما المسؤول عنها بأعلم من السائل». قال: فأخبرني عن أماراتها؟ قال: «أن تلد الأمة ربَّتَها، وأن ترى الحفاة العراة العالة رعاء الشاء يتطاولون في البنيان». قال: فانطلق، فلبثنا مليًّا، ثم قال: «يا عمر، أتدري من السائل؟»، قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «إنه جبريل أتاكم يعلمكم أمر دينكم».

■ قوله: «عن عبادة بن الصامت...»: حديثه هذا رواه أبو داود، ورواه الإمام أحمد بكماله؛ قال: حدثنا الحسن بن سَوَّار، حدثنا ليث، عن معاوية، عن أيوب بن زياد، حدثني عبادة بن الوليد بن عبادة، حدثني أبي قال: دخلتُ على عبادة وهو مريض أتخايلُ فيه الموت، فقلت: يا أبتاه، أوصني واجتهد لي، قال: أجلسوني. ثم

قال: يا بني، إنك لن تجد طعم الإيمان، ولن تبلغ حقيقة العلم حتى تؤمن بالقدر خيره وشره، قلت: يا أبتاه، وكيف أعلم ما خيرُ القدر وشرُّه؟ قال: أن تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك. يا بني، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. فجرى في تلك الساعة بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة». يا بني، إن متَّ ولست على ذلك دخلت النار. ورواه الترمذي بسنده المتصل إلى عطاء بن أبي رباح.

وفي هذا الحديث بيان شمول علم الله، وإحاطته بما كان ويكون، كما في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] الآية، والآيات في إثبات القدر كثيرة، وقد استدلل العلماء على ثبات القدر بشمول القدرة والعلم كما في الآية.

□ قال الإمام أحمد: «القدر: قُدرة الرَّحْمَن».

□ وقال بعض الأئمة في نفاة القدر: «ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خُصموا، وإن جحدوه كفروا».

■ قوله: «وفي المسند والسنن عن ابن الديلمي»: أبو بُسر - بالسين المهملة والباء المضمومة -، ويقال: أبو بشر «بالشين المعجمة وكسر الباء -، وبعضهم صحح الأول، واسمه عبد الله بن أبي فيروز، ولفظ أبي داود قال: «لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيراً لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن

ليصيبك، ولو متَّ على غير هذا لكنت من أهل النار». فأُتيت عبد الله ابن مسعود، فقال مثل ذلك، ثم أُتيت حذيفة بن اليمان، فقال مثل ذلك، قال: ثم أُتيت زيد بن ثابت، قال: فحدثني عن النبي ﷺ مثل ذلك. وأخرجه ابن ماجه.

وهذه الأحاديث - وما في معناها - حجةٌ على نفاة القدر من المعتزلة وغيرهم، ومن مذهبهم تخليد أهل المعاصي في النار، وهذا الذي اعتقدوه من أكبر الكبائر وأعظم البدع، وكثيرٌ منهم وافقوا الجهمية في نفي صفات الرب - تعالى وتقدس -.



فيه مسائل:

الأولى: بيان فرض الإيمان بالقدر.

الثانية: بيان كيفية الإيمان به.

الثالثة: إحباط عمل من لم يؤمن به.

الرابعة: الإخبار أن أحدًا لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به.

الخامسة: ذكر أول ما خلق الله.

السادسة: أنه جرى بالمقادير في تلك الساعة إلى قيام الساعة.

السابعة: براءته ﷺ ممن لم يؤمن به.

الثامنة: عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء.

التاسعة: أن العلماء أجابوه بما يُزيل شبهته؛ وذلك أنهم نسبوا

الكلام إلى رسول الله ﷺ فقط.



باب: ما جاء في المصوّرين

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي! فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً». أخرجاه ^(١).

ولهما عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «أشدُّ الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاھئون بخلق الله» ^(٢).

ولهما عن ابن عباس رضي الله عنهما: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كُلُّ مصوِّرٍ في النار، يُجعل له بكل صورةٍ صوْرَها نفسٌ يُعَذَّبُ بها في جهنم» ^(٣).

ولهما عنه مرفوعًا: «مَنْ صَوَّرَ صورةً في الدنيا، كُفِّ أن يَنْفَخَ فيها الروح، وليس بنافخ» ^(٤).

ولمسلم عن أبي الهيثاج قال: قال لي عليٌّ: أَلَا أبعثُك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ «أَلَا تَدَعُ صورةً إلا طمستها، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويتَه» ^(٥).

الشرح

■ قوله: «باب: ما جاء في المصوِّرين»: أي من الوعيد، وقد

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) صحيح: وقد تقدم.

(٤) صحيح: وقد تقدم.

(٥) صحيح: وقد تقدم.

ذكر النبي ﷺ العلة، وهي المضاهاة بخلق الله؛ لأن الله تعالى له الخلق والأمر، فلا يجوز أن يشبه بشيء من خلقه سبحانه لما فيه من المضاهاة بخلق الله.

■ قوله: «ولمسلم عن أبي الهياج»: أبو الهياج هو الأسدي حيان ابن حصين. و«علي» هو أمير المؤمنين.

■ قوله: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ (ألا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته)»: فهذا ما صح عن النبي ﷺ من إنكار هذه الأمور وإزالتها: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٢]؛ فأكثروا التصوير واستعملوه، وأكثروا البناء على القبور وزخرفوها، وجعلوها أوثاناً، وزعموه ديناً، وهو أعظم المنكرات، وأكبر السيئات، تعظيماً للأموات وغُلُوًّا، وعبادةً لغير الله بأنواع العبادة التي هي حق الله على عباده.

□ قال العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «ومن جمع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور وما نهى عنه، وما كان عليه أصحابه، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم = رأى أحدهم مضاداً للآخر مناقضاً له؛ بحيث لا يجتمعان أبداً».



فيه مسائل:

الأولى: التغليظ الشديد في المصوّرين.

الثانية: التنبيه على العلة، وهو ترك الأدب مع الله، لقوله: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي!».

الثالثة: التنبيه على قدرته وعجزهم؛ لقوله: «فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً أَوْ حَبَّةً أَوْ شَعِيرَةً».

الرابعة: التصريح بأنهم أشد الناس عذابًا.

الخامسة: أن الله يخلق بعدد كل صورة نفسًا يعذب بها المصوّر في جهنم.

السادسة: أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح.

السابعة: الأمر بطمسها إذا وجدت.



❦ [٦٢] باب: ما جاء في كثرة الحلف ❦

وقول الله تعالى: ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلفُ مَنَفَقَةٌ لِلسَّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ». أخرجه ^(١).

وعن سلمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ، وَلَا يَزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: أَشِيمُطُ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللَّهُ بَضَاعَتَهُ: لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ». رواه الطبراني بسندٍ صحيح ^(٢).

وفي «الصحيح» عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ - قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً؟ -، ثُمَّ إِنْ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلَا يُؤَفَّقُونَ، وَيُظْهَرُ فِيهِمُ السَّمَنُ» ^(٣).

وفيه عن ابن مسعود رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ. ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتُهُ» ^(٤).

□ وقال إبراهيم: «كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار».

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) صحيح: وقد تقدم.

(٤) صحيح: وقد تقدم.

الشرح

■ قوله: «باب: ما جاء في كثرة الحلف»: أي من النهي عنه والوعيد.

■ قوله: «وقول الله تعالى: ﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾»:

□ قال ابن جرير: «أي: لا تتركوها بغير تكفير».

□ وذكر غيره عن ابن عباس: «يريد: لا تحلفوا».

□ وقال آخرون: «﴿وَأَحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾» عن الحنث، فلا تحنثوا».

والمعنى يعم القولين.

■ قوله: «عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلف مَنَفَقَةٌ للسلعة، مَحَقَةٌ للكسب». أخرجاه»: أي: البخاري ومسلم. وخرجه أبو داود، والنسائي.

والمعنى: أنه قد يحلف على ثمن السلعة بزيادة على ما اشترت به، أو سُميت به، فيأخذها المشتري لظنه أنه صدق. وهذا وإن كان فيه زيادة فهو يمحق البركة، كما جاء في الحديث، والواقع يشهد بصحته؛ فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته، وإن تزخرت الدنيا للعاصي فعاقبتها اضمحلال وذهاب.

■ قوله: «وعن سلمان»: وسلمان لعله سلمان الفارسي أبو عبد الله، أسلم مَقْدَمَ النبي ﷺ المدينة، وشهد الخندق، روى عنه أبو عثمان النهدي، وشرحبيل بن السمط وغيرهما، قال النبي ﷺ: «سلمان مَنَّا أهل البيت»^(١)، «إن الله يحبُّ من أصحابي أربعة: عليًّا، وأبا

(١) ضعيف جدًا: رواه الطبراني في «الكبير» (٢١٣/٦)، والحاكم (٦٩١/٣)، =

ذر، وسلمان، والمقداد»^(١). أخرجه الترمذي. تُوفِّي سلمان في خلافة عثمان، ويحتمل أنه سلمان بن عامر بن أوس الضبي.

■ قوله: «لا يكلمهم الله»: هذا وعيد شديد في حقهم؛ لأنه قد تواتر أنه يكلم أهل الإيمان ويكلمونه في عرصات القيامة، والأدلة على ذلك في الكتاب والسنة أظهر شيء وأبينه، وفيه الرد على الجهمية والأشاعرة نفاة الكلام.

■ قوله: «ولا يزكيهم، ولهم عذابٌ أليم»: هذا من تمام العقوبة عليهم، وفي هذا الوعيد الشديد ما يزجر من له عقل عن هذه الأعمال السيئة ونحوها.

= والبيهقي في «الدلائل» (٤١٨/٣)، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (١/٨٠)، وفي «المعرفة» (٣٣٤٧)، وأبو الشيخ في «طبقات المحدثين» (٢٠٥/١)، من حديث عمرو بن عوف المزني رضي الله عنه. وسكت عليه الحاكم، وضعفه الذهبي، وضعفه الإمام الهيثمي في «المجمع» (١٨٩/٦)، والشيخ حسين الداراني في تحقيقه (٢٩١/١٣)، وضعفه جدًّا الشيخ الألباني في «الضعيفة» (٣٧٠٤)، وفي «ضعيف الجامع» (٣٢٧٢).

(١) ضعيف: رواه أحمد (٣٥١/٥)، وفي «الفضائل» (١١٨١)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٣١/٩)، والترمذي (٣٧١٨)، وابن ماجه (١٤٩)، والطبري في «تاريخ الأمم والملوك» (٥٥١/١١)، والحاكم (١٣٠/٣)، وأبو نعيم في «الحلية» (١٧٢/١)، وابن عساكر (٤٠٩/٧)، وابن الأثير في «أسد الغابة» (٢٥٣/٥)، والمزي في «تهذيب الكمال» (٣٠٦/٣٣)، من حديث بريدة رضي الله عنه. وصحَّحه الحاكم على شرط مسلم، فتعقبه الذهبي بأن أحد رواه لم يرو له مسلم وضعفه الشيخ الألباني عند الترمذي، وفي «ضعيف الجامع» (١٧٢٤)، والشيخ شعيب الأرناؤوط في «المسند» (٦٨/٣٨).

■ قوله: «أشيمط زان»: صغره تحقيرًا له؛ وذلك لأن داعي المعصية ضَعُف في حقه، فدل على أن الحامل له على الزنا محبته المعصية والفجور، وعدم خشيته لله. وكذلك العائل المستكبر ليس له ما يحمله على الكِبَر، فدل على أنه خُلِقَ له؛ فعظمت العقوبة في حقه لعدم الداعي إلى هذا الخلق الذميمة الذي هو من أكبر المعاصي.

■ قوله: «ورجل جعل الله بضاعته»: بنصب الاسم الشريف يعني: اليمين بالله ﷻ جعله بضاعةً له لكثرة استعماله.

■ قوله: «وفي الصحيح»: أي صحيح مسلم. وخرجه أبو داود، والترمذي. ورواه البخاري بلفظ: «خيركم».

■ قوله: «خير أمتي قرني»: لكثرة الخير فيهم وقلة الشر، وشدة الإنكار على من خالف الحق وابتدع؛ كالخوارج والقدرية والجهمية ونحوهم.

■ «ثم الذين يلونهم»: فُضِّلوا على من بعدهم لظهور الإسلام فيهم، وكثرة العلم والعلماء، وأما القرن الثالث فظهرت فيهم البدع؛ لكن أنكرها العلماء، وتصدى كثيرٌ منهم لإنكارها والرد على من قالها، وهم كثيرون.

■ قوله: «فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً»: هذا شك من راوي الحديث عمران بن حصين، ثم ذكر ما وقع بعد الثلاثة من الجفاء في الدين وكثرة الأهواء:

■ فقال: «ثم إن بعدكم قومًا يشهدون ولا يستشهدون»: لاستخفافهم بأمر الشهادة، وعدم تحريرهم الصدق، وكذلك لقلة دينهم وضعف إسلامهم.

■ قوله: «ويخونون ولا يؤتمنون»: يدل على أن الخيانة قد غلبت على كثير منهم أو أكثرهم.

■ قوله: «وينذرون ولا يؤفون»: أي: لا يؤدّون ما وجب عليهم، فظهور هذه الأعمال الذميمة يدل على ضعف إسلامهم، وعدم إيمانهم.

■ قوله: «ويظهر فيهم السّمَن»: لرغبتهم في الدنيا وشهواتها، وقلة الإيمان باليوم الآخر.

وفي حديث أنس: «لا يأتي على الناس زمانٌ إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم». قال أنس: سمعته من نبيكم ﷺ^(١).

فما زال الشر يزيد في الأمة حتى ظهر الشرك والبدع في كثير منهم، حتى فيمن انتسب إلى العلم، ويتصدر للتعليم والتصنيف، فحدث التفرُّق والاختلاف في الدين، وحدث الغلو في أهل البيت من بني بُويه^(٢) في المشرق لما كان لهم دولة، وبتوا المساجد على القبور، وغلّوا في أربابها، وظهرت دولة القرامطة، وظهر فيهم الكفر والإلحاد في شرائع الدين، ومذهبهم معروف، وظهر فيهم من البدع ما يطول عدّه، وكثر الاختلاف والخوض في أصول الدين، وما زال أهل السنة على الحق، ولكن كثرت البدع والأهواء حتى عاد المعروف منكراً والمنكر معروفاً، نشأ على هذا الصغير، وهَرَمَ عليه الكبير.

■ قوله: «وفيه عن ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) وهم روافض.

ثم الذين يلونهم...» الحديث: في هذا الحديث أن خير القرون ثلاثة من غير شك.

■ قوله: «ثم يجيء قوم...»: إلخ؛ وذلك لضعف الإيمان، والرغبة في الدنيا، وأخذها بالقلوب، وكثرة المعاصي والذنوب.

■ قوله: «وقال إبراهيم: كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار»: هكذا حال السلف الصالح؛ محافظةً منهم على الدين الذي أكرمهم الله به، فلا يتركون شيئاً مما يُكره إلا أنكروه، وفيه تمرينُ الصغار على دينهم بالتعليم.



فيه مسائل:

الأولى: الوصية بحفظ الأيمان.

الثانية: الإخبار بأن الحلف منفقٌ للسلعة، ممحقةٌ للبركة.

الثالثة: الوعيد الشديد فيمن لا يبيع ولا يشتري إلا بيمينه.

الرابعة: التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعي.

الخامسة: ذم الذين يحلفون ولا يُستحلفون.

السادسة: ثناؤه ﷺ على القرون الثلاثة - أو الأربعة -، وذكر ما

يحدث بعدهم.

السابعة: ذمُّ الذين يشهدون ولا يستشهدون.

الثامنة: كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد.



﴿٦٣﴾ باب: ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه ﷺ [١١]

وقوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [النحل].

وعن بُريدة رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا أَمَرَ أميراً على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله، وَمَنْ معه من المسلمين خيراً؛ فقال: «اغزوا بسم الله في سبيل الله. قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ. اغزُوا، وَلَا تَغْلُوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا. وإذا لقيتَ عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال - أو خلال -، فأَيَّتَهُنَّ ما أجابوك فاقبل منهم، وكُفَّ عنهم. ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم. ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين. فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين؛ يجري عليهم حكم الله تعالى، ولا يكون لهم في الغنمة والفِيء شيء؛ إلا أن يجاهدوا مع المسلمين. فإن هم أبوا فاسألهم الجزية. فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم. فإن هم أبوا فاستعين بالله وقَاتِلْهُمْ.

وإذا حاصرتَ أهلَ حصن، فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك؛ فإنكم أن تُخَفِّرُوا ذمَّكم وذمة أصحابكم أهونُ من أن تُخَفِّرُوا ذمة الله وذمة نبيه.

وإذا حاصرتَ أهلَ حصن، فأرادوك أن تُنْزِلَهم على حكم الله فلا تنزلهم، ولكن أنزلهم على حُكمك؛ فإنك لا تدري أتصيبُ فيهم حكمَ

الله أم لا؟». رواه مسلم^(١).

الشرح

■ قوله: «باب: ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه. وقول الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ الآية:

□ قال العماد ابن كثير: «وهذا مما يأمر الله تعالى به، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق، والمحافظة على الأيمان، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾».

■ قوله: «﴿وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾»: هذه الأيمان المراد بها الداخلة في العهود والمواثيق، لا الأيمان الواردة على حثٍّ أو منع.

■ قوله: «﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾»: تهديد ووعيد.

■ قوله: عن «بريدة»: هو ابن الحُصَيْب الأسلمي، وهذا الحديث من رواية ابنه سلمان عنه.

■ قوله: «كان رسول الله ﷺ إذا أَمَرَ أميرًا على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله تعالى»: فيه من الفقه تأميرُ الأمراء ووصيتهم. □ قال الحربي: «السرية: الخيل تبلغ أربعمئة ونحوها، والجيش: ما كان أكثر من ذلك».

و«تقوى الله»: التحرز من عقوبته بطاعته.

■ قوله: «ومن معه من المسلمين خيرًا»: أي ووصاه بمن معه أن يفعل معهم خيرًا من الرفق بهم، والإحسان إليهم، وخفض الجناح

(١) صحيح: وقد تقدم.

لهم، وترك التعاضم عليهم.

■ قوله: «اغزوا باسم الله»: أي اشرعوا في الغزو مستعينين بالله مخلصين له، فتكون الباء في «بسم الله» للاستعانة بالله والتوكل عليه هنا.

■ قوله: «قاتلوا من كفر بالله»: هذا العموم يشمل جميع أهل الكفر المحاربين من أهل الكتاب وغيرهم، واستثني منهم من له عهد، وكذلك الذراري والأولاد والنساء والرهبان فلا يُقتلون.

■ قوله: «ولا تَغْلُوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا»:

«الغلول»: الأخذ من الغنيمة من غير قسمتها. قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١].

و«الغدر»: نقض العهد.

و«التمثيل» هنا: التشويه بالقتل، كقطع أنفه وأذنه والعبث به.

■ قوله: «وإذا لقيت عدوك من المشركين؛ فادعهم إلى ثلاث خلال - أو خصال -»: الرواية بـ«أو» التي هي للشك، والمعنى واحد.

■ قوله: «فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم»: منصوب بـ«أجابوا».

■ قوله: «ثم ادعهم إلى الإسلام»: كذا وقعت الرواية في جميع نسخ كتاب مسلم: «ثم ادعهم»، بزيادة «ثم».

■ قوله: «ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين»: يعني المدينة إذ ذاك، وهذا يدل على أن الهجرة واجبة على كل من آمن وهو في بلد الشرك، وكذلك إذا ظهرت المعاصي في بلده، نص عليه الفقهاء في كتبهم.

■ قوله: «فإن هم أبوا أن يتحولوا منها»: يعني أن من أسلم ولم يجاهد ولم يهاجر من البداوة = لم يُعطَ من الخمس ولا من الفياء شيء.

■ قوله: «فإن هم أبوا فاسألهم الجزية»: فيه حجةٌ لمالك وأصحابه والأوزاعي في أخذ الجزية من كل كافر عربيًّا كان أو غيره، كتابيًّا كان أو غيره.

وقد اختلف في القدر المفروض من الجزية:

- فقال مالك: أربعة دنانير على أهل الذهب، وأربعون درهماً على أهل الورق.

- وقال الشافعي: دينار على الغني والفقير.

- وقال أبو حنيفة: على الغني ثمانية وأربعون درهماً، والوسط أربعة وعشرون درهماً، والفقير اثنا عشر درهماً، وهو قول أحمد ابن حنبل.

وعند مالك وكافة العلماء: على الرجال الأحرار البالغين دون غيرهم، وإنما تؤخذ ممن كان تحت قهر المسلمين؛ لا ممن نأى بداره، ويجب تحويل النائي إلى بلاد المسلمين أو حربهم.

■ قوله: «وإذا حاصرت أهل حصن...» إلى آخره: فيه حجة لمن يقول من الفقهاء وأهل الأصول: إن المصيب في مسائل الاجتهاد واحد، وهو المعروف من مذهب مالك وغيره.

■ قوله: «وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه»: الذمة: العهد.

و«تُخفر»: تنقض، يقال: أخفرت الرجل: نقضت عهده، وخفرتة:

أَجْرُتُهُ؛ لَأَنَّهُ لَا يُؤْمِنُ عَلَىٰ مَنْ أُعْطِيَ ذِمَّةً أَن يُخْفَرَهَا، فَخَفَرُ ذِمَّتِهِ
أَهْوَنُ مِنْ أَن يُخْفَرَ ذِمَّةَ اللَّهِ تَعَالَى.



فيه مسائل:

الأولى: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وبين ذمة المسلمين.

الثانية: الإرشاد إلى أقل الأمرين خطرًا.

الثالثة: قوله: «اغزوا بسم الله في سبيل الله».

الرابعة: قوله: «قاتلوا من كفر بالله».

الخامسة: قوله: «استعن بالله وقاتلهم».

السادسة: الفرق بين حكم الله وحكم العلماء.

السابعة: في كون الصحابي يحكم عند الحاجة بحكم لا يدرى
أيوافق حكم الله أم لا؟



[٦٤] باب: ما جاء في الإقسام على الله

عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله ﻋَﻠَﻴْهِ: من ذا الذي يتألى عليّ ألا أغفر لفلان؟ إني قد غفرتُ له، وأحببتُ عملك». رواه مسلم ^(١).

وفي حديث أبي هريرة: أن القائل رجلٌ عابد.

قال أبو هريرة: «تكلم بكلمةٍ أوبقتُ دنياه وآخرته» ^(٢).

الشرح

■ قوله: «باب: ما جاء في الإقسام على الله»: ذكر المصنف فيه حديث جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ... الحديث.

■ قوله: «يتألى»: أي: يحلف، والأليّة - بالتشديد -: الحلف، وصح من حديث أبي هريرة.

ورواه أبو داود عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كان رجلان في بني إسرائيل متواخين؛ فكان أحدهما يُذنب، والآخر مجتهدٌ في العبادة، فكان لا يزال المجتهدُ يرى الآخر على الذنب؛ فيقول: أقصر، فوجده يومًا على ذنب؛ فقال له: أقصر، فقال: خلني وربّي؛ أبعت عليّ رقيبًا؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، ولا يُدخلك الجنة. فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين؛ فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالمًا؟ أو على ما في يدي قادرًا؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار».

■ قوله: «وفي حديث أبي هريرة: أن القائل رجل عابد»: يشير إلى قوله في هذا الحديث: «إن أحدهما مجتهد في العبادة»، وفيه معنى قوله ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يظن أن تبلغ ما بلغت يكتب الله له بها سخطه إلى يوم يلقاه»^(١).



فيه مسائل:

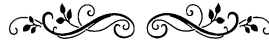
الأولى: التحذير من التألي على الله .

الثانية: كون النار أقرب إلى أحدنا من شرك نعله .

الثالثة: أن الجنة مثل ذلك .

الرابعة: فيه شاهد لقوله : «إن الرجل ليتكلم بالكلمة...» إلخ .

الخامسة: أن الرجل قد يُغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه .



❦ [٦٥] باب: لا يُستشفع بالله على خلقه ❦

عن جُبَيْر بن مُطْعَم رضي الله عنه قال: جاء أعرابيٌّ إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، نُهِكْتَ الأنفُسُ، وجاع العيال، وهلكت الأموال، فاستسقِ لنا ربَّك؛ فإننا نستشفع بالله عليك، وبك على الله. فقال النبي ﷺ: «سبحان الله! سبحان الله!»، فما زال يسبِّح حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه. ثم قال: «ويحك! أتدري ما الله؟ إنَّ شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يُستشفع بالله على أحد...» وذكر الحديث، رواه أبو داود ^(١).

الشرح

■ قوله: «باب: لا يستشفع بالله على خلقه»، وذكر الحديث، وسياق أبي داود أتم مما ذكره المصنف ولفظه:

عن جُبَيْر بن محمد بن جُبَيْر بن مطعم، عن أبيه، عن جده قال: أتى النبي ﷺ أعرابيٌّ؛ فقال: يا رسول الله، جَهِدَتِ الأنفُسُ، وضاع العيال، ونُهِكَتِ الأموال، فاستسقِ لنا، فإننا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك، فقال النبي ﷺ: «ويحك! أتدري ما تقول؟»، وسبح رسول الله ﷺ؛ فما زال يسبح حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: «ويحك! إنه لا يُستشفع بالله على أحدٍ من خلقه، شأنُ الله أعظم من ذلك، ويحك! أتدري ما الله؟ إن عرشه على سماواته كهكذا - وقال بإصبعه مثل القبة -، وإنه لَيَئِطُّ به أطيّط الرحل

(١) محتملٌ للتحسين: وقد تقدم.

بالراكب». قال ابن يسار في حديثه: «والله فوق عرشه، وعرشه فوق سماواته»^(١).

■ قوله: «ويحك»: كلمة تقال للزجر.

■ قوله: «أتدري ما الله؟»: فيه إشارة إلى قلة علمه بعظمة الله وجلاله.

■ قوله: «إنه لا يُستشفع بالله على أحد من خلقه»: لأن الأمر كله بيده تعالى؛ ليس في يد المخلوق منه شيء، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع - تعالى وتقدس -.

وفي هذا الحديث الرد على الجهمية، وإثبات العلو، وهذا الحديث رواه أبو داود ورضيه على عادته فيما كان عنده صحيحاً أو حسناً وسكت عليه، وأما الاستشفاع بالرسول في حياته، فإنما هو بدعائه ﷺ، ودعاؤه مستجاب، وأما بعد وفاته فلا يجوز الاستشفاع به كما تقدم تقريره في باب الشفاعة وما قبله، والله تعالى نهى عن اتخاذ الشفعاء في مواضع كثيرة من القرآن، ونفاها في حق من سألها من غير الله.



فيه مسائل:

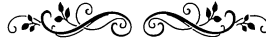
الأولى: إنكاره على من قال: «نستشفع بالله عليك».

الثانية: تغييره تغييراً عُرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة.

الثالثة: أنه لم يُنكر عليه قوله: «نستشفع بك على الله».

الرابعة: التنبيه على تفسير «سبحان الله».

الخامسة: أن المسلمين يسألونه ﷺ الاستسقاء.



باب: ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد، وسدّه طرق الشرك

عن عبد الله بن الشَّخِير رضي الله عنه قال: انطلقتُ في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ؛ فقلنا: أنت سيدنا. فقال: «السيدُ الله ﷻ». قلنا: وأفضلنا فضلاً، وأعظمنا طَوْلاً. فقال: «قولوا بقولكم - أو بعض قولكم -، ولا يستجريَنَّكم الشيطان». رواه أبو داود بسندٍ جيد^(١).

وعن أنسٍ رضي الله عنه: أن ناسًا قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا، وابن خيرنا، وسيدنا، وابن سيدنا. فقال: «يا أيها الناس، قولوا بقولكم، ولا يستهوينكم الشيطان. أنا محمدٌ عبدُ الله ورسوله. ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله ﷻ». رواه النسائي بسندٍ جيد^(٢).

الشرح

■ قوله: «باب: ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد وسدّه طرق الشرك»: حمايته ﷺ حمى التوحيد عما يشوبه من الأقوال والأعمال التي يضمحلُّ معها التوحيد أو ينقص.

وقد اشتمل هذا الكتاب - على اختصاره - على أكثر ذلك، والنهي عما ينافي التوحيد، أو يضعفه، يعرف ذلك من تدبره، وعَرَف ما تضمنه بابًا بابًا.

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

■ قوله في حديث أنس: «أن ناسًا قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا...» الحديث، كره ذلك لئلا يكون وسيلةً إلى الغلو فيه والإطراء؛ كما تقدم في قوله: «لا تُطروني كما أطرتِ النصرى ابن مريم؛ إنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبدُ الله، ورسوله». وهذا من كمال نصحه للأمة، وشفقته عليهم، حذرهم مما يكون ذريعةً إلى الغلو فيه.

■ وقوله: «أنا محمد عبد الله ورسوله»: فأعلى مراتب العبد هاتان الصفتان: العبودية الخاصة، والرسالة، وللنبي ﷺ أكملهما، وقد أخبر تعالى أنه وملائكته يصلون عليه، وأمر أمته أن يصلوا عليه، وأثنى عليه بأحسن ثناء وأبلغه، وشرح له صدره، ووضع عنه وزره، ورفع له ذكره، فلا يُذكر في الأذان والتشهد والخطب، إلا ذكر معه - صلوات الله وسلامه عليه -.

وأما إطلاق «السيد»:

□ فقد ذكر ابن القيم رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى في «بدائع الفوائد» ما نصه: «اختلف العلماء في جواز إطلاق «السيد» على البشر؛ فمنعه قوم، ونقل عن مالك، واحتجوا بقول النبي ﷺ لما قيل له: أنت سيدنا، فقال: «السيدُ الله».

وجوّزه قوم، واحتجوا بقول النبي ﷺ للأنصار: «قوموا إلى سيدكم»^(١)؛ وهذا أصح من الحديث الأول.

قال هؤلاء: السيد أحدٌ ما يضاف إليه، فلا يقال لتميمي: سيد

(١) رواه البخاري (٣٠٤٣)، ومسلم (١٧٦٨)، من حديث أبي سعيد الخدري

كِندة. ولا يقال للمَلَك: سيد البشر، قال: وعلى هذا فلا يجوز أن يطلق على الله هذا الاسم.

وفي هذا نظر، فإن السيد إذا أطلق عليه تعالى فهو في منزلة المَلِك والمولى والرب؛ لا بمعنى الذي يطلق على المخلوق، انتهى.

□ قلت: فقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في معنى قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الصَّكْمُ﴾ [الإخلاص]: «إنه السيد الذي كَمَلَ فيه جميع أنواع السؤدد».

□ وقال أبو وائل: «هو السيد الذي انتهى سؤدده».



فيه مسائل:

الأولى: تحذيره [ﷺ] الناس من الغلو.

الثانية: ما ينبغي أن يقول: من قيل له: «أنت سيدنا».

الثالثة: قوله: «لا يستجريَنَّكم الشيطان»، مع أنهم لم يقولوا إلا الحق.

الرابعة: قوله: «ما أُحِبُّ أن ترفعوني فوق منزلتي».



﴿٦٧﴾ باب: ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر]

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «جاء خبرٌ من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر. ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾».

وفي رواية لمسلم: «والجبال والشجر على إصبع، ثم يهْزُنَّ فيقول: أنا الملك، أنا الله».

وفي رواية للبخاري: «يجعل السماوات على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع». أخرجاه ^(١).

ولمسلم عن ابن عمر مرفوعاً: «يطوي الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع، ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟» ^(٢).

□ وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم».

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(١) صحيح: وقد تقدم.

وقال ابن جرير: حدثني يونس: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد: حدثني أبي قال: قال رسول الله ﷺ: «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة أُلقيت في تُرس»^(١).

وقال: قال أبو ذر رضي الله عنه سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد أُلقيت بين ظهري فلا من الأرض»^(٢).

□ وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «بين السماء الدنيا والتي تليها خُمُسمئة عام، وبين كل سماء وسماء خُمُسمئة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خُمُسمئة عام، وبين الكرسي والماء خُمُسمئة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش لا يخفى عليه شيء من أعمالكم».

أخرجه ابن مهدي عن حماد بن سلمة، عن عاصم، عن زر، عن عبد الله. ورواه بنحوه المسعودي عن عاصم، عن أبي وائل، عن عبد الله.

قاله الحافظ الذهبي رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى. قال: «وله طرق».

وعن العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تَدْرُونَ كم بين السماء والأرض؟»، قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «بينهما مسيرة خُمُسمئة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خُمُسمئة سنة، وكثف كل سماء مسيرة خُمُسمئة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحرٌ بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض. والله تعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم». أخرجه أبو داود وغيره^(٣).

(١) ضعيف: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) ضعيف: وقد تقدم.

الشرح

■ قوله: «باب: ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ...﴾ [الزمر: ٦٧] الآية: أي من الأحاديث والآثار في معنى هذه الآية.

□ قال العماد ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «ما قدر المشركون الله حق قدره حتى عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكلُّ شيء تحت قهره وقدرته. قال السدي: ما عظموه حق عظمتهم. وقال محمد بن كعب: لو قَدَرُوهُ حق قدره ما كَذَّبُوهُ».

وقد وردت أحاديث كثيرة تتعلق بهذه الآية؛ الطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف.

■ قوله: «عن ابن مسعود قال: «جاء خبر من الأحبار إلى النبي ﷺ فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع...» الحديث: وهكذا رواه البخاري ومسلم والنسائي من طرق عن الأعمش به.

وقال البخاري: حدثنا سعيد بن عُفَيْر قال: حدثنا الليث: حدثني عبدالرَّحْمَن بن مسافر، عن ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبدالرَّحْمَن، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يقبض الله الأرض ويطوي السماء يمينه؛ فيقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟» تفرد به من هذا الوجه^(١).

(١) رواه البخاري (٦٥١٩).

قوله: «ولمسلم عن ابن عمر مرفوعاً: (يطوي الله ﷻ السماوات، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرض بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟)»: كذا في رواية مسلم قال الحميدي: وهي أتم.

قلت: وهذه الأحاديث وما في معناها - وهي كثيرة جداً - تدل على عظمة الله وكماله، وعظيم قدرته، وفيها الرد على الجهمية والأشاعرة ونحوهم - أيضاً -، وكل ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله يدل على كماله وعظمته وجلاله، وأن العبادة لا تصلح إلا له سبحانه وبحمده، لا يصلح منها شيءٌ لملكٍ مقرب، ولا نبي مرسل، ولا لمن دونهما.

□ قال شيخ الإسلام أحمد ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره، وسنة رسوله ﷺ، وكلام الصحابة والتابعين، وكلام سائر الأئمة = مملوء بما هو إما نص أو ظاهر أن الله تعالى فوق كل شيء، وأنه فوق العرش فوق السماوات، مستو على عرشه». وذكر ما يدل على ذلك من الكتاب والسنة.

□ وقال الأوزاعي: «كنا - والتابعون متوافرون - نقول: إن الله تعالى ذكره - فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة».

□ وقال أبو عمر الطلمنكي في كتاب «الأصول»: «أجمع المسلمون من أهل السنة على أن الله مستو على عرشه بذاته». ذكره الذهبي في كتاب «العلو».

□ وقال أبو عمر الطلمنكي في هذا الكتاب - أيضاً -: «أجمع أهل السنة على أن الله تعالى استوى على عرشه بالحقيقة، لا على

المجاز».

□ ثم قال في هذا الكتاب: «أجمع المسلمون من أهل السنة أن معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤] ونحو ذلك من القرآن = أن ذلك علمه، وأن الله فوق السماوات بذاته، مستوٍ على عرشه كيف شاء». هذا لفظه في كتابه.

□ وقال الحافظ الذهبي: «وأول مقالةٍ سُمعت مقالة من أنكر أن الله تعالى فوق العرش وهو الجعد بن درهم، وكذلك أنكر جميع الصفات، فقتله خالد بن عبد الله القسري، وقصته مشهورة، وأخذ هذه المقالة عنه الجهم بن صفوان إمام الجهمية، فأظهرها واحتج لها بالشبهات، وكان ذلك في آخر عصر التابعين، فأنكر مقالته أئمة ذلك العصر؛ مثل الأوزاعي، وأبي حنيفة، ومالك، والليث بن سعد، والثوري، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وابن المبارك، ومن بعدهم من أئمة الهدى؛ كالإمام أحمد، وخلقٍ من أهل السنة».

□ قال الإمام الشافعي: «لله أسماء وصفات لا يسع أحدًا ردها، ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر، وأما قبل قيام الحجة فإنه يُعذر بالجهل، ونُثبت هذه الصفات، وننفي عنه التشبيه كما نفى عن نفسه؛ فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى] اه من فتح الباري.

■ قوله: «وعن العباس بن عبد المطلب»: ساقه المصنف مختصرًا. والذي في سنن أبي داود عن العباس بن عبد المطلب قال: كنت في البطحاء في عصابة^(١) فيهم رسول الله ﷺ؛ فمرت بهم سحابة فنظر

إليها فقال: «ما تسمون هذه؟»، قالوا: السحاب. قال: «والمُزن؟»، قالوا: والمزن. قال: «والعنان؟»، قالوا: والعنان - قال أبو داود: لم أتقن العنان جيداً -. قال: «هل تدرون ما بُعد ما بين السماء والأرض؟»، قالوا: لا ندري. قال: «إن بُعد ما بينهما إما واحدة أو ثنتان أو ثلاث وسبعون سنة، ثم السماء فوقها كذلك - حتى عدد سبع سماوات -، ثم فوق السابعة بحر بين أسفله وأعله مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أوعال بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهم العرش بين أسفله وأعله مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم الله ﷻ فوق ذلك».

□ قال الحافظ الذهبي: رواه أبو داود بإسناد حسن، وروى الترمذي نحوه من حديث أبي هريرة وفيه: «بُعد ما بين سماء إلى سماء خمسمئة عام». قال: ولا منافاة بينهما؛ لأن تقدير ذلك بخمسمئة عام هو على سير القافلة - مثلاً -، ونيف وسبعون سنة على سير البريد.

قلت: وهذا الحديث له شواهد في «الصحيحين» وغيرهما، مع ما يدل عليه صريح القرآن، فلا عبرة بقول من ضعفه^(١).

وقد ابتدأ المصنّف رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى هذا المصنّف العظيم ببيان توحيد الإلهية؛ لأن أكثر الأمة ممن تأخر قد جهلوا هذا التوحيد، وأتوا بما ينافيه من الشرك والتنديد، فقام ببيان التوحيد الذي دعت إليه الرسل، ونهّوهم عما كانوا عليه من الشرك المنافي لهذا التوحيد. فالدعوة إلى ذلك هي أهم الأمور وأوجبها لمن وفقه الله لفهمه،

(١) فيه نظر لا يخفى.

وأعطاه القدرة على الدعوة إليه، والجهاد لمن خالفه ممن أشرك بالله في عبادته، فقرر هذا التوحيد - كما ترى - في هذه الأبواب، ثم ختم كتابه بتوحيد الأسماء والصفات؛ لأن أكثر العامة لم يكن لهم التفاتٌ إلى هذا العلم الذي خاض فيه من ينتسب إلى العلم، وأما من ينتسب إلى العلم فهم أخذوا عن خاض في هذه العلوم، وأحسنوا الظنَّ بأهل الكلام، وظنوا أنهم على شيء، فقبلوا ما وجدوه عنهم، فقرروا مذهب الجهمية، وألحدوا في توحيد الأسماء والصفات، وخالفوا ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة، وما عليه سلف الأمة، وأئمة الحديث والتفسير من المتقدمين.

وما زال أهل السنة متمسكين بذلك، لكنهم قلوا؛ فهدى الله هذا الإمام إلى معرفة أنواع التوحيد، فقررها بأدلتها، فله الحمد على توفيقه وهدايته إلى الحق حين اشتدت غربة الإسلام، فضلَّ عنه من ضل من أهل القرى والأمصار وغيرهم، وبالله التوفيق.

فقد اجتمع في هذا المصنف أنواع التوحيد الثلاثة التي أشار إليها العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى بقوله:

والعلمُ أقسامٌ ثلاثةٌ ما لها من رابع والحقُّ ذو تبيان
علمٌ بأوصافِ الإله وفعله كذلك الأسماء للرحمن
والأمرُ والنهي الذي هو دينه وجزاؤه يوم المعاد الثاني
وصلَّى اللهُ على سيد المرسلين وإمام المتقين، محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾.

الثانية: أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه ﷺ، لم ينكروها، ولم يتأولوها.

الثالثة: أن الخبر لما ذكرها للنبي ﷺ صدقه، ونزل القرآن بتقرير ذلك.

الرابعة: وقوع الضحك من رسول الله ﷺ؛ لما ذكر الخبر هذا العلم العظيم.

الخامسة: التصريح بذكر اليدين، وأن السماوات في اليد اليمنى، والأرضين في الأخرى.

السادسة: التصريح بتسميتها الشمال.

السابعة: ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك.

الثامنة: قوله: «كخردلة في كف أحدكم».

التاسعة: عظم الكرسي بالنسبة إلى السماء.

العاشرة: عظم العرش بالنسبة إلى الكرسي.

الحادية عشرة: أن العرش غير الكرسي والماء.

الثانية عشرة: كم بين كل سماء إلى سماء.

الثالثة عشرة: كم بين السماء السابعة والكرسي.

الرابعة عشرة: كم بين الكرسي والماء.

الخامسة عشرة: أن العرش فوق الماء.

السادسة عشرة: أن الله فوق العرش.

السابعة عشرة: كم بين السماء والأرض.

الثامنة عشرة: كُثِفَ كل سماء خَمْسُمِئَةِ سنة.

التاسعة عشرة: أن البحر الذي فوق السماوات أسفله وأعلاه مسيرة

خمسُمِئَةِ سنة.

والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى

آله وأصحابه أجمعين، وسلم تسليمًا كثيرًا.



[٣٠]

أسباب نجاة السؤل
من السيف المسلول

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١)

وبه نستعين

ما قولكم - علماء المسلمين - في:

[المسألة الأولى]: رجلٌ يقول: نحن نقول: «لا إله إلا الله»، ولا تكفُّون عنا، والكفار الأوَّلون إذا قالوها كُفَّ عنهم. وأنتم تقولون: إنكم تقولونها وتشركون. فما نقول حتى تكفوا عنا؟ أفتونا مأجورين.

(١) أفاد الشيخ صالح بن حميد - حفظه الله - في أول شرحه لهذه الرسالة: أنه لم يعثر على اسم مؤلفها، وكذا حاولت أنا الوصول إليه فلم أوفق، فلعل الأمر يتبين في طبعاتٍ قادمةٍ - إن شاء الله تعالى - . والذي يكفيني في أي بابٍ من أبواب العلم هو صحة ما يتضمنه الكلام، وهل هو موافقٌ للكتاب والسنة على منهج سلف الأمة أم لا. وقد مال الشيخ صالح بن حميد إلى أن هذا الكلام أشبه بطريقة الإمام ابن القيم رحمه الله في كتاباته؛ لا سيما وأنه وجد في أول «زاد المعاد» - حسبما قال - ما يشبه الفقرات الأول، لكنه أفاد - أيضًا - أنه لم يجد ما يؤيد بقية الكلام. أما بالنسبة لي أنا فطريقته أشبه بطريقة علماء الدعوة النجدية - كما في الرسائل السابقة -، وإن كانوا رحمهم الله ينهلون من معين الأكابر قبلهم، فالكل على خيرٍ ونهجٍ سديد. وسوف يتضح ما رجَّحته من خلال بعض فقرات الرسالة. وكذا رأيتُ - كما لاحظ الشيخ صالح بن حميد - أن الرسالة فيها مواضع عديدة من السقط، لذلك أضفتُ زياداتي بين معقوفتين - كما هو المنهج المتَّبَع -، وفقنا الله تعالى وإياكم لاتباع نهج الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة.

المسألة الثانية: هل يلزم للرجل أن يتمذهب بمذهب واحد من المذاهب الأربعة أم لا؟ وما يجب عليه في ذلك؟
يَبْنُوا لَنَا الْجَوَاب - رَحْمَكُمُ اللَّهُ - .

الحمد لله الذي جبل عباده على طبائع شتى؛ فمنهم شاكِرٌ ومنهم كفور، وجعلهم فريقين: فريق منهم يتقربون إليه بالذبح لغير الله، والنذر للطواغيت، وبالدفن والطلب والزمر، وفريق منهم يتقربون إليه بتوحيده، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والصوم، وبالحج المبرور.

وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة عبدٍ مخلص في توحيده غير شاكٍّ ولا كفور، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله الذي أحيا به الملة الحنيفية، حتى أضاء الحق وتمزق الديجور^(١)، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان صلاةً دائمةً إلى يوم البعث والنشور، وسلّم تسليمًا.

أما بعد :

فالجواب عن المسألة الأولى: وهي قول السائل: ما تقولون في «لا إله إلا الله»:

فنقول: لا إله إلا الله هي كلمة الإسلام، وهي مفتاح دار السلام، وهي كلمة التقوى، وهي العروة الوثقى، وهي التي قامت بها الأرض والسموات، وفطر الله عليها جميع المخلوقات، ولأجلها جُرِّدت سيوف الجهاد، وهي محض حق الله على العباد، وبها انفصلت دار الكفر من دار الإيمان، وتميّزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان،

(١) الديجور: الظلام الدامس.

وهي العمودُ الحاملُ للفرض والسنة، ومن كان آخر كلامه «لا إله إلا الله» دخل الجنة^(١)، وهي الكلمة العاصمة للدم والمال، والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار، وهي المنشور^(٢) الذي لا يدخل الجنة أحدٌ إلا به، والحبلُ الذي لا يصل إلى الله إلا من تعلّق بسببه، وبها انقسم الناس إلى شقيّ وسعيد، ومقبولٍ وطريد، فهي وإن كانت كلمة؛ [فقد] قيّدت بالقيود الثقال، [كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾] [المتحنة: ٤] ^(٣).

فإذا كان إمامُ الحنفاء لم يحصل^(٤) له قول «لا إله إلا الله»، ولم تتمّ له المحبةُ والموالاتة - وهو إمام المحبين - إلا بالمعاداة، [فما الظن بمن سواه؟].

كما قال تعالى مخبراً عنه: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُتِبَ تَعْبُدُونَ ۚ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ۚ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ۚ﴾ [الشعراء: ٧٧]؛ فإنه لا وليّ إلا يبرأ [من أعداء مولاة]^(٥)، ولا ولاء لله إلا بالبراء من كل معبودٍ سواه.

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) المنشور: الصّك.

(٣) ما بين الحاصرتين ليس في المطبوعات، وهو ما رجحته من خلال كلام الشيخ القادم، والعلم عند الله تعالى.

(٤) في المطبوعات: «تحصل». ولعل الأصح ما أثبتّه.

(٥) زيادة مني للإيضاح. ومعلومٌ مع غير الله ﷻ أنك لا تبرأ من أعداء من تحبّ إلا إذا كان أعداء حبيبك على غير الطريق المستقيم.

وهذا معنى قول «لا إله إلا الله»؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾ [الزخرف]، فأورثها إمام الحنفاء عليه السلام لأتباعه يتوارثونها، [و]الأنبياء بعضهم لبعض.

فلما بُعث بها محمد ﷺ ودعا إليها، أمره الله أن يبين هذين الركنين، كما ذكر الله ذلك في سورة الإخلاص^(١)، أمره أن يقول: ﴿قُلْ يَتَّيْنَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾﴾ [الكافرون].

وعرّف المشركون ذلك حين دعاهم إلى قول «لا إله إلا الله»، قالوا: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ [ص]^(٢).

وكذلك ما جرى له ﷺ مع عمه عند وفاته؛ لما قال له: «يا عم، قل: لا إله إلا الله»، وعنده أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية، فقالا له: أترغب عن ملة عبدالمطلب^(٣)؟! عرفوا معناها، [و]أن فيها التولي والتبري.

وكذلك أمره الله أن يدعو أهل الكتاب إليها وهم يقولونها: قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ الآية [آل عمران: ٦٤].

(١) وسورة الكافرون الآتية هي إحدى سورتي «الإخلاص».

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) صحيح: وقد تقدم.

وفي «صحيح مسلم» عنه ﷺ أنه قال: «من قال: لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبد من دون الله، حرّم ماله ودمه، وحسابه على الله ﷻ»^(١).

فتبيّن بذلك خطأ المغرورين، وبطلان حجة المُبطلين؛ فإن لا إله إلا الله معناها - كما تقدم - النفي والإثبات، وحقيقتها الموالاة والمعاداة. ثم لا بد - مع ذلك - من البغض والاعتزال للداعي والمدعو، والعابد والمعبود [من دون الله]، مع الكفر بهم؛ كما ذكر الله ذلك.

قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وكذلك ما جرى للنبي ﷺ وأصحابه مع قومهم من الاعتزال والعداوة العظيمة، وما جرى لسعد مع أمه رضي الله عنها^(٢).

وكما ذكر الله ذلك - أيضًا - عن الخليل عليه السلام مخبرًا؛ قال تعالى: ﴿وَأَعْتَزَلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية [مريم: ٤٨].

وقال تعالى مخبرًا عن أهل الكهف: ﴿وَإِذْ أَعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [الكهف: ١٦].

فذكر الله تعالى عنهم في هذه الآيات المحكمات أنهم بدؤوا بالمشركين؛ فاعتزلوهم قبل المعبودين^(٣).

فأين هذا من الواقع من أهل هذا الزمان؛ إذا كان علماءهم لا

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) راجع حاشية (٢) في (٣٢٥/١).

(٣) أي: قبل اعتزال آلهتهم المعبودة من دون الله.

يعرفون معناها كما عرف جهال الكفار؟ ولا يعملون بمقتضاها ولا حقيقتها^(١)؟ وهي كلمة عليها أُسِّست الملة، ونُصبت القبلة، ونَبَّه الله على فضلها، وعظَّم شأنها أنبياءُه ورسلُه.

قال تعالى في حق نبيِّه محمدٍ ﷺ: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، أنزلت عليه ﷺ هذه الآية الكريمة في السنة الثامنة من الهجرة بالمدينة.

وكذلك في الحديث المشهور عنه ﷺ: «أن موسى قال: يا رب، علِّمني شيئاً أذكرك وأدعوك به، قال: يا موسى، قل: لا إله إلا الله، قال: يا رب، كل عبادك يقولون هذا! قال: يا موسى، لو أن السماوات السبع وعامِرهنَّ غيري^(٢)، والأرضين السبع في كِفَّة، ولا إله إلا الله في كِفَّة، لمالت بهن لا إله إلا الله»^(٣).

فليتأمل الناصح لنفسه عِظَم شأن هذه الكلمة، وعظم أركانها في المبتدئ، وفضلها وعِظَم شأنها في المنتهى، فإذا كان لابد من هذه الشروط المتقدمة في البداية، والتنبيه على فضلها وعظم شأنها في النهاية مع سيد المرسلين وموسى الكليم ﷺ، فما الظن بغيرهما؟! والآيات والأخبار في ذلك كثيرة معلومة، وإنما ذكرنا إشارةً

(١) ورد في طبعة «دار البيان» بعد هذه الجملة عبارة: «عندهم لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ملكه»، وهي محذوفة من الطبعة القديمة. ومع ثبوتها، فالمراد أن معنى «لا إله إلا الله» عند الكفار الأولين: أنه منفردٌ بالملك، والذي هو توحيد الربوبية غير الكافي في النجاة من عذاب السعير. والعلمُ عند الحكيم الخبير.

(٢) أي: وجميع سكانهن وعُمَّارهنَّ.

(٣) ضعيف: وقد تقدم.

على ما فُيِّدَت به من القيود.

وأما الكلام عليها: فأكثر العلماء والشرح في ذلك، ولكن ما^(١) تسعه هذه الأوراق.

ومعناها الجامع: «لا إله» أي: لا معبود في الوجود بحق «إلا الله»، ولأجل هذا المعنى قال تعالى: ﴿الرَّكَتَبُ أُحْكِمَتْ أَيْنُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [مود]، فأخبر الحكيم الخبير أنه أنزل كتابًا محكمًا مفصلاً ألا يعبدوا إلا هو.

وقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾ أراد^(٢): من أجل ألا تعبدوا إلا الله، فأخبر الحكيم الخبير أنه^(٣) أنزل كتابه من أجل ذلك. وهذا - أيضًا - هو معنى «لا إله إلا الله».

وأما «الإله» فأصله في اللغة من: «الولة»؛ يقال: ولَه الفصيل^(٤) وأله الفصيل: إذا اشتد حبُّه إلى أمه. فقلبت الواو همزة؛ فالإله من تأله القلوب بالمحبة والإجلال والتعظيم والخوف والرجاء والدعاء، وتوابع ذلك من التوكل والإنابة، والذبح والنذر، والرغبة والرغبة، والخشية والتوبة؛ فجميع التعظيم هو مستحقُّ له حتى لا يُحلفَ إلا به.

(١) ما: نافية بمعنى «لا».

(٢) في بعض المطبوعات وقعت الجملة هكذا: «من: ارادة» - كذا -! وفي بعضها: «من أداة»، والظاهر أن في الجملة اضطرابًا، ولعل الأقرب ما أثبتته. والله تعالى أعلم.

(٣) وقعت الجملة الأخيرة في المطبوعات: «فأخبر أن الحكيم الخبير أنزل...»، ولعل الأصح ما أثبتته.

(٤) الفصيل: ولد الناقة.

وسرُّ «لا إله إلا الله»: إفراد الله بذلك كله وتوابعه .
و«الإله» صفةٌ تدور مع القصد؛ فمن قُصد بشيءٍ من أنواع العبادة
والتعظيم والتبرُّك فهو إله .

كما في حديث أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ
إلى حُنين - ونحن حُدثاءُ عهدٍ بكفر -، وللمشركين سِدْرَةٌ يعكفون
عندها، ويُنْطَوون بها أسلحتهم، يقال لها: «ذاتُ أنواط»، فمررنا
بسدرةٍ أخرى، فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذاتَ أنواط كما لهم
ذاتُ أنواط، فقال ﷺ: «الله أكبر» - ثلاثاً -؛ «إنها السُّنن»^(١)؛ قلتُم
- والذي نفسي بيده - كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا
كََمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] . قال: «لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» .
رواه الترمذي وصححه^(٢) .

ومن لوازم الإله: ألا يُلتجأَ إلا إليه، ولا يُطاعَ إلا أمرُه؛ فهذا
هو تحقيق شهادة ألا إله إلا الله؛ فإن المحقِّق هو المتيقِّنُ بقلبه،
القائمُ بها قولاً وفعلاً .

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ قَائِمُونَ﴾ [المعارج: ٢٢]؛ فلم يكن قائماً
بشهادته في ظاهره وباطنه، وفي قلبه وقالبه، إلا من كانت شهادته
على الأوصاف المذكورة؛ فحياةُ الروح بهذه الكلمة، كما أن حياة
البدن بوجود الروح فيه . فلا أنفع للعبد من إقباله على الله،
واشتغاله بذكره، وتنعمه بتوحيده ومحبتة، وإيثاره لمرضاته .
ويتفاوت في ذلك الخلق تفاوتاً عظيماً؛ حتى إن منهم من يدخل

(١) أي: عادة الله تعالى في السابقين .

(٢) صحيح: وقد تقدم .

الجنة بغير حسابٍ ولا عذاب؛ كما في حديث السبعين الألف، ووصفهم ﷺ بأنهم: «الذين لا يَسْتَرْقُونَ»^(١)، ولا يَكْتَوُونَ»^(٢)، ولا يَتَطَيَّرُونَ»^(٣)، وعلى ربهم يتوكلون»^(٤).

فأهل لا إله إلا الله المحققون لها في نعيم الدنيا، وفي البرزخ، وفي الآخرة في الجنة، وحرّمهم الله على النار، وبقدر ما ينقص العبد في معرفتها والعمل بها والثبات عليها وتحقيق العمل بمقتضاها = يضعف يقينه وسيره وصبره، فلا يثبت على الصراط في الدنيا إلا من حقّق هذه الكلمة، ومروّزهم على الصراط في الآخرة بقدر سيرهم واستقامتهم؛ فمعطى ومحروم، والفضل بيد الله.

نسأل الله الثبات عليها، وأن يجعل الخاتمة لنا وللمسلمين عند الوفاة عليها برحمته؛ إنه أرحم الراحمين.



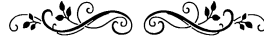
(١) يسترقون: يطلبون الرقية من غيرهم.

(٢) يكتوون: يستخدمون الكي في العلاج.

(٣) يتطيرون: يتشاءمون.

(٤) صحيح: وقد تقدم.

فصل



وهنا المقصود بالجواب عن ما سأل عنه السائل؛ فجوابه من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن الله شرع الجهاد، وأمر بالقتال، وبيّن لنا الحكمة في ذلك، وموجبه^(١)، وما يحصل به الكف^(٢).

قال تعالى: ﴿وَقَنَلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾، قال المفسرون: أي شرك^(٣)، ﴿وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

و«الدين» اسم عام؛ وهو ما بعث الله به محمداً ﷺ، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ (٢) ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وقال ﷺ في الحديث الصحيح: «بُعِثْتُ بالسيف بين يدي الساعة حتى يُعْبَدَ اللَّهُ لَا يُشْرَكَ بِهِ شَيْءٌ...» الحديث^(٣).

(١) الموجب - بفتح الجيم -: الغاية. وبكسرهما: السبب.

(٢) أي: وما الذي يحصل به الكف عن جهاد الكفار، ويقصد التوحيد وإقامة أعلام الإسلام الظاهرة - كما سيأتي قريباً -.

(٣) حسن: رواه أحمد (٥٠/٢)، وابن أبي شيبة (٣١٣/٥)، وعبد بن حميد (٨٤٨)، وأبو داود (٤٠٣١)، والطبراني في «مسند الشاميين» (٢١٦)، وابن الأعرابي في «معجمه» (١١٣٧)، وعلقه البخاري (٩٨/٦) - مع «الفتح» بصيغة التمریض، والطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٢٣١)، والبيهقي في «الشعب» (١١٩٩)، والدينوري في «المجالسة» (١٢٨) - =

الوجه الثاني: أن الله أمر بقتال المشركين كافةً، وبَيَّن لنا ذلك.
قال تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ^(١) فَإِنْ تَابُوا فَاتَّبِعُوا عَنْ الشَّرْكِ، ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ

= تهذيبي)، والذهبي في «سير أعلام النبلاء» (٥٠٩/١٥)، وابن حجر في «تغليق التعليق» (٤٤٥/٣)، وقال الإمام الذهبي: «إسناده صالح»، وصححه الحافظ العراقي في تخريج «الإحياء» (٧٦/٢)، والشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢٨٣١)، وحسنه الشيخ مشهور في «المجالسة» (١/٤٦٠). بينما قال الشيخ شعيب الأرناؤوط: «إسناده ضعيف على نكارة في بعض ألفاظه»، وبَيَّن أن في الإسناد علةً، فراجع - لزماً - تحقيق «المسند» (١٢٣/٩ - ط: الرسالة)، وتحقيق «سنن أبي داود» (١٤٤/٦ - ط: الرسالة).

وجاء في حاشية المصدر الأخير (١٤٥/٦) - بعد تضعيف الحديث -: «وكيف يبعث ﷺ بالسيف، والله يقول في وصفه في محكم كتابه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١٧) [الأنبياء]؟» اهـ.

قلت: وفي هذا التعقيب نظرٌ عندي؛ إذ لا يلزم من كونه ﷺ رحمةً للعالمين ألا يُبعث بالسيف لمن عاند وطغى وأبى الانضواء تحت رحمة الدين العظيم، ولفظ الحديث عامٌ يراد به الخصوص، فهو ﷺ مبعوثٌ بالسيف لطائفةٍ معينة - وهم الكفرة الفجرة الرافضون للحلول الشرعية: الإسلام أو الجزية -، وليس لجميع الناس - كما هو ظاهر -، ومعلومٌ أن الحق لا بد له من قوةٍ تحميه. وعليه فالعبرة - أولاً وأخيراً - في هذا الحديث هو بثبوت صحةٍ سنده. والله تعالى أعلم.

تنبيه: هذا الحديث كنتُ خرَّجته في بعض المواطن - مثل «تهذيب المجالسة» -، ولم أعقب هذا التعقيب الأخير؛ إذ تبدَّى لي أخيراً. والعلم عند الله تعالى.

(١) المَرَصِد: الطريق. وأصله: الموضع الذي يُراقب منه العدو.

فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴿[التوبة: ٥]﴾؛ فَبَيَّنَ ﷺ أَنَّهُ لَا يُكْفُ عَنْهُمْ حَتَّى يَقِيمُوا أَعْلَامَ
الإسلام الظاهرة، وهي هذه الثلاثة الأركان؛ كما ذكر الله في الآية
المتقدمة في قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ
وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾^(١) [البينة].

وفي الحديث الصحيح عنه ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى
يشهدوا ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا
الزكاة؛ فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها.
وحسابهم على الله ﷻ»^(٢).

وهذه الثلاثة الأركان - أيضاً - أمر ﷺ معاذاً لما بعثه إلى اليمن
أن يدعو إليها، ونبّهه على الأهم فالأهم؛ كما في حديثه^(٣)، وأخذ
بذلك الخلفاء رضوان الله عليهم؛ فأبو بكر قاتل مانعي الزكاة وهم يقولون: لا
إله إلا الله محمد رسول الله^(٤)، وقاتلوا^(٥) طوائف أهل الردة وهم
يقولونها، وهذا الذي ذكرنا هو الذي يجب به الكف عن قتال العامة
إذا أقاموه - كما تقدم -.

الوجه الثالث: ما يجب به الكف عن الخاصة في مثل هذا الزمان
وغيره: فهي الكلمة التي تفيد الفعل والتَّرك؛ كما في حديث أبي
مَعْبُد المقداد بن الأسود قال: قلت: يا رسول الله: أُرأيت إن لَقِيتُ
رجلاً من المشركين فاقتتلنا، فضرب إحدى يدي بالسيف، ثم لاذ

(١) أي: دين الملة المستقيمة.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) رواه البخاري (١٣٩٥)، ومسلم (١٩)، من حديث ابن عباس رضوان الله عليهما.

(٤) صحيح: وقد تقدم.

(٥) أي: الصحابة رضوان الله عليهم.

بشجرة؛ فقال: أسلمتُ لله؛ أقتله؟ قال: «لا؛ فإنك إن قتلتَه كان بمنزلتك، وكنتَ بمنزلته قبل ذلك». متفق عليه^(١).

والمعنى: «أنه بمنزلتك»: [أي] معصوم الدم والمال، «وأنت بمنزلته»: أي مباحُ الدم بالقصاص لورثته، لا بمنزلته في الدين^(٢). والله أعلم^(٣).

فإذن [قد] عَرَفَ المسلمُ عِظَمَ شأنِ هذه الكلمة، وما قِيَّدت به من القيود، ولا بد مع ذلك أن يكون اعتقادًا بالجنان، ونطقًا باللسان، وعملاً بالأركان، فإذا اختلَّ نوعٌ من هذه الأنواع لم يكن الرجل مسلمًا؛ كما ذكر الله ذلك وبيَّنه في كتابه، فإذا كان الرجل مسلمًا وعاملاً بالأركان، ثم حَدَثَ منه قولٌ أو فعلٌ أو اعتقاد يناقض ذلك = لم ينفعه ذلك؛ كما قال الله تعالى للذين تكلموا بالكلام [القبيح] في غزوة تبوك^(٤): ﴿لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦]، وقال تعالى في حق الآخرين: ﴿وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٤].

فأين هذا من الواقع من أهل هذا الزمان، [الذين] جعلوا التلفظ بها عادةً وهذيانًا، و[لم يفهموا منها إلا] القعقعة بحروفها؛ فهي عندهم الإسلام والإيمان، مع ما هدموه من التوحيد - الذي هو حق الله -، وأكبُّوا وأقبلوا على عبادة المَشَاهِد والأوثان، وضيعوا

(١) رواه البخاري (٤٠١٩)، ومسلم (٩٥).

(٢) لأن السابقين لا يساويهم أحد.

(٣) انظر - لزائمًا -: «فتح الباري» (١٢/١٨٩ - عند شرح الحديث السابق).

(٤) تقدم الحديث بذلك في الجزء الأول.

الفرائض وسائر الأركان، وزُيِّنَ لهم ما ارتكبه من التبدُّع والتنطُّع والعصيان، إلا أنهم يقولون: لا إله إلا الله؟!

□ فما أحسن ما قاله شيخ الإسلام^(١) رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «لا إله إلا الله سماها الله كلمة التقوى^(٢)؛ فجعلوها كلمة الفجور» اهـ.

وذكرنا عليها إشارةً على طريق الإيجاز والاختصار خشية الإطالة، والله المستعان.

وأما الذي يجب به الكفُّ عن القتال فهو: لابد من إقامة أعلام الإسلام الظاهرة المتقدِّمة في الآيات المحكمات؛ [والتي] ذكرها الله بعد الأمر بالقتال، وكذلك في الأحاديث الصحيحة الصريحة؛ فبدأ بالتوحيد وترك الشرك، ثم ذكر بعده: ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ﴾، ثم ذكر بعد ذلك ﴿فَخَلَوْا سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥].

والنبي ﷺ قال - بعد ذكره الثلاثة -: «فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام»^(٣).

وفي بعض الآيات: ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: ٣٩]، وهذا الذي يجب به الكفُّ - كما دل عليه الكتاب والسنة وفعل سلف الأمة -، وهذا الذي عليه الأئمة - رضوان الله عليهم أجمعين -.

وأما الخاصة: فهو - كما قدمنا -: يجب الكف إذا أظهر [شيئاً] - بقول أو فعلٍ ما - يدلُّ على تركه دينه ودخوله في الإسلام - كما تقدم في الحديث -، وليس المراد بالجواب الخاصة؛ إنما يراد به

(١) الظاهر أنه يقصد الإمام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ.

(٢) والتقوى مستلزمة بدورها: فعل أوامر الله ﷻ، والانتهاة عن نواهيه.

(٣) صحيح: وقد تقدم.

العامة، فإذا وُجدت طائفةٌ ممتنعةٌ عن إحدى الثلاثة المذكورة قوتلوا:

- إما التوحيد الذي هو محضُ حق الله على العبيد.
- أو الصلاة التي هي الفارقة بين الكفر والإسلام.
- أو الزكاة التي أجمع الصحابة رضي الله عنهم على قتال مانعيها، وكذلك أجمع العلماء - أيضًا - على ذلك.
- وتتبع ما ورد في ذلك يطول؛ إذ كلُّ مصنفٍ ذكر ذلك، وكذلك الشراح والفقهاء رحمهم الله، وهذا مصرّحٌ به في كتبهم.
- ولو قالوا: «لا إله إلا الله» [فقط] لم يُكفَّ عنهم، أو عملوا ببعض الشرائع وتركوا بعضًا، ولكن: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ يَحْدِلَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [١٧] [الكهف].



فصل



وأما المسألة الثانية: هل يلزمُ الرجلُ أن يتَّبَعَ مذهبًا من المذاهب الأربعة أم لا؟

فالجواب: أن الله أوجب على عباده أن يتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم - كما ذكر الله ذلك في آي القرآن -، و[أن يتبعوا] ما جاءهم به نبيهم ﷺ - كما أمر الله بذلك، ودلت عليه السنة -؛ وعلّق الله النجاة والفلاح باتباعه ﷺ، وذكر الله ذلك في كم موضع^(١)، ولا يجبُ على الخلق أن يتبعوا رجلاً بعينه غيره ﷺ. و[قد] انقسم في ذلك الناس أقسامًا، وتحزّبوا أحزابًا، وصار ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فِرْحُونَ﴾ [٥٣] ﴿المؤمنون﴾.

📖 والاتباع والافتداء أنواع:

[النوع الأول]: منه ما هو محرم: كما ذكر الله عن الكفار: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَّلُوهَا كَانَتْ آبَاءُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [١٧٠] [البقرة].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ [٢٢] [الزخرف].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا...﴾ الآية [المائدة: ١٠٤].

(١) أي: في عدة مواضع.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تُقْلَبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ﴾ (٣٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ ﴿٣٧﴾ الآية [الأحزاب].

النوع الثاني: ما ذكره الله تعالى عن أهل الكتاب في تقليدهم واتخاذهم أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله. وهذا - أيضاً - يحرم على كل مسلمٍ مشابهيهم [فيه].

□ قال أبو بكر في «الجامع»^(١): «باب: فساد التقليد، ونفيه، والفرق بينه وبين الاتباع».

□ وقال أبو عمر^(٢): «قد ذم الله ﷺ التقليد في غير موضع من كتابه؛ فقال: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

ورُوي عن حذيفة رضي الله عنه وغيره قال: «لم يعبدوهم من دون الله، ولكنهم أحلوا وحرّموا عليهم؛ فاتبعوهم».

وقال عدي بن حاتم: أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب، فقال: «يا عدي، ألقِ هذا الوثن من عنقك». وانتهيت إليه وهو يقرأ سورة «براءة»؛ حتى أتى على هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، قال: فقلت: يا رسول الله، إننا لم نتخذهم أرباباً، قال: «بلى؛ أليس يحلّون لكم ما حرّم عليكم فتحلّونه، ويحرّمون عليكم ما أحلّ لكم فتحرمونه؟». فقلت: بلى، قال: «فتلك عبادتهم». والحديث في «المسند» والترمذي مطولاً^(٣).

(١) يقصد الخطيب البغدادي رحمته الله.

(٢) يقصد ابن عبد البر رحمته الله.

(٣) حسن: وقد تقدم.

وقال أبو البختري في قوله ﷺ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾؛ قال: «أما إنهم لو أمروهم أن يعبدوهم من دون الله ما أطاعوهم، ولكنهم أمروهم؛ فجعلوا حلال الله حرامه، وحرامه حلاله فأطاعوهم؛ فكانت تلك الربوبية»^(١).

فمن عرف هذه المقدمة، عرف أنه ليس بيننا وبين الناس اختلافٌ في [أصحاب] المذاهب الأربعة - رضوان الله عليهم -؛ بل وقع بيننا وبينهم النزاعُ عند معارضتهم للحق ودفعه بهذين النوعين^(٢)؛ كما كان هذا الواقع من أهل هذا الزمان، وليس لهم حجةٌ إلا ذلك، وارتكابهم المحرمات، واتباعهم الأهواء والشهوات، ومع ذلك يزعمون بأنهم ينتسبون إلى المذاهب؛ وليسوا كذلك؛ فإن من انتسب إلى شيء وليس عليه حقيقةٌ لم ينفعه ذلك؛ فإن النصارى لم ينفعهم انتسابهم إلى عيسى، وكذلك اليهود لم ينفعهم انتسابهم إلى موسى.

وقد قال الله تعالى لنبيه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾، إلى قوله: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الباقية: ٢١]. ثم ذكر بعد ذلك: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ إلى قوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الباقية]، ولأن الله تعالى قال: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠].

□ قال الشيخ ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «جمع الله الطرق في طريقين: إما

(١) حتى هنا انتهى كلام الحافظ ابن عبد البر في «جامع العلم».

(٢) وهما - كما رأينا - في حقيقتهما نوعٌ واحد، وهو التقليد المخالف للدليل.

هَدًى، وإما هَوًى، وكذلك في الآية المتقدمة: إما متبعٌ لشريعته ﷺ التي جعله الله عليها، ورضيها لعباده، وإما متخذٌ إلهه هواه؛ أعاذنا الله من الآراء المحدثّة والأهواء المضلة.

وأما الأئمة عليهم السلام فهم أئمة الهدى، إجماعهم حجة، واختلافهم رحمة^(١)، والدين وسط.

📖 [الخلافا في تقليد أهل العلم]^(٢):

(١) ليس هذا على إطلاقه؛ فإن الاختلاف لم يكن - ولن يكون - رحمةً في يوم من الأيام، وأما الحديث المروي عنه عليه السلام: «اختلاف أمتي رحمة»: فهو حديث باطلٌ لا أصل له، كما أفاد الشيخ الألباني في «الضعيفة» (٥٧)، وقال: «ولقد جهد المحدثون في أن يقفوا له على سند، فلم يوفقوا» اهـ.

■ يقول العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمته الله: «الاختلاف ليس رحمة؛ بل إنه شقاقٌ وبلاء؛ وبه نعرف أن ما يروى عن النبي عليه السلام أنه قال: «اختلاف أمتي رحمة» لا صحة له؛ وليس الاختلاف برحمة؛ بل قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ (١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ [هود]، أي فإنهم ليسوا مختلفين. نعم؛ الاختلاف رحمةٌ بمعنى: أن من خالف الحق لاجتهادٍ فإنه مرحومٌ بعفو الله عنه؛ فالمجتهد من هذه الأمة إن أصاب فله أجران؛ وإن أخطأ فله أجرٌ واحد؛ والخطأ معفو عنه. وأما أن يقال هكذا على الإطلاق: «إن الاختلاف رحمة»؛ فهذا مقتضاه أن نسعى إلى الاختلاف؛ لأنه هو سبب الرحمة على مقتضى زعم هذا المروي!! فالصواب أن الاختلاف شر» اهـ. «تفسير سورة البقرة» (٢/٢٧٣).

وللعلماء كلام كثيرٌ حول هذه المسألة، وكيفينا هنا هذه الإشارة، وفي كتابي: «لطائف الفوائد ونفائس الفرائد» مزيدٌ نقول.

(٢) من أحسن ما كتب في هذا الباب وأكثره تفصيلاً وتديقاً كتاب العلامة =

واختلف العلماء في تقليدهم:

١ - فطائفة نفّوا التقليد وأنكروه، وقالوا: الناس أحد رجلين:

[الرجل الأول]: إما عامي؛ فيجب عليه أن يتعلم ما يقوم به دينه. ولا فائدة له في لزوم مذهب معين؛ فإنه كالأمي الذي يدّعي أنه يقرأ وليس بقارئ، أو يدّعي أنه يكتب وليس بكاتب؛ فيدّعي أنه على مذهب وهو لا يعرفه، ولا يعرف الصحيح منه والضعيف.

والرجل الثاني: فقيه؛ فلا يصح له أن يُقدّم على شيءٍ بغير حجةٍ ولا دليل.

والتقليدُ أمرٌ ضروري؛ يباح عند الضرورة.

٢ - وطائفة - وهم أكثر الفقهاء -: توسطوا في ذلك، لم يخرجوا عمّا قاله الأئمة عليهم السلام، وهم عندهم أكفأ في موارد النزاع، وهم عندهم معذورون فيما لم يبلغ أحدّهم من السنة؛ كما بيّن ذلك شيخ الإسلام رحمته الله في كتابه «رفع الملام عن الأئمة الأعلام»، ودار أولئك مع ^(١) النصوص حيث دارت، وتمسكوا بالسنة حيث بانت واستنارت، وهم أتباع الأئمة، وهم أهل النجاة من هذه الأمة؛ فإن الأئمة عليهم السلام نهّوا عن تقليدهم - وهو الواجب عليهم - إلا فيما وافق السنة، وهذا التقليد والاتباع هو النوع الثالث الممدوح - لا ما تقدم -. ولنذكر طرفاً من مقالة الأئمة:

= الشوكاني رحمته الله: «القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد»، وهو ثابت في «الفتح الرباني من فتاوى الشوكاني» (١٢٦١/٥)، وقد ضمّمته مع رسالةٍ أخرى له - أيضاً -، فلا يفوتنك؛ فإنه في غاية النفاسة. (١) في المطبوعات: «وداروا مع أولئك»، ولعل الأصح ما أثبتّه.

□ قال ابن القاسم: عن مالك قال: «ليس كلُّما قال رجل قولاً - وإن كان له فضل - يُتبع عليه؛ لقول الله ﷻ: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر]».

□ وقال بشر بن الوليد: «قال أبو يوسف - صاحب أبي حنيفة -: لا يحلُّ لأحدٍ أن يقول مقالتنا حتى يعلم من أين قلنا».

□ وقال أبو حنيفة رحمته الله (١): «هذا رأيي، فمن جاءنا برأيٍ خيرٍ منه قبلناه».

□ وقال: «أو لأحدٍ قولٌ مع قول النبي ﷺ؟!». □ وقال مالك رحمته الله: «كلُّ يؤخذ من قوله ويُردُّ، إلا صاحب هذا القبر رحمته الله».

وقد صرَّح مالك رحمته الله بأن من ترك قول عمر بن الخطاب لقول إبراهيم النخعي أنه يُستتاب؛ فكيف من ترك قول رسول الله ﷺ لمن هو دون إبراهيم أو مثله؟! □ وذكر البيهقي عن الشافعي رحمته الله: «مثلُ الذي يطلب العلم بلا حُجة؛ كمثل حاطب ليل؛ يحمل حُزمة حطبٍ وفيه أفعى تلدغه، وهو لا يدري».

□ وقال رحمته الله: «إذا صحَّ الحديث فهو مذهبي».

إلى غير ذلك عنه.

□ وقال أبو داود: «قلت لأحمد: الأوزاعي هو أهلٌ أن يقلد أم مالك؟ فقال: لا تقلد دينك أحداً من هؤلاء، إلا ما جاء عن النبي ﷺ وأصحابه فخذ».

وفي لفظٍ: «وخذ من حيث أخذوا».

(١) أي: في مسألة اجتهادية.

□ وقال ﷺ: «مِنْ قَلَةٍ فَقِهِ الرَّجُلُ أَنْ يَقْلُدَ فِي دِينِهِ الرَّجَالَ». وتتبع ذلك يطول.

النوع الرابع من التقليد مذموم، وهو الغلو فيه؛ وتعلق به طائفة؛ إذا التزموا مذهباً من المذاهب الأربعة قالوا: «لا يجوز مخالفته، ولا بد من اتباعه على كل حال!» وجعلوا كل إمام في اتباعه بمنزلة النبي في أمته. وهذا تبديل للدين.

□ قال أحمد ﷺ: «عجبتُ لقوم عرفوا الإسناد وصحته؛ يذهبون إلى رأي سفيان! والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور]».

□ وقال ابن عباس ﷺ: «يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء؛ أقول: قال رسول الله ﷺ. وتقولون: قال أبو بكر وعمر!». □ وقال سفيان بن عُيينة: «اضطجع ربيعةً مقنَّعاً رأسه وبكى؛ فقيل: ما يبكيك؟ قال: رياءٌ ظاهر، وشهوةٌ خفية، والناس عند علمائهم كالصبيان عند أمهاتهم، ما نهوهم عنه انتهوا، وما أمروهم به ائتمروا».

□ وقال عبد الله بن المعتز^(١): «لا فرق بين بهيمة تنقاد وإنسانٍ يقلد».

□ وقال ابن مسعود: «لا يقلدن أحدكم رجلاً؛ إن آمن آمن وإن كفر كفر؛ فإنه لا أسوة في الشر».

□ وقال - أيضاً - ﷺ: «اغد عالماً أو متعلماً، ولا تغدُ إمعةً^(٢) فيما بين ذلك».

(١) في المطبوعات: «المعتمر»، والصواب ما أثبتته.

(٢) الإمعة: التابع الأعمى الذي لا رأي ولا عقل له.

وروي عن علي عليه السلام مثل ذلك.
والكلام على هاتين المسألتين يطول، وإنما ذكرنا عليهما ما تيسر
مع التقصير؛ لأنهما يُسأل عنهما الأولون والآخرون: ماذا كنتم
تعبدون؟ وماذا أجبتكم المرسلين؟
فالمسألة الأولى: فيها تحقيق العبادة.
والمسألة الثانية: فيها تحقيق المتابعة.
آخِرُهُ. والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد
وآله وأصحابه أجمعين.



[٣١]

سبيل النجاة والفكاك من موالاة
المرتدين والأتراك

لفضيلة الشيخ

حمد بن علي بن عتيق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب قيماً بلا اعوجاج، وجعله عصمةً لمن تمسك به واعتمد عليه في الاحتجاج، وأوجب فيه مقاطعة أهل الشرك بإيضاح الشريعة والمنهاج.

والصلاة والسلام على محمدٍ الذي مَزَقَ اللَّهُ ظلامَ الشرك بما معه من السراج، وعلى آله وأصحابه الذي جاهدوا أهل الكفر وباينوهم ^(١) من غير امتزاج.

أما بعد :

فإني قد تكلمتُ وشَدَدْتُ في النهي عن مولاة المشركين، ودعوتُ مَنْ حولي من المسلمين إلى عداوة الكافرين، ثم كتبت في ذلك بعض الآيات الدالة عليه، مع كلماتٍ قليلةٍ من كلام بعض المحققين من أهل العلم والدين، وما كنت أظن أن من قرأ القرآن وآمن أنه كلام الله، وأن الله تعَبَّدَنَا بالعمل به والقيام = إِلَّا إذا سمع ذلك أذعن له وانقاد، وبادر إلى السمع والطاعة لحكمه؛ لقوله تعالى:

﴿اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ^(٢) قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ

﴾ [الأعراف].

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ

(١) باينوهم: فارقوهم.

(٢) راجع المعنى في (١/٢١٦).

ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ^(١) ﴿١٦٠﴾ [النساء].
 وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٦١﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَمَحْشَرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٦٢﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٦٣﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْنَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ ﴿١٦٤﴾﴾ [طه].

فحصل من بعض الجاهليين والمعاندين إنكارٌ لذلك، وجحدٌ لما أوجب الله القيام والإقرار به، فصار المنتسبون إلى العلم المدَّعون أنهم من طلبته في ذلك أقسام:

- ١ - طائفة منهم استحسنت المعارضةَ الجاهلة الضالة ورضيتها - وإن لم تصرِّح بذلك -؛ فإنه ظاهرٌ على وجوها.
- ٢ - وطائفة كرهت المعارضة، واستجهلت صاحبها ^(٢)، لكنها لم تفعل ما أوجب الله عليها من رد ذلك، والإنكار على سالكه ^(٣).

ولولا ما وقع لهؤلاء لَمَا كان المعارض مساوياً لمن يجاوبه؛ فلأجل ذلك كتب شيخنا عبدالرحمن بن حسن رسالة مفيدة في الرد على هذا المعارض نقض فيها أقواله نقضاً بديعاً، وهي كافية في الرد عليه، فصار شيخنا هو إمام الطائفة الرادة لأقوال أهل الباطل

(١) فالله ﷻ شَرَطَ في صحة الإيمان أن يتحاكم المختلفون إلى كتابه وسنة رسوله ﷺ، وليس فقط؛ بل لابد للمتحاكمين جميعاً أن يَرْضُوا بحكم الشريعة سواء كان لهم أو عليهم؛ لأن البعض قد يأتي الحكم عليهم فيسلمون، لكنهم لا يرضون بقلوبهم، فنفى الله تعالى الإيمان عن من لم يرضَ بقلبه.

(٢) أي: علموا جهالة من عارض الشيخ رحمه الله.

(٣) يقصد سالك الضلال، كما هو بيِّن من السياق.

المنكرة لها، واللّه ناصراً دينه، ومظهره على الدين كله ولو كره الكافرون.

ثم إني كاتبٌ - إن شاء الله تعالى - كلماتٍ فيها بيانٌ لأشياء وقع الغلط فيها ممن ينتسب إلى الإسلام؛ بل من كثير ممن ينتسب إلى العلم؛ لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّعِينُونَ﴾ [البقرة]. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُذِلَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران].

منها: وجوبُ معاداة الكفار والمشرّكين ومقاطعتهم.

ومنها: شيءٌ مما يصير الرجل به مرتداً.

ومنها: ما يُعذر الرجل به على موافقة المشرّكين ويُظهر الطاعة لهم.

ومنها: مسألة إظهار الدين.

ومنها: مسألة الاستضعاف.

ومنها: وجوب الهجرة، وأنها باقية.

وسمّيت هذا الكتاب:

«سبيل النجاة والفكاك من موالاة المرتدين والأتراك»^(١)

(١) هكذا في الطبعة المحققة. والمشهور عند الكثيرين: «وأهل الإشراك». لكنني رأيت المثلث بعيني على مخطوط الكتاب، فهي أولى - بلا شك - من عبارة: «أهل الإشراك»، وإن كان الظاهر أن من غيّر العنوان جعل الأمر عامّاً لكل من سقط في أحوال الشرك، لكن ما سطره المؤلف أولى =

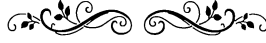
وَأَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَهُ مَبْنِيًّا عَلَى الْإِخْلَاصِ، وَأَنْ يَنْفَعَهُ بِهِ مِنْ قَرَأَهُ وَسَمِعَهُ طَلَبًا لِلنَّجَاةِ وَالْخَلَاصِ.



= قطعًا. ومعلومٌ أن العلماء إذا بيَّنوا حال أهل بلدٍ أو طائفةٍ، فليس المقصود من ذلك حصر الأمر فيهم؛ إذ «الحكمُ يدورُ مع علته أينما دارت»، فمن تحقق فيه وصفٌ ما شمله الحكم الشرعي في أيِّ زمانٍ ومكان.

وهذا معناه - كما اتضح - أن المقصود من «الأتراك» المشركون منهم على الأخص، وقد قال المصنف في غصون الكتاب - كما سيأتينا -: «إن المنتسبين إلى الإسلام لما سلكوا كثيرًا من هدي اليهود والنصارى وأهل الجاهلية المشركين والأعاجم أعداء الله، وتشبهوا بهم في كثيرٍ من الأمور = سُلط عليهم الترك الكافرون الخارجون عن شرائع الإسلام» اهـ. والله تعالى الموفق للخيرات.

فصل



اعلم أن الله ﷻ بعث محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق، فبيّن للناس ما نُزِّل إليهم، فما من خيرٍ إلا دلهم عليه، وعَرَّفهم الطريق الموصلة إليه، وما من شرٍّ إلا حذرهم منه، وسد عليهم أبوابه المُفضية إليه.

ومن أعظم ذلك أنه أخبرهم «أن الإسلام بدأ غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ»^(١)، وأخبرهم بظهور الفتن التي «كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها مؤمنًا ويمسي كافرًا، ويمسي كافرًا ويصبح مؤمنًا، يبيع دينه بعَرَض من الدنيا»^(٢). فكان وقوع هذا - لَمَّا وَقَعَ هو وأمثاله - من الأدلة على أنه رسول الله ﷺ.

ومما أخبر به: أن أمته تقاتل الترك، ووصفهم بأنهم «صغارُ العيون، ذُلْفُ الأنوف، كأنَّ وجوههم المَجَانُّ المُطَرَّقة»^(٣).

ومعنى «ذلف الأنوف»: أنها قصارٌ منبطحه.

و«المجانُّ»: جمع مِجَنٍّ، وهو الثُّرس.

أراد أن وجوههم مستديرة ناتئة وجناتها. هذا معنى كلام البغوي في «شرح السنة».

فكان من حكمة الله وعدلِهِ أن سلَّطهم في المئة الثالثة عشرة؛

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) رواه مسلم (١١٨)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (٢٩٢٧)، من حديث عمرو بن تغلب رضي الله عنه.

فسلطهم على أهل الديار النجدية لما ظهرت فيهم الملة الحنيفية، ودَعَوْا إلى الطريقة المحمدية، ولكن حصل من بعضهم ذنوبٌ بها تسلطت هذه الدولة الكفرية، فجرى ما هو ثابتٌ في الأقدار الأزليَّة، وإن كانت لا تجيزه الأحكامُ الشرعية، واللَّهُ تعالى ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء]، وامْتُحِنَ أهل الإسلام بأُمُورٍ تشبه ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى في حادثة ظهور التتار في زمنه - وهم باديةُ التُّرك^(١) -، فناسب أن نذكر بعض كلامه.

□ قال رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «فإن هذه الفتنة التي ابتلي بها المسلمون مع هذا العدوِّ المفسِدِ الخارج عن شريعة الإسلام، قد جرى فيها شبهٌ بما جرى للمسلمين مع عدوِّهم على عهد رسول الله ﷺ في المغازي التي أنزل الله فيها كتابه، وابتلى بها نبيّه والمؤمنين، مما هو أسوءُ حسنةً لمن كان يرجو الله واليوم الآخر، وذكر الله كثيراً إلى يوم القيامة؛ فإن نصوص الكتاب والسنة - اللذين هما دعوة محمد ﷺ - تتناول عموم الخلق بالعموم اللفظي^(٢)، وبالعموم المعنوي.

وعهودُ الله في كتابه وسنته تتناول آخرَ هذه الأمة كما نالت أوَّلَها، وإنما قَصَّ الله علينا قَصَصَ مَنْ قبلنا من الأمم، ليكون عبرةً لنا؛ فنشبهَ حالنا بحالهم، ونقيس أواخر الأمم بأوائِلها، فيكون للمؤمن من المستأخِرِينَ شبهٌ بما كان للمؤمن من المستقدِّمِينَ، ويكون للكافر والمنافق من المستأخِرِينَ شبهٌ بما كان للكافر والمنافق من المستقدِّمِينَ:

(١) البادية: الصحراء.

(٢) في بعض النسخ: «اللفظي والمعنوي».

كما قال تعالى - لما قص قصة يوسف مفصلةً، وأجمل ذكر قصص الأنبياء -: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

وقال لما ذكر قصة فرعون: ﴿فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَىٰ﴾ (١٥) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾ (١٦) [النازعات].

وقال في محاصرة بني النضير: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾، إلى قوله: ﴿فَاعْتَرِبُوا يَتَآوَلِي الْأَبْصَارِ﴾ (٢) [الحشر].

فأمرنا أن نعتبر بأحوال المستقدمين علينا من هذه الأمة وممن قبلها.

وذكر في غير موضع أن سنته في ذلك سنة مطردة وعادة مستمرة؛ فقال تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ^(١) فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ^(٢) ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٦٠) ﴿مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا نُثَفُّوْا أُخِذُوا وَكُتِلُوا نَفْتِيلًا﴾ (٦١) ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (٦٢) [الأحزاب].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ قَتَلْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَحْدُوثَ وَإِنَّا وَلَّا نَصِيرًا﴾ (٢٢) ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (٢٣) [الفتح].

وأخبر سبحانه أن دأب الكافرين من المستأخرين كدأب الكافرين من المستقدمين؛ فينبغي للعقلاء أن يعتبروا سنة الله وأيامه في عباده، ودأب الأمم وعاداتهم، لا سيما في مثل هذه الحادثة العظيمة التي طبَّق الخافقين خبرها، واستطار في جميع الديار شررها، وأطلع

(١) المرجفون: مشيعو الأكاذيب بين الناس.

(٢) أي: لنسلطنك عليهم.

فيها النفاق ناصيةً راسه، وكشّر فيها الكفر عن أنيابه وأضراسه، وكاد فيها عمودُ الكتاب أن يُجثت ويُخترم^(١)، وحبلُ الإيمان أن ينقطع ويُصطم^(٢)، وعقرُ دار المؤمنين أن يحل بها البوار، وأن يزول هذا الدين باستيلاء الفجرة التتار، وظن المنافقون والذين في قلوبهم مرض أن ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب]، وأن لن ينقلب حزبُ الله ورسوله إلى أهلهم أبدًا، وزُين ذلك في قلوبهم، وظنوا ظن السوء وكانوا قوما بورًا.

ونزلت فتنةً تركت الحليم حيران، وأنزلت الرجل الصادق منزلة السكران، وتركت الرجل اللبيب - لكثرة الوسوس - ليس بالنائم ولا اليقظان، وتناكرت فيها قلوبُ المعارف والإخوان؛ حتى بقي للرجل بنفسه شغل^(٣) عن أن يُغيث اللفهان، وميّز الله فيها أهل البصائر والإيقان، من الذين في قلوبهم مرض أو نفاق أو ضعف إيمان، ورفع بها أقوامًا إلى الدرجات العالية، كما خفض بها أقوامًا إلى المنازلة الهاوية، وكفر بها عن آخرين أعمالهم الخاطئة، وحَدَث من أنواع البلوى ما جعلها مختصرةً من القيامة الكبرى؛ فإن الناس تفرّقوا فيها ما بين شقيّ وسعيد، كما يتفرقون كذلك في اليوم الموعود، ولم ينفع المنفعة الخالصة من البلوى إلا الإيمان والعمل الصالح، والبرُّ والتقوى، وبُليت فيها السرائر، وظهرت الخفايا التي

(١) يجثت: يُقتلع. يُخترم: يزول.

(٢) يُصطم: يُستأصل.

(٣) في المطبوع: «حتى إن في الرجل بنفسه». وما أثبتته من «مجموع

تُكْنِهَا الضمائر، وتبين أن البَهْرَجَ^(١) من الأقوال والأعمال يخون صاحبه أحوج ما كان إليه في المال، وذم سادته وكبراءه من أطاعهم فأضلوه السبيلا، كما حَمِدَ رَبَّهُ مَنْ صَدَقَ في إيمانه واتخذ مع الرسول سبيلا، وبان صدق ما جاءت به الأخبار النبوية من الإخبار بما يكون، وواطأتها^(٢) قلوب الذين هم في هذه الأمة محدثون - أي ملهَمون -، كما تواطأت عليها المبشرات التي رآها المؤمنون، وتبيّن فيها الطائفة المنصورة الظاهرة - الذين لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم إلى يوم القيامة^(٣) -، حيث تحزّب الناس ثلاثة أحزاب:

- حزب مجتهد في نصرة الدين.

- وآخر خاذل له.

- وآخر خارج عن شريعة الإسلام.

وانقسم الناس بين مأجورٍ ومعدور، وآخر قد غرّه بالله الغرور، وكان هذا الامتحان تمييزاً من الله وتقسيماً: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٦].

قلت: وما ذكره من الامتحان والافتتان قد رأينا ما هو نظيره - أو أعظم منه - في هذه الأزمان، وكذلك انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام: أحدها: ناصر لدين الإسلام، وساعٍ في ذلك بكل جهده، وهم

(١) البهرج: الزائف.

(٢) واطأتها: وافقتها.

(٣) رواه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧)، من حديث معاوية رضي الله عنه.

القليلون عددًا، الأعظمون عند الله أجرًا.

القسم الثاني: خاذلٌ لأهل الإسلام، تاركٌ لمعونتهم.

القسم الثالث: خارجٌ عن شريعة الإسلام بمظاهرة حزب المشركين ومناصحتهم.

وقد روى الطبراني عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أعان صاحبَ باطلٍ لِيُدْحِضَ بباطله حقًا، فقد برئت منه ذمَّةُ الله وذمَّةُ رسوله^(١)»^(٢).

وهذا أوان الشروع في المقصود.



(١) الذمَّة: العهد والأمان والحماية.

(٢) صحيح: رواه الحاكم (١٠٠/٤)، والطبراني في «الكبير» (١١٤/١١)، وفي «الصغير» (٢٢٤)، وفي مسند «الشاميين» (٦٣)، والخراطي في «مساوئ الأخلاق» (٥٩٧)، وصحَّحه الحاكم، بينما ضعَّفه الذهبي، وضعَّفه - أيضًا - الإمام الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٢١١/٤)، وصحَّحه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (١٠٢٠)، وحسَّنه الشيخ حسين الداراني في تحقيق «المجمع» (٢٦١/٩).

❁ فصل ❁



📖 [المسألة الأولى]: فأما معاداة الكفار والمشركين:

فاعلم أن الله ﷻ قد أوجب ذلك، وأكد إيجابه، وحرّم موالاتهم، وشدّد فيها، حتى إنه ليس في كتاب الله تعالى حكمٌ فيه من الأدلة أكثر ولا أبين من هذا الحكم، بعد وجوب التوحيد وتحريم ضده. [الدليل الأول]: قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ (١١) [البقرة].

□ قال ابن جرير رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «فأهل النفاق مفسدون في الأرض بمعصيتهم ربّهم، وركوبهم فيها ما نهاهم عن ركوبه، وتضييعهم فرائضه، وشكّهم في دينه الذي لا يقبل من أحد عملاً إلا بالتصديق به، والإيقان بحقيقته، وكذبهم المؤمنين^(١) بدعواهم^(٢) غير ما هم عليه مقيمون من الشك والتكذيب، ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله، إن وجدوا إلى ذلك سبيلاً».

□ قال ابن كثير: «وهذا الذي قال حسن؛ فإن من الفساد في الأرض اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ (٧٢) [الأنفال]؛ فقطع الموالاة بين المؤمنين والكافرين، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [النساء: ١٤٤].

(١) أي: وبكذبهم على المؤمنين. كما يقال: فلانٌ كَذَبَكَ: أي كذب عليك.

(٢) أي: بادعائهم، والضمير عائد على المنافقين.

وقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، أي: نريد أن نداريَ الفريقين من المؤمنين والكافرين، ونَصْطَلِحُ^(١) مع هؤلاء وهؤلاء، يقول الله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾؛ يقول: ألا إن هذا الذي يعتمدونه، ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد، ولكن من جهلهم لا يشعرون بكونه فسادًا انتهى.

وهذا الذي ذكره قد - والله - سمعناه ورأينا أهله؛ فإنه إذا قيل لهم: «ما الحامل لكم على مجالسة أهل الشر والفساد؟ قالوا: نريد أن نصلح أحوالنا، ونستخرج دنيانا منهم، ويكون لنا يدٌ عندهم». وبعضهم إذا ظن بالله ظنَّ السوء من إدالة^(٢) أهل الباطل، ورأى مَنْ له اتصالٌ بهم وتوصلٌ إليهم اتخذه صديقًا، ورضي به جليسا، قائلًا بلسان حاله: ﴿نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ [المائدة: ٥٦]، ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة].

[الدليل الثاني]: وقال تعالى: ﴿بَشِّرِ الْمُتَفَقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ ١٣٨ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيْبَنُوتَ عَنْهُمْ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾ [النساء]، إلى قوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أُرِيدُونَ أَنْ يُبْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾^(٣) ١٤٤ [النساء].

□ قال ابن كثير: «ثم وصفهم بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، يعني أنهم معهم في الحقيقة، يوالونهم، ويُسرُّون إليهم بالمودَّة، يقولون إذا خلَّوا بهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ ١٤١ [البقرة]، أي بالمؤمنين في إظهارنا لهم الموافقة. قال الله تعالى

(١) في المطبوع: «نصلح». والمثبت من «تفسير ابن كثير» (١/١٨٨).

(٢) الإدالة: النصرة. (٣) أي: حجة ظاهرة في عذابكم؟

منكراً عليهم فيما سلكوه من موالاة الكافرين: ﴿يَبْنَعُونَ الْعِزَّةَ﴾ [النساء: ١٣٩]؟ ثم أخبر أن العزة كلّها له وحده لا شريك له، ولمن جعلها له؛ كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

والمقصود من هذا: التهييج على طلب العزة من جناب الله تعالى، والالتجاء إلى عبوديته، والانتظام في جملة عباده المؤمنين؛ الذين لهم النصرة في هذه الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد». قلت: فإذا كانت موالاة الكافرين من أفعال المنافقين، فهذا كافٍ في تحريمها والنهي عنها.

[الدليل الثالث]: وقال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨].

فنهى سبحانه المؤمنين عن موالاة الكافرين، ثم قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾، أي: ومن يوالي الكافرين ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾، أي فقد برئ من الله، وبرئ الله منه، وهذا تهديد شديد، ووعد أكيد، حفظاً للإسلام والتوحيد.

[الدليل الرابع]: وقال تعالى: ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ (٨٠) ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا أَتَزَلَّ إِلَيْهِ مَا أَخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسِقُوتٌ﴾ (٨١) [المائدة].

□ قال شيخ الإسلام: «فبين ﷺ أن الإيمان بالله والنبي وما أنزل إليه مستلزم لعدم ولايتهم، فثبوت ولايتهم يوجب عدم الإيمان؛

لأن عدم اللازم يقتضي عدم الملزوم».

قلت: رتب الله تعالى على موالاته الكافرين سخطه والخلود في العذاب، وأخبر أن ولايتهم لا تحصل إلا ممن ليس بمؤمن، وأما أهل الإيمان بالله وكتابه ورسوله فإنهم لا يوالونهم؛ بل يعادونهم، كما أخبر الله عن إبراهيم والذين معه من المرسلين - كما يأتي بيانه إن شاء الله تعالى -.

[الدليل الخامس]: وقال تعالى: ﴿يَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ٥١﴾ فترى الذين في قلوبهم مرض يسرعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين ﴿٥٢﴾ [المائدة].

فنهى ﷺ المؤمنين أن يوالوا اليهود والنصارى، وذكر أن من تولاهم فهو ﴿منهم﴾، أي: من تولى اليهود فهو يهودي، ومن تولى النصارى فهو نصراني.

□ وقد روى ابن أبي حاتم، عن محمد بن سيرين، قال: قال عبد الله بن عتبة [بن مسعود]: «ليتن أحدكم أن يكون يهوديًا أو نصرانيًا وهو لا يشعر. قال: فظنناه يريد هذه الآية: ﴿يَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾، إلى قوله: ﴿فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾».

وكذلك من تولى الشرك فهو تركي^(١)، ومن يتولى الأعاجم فهو

(١) في نسخ أخرى: «من تولى الشرك فهو مشرك»، وهذا تابع للاختلاف حول اسم الرسالة - كما ذكرنا سابقًا -، وقد قال المحقق هنا - أيضًا - عن «الشرك... مشرك»: هو تحريف. وحتى على المثبت، فالمراد: =

أعجمي، فلا فرق بين من تولى أهل الكتابين أو غيرهم من الكفار. ثم أخبر تعالى أن الذين في قلوبهم مرض - أي شك في الدين وشبهة - يسارعون في الكفار قائلين: ﴿نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾ أي: إذا أنكرت عليهم موالاة الكافرين، قالوا: «نخشى أن تكون الدولة لهم في المستقبل فيتسلطوا علينا، فيأخذوا أموالنا، ويشرّدونا من بلداننا». وهذا هو ظن السوء بالله الذي قال الله فيه: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السُّوءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السُّوءِ وَعَظِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ (٦) [الفتح].

ولهذا قال تعالى في الآية: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾؛ و«عسى» من الله واجب. فالحمد لله الذي أتى بالفتح، فأصبح أهل الظنون الفاسدة على ما أسروا في أنفسهم نادمين. [الدليل السادس]: وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوءًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكَفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُفْرَكُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٥٧) [المائدة].

فنهى سبحانه المؤمنين عن موالاة أهل الكتابين وغيرهم من الكفار، وبيّن أن موالاتهم تنافي الإيمان.

[الدليل السابع]: وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٣) قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَإِبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي

الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ [التوبة].

فنهى ﷺ المؤمن عن موالاة أبيه وأخيه - اللذين هما أقرب الناس إليه - إذا كان دينهما على غير الإيمان، وبَيَّن أن الذي يتولَّى أباه وأخاه - إذا كانا كافرين - فهو ظالم، فكيف بمن تولَّى الكافرين - الذين هم أعداء له ولآبائه ولدينه -، أفلا يكون هذا ظالمًا؟! بلى - والله - إنه أظلم الظالمين.

ثم بيَّن تعالى أن هذه الثمانية لا تكونُ عذرًا في موالاة الكافرين، فليس لأحد أن يواليهم خوفًا على أبيه أو أخيه أو بلاده أو ماله، أو مشقةً بعشيرته، أو مخافةً على زوجاته؛ فإن الله قد سدَّ على الخلق باب الاعتذار بهذه الثمانية؛ وذلك أنه ما من أحدٍ يوالي المشركين إلا وهو يعتذر بها أو ببعضها، وقد بان أن هذا ليس بعذر. فإن قيل: قد قال كثير من المفسرين: إن هذه الآية نزلت في شأن الجهاد.

فالجواب من وجهين:

أحدهما: أن نقول: إذا كانت هذه الثمانية ليست عذرًا في ترك الجهاد - الذي هو فرضٌ على الكفاية -، فكونها لا تكون عذرًا في ترك عداوة المشركين ومقاطعتهم بطريق الأولى.

الوجه الثاني: أن الآية نفسها دلَّت على ما ذكرنا كما دلت على الجهاد؛ فإنه قال: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ﴾؛ فإن فمحة الله ورسوله توجب إثارة عداوة المشركين، ومقارعتهم على هذه الثمانية، وتقديمها عليها؛ كما أن محبة الجهاد توجب إثارة عليها، وبالله التوفيق.

وهذا إذا سمعه المنصف يكون عنده ظاهراً؛ وأما من أعمى الله بصيرته بسبب تعصبه؛ فكما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١٦ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ۝١٧﴾ [يونس].

[الدليل الثامن]: وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال: ٧٢]. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ۝٧٣﴾ [الأنفال].

فأخبر أن الكفار إذا لم يوال بعضهم بعضاً - بأن ينحازوا عن المسلمين، ويقطع المسلمون أيديهم منهم -، وإلا وقعت الفتنة والفساد الكبير، فتبين أن موالاة المؤمن للكافر سببٌ للافتتان في الدين بترك واجباته، وارتكاب محرماته، والخروج عن شرائعه، وسببٌ للفساد في الأديان والأبدان والأموال، فأين هذا من قول أهل الفساد والمجون: إن موالاة المشركين صلاحٌ وعافية وسلامة؟!

[الدليل التاسع]: وقال تعالى: ﴿وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً ۖ فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنَّخِذُوا مِنْهُمْ وَليّاً وَلَا نَصِيراً ۝٨٩﴾ [النساء].

فأخبر تعالى عن الكفار أنهم يودّون كفر المسلمين كما كفروا^(١). ثم نهى أهل الإيمان عن موالاتهم حتى تحصل منهم الهجرة بعد الإسلام.

[الدليل العاشر]: وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَآيْنَعَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ

(١) في نسخة: «كما كفروهم»، والمثبت أولى لموافقة لفظ القرآن العظيم.

إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ① إِنْ يَشْفِقُواكُمْ يُكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَسْطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتُهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ② لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُهُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ③ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُوكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ ④ [الممتحنة]، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ⑤﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَيسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَيسُ الْكُفَّارُ مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ⑥﴾ [الممتحنة].

وقد ثبت في الصحاح: أن هذه السورة نزلت في رجل من الصحابة؛ لما كتب إلى أهل مكة يخبرهم بمسير النبي ﷺ إليهم عام الفتح؛ فأنزل الله هذه الآيات بخبر هذا الكتاب، وبعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب في أثر المرأة التي ذهبت بالكتاب، فوجده في عقيصة رأسها^(١)، فجاء الرجل إلى النبي ﷺ يعتذر، ويحلف: إنه ما شك [في دينه]، ولكنه ليس له من يحمي من وراءه من أهله بمكة، وأنه أراد بهذا يداً عند قريش، واستأذن بعض الصحابة في قتله، فقال النبي ﷺ: «وما يدريك؟ إنَّ^(٢) الله اطلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم»^(٣).

(١) العقيصة: الشعر المظفور.

(٢) في الروايات المشهورة: «لعل»، والمثبت - أيضاً - رواية صحيحة في «المسند» وغيره.

(٣) صحيح: وقد تقدم.

فلولا أن ذلك الرجل كان من أهل بدر لقتل لأجل هذا الكتاب.
ففي هذه السورة - مع سبب نزولها - من الأدلة على وجوب
عداوة الكفار ومقاتعتهم أدلة كثيرة، فهي تعالى أهل الإيمان عن
اتخاذ عدوّه وعدوهم وليّاً، وهذا تهيج على عداوتهم؛ فإن عداوة
المعادي لربك باعثة وداعية إلى عداوتك له.

ولنضرب لذلك مثلاً - ولله المثل الأعلى -: فقدّر نفسك مملوكاً
لإنسان هو سيّدك، والسبب في حصول مصالحك ومنع مضارك،
وسيدك له عدو من الناس؛ فهل يصحّ عندك، ويجوز في عقلك أن
تتخذ عدو سيّدك وليّاً - ولو لم ينهك عن ذلك -؟! فكيف إذا نهاك
عن ذلك أشد النهي، ورتب على موالاةك له أن يعذّبك، وأن يسخط
عليك، وأن يوصل إليك ما تكره، ويمنع عنك ما تحب؟! فكيف إذا
كان هذا العدو لسيّدك عدواً لك - أيضاً -؟! فإن واليته - مع ذلك
كله - إنك إذن لمن الظالمين الجاهلين.

ثم قال: ﴿تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾، وهذا كافٍ في إبطال شبهة
المشبّهين؛ فإنه إذا أنكر عليهم موالاة المشركين وموادتهم، قالوا:
«لم يصدر منا ذلك»! وهم - مع ذلك - يُعينون أهل الباطل بأموالهم،
ويذبّون عنهم بالسنتهم، ويكاتبونهم بعورات المسلمين، فأين هذا
من الكتاب الذي نزلت فيه هذه السورة، وقد سماه الله إلقاءً
بالمودة؟! وهذا ظاهر جدّاً.

ثم قال: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ
رَبِّكُمْ﴾؛ فذكر ما يدعو إلى عداوتهم، وهو كفرهم بالحق الذي جاءنا
من عند الله، وإخراجهم النبي ﷺ وأهل الإسلام لأجل الإيمان
بالله.

ثم حذّر تعالى من موالاتهم بأنه يعلم السر والعلانية، وهذا تهديدٌ شديد.

ثم قال: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، أي: من يتولّى أعداء الله، ويلقي إليهم بالمودة، ويسرّ إليهم = فقد أخطأ الصراط المستقيم، وخرج عن طريق الصواب.

ثم قال: ﴿إِنْ يَتَفَقَّهْتُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾؛ فبيّن أنهم إن قدرُوا على المسلم واستولوا عليه، ساموه^(١) سوء العذاب، وبسطوا إليه أيديهم وألستهم بالضرب والقتل وبالكلام الغليظ - ولو كان يوالِيهم ويكاتبهم في حال بُعده عنهم -؛ فإنهم لا يرضون عنه ويُسلمونه من شرّهم حتّى يكون دينه دينهم؛ ولهذا قال: ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾، وكما قال: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

ثم قال: ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمُ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ الآية؛ فبيّن أن كون الرجل له أرحام وأولاد عند المشركين لا يُبيح له موالاتهم، كما اعتذر هذا الرجل بأن له في مكة أرحامًا وأولادًا، فلم يعذره الله تعالى؛ فإنه يجب على الإنسان أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما، ولا يحصل الإيمان حتّى يكون الرسول أحبّ إلى الإنسان من ولده ووالده والناس أجمعين.

فقوله: ﴿لَنْ تَنْفَعَكُمُ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾، أي: لن يُنْجُوكم من عذاب الله، فكيف تقدّمونهم على مراد الله، ولأجلهم توالون أعداء الله؟! والله تعالى مطلعٌ عليكم، بصيرٌ بأقوالكم وأعمالكم ونياتكم.

(١) ساموه: أذاقوه.

ثم بيّن أن هذا الذي دلّهم عليه من موالاة المؤمنين، ونهاهم من موالاة الكافرين، ليس هو أمراً لهم وحدهم؛ بل هو الصراط المستقيم الذي عليه جميع المرسلين؛ فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾، أي: من المرسلين، ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾؛ فقوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣].

فأمرنا سبحانه أن نتأسّى بإبراهيم الخليل ومن معه من المرسلين في قولهم: ﴿إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ إلى آخره. وإذا كان واجباً على المسلم أن يقول هذا لقومه الذين هو بين أظهرهم، فكونه واجباً مع الكفار الأبعدين المخالفين له في جميع الأمور أبين وأبين.

وها هنا نكتةٌ بديعةٌ في قوله: ﴿إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، وهي أن الله تعالى قدّم البراءة من المشركين العابدين غير الله على البراءة من الأوثان المعبودة من دون الله؛ لأن الأول أهم من الثاني؛ فإنه قد يتبرأ من الأوثان، ولا يتبرأ ممن عبدها؛ فلا يكون آتياً بالواجب عليه. وأما إذا تبرأ من المشركين فإن هذا يستلزم البراءة من معبوداتهم.

وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَعَزِّلُكُمْ وَمَا نَدْعُوتُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ [٤٨] [مريم]؛ فقدم اعتزالهم على اعتزال معبوداتهم.

وكذا قوله: ﴿فَلَمَّا أَعَزَّهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [مريم: ٤٩]، وقوله: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ [الكهف: ١٦].

فعليك بهذه النكتة؛ فإنها تفتح لك بابًا إلى عداوة أعداء الله، فكم من إنسانٍ لا يقع منه الشرك، ولكنه لا يعادي أهله، فلا يكون مسلمًا بذلك؛ إذ^(١) تَرَكَ دينَ جميع المرسلين.

ثم قال: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾؛ فقلوله: ﴿وَبَدَا﴾ أي: ظهر وبان^(٢).

وتأمل تقديم العداوة على البغضاء؛ لأن الأولى أهمُّ من الثانية، فإن الإنسان قد يُبغض المشركين ولا يعاديهم؛ فلا يكون آتياً بالواجب عليه حتى تحصل منه العداوة والبغضاء. ولا بد - أيضًا - من أن تكون العداوة والبغضاء باديتين، ظاهرتين بينتين.

واعلم أنه وإن كانت البغضاء متعلقةً بالقلب؛ فإنها لا تنفع حتى تظهر آثارها وتبينَ علاماتها، ولا تكون كذلك حتى تقترنَ بالعداوة والمقاطعة، فحينئذٍ تكون العداوة والبغضاء ظاهرتين. وأما إذا وُجدت الموالاة والمواصلة فإن ذلك يدلُّ على عدم البغضاء، فعليك بتأمل هذا الموضع فإنه يجلو عنك شبهاتٍ كثيرةً.

(١) في المطبوع: «إذا»، ولعل الأصحَّ ما أثبتُّه؛ ويكون المقصود أن من لم يعادِ أعداء الله تعالى، فقد ترك دينَ جميع المرسلين. والله تعالى أعلم.

(٢) وهذا فيه إشارة لطيفة، وهو أننا قبلَ إيماننا لم يكن لدينا عداوةٌ لكم ولا بغضاء، ولكنها «ظهرت وبدت» في حياتنا عندما استنارت بنور الإيمان وتعظيم الديان؛ فلولا أمره لنا وإجلالنا له لَمَا ظهر في حياتنا أيُّ عداوةٍ وبغضاء لكم. وهذا هو أثر الإيمان الصادق في حياة المؤمن، الذي يغيّر قلبَ وعقلَ وفكرَ المرء إلى ما يريده منه إلهه وفاضره العظيم ﷻ. والله تعالى أعلم.

ثم قال: ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾؛ فذكر ﷺ أفعالاً تدعو إلى مقاطعتهم وترك موالاتهم^(١)؛ وهي أنهم يقاتلون في الدين - أي من أجله -، يعني أن الذي حَمَلَهُمْ عَلَى قِتَالِكُمْ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ لِعِدَاوَتِهِمْ لَهُ، وَأَيْضًا يُخْرِجُونَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ دِيَارِهِمْ، وَيَعَاوَنُونَ عَلَىٰ إِخْرَاجِهِمْ، فَمَنْ تَوَلَّاهُمْ - مع ذلك - فهو من أَظْلَمِ الظَّالِمِينَ.

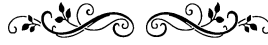
وفي هذه الآية أعظم الدليل وأوضح البرهان على أن موالاتهم محرمةٌ منافيةٌ للإيمان؛ وذلك أنه قال: ﴿إِنَّمَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ﴾ فجمع بين لفظة «إنما» المفيدة للحصر، وبين النهي الصريح، وذكر الخصال الثلاث، وضمير الحصر - وهو لفظة «هم» -، ثم ذكر «الظلم» المعرّف بأداة التعريف.

ثم قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾؛ فنهى سبحانه أهل الإيمان عن موالاة الذين غضب الله عليهم، فلا يحسن من المؤمن ولا يجوز منه أن يوالي مَنْ فعل ما يُغضب الله تعالى من الكفر؛ فإن موالاته له تُنافي الإيمان بالله تعالى.



(١) وهذا يعني أن تهيج المؤمنين على عداوة الكافرين أمرٌ مطلوبٌ شرعاً، وليس إشعالاً للفتن ولا غير ذلك من الشعارات الخداعة.

فصل



وهاهنا أمورٌ يجب التنبيه عليها، ويتعينُ الاعتناء بها؛ لئتمَّ لفاعلها مجانية دين المشركين:

الأمر الأول: تركُ اتباع أهوائهم، وقد نهى الله تعالى عن اتباعها. قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَبِيعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَلَئِنَّ آتِبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

□ قال شيخ الإسلام: «فانظر كيف قال في الخبر: ﴿مِلَّتَهُمْ﴾، وقال في النهي: ﴿أَهْوَاءَهُمْ﴾! لأن القوم لا يرضون إلا باتباع الملة مطلقاً. والزجرُ وقع عن اتباع أهوائهم في قليلٍ أو كثير». وقال تعالى لموسى وهارون: ﴿فَأَسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَا سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩].

[وقال تعالى]: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ تُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَتُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾، إلى قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَأَحْذَرَهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَاهُمْ بَيِّنَاتٍ مِّنَ الْأَمْرِ ^(١) فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾﴾ [البجائية].

□ قال شيخ الإسلام: «فأخبر ﷺ أنه أنعم على بني إسرائيل بنعم الدين والدنيا، وأنهم اختلفوا بعد مجيء العلم بغياً من بعضهم على بعض، ثم جعل محمداً ﷺ على شريعة شرعها له، وأمره باتباعها، ونهاه عن اتباع أهواء الذين لا يعلمون. وقد دخل في ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾: كلٌّ مَنْ خالف شريعته، وأهواؤهم: ما يهْوونه».

قلتُ: فإذا كان اتباع أهواء جميع الكفار وسلوك ما يحبُّونه منهياً عنه وممنوعاً منه، فهذا هو المطلوب، وما ذاك إلا خوفاً من اتباعهم في أصل دينهم الباطل.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أُنزِلَتْهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِّنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾ [الرعد].

فأخبر ﷺ أنه أنزل كتابه حكماً عربياً، ثم توعَّده على اتباع أهواء الكفار بهذا الوعيد الشديد ^(٢).

(١) يعني العلم بمبعث محمد ﷺ وما بُيِّن لهم من أمره.

(٢) وربط الله ﷻ بين «كتابه» وبين «الأهواء» في سياقٍ واحدٍ يدلُّ على أن الناس لا يخرجون في حياتهم عن أحد الأمرين: إما أن يتبعوا ما أنزل إليهم من ربِّهم، وإما أن يتبعوا أهواءهم الضالة بشتى صنوفها =

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايِنِنَا وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾^(١) [الأنعام].

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على وجوب ترك أهواء الكافرين، وتحريم اتباعهم، وأنه من أعظم القوادح في الدين.

الأمر الثاني: معصيتهم فيما أمروا به؛ فإن الله تعالى نهى عن طاعة الكافرين، وأخبر أن المسلمين إن أطاعوهم ردوهم عن الإيمان إلى الكفر والخسارة.

فقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرْدُوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [آل عمران].

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرْدُوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ [آل عمران].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف].

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِجَدِّ لُوكُمْ وَإِن أُطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لِمَشْرُكُونَ﴾ [الأنعام].

وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِيعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا﴾^(٥١) فلا تطيع

= - من الكفر أو البدعة أو المعاصي وغير ذلك -، فهما باختصار طريقان - لا ثالث لهما -؛ فليختر كل عبد لنفسه الطريق الذي يشاء، فأَي طريق سلكه ورد في الآخرة على أهله.

(١) ﴿يَعْدِلُونَ﴾: يساوون معه غيره. تعالى وتقدس عن ذلك.

الْكَافِرِينَ وَجَهَدَهُمْ بِدِينِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ [الفرقان].

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّبِيُّ جَهْدِ الْكَفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾

[التوبة: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا النَّبِيُّ آتَى اللَّهِ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ

كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ [الأحزاب].

وقال تعالى إخبارًا عن من أطاع رؤساء الكفر: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا

سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ ﴿٦٧﴾ [الأحزاب].

وقال تعالى: ﴿اتَّخِذُوا أَعْبَادَهُمْ وَرُءُسًا مِنْ دُونِ اللَّهِ

وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ

سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢١﴾ [التوبة].

وفسر النبي ﷺ اتخاذهم أربابًا: بأنها^(٢) طاعتهم في تحريم

الحلال، وتحليل الحرام^(٣).

فإذا كان من أطاع الأحرار - وهم العلماء -، والرهبان - وهم

العُبَّاد - في ذلك فقد اتخذهم أربابًا من دون الله، فمن أطاع الجهَّال

والفسَّاق في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرَّم الله، فقد

اتخذهم أربابًا من دون الله؛ بل ذلك أولى وأحرى.

(١) والمراد من «الجهاد» هنا: جهاد العلم والحجة والبيان؛ فإن السورة مكية، ولم يكن جهادُ السيف والسنان شرع بعد.

(٢) العبادة: «بأنه»، ليكون عائدًا على «الاتخاذ»، والمثبت له وجه، وهو عائدٌ على «الطاعة»، أو على مفهوم من الكلام، وهو «الخصلة» - مثلاً - . والله تعالى أعلى وأعلم.

(٣) حسن: وقد تقدم.

الأمر الثالث: ترك الركون إلى الكفرة الظالمين، وقد نهى الله عن ذلك.

فقال تعالى: ﴿وَلَا تَزْكُوا^(١)﴾ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٣﴾ [هود].

فنهى ﷺ عن الركون إلى الظلمة، وتوعد على ذلك بمسيس النار، وعدم النصر. والشرك هو أعظم أنواع الظلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ ﴿١٣﴾ [لقمان]، فمن ركن إلى أهل الشرك - أي مال إليهم أو رضي بشيء من أعمالهم -؛ فإنه مستحق لأن يعذبه الله بالنار، وأن يخذله في الدنيا والآخرة.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ ﴿٧٦﴾ إِذَا لَأَذْنُكَ ضَعْفَ الْحَيَوةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا يَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ [الإسراء].

فأخبر ﷺ أنه لولا تثبيته لرسوله ﷺ لركن إلى المشركين شيئاً قليلاً، وأنه لو ركن إليهم لأذاقه عذاب الدنيا والآخرة مضاعفاً، ولكن الله تثبته فلم يركن إليهم؛ بل عاداهم وقطع اليد منهم. ولكن إذا كان الخطاب للنبي ﷺ - مع عصمته - بهذه الشدة، فغيره أولى بلحوق هذا الوعيد به.

الأمر الرابع: ترك موادة أعداء الله.

قال الله تعالى: ﴿لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

(١) ﴿تَزْكُوا﴾: تميلوا وتوافقوا.

□ قال شيخ الإسلام: «فأخبر ﷺ أنه لا يوجد مؤمنٌ يوادُّ من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم، ولا يوجد مؤمن يوادُّ كافرًا، فمن وادَّ الكفار فليس بمؤمن».

قلت: فإذا كان الله قد نفى الإيمان عمَّن وادَّ أباه وأخاه وعشيرته إذا كانوا محادين لله ورسوله، فمن وادَّ الكفار الأبعدين عنه فهو أولى بالألا يكون مؤمنًا.

الأمر الخامس: ترك التشبُّه بالكفار في الأفعال الظاهرة.

□ «لأنها تورث نوع مودةٍ ومحبةٍ وموالاةٍ في الباطن، كما أن المحبة في الباطن تورث المشابهة في الظاهر، وهذا أمرٌ يشهد به الحسُّ والتجربة، حتى إن الرجلين إذا كانا من بلدٍ واحد، ثم اجتمعا في دار غربةٍ، كان بينهما من المودة والائتلاف أمر عظيم، وإن كانا في مصرهما لم يكونا متعارفين، أو كانا متهاجرين؛ وذلك لأن الاشتراك في [البلد]^(١) نوعٌ وصف اختصَّ به عن بلد الغربة؛ بل لو اجتمع رجلان في سفرٍ أو بلد غربة، فكانت بينهم مشابهةٌ في العمامة أو الثياب أو الشعر أو المركب، ونحو ذلك، لكان بينهما من الائتلاف أكثر مما بين غيرهما. وكذلك تجد أرباب الصناعات الدنيوية يألف بعضهم بعضًا^(٢) ما لا يألفون غيرهم؛ حتى إن ذلك يكون مع المعاداة والمحاربة؛ إما على الملوك وإما على الدِّين. وتجد الملوك من الرؤساء - وإن تباعدت ديارهم وممالكهم - بينهم

(١) ما بين المعقوفتين ساقطٌ من المطبوعات، واستدركته من «اقتضاء الصراط المستقيم» (١/٥٤٩).

(٢) في المطبوع: «بعضهم ببعض». والتصويب من المصدر السابق.

مناسبةً تورّثُ مشابهةً ورعايةً^(١) من بعضهم لبعض، وهذا كلّهُ موجبُ الطباع ومقتضاها، إلّا أن يمنع من ذلك دينٌ أو غرضٌ خاصٌّ.

فإذا كانت المشابهة في أمورٍ دينوية تورّث المحبة والموالاتة لهم، فكيف بالمشابهة في أمور دينية؟ فإن إفضاءها إلى نوعٍ من الموالاتة أكثر وأشد. هذا كلام شيخ الإسلام ابن تيمية.

قلتُ: فإذا كانت مشابهة الكفار في الأفعال الظاهرة إنما نُهي عنها لأنها وسيلةٌ وسبب يُفضي إلى موالاتهم ومحبتهم، فالنهي عن هذه الغاية والمحذور أشد، والمنع منه وتحريمه أوكد، وهذا هو المطلوب.

📖 ذكر بعض الدليل^(٢) على النهي عن مشابهة الكفار والمشرّكين:

روى أبو داود في «سننه» عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تشبّه بقومٍ فهو منهم»^(٣).

□ قال شيخ الإسلام: «وإسناده جيد. وأقلُّ أحواله أن يقتضي تحريم التشبه بهم - وإن كان ظاهره يقتضي كُفْرَ المتشبه بهم -؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَاِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، وهو نظير ما سنذكره عن عبد الله بن عمرو أنه قال: «من بنى بأرض المشرّكين، وصنع نيروزهم ومهرجانهم، وتشبّه بهم حتى يموت = حُشر معهم يوم القيامة».

(١) في المطبوع: «وحماية»، والمثبت من السابق.

(٢) كذا في المطبوعات، وهو صحيحٌ لغةً، وتكون الألف واللام للجنس، والمراد سائر الأدلة.

(٣) حسن: وقد تقدم. وهو جزء من حديث: «بُعِثْتُ بالسيف...».

وقد ثبت عن عائشة أنها كرهت الاختصار في الصلاة^(١)، وقالت: «لا تَشَبَّهُوا باليهود»^(٢).

وروى البيهقي بإسنادٍ صحيح عن عمرو بن دينار قال: قال عمر ابن الخطاب: «لا تتعلَّمُوا رطانة الأعاجم، ولا تدخلوا على المشركين في كنائسهم يوم عيدهم؛ فإن السَّخْطَةَ تنزلُ عليهم».

وروى بإسنادٍ صحيح عن أبي أسامة: حدثنا عوف، عن أبي المغيرة، عن عبد الله بن عمرو قال: «من بنى ببلاد الأعاجم، فصنع نيروزهم ومهرجاناتهم، وتشبه بهم حتى يموت وهو كذلك = حشر معهم يوم القيامة».

فهذا عمر نهى عن تعلم لسانهم، وعن مجرد دخول الكنيسة عليهم يوم عيدهم، فكيف بفعل بعض أفعالهم، أو فعل ما هو من مقتضيات دينهم، أليست موافقتهم في العمل أعظم من الموافقة في اللغة؟! أو ليس عملُ بعض أعمالهم - أي أعمال عيدهم - أعظم من مجرد الدخول عليهم في عيدهم؟! وإذا كان السخط ينزل عليهم يوم عيدهم بسبب عملهم، فمن يشركهم في العمل أو بعضه؛ أليس قد تعرض إلى العقوبة؟!.

وأما عبد الله بن عمرو فصرح أنه: «من بنى ببلادهم وصنع نيروزهم ومهرجاناتهم، وتشبه بهم حتى يموت = حشر معهم»، وهذا يقتضي أنه جعله كافراً بمشاركتهم في مجموع هذه الأمور، أو جعل

(١) الاختصار: وضع اليد في الخاصرة.

(٢) والنهي عن الاختصار في الصلاة ثبت مرفوعاً عنه ﷺ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري (١٢٢٠)، ومسلم (٥٤٥).

ذلك من الكبائر الموجبة للنار - وإن كان الأول ظاهر لفظه -؛ فتكون المشاركة في بعض ذلك معصية؛ لأنه لو لم يكن مؤثراً في استحقاق العقوبة، لم يجز جعله جزءاً من المقتضي؛ إذ المباح لا يعاقب عليه، وليس الذم على بعض ذلك مشروطاً ببعض؛ لأن أبعاض ما ذكره تقتضي الذم مفرداً.

وعن عمرو بن ميمون الأودي قال: قال عمر رضي الله عنه: «كان أهل الجاهلية لا يُفيضون من جَمْع حتى تطلع الشمس، ويقولون: «أشرق ثبيرٌ كيما نُغير»؛ فخالفهم النبي ﷺ، وأفاض قبل طلوع الشمس»^(١).
وقد روي في هذا الحديث - فيما أظنه - أنه قال: «خالف هدينا هديَ المشركين»^(٢).

وكذلك كانوا يُفيضون من عرفات قبل غروب الشمس، فخالفهم النبي ﷺ بالإفاضة بعد الغروب.

وعن عبدالله بن عمرو قال: رأى رسول الله ﷺ عليَّ ثوبين

(١) رواه البخاري (١٦٨٤).

(٢) صحيح: رواه الحاكم (٢/٢٧٧)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٥/١٢٥)، والطبراني في «الكبير» (٢٠/٢٤)، من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي.

ولفظ الحديث: عن المسور رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ، بعرفة فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد، فإن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون من هاهنا عند غروب الشمس، حين تكون الشمس على رؤوس الجبال مثل عمام الرجال على رؤوسها؛ فهدينا مخالفتهم، وكانوا يدفعون من المشعر الحرام عند طلوع الشمس على رؤوس الجبال، مثل عمام الرجال على رؤوسها؛ فهدينا مخالفتهم».

مُعَصِّفَرِينَ^(١)، قال: «إِنْ هَذِهِ مِنْ ثِيَابِ الْكُفَّارِ؛ فَلَا تَلْبَسْهَا». رواه مسلم^(٢).

فَعَلَّلَ النَّهْيَ عَنْ لُبْسِهَا بِأَنَّهَا مِنْ ثِيَابِ الْكُفَّارِ.

وَفِي كِتَابِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه إِلَى عَتَبَةَ بْنِ فَرْقَدٍ: «وَإِيَّاكَ وَزَيَّ أَهْلِ الشَّرْكِ». وَهُوَ فِي «الصَّحِيحِينَ»^(٣).

وَرَوَى الْخَلَّالُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ: أَنَّ حَذِيفَةَ أَتَى بَيْتًا، فَرَأَى فِيهِ شَيْئًا مِنْ زِي الْعَجَمِ^(٤)، فَخَرَجَ، وَقَالَ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ». وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي صَالِحٍ السَّوَّاقُ: «كُنَّا فِي وَلِيمَةٍ، فَجَاءَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ، فَلَمَّا دَخَلَ نَظَرَ إِلَى كُرْسِيِّ فِي الدَّارِ عَلَيْهِ فِضَّةٌ، فَخَرَجَ، فَلَحِقَهُ صَاحِبُ الدَّارِ، فَنَفَضَ يَدَهُ فِي وَجْهِهِ، وَقَالَ: زِي الْمَجُوسِ، زِي الْمَجُوسِ».

وَعَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ قَالَ: «دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه عَلَى امْرَأَةٍ مِنْ أَحْمُسٍ يُقَالُ لَهَا: زَيْنَبُ؛ فَرَأَاهَا لَا تَتَكَلَّمُ، فَقَالَ: مَا لَهَا لَا تَتَكَلَّمُ؟ فَقَالُوا: حَجَّتْ مُصِمَّةً، فَقَالَ لَهَا: تَكَلَّمِي؛ فَإِنْ هَذَا لَا يَحِلُّ، هَذَا مِنْ عَمَلِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَتَكَلَّمْتِ، فَقَالَتْ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: امْرُؤٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ. قَالَتْ: أَيُّ الْمُهَاجِرِينَ؟ قَالَ: مِنْ قَرِيشٍ، قَالَتْ: مَنْ

(١) مُعَصِّفَرِينَ: مَصْبُوغِينَ بَعْصَفَرٍ، وَهُوَ صَبَغٌ أَصْفَرُ اللَّوْنِ.

(٢) بِرَقْم (٢٠٧٧).

(٣) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ (٥٨٢٥) - مُخْتَصَرًا -، وَمُسْلِمٌ - بَلْفَظِهِ - (٢٠٦٩).

(٤) «الزِّي» كَانَ يُطْلَقُ عَلَى «الثِّيَابِ، وَالْفُرَشِ، وَأَثَاثِ الْمَنْزِلِ»، كَمَا هُوَ ظَاهِرٌ مِنَ الْآثَارِ الْمَذْكُورَةِ، وَلَيْسَ مُقْتَصَرًا عَلَى «الثِّيَابِ» فَحَسْبُ. وَالْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى.

أي قريش؟ قال: إنك لسؤول، أنا أبو بكر، فقالت: ما بقاؤنا على هذا الأمر الصالح الذي جاء الله به بعد الجاهلية؟ قال: بقاؤكم عليه ما استقامت لكم أئمتكم، قالت: وما الأئمة؟ قال: أما كان لقومك رؤساء وأشراف يأمرونهم فيطيعونهم؟ قالت: بلى، قال: فهم أولئك على الناس». رواه البخاري في «صحيحه»^(١).

فأخبر أبو بكر رضي الله عنه أن الصمت المطلق لا يحل، وعقّب ذلك بقوله: «هذا من عمل الجاهلية»؛ قاصداً بذلك عيب هذا العمل وذمّه، وتعقيب الحكم بالوصف دليل على أن الوصف علة^(٢)؛ فدل على أن كونه من عمل الجاهلية وصفٌ يُوجب النهي عنه والمنع منه. وقد كتب عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنه - إلى المسلمين المقيمين ببلاد فارس: «إياكم وزيّ أهل الشرك».

وهذا نهّي منه للمسلمين عن كل ما كان من زي المشركين. وفي كتابه إلى عتبة بن فرقد: «إياكم والتنعّم، وزيّ أهل الشرك، ولبوس الحرير».

وروى أحمد بن حنبل في «المسند»: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان بالجابية، فذكر فتح بيت المقدس، قال حماد بن سلمة: فحدثني أبو سنان، عن عبيد بن آدم، قال: سمعت عمر رضي الله عنه يقول لكعب: «أين ترى أن أصلي، قال: إن أخذت عني صليت خلف الصخرة، فكانت القدس كلها بين يديك، فقال عمر رضي الله عنه: ضاهيت اليهود! لا، ولكن أصلي حيث صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فتقدم إلى القبلة فصلي، ثم

(١) برقم (٣٨٣٤).

(٢) وهذا ما يسمّى في الأصول: «مسلك الإيماء والتنبيه».

جاء فبسط رداءه، فكس الكُناسة في ردائه، وكَسَّ الناسُ»^(١).

فعاب ﷺ على كعب مضاهاة اليهودية - أي مشابهتها - في مجرد استقبال الصخرة، لما فيه من مشابهة مَنْ يعتقدها قبله باقيةً، وإن كان المسلم لا يقصد أن يصلي إليها.

وقد كان لعمر ﷺ في هذا الباب من السياسات المُحكمة ما هي مناسبةٌ لسائر سيرته المَرُضية؛ فإنه ﷺ هو الذي استحالت ذنوبُ الإسلام^(٢) في يده غَرْبًا^(٣)، فلم يَفِرْ عبقرِيٌّ فَرِيَه^(٤)، حتى صدر الناسُ بَعْطَن^(٥)، فأعز الإسلام، وأذل الكفر وأهله، وأقام شعار الدين الحنيف، ومنع من كلِّ أمر فيه تذرُّعٌ^(٦) إلى نقض عرى الإسلام؛ مطيعًا في ذلك لله ولرسوله، وقافًا عند كتاب الله، ممتثلًا لسنة رسول الله ﷺ، محتذيًا حذو صاحبيه^(٧)، مشاورًا في أموره السابقين الأولين، حتى إن العمدة في الشروط على أهل الكتاب

(١) حسن: رواه أحمد (٣٧/١)، وأبو عبيد في «الأموال» (٤٣٠)، وابن زنجويه في «الأموال» (٦٤٠)، وحسنه الحافظ ابن كثير في «مسند عمر» (١٦٠/١)، وكذا الشيخ أحمد شاکر في تحقيق «المسند»، بينما ضعفه الشيخ شعيب الأرناؤوط في تحقيقه - أيضًا - (٣٧٠/١).

(٢) الذَّنوب: الدلو الممتلئ.

(٣) العَرَب: الدلو العظيمة المتخذة من جلود البقر.

(٤) العبقرى: الرجل العظيم والسيد الكبير واللبيب. وله معانٍ أخر. يفري فريه: يعمل عمله ويقطع قَطْعَه.

(٥) صدر الناس بعتن: رَوَوْا إبلهم، ورجعوا إلى منازلهم. وهو كناية عن

الخير العظيم الذي انتفع به الناس في خلافته ﷺ.

(٦) تذرُّع: تسبُّب.

(٧) في المطبوع: «صاحبه»، والتصويب من «الاقتضاء» (٣٧٦/١).

على شروطه، وحتى مَنَع من استعمال كافر أو ائتمانه على أمر الأمة^(١)، وإعرازه بعد إذ أذَّله الله، وحتى رُوي أنه حرَّق الكتب العجمية، وهو الذي منع أهل البدع أن يَبْغُوا^(٢)، وألزمهم ثوب الصَّغار.

وروى الخلال عن عكرمة، عن ابن عباس: أنه سأله رجل: أأحتقن^(٣)؟ قال: «لا تُبَد العورة، ولا تستنَّ بسنة المشركين». فقوله: «لا تستنَّ بسنة المشركين» عام.

وروى أبو داود عن أنس: «أنه دخل عليه غلام وله قرنان أو فُصَّتَان، فقال: احلقوا هذين أو فُصُّوهما؛ فإن هذا زي اليهود».

علل النهي عنهما بأن ذلك زي اليهود، وتعليل النهي بعلّة يوجب أن تكون العلة مكروهة، مطلوباً عدُّها. نقل ذلك شيخ الإسلام. □ وقال - أيضًا - عند قوله ﷺ: «هل بها عيدٌ من أعياد الجاهلية»^(٤):

«وهذا نهْيٌ شديدٌ عن أن يُفعل شيءٌ من أعياد الجاهلية على أيِّ وجهٍ كان، وأعياد الكفار من الكتابيين والأميين في دين الإسلام من جنس واحد، كما أن كفر الطائفتين سواءً في التحريم - وإن كان بعضه أشدَّ تحريمًا من بعض - . وإذا كان الشارع قد حسم مادة أعياد أهل الأوثان خشية أن يتدنس المسلم بشيءٍ من أمر الكفار الذين يئس الشيطان أن يقيم أمرهم في جزيرة العرب = فالخشية من تدنُّسه

(١) في المطبوع: «على الأئمة»! والتصويب من السابق (٣٧٧/١).

(٢) ينبغوا: يصيروا بُغَاءَ لهم مكاناتٌ مرموقةٌ بين الناس.

(٣) الاحتقان: دسُّ الدواء في مجرى الذكر. والله تعالى أعلم.

(٤) صحيح: وقد تقدم.

بأوضار^(١) الكتابيين الباقين أشد، والنهي عنه أوكد.

□ إلى أن قال: «وقد بالغ ﷺ في أمر أمته بمخالفتهم في كثير من المباحات وصفات الطاعات، لئلا يكون ذريعة إلى موافقتهم في غير ذلك من أمورهم، ولتكون المخالفة في ذلك حاجزًا ومانعًا عن سائر أمورهم، فإنه كلما كثرت المخالفة بينك وبين أهل الجحيم كان أبعدَ عن أعمال أهل الجحيم، فليس بعد حرصه على أمته ونصحه لهم غايةً ﷺ، وكلُّ ذلك من فضل الله عليه وعلى الناس، ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف].»

قلت: فإذا كانت مبالغته ﷺ في أمر أمته بمخالفة الكفار، إنما [كانت] خوفًا من أن تكون مشابهيهم في الهدى الظاهر مؤديةً وجارّةً إلى الموافقة والموالاة، فما بال كثيرٍ ممن يدعي الإسلام قد وقع في المحذور بعينه، وهم مع ذلك يحسبون أنهم يحسنون صنعًا؟!

وروى أبو داود في «سننه» وغيره من حديث هشيم: أخبرنا أبو بشر، عن أبي عمير بن أنس، عن عمومة له من الأنصار قال: اهتم النبي ﷺ للصلاة، كيف يجمع الناس لها؟ فذكروا له شبُّور اليهود^(٢)، فلم يعجبه ذلك، وقال: «هو من أمر اليهود»، قال: فذكروا له الناقوس، فقال: «هو من أمر النصارى»^(٣)، الحديث.

(١) الأوضار: القاذورات.

(٢) الشبُّور: البوق - كما سيأتي -.

(٣) صحيح: رواه أبو داود (٤٩٨)، والبيهقي في «الكبرى» (٣٩٠/١)، وابن عبد البر في «التمهيد» (٢٤/٢١)، وصحَّحه الشيخ الألباني، والشيخ شعيب الأرناؤوط عند أبي داود (٣٦٩/١).

□ قال في «القاموس»: «شُبُور - كَتُّور -: البوق الذي يُنفخ فيه ويُزمر» انتهى.

□ والغرض^(١) أنه ﷺ لما كره بوق اليهود المنفوخ بالفم، وناقوس النصارى المضروب باليد، علّل هذا بأنه من أمر اليهود، وعلّل هذا بأنه من أمر النصارى؛ لأن ذكر الوصف عقيب الحكم يدلّ على أنه علّة له، وهذا يقتضي نهيّه عن كلّ ما هو^(٢) من أمر اليهود والنصارى، [هذا مع أن قرن اليهود يقال: إن أصله مأخوذ عن موسى عليه السلام^(٣)، وأنه كان يُضرب بالبوق في عهده، وأما ناقوس النصارى فمبتدع؛ إذ عامة شرائع النصارى أحدثها أحرارهم ورهبانهم]^(٤).

و[هذا] يقتضي كراهة هذا النوع من الأصوات مطلقاً في غير الصلاة - أيضاً -؛ لأنه من أمر اليهود والنصارى؛ فإن النصارى يضربون بالنواقيس في أوقاتٍ متعددة غير أوقات عباداتهم، وإنما شعار الدين الحنيف الأذان المتضمن للإعلان بذكر الله ﷻ الذي به تُفتح أبواب السماء، وتهرب الشياطين، وتنزل الرحمة. وقد ابتلي كثيرٌ من هذه الأمة - من الملوك وغيرهم - بهذا الشعار اليهودي والنصراني.

وهذه المشابهة لليهود والنصارى والأعاجم من أهل الشرك

(١) عودة لكلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله من «الاقتضاء».

(٢) في المطبوع: «عما هو». والمثبت من السابق.

(٣) الله أعلم بشبوت هذا حقيقةً، ولذا قال الإمام: «ويقال».

(٤) ما بين الحاصرتين من «الاقتضاء» - أيضاً -. وكذا الكلمة القادمة.

والفُرس، لَمَّا غلبت على ملوك المشرق هي وأمثالها مما خالفوا به هدي المسلمين، ودخلوا فيما كرهه الله ورسوله = سَلَطَ الله عليهم الترك الكافرين^(١) الموعود بقتالهم، حتى فعلوا في العباد والبلاد ما لم يَجْرَ في دولة الإسلام مثله؛ وذلك تصديق قوله ﷺ: «لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»^(٢). انتهى من «الاقتضاء».

وكما وقع من العقوبة على مخالفة هدي المسلمين بتسليط الترك والكفار - على ما ذكره شيخ الإسلام -، وقع نظيره في هذه الأزمان؛ فإن المنتسبين إلى الإسلام لَمَّا سلكوا كثيرًا من هدي اليهود والنصارى وأهل الجاهلية المشركين والأعاجم أعداء الله^(٣)، وتشبَّهوا بهم في كثيرٍ من الأمور = سُلط عليهم الترك الكافرون الخارجون عن شرائع الإسلام، فجرى على الإسلام محنٌ عظيمة وأمورٌ كبيرة؛ حتى إنهم يُذَلُّون الرئيس^(٤)، ويمتهنون الشيخ الكبير، ولا يرحمون العاجز ولا الضعيف؛ فأفسدوا الأديان، وخرَّبوا البلدان، وأهانوا الأبدان، وذلك بحكمة الديان؛ عقوبةً على الظلم والعصيان، والله المستعان، وعليه التكلان.

ولكن من رحمة الله تعالى أن الحق لا يزول، ويأبى الله إلا إظهار دين الرسول: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورُهُ، وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ [التوبة].

(١) يقصد التتار - كما في تحقيق «الاقتضاء» (١/٣٥٧) -.

(٢) حسن: وقد تقدم. وهو جزء من حديث «ذات أنواط».

(٣) في نسخة: «أعداء الدين».

(٤) الرئيس: كبير القوم - بوجه عام -.

فإذا مَحَّصَ^(١) الله أهل الإيمان، وانتهى ما عاقبهم به على العصيان، وشمخت أنوفُ أهل الفساد والكفران، وظنوا أن الدولة لهم في غابر الأزمان = أظهر الله عليهم شمس الإسلام والإيمان؛ فمزَّقهم بها في أقرب أوان، وشرَّدهم إلى أقصى البلدان.

□ كما قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

والله ناصرُ دينه وكتابه ورسوله في سائر الأزمان

لكن بمحنة حربه من حربه

□ وقال - أيضًا -:

والحق منصورٌ وممتحنٌ فلا تعجب فهذي سنة الرَّحْمَنِ

وبذاك يظهرُ حزبه من حربه ولأجل ذاك الناس طائفتان

□ وقال شيخ الإسلام - في الكلام على شروط أهل الذمة -:

«وذلك يقتضي إجماع المسلمين على التمييز عن الكفار ظاهرًا، وترك التشبه بهم. ولقد كان أمراء الهدى - مثل العمرين وغيرهم - يبالغون في تحقيق ذلك بما يتم به المقصود.

وقد روى أبو الشيخ الأصبهاني: أن عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ كتب: ألا تكاتبوا أهل الذمة؛ فتجري بينكم وبينهم المودة، ولا تُكْثُوهم^(٢)، وأذلّوهم، ولا تظلموهم».

□ ثم قال: «ومن جملة الشروط:

- ما يعود بإخفاء منكرات دينهم، وترك إظهارها؛ [كمنعهم من

(١) مَحَّص: نَقَّى وهَذَّب.

(٢) تُكْثُوهم: تخاطبونهم بالكنية.

إظهار الخمر والناقوس، والنيران والأعياد، ونحو ذلك] ^(١).

- ومنها ما يعود بإخفاء شعار دينهم؛ [كأصواتهم بكتابهم] ^(٢).

فاتفق عمر رضي الله عنه والمسلمون معه وسائر العلماء بعدهم ومن وفقه الله ﷻ من ولادة الأمور = على منعهم من أن يظهروا في الإسلام شيئاً مما يختصون به؛ مبالغة في ألا يظهر في دار الإسلام خصائص المشركين، فكيف إذا عملها المسلمون وأظهروها؟!

- ومنها ما يعود بترك إكرامهم، وإلزامهم الصغار الذي شرعه الله تعالى. ومن المعلوم أن تعظيم أعيادهم ونحوها بالموافقة فيها نوع من إكرامهم؛ فإنهم يفرحون بذلك، ويسرّون به، كما يغمّون بإهمال أمر دينهم الباطل.

□ قال شيخ الإسلام - أيضاً - : «وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٥٩]؛ ومعلوم أن الكفار فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقد قال لنبيه ﷺ: ﴿لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾؛ وذلك يقتضي تبرؤهم منهم في جميع الأشياء.

ومن تابع غيره في بعض أموره فهو منه في ذلك الأمر؛ لأن قول القائل: «أنا من هذا، وهذا مني»، أي: أنا من نوعه، وهو من

(١) زيادة من «الاقتضاء» (١/٣٦٩)، وكذا الموضع القادم.

(٢) والله إن الذي يسمع هذا كله ليعتصر الحزن والألم قلبه اعتصاراً على ما وصلت إليه أحوال أهل الكفر مع أمة الإسلام، وعلوهم في الأرض على أهل التوحيد، وتقريب بعض المفتونين وتعظيمهم لهم، لكن لا عجب، بذنوبنا، ويعفو الله عن كثير.

نوعي؛ لأن الشخصين لا يتحدان إلا بالنوع، كما في قوله: ﴿بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [التوبة: ٦٧]، وقوله ﷺ لعلي: «أنت مني، وأنا منك»^(١). وقول القائل: «لست من هذا في شيء»، أي: أنا متبرئ من جميع أموره.

وإذا كان الله قد برأ رسوله من جميع أمورهم، فمن كان متابعا للرسول ﷺ حقيقة كان متبرئا كتبرئه، ومن كان موافقا لهم كان مخالفا للرسول ﷺ بقدر موافقته لهم؛ فإن الشخصين المختلفين من كل وجه [في دينهما]^(٢)، كلما شابها أحدهما خالفت الآخر. وقال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ [المجادلة: ١٤]؛ يعيب بذلك المنافقين الذين تولوا اليهود، إلى قوله: ﴿لَا يَحْذَرُ قَوْمًا يُوتُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] إلى آخر السورة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوُوا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢]، إلى آخر السورة.

فقد ﷺ المواالة بين المهاجرين والأنصار، وبين من آمن من بعدهم وهاجر وجاهد إلى يوم القيامة، و«المهاجر من هجر ما نهى الله عنه»^(٣)، والجهاد باقٍ إلى يوم القيامة.

(١) رواه البخاري (٢٦٩٩).

(٢) زيادة من «الاقتضاء» (١/١٧٦).

(٣) رواه البخاري (١٠)، ومسلم (٤٠)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۖ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ۖ﴾ [المائدة: ٥٦].

ونظائر هذا في غير موضع من القرآن، يأمر سبحانه بموالاة المؤمنين حقاً - الذين هم حزبه وجنده -، ويخبر أن هؤلاء لا يوالون الكفار، ولا يوادونهم، والموالاة والمواصلة - وإن كانت متعلقة بالقلب - لكن المخالفة في الظاهر أعون على مقاطعة الكافرين ومباينتهم.

ومشاركتهم في الظاهر إن لم تكن ذريعة أو سبباً قريباً أو بعيداً إلى نوع ما من الموالاة والمواصلة = فليس فيها مصلحة المقاطعة والمباينة، مع أنها تدعو إلى نوع ما من المواصلة - كما توجهه الطبيعة، وتدل عليه العادة -؛ ولهذا كان السلف عليهم السلام يستدلون بهذه الآيات على ترك الاستعانة بهم في الولايات.

فروى الإمام أحمد - بإسناد صحيح - عن أبي موسى رضي الله عنه قال: «قلت لعمر رضي الله عنه: إن لي كاتباً نصرانياً؟ قال: ما لك - قاتلك الله -؟! أما سمعت الله يقول: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥١]؟! ألا اتخذت حنيفاً؟! قال: قلت: يا أمير المؤمنين، لي كتابته، وله دينه، قال: لا أكرمهم إذ أهانهم الله، ولا أعزهم إذ أذلهم الله، ولا أدنيهم إذ أقصاهم الله».

ولما دل عليه معنى الكتاب جاءت سنة رسول الله ﷺ وسنة خلفائه الراشدين - التي أجمع الفقهاء عليها - بمخالفتهم وترك التشبه بهم.

ففي «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:
«إن اليهود والنصارى لا يصبغون؛ فخالفوهم»^(١).

فأمر بمخالفتهم؛ وذلك يقتضي أن يكون جنس مخالفتهم أمراً مقصوداً للشارع؛ لأنه إن كان الأمر بجنس المخالفة حصل المقصود، وإن كان الأمر بالمخالفة في تغيير الشعر فقط، فهو لأجل ما فيه من المخالفة.

فالمخالفة: إما علة مفردة، أو علة أخرى، أو بعض علة.

وعلى [كل] التقديرات تكون مأموراً بها، مطلوبة من الشارع.

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢].

قال الضحاك: «الزور: عيد المشركين». رواه أبو الشيخ بإسناده.

وبإسناده عنه: «الزور: كلام الشرك».

وبإسناده عن [عمرو]^(٢) بن مرة: «لا يمالئون أهل الشرك على

شركهم، ولا يخالطونهم».

وبإسناده عن عطاء بن يسار قال: قال عمر: «إياكم ورطانة

الأعاجم، وأن تدخلوا على المشركين يوم عيدهم في كنائسهم».

وقول هؤلاء التابعين: «إنه أعياد الكفار» ليس مخالفاً لقول

بعضهم: «إنه الشرك»، أو «صنم كان في الجاهلية»، ولقول بعضهم:

«إنه مجالس الخنا»^(٣). وقول بعضهم: «إنه الغناء»؛ لأن عادة السلف

في تفسيرهم هكذا؛ يذكر الرجل نوعاً من أنواع المسمى، لحاجة

(١) رواه البخاري (٣٤٦٢)، ومسلم (٢١٠٣)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) زيادة من «الاقضاء» (٤٨١/١).

(٣) الخنا: الفحش والقبح.

المستمع إليه، أو لينبّه به على الجنس.

ووجه تفسير التابعين: أن «الزور» هو المحسن المموّه، حتى يظهر بخلاف ما هو عليه في الحقيقة؛ ولهذا فسّره السلف تارةً بما يظهر حسنه لشبهة أو لشهوة؛ فإن الشرك ونحوه يظهر حسنه للشبهة، والغناء ونحوه يظهر حسنه للشهوة.

وأما أعياد المشركين فجمعت الشبهة والشهوة، وهي باطلة؛ إذ لا منفعة فيها في الدين، وما فيها من اللذة العاجلة فعاقبتها إلى ألم، فصارت زورًا، وشهودها: حضورها.

وإذا كان الله قد مدح ترك شهودها - الذي هو مجرد الحضور برؤية أو سماع -، فكيف بالموافقة بما يزيد على ذلك من العمل الذي هو عمل الزور - لا مجرد شهوده -؟!

واعلم أننا لو لم نَرَ موافقتهم قد أفضت إلى هذه القبائح^(١)، لكان علمنا بما وافقت الطباع عليه، واستدلنا بأصول الشريعة يوجب النهي عن هذه الذريعة؛ فكيف وقد رأينا من المنكرات التي أفضت إليها المشابهة ما قد يوجب الخروج عن الإسلام بالكلية؟! وسرّ هذا: أن المشابهة تُفضي إلى كفرٍ أو معصيةٍ غالبًا، أو تفضي إليهما في الجملة، وما أفضى إلى ذلك كان محرماً.

فهذا بعض ما جاء من الأدلة في النهي عن مشابهة المشركين والكفار، ولكن رحم الله من تنبّه للسرّ الذي سيق الكلام لأجله؛ وهو أن المشابهة في الظاهر إنما تُهي عنها لأنها تورث نوع مودة

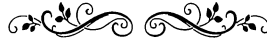
(١) وردت الجملة في المطبوع: «واعلم أننا لو لم نعلم من موافقتهم إلا ما قد أفضت إلى هذه القبائح». والتصويب من «الاقتضاء» (١/٥٤١).

وموالاةٍ في الباطن، وتُفْضي - أيضًا - إلى كفرٍ أو معصية؛ وهذا هو السبب في تحريمها والنهي عنها.

فإذا علمت ذلك، وتبيّن لك ما وقع فيه كثيرٌ من الناس - أو أكثرهم - من موالاة الكفار والمشرّكين - التي إنّما نُهي عن هذه الأمور خوفًا من الوقوع فيها -، تبيّن لك أنّهم وقعوا في نفس المحذور، وتوسطوا مفازة المهلكة، واللّه الهادي إلى سواء الصراط.



❁ فصل ❁



في ذكر جوابات عن إيرادات أو ردها بعض المسلمين على أولاد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، فأجابوا عنها - رحمهم الله وعفا عنهم^(١) - .

١ - فمن ذلك: ما قولكم في رجل دخل هذا الدين وأحبّه، ولكن لا يعادي المشركين، أو عاداهم ولم يكفرهم، أو قال: «أنا مسلم، ولكن ما أقدرُ أكفرُ أهل لا إله إلا الله، ولو لم يعرفوا معناها».

٢ - ورجلٌ دخل هذا الدين وأحبه، ولكن يقول: «لا أتعرض للقباب^(٢)»، وأعلم أنها لا تضر ولا تنفع، ولكن لا أتعرضها».

فالجواب: أن الرجل لا يكون مسلماً إلا إذا عرف التوحيد، ودان به، وعمل بموجبه، وصدق الرسول ﷺ فيما أخبر به، وأطاعه فيما نهى عنه وأمر به، وآمن به وبما جاء به؛ فمن قال: «لا أعادي المشركين»، أو عاداهم ولم يكفرهم، أو قال: «لا أتعرض أهل لا إله إلا الله، ولو فعلوا الكفر والشرك، وعادوا دين الله»، أو قال: «لا أتعرض للقباب»، فهذا لا يكون مسلماً؛ بل هو ممن قال الله فيهم: ﴿وَيَقُولُونَ نُوْمُنُ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ۝١٥٠ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ۝١٥١﴾ [النساء].

والله ﷻ أوجب معاداة المشركين ومناذتهم وتكفيرهم:

(١) وقد تقدمت هذه الأسئلة بإجاباتها.

(٢) أي: لا أتعرض لها.

فقال ﷺ: ﴿لَا يَحْدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ﴾ [الآيات [المتحنة: ١]].
والله أعلم.

نقل من جواب الشيخ حسين بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأخيه عبد الله.

وفي أجوبة أخرى:

٣ - ما قولكم في الموالة والمعاداة، هل هي من معنى لا إله إلا الله، أو من لوازمها؟

الجواب أن يقال: الله أعلم، حسب المسلم أن يعلم أن الله افترض عليه عداوة المشركين، وعدم موالاتهم، وأوجب عليه محبة المؤمنين وموالاتهم، وأخبر أن ذلك من شروط الإيمان، ونفى الإيمان عن من يواد من حاد الله ورسوله ﷺ - ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم -.

وأما كون ذلك من معنى «لا إله إلا الله» أو من لوازمها، فلم يكلّفنا الله بالبحث عن ذلك، وإنما كُلفنا بمعرفة أن الله فرض ذلك وأوجبه، وأوجب العمل به؛ فهذا الفرض والحثم الذي لا شك فيه.

ومن عرف أن ذلك من معناها أو من لازمها، فهو حسنٌ وزيادة

خير، ومن لم يَعْرِف فلم يَكَلِّف بمعرفته؛ لا سيما إذا كان الجدالُ في ذلك والمنازعة فيه مما يُفْضِي إلى شَرٍّ واختلاف، ووقوع فُرْقَةٍ بين المؤمنين الذين قاموا بواجبات الإيمان، وجاهدوا في الله، وعادُوا المشركين، ووالُوا المسلمين، فالسكوتُ عن ذلك متعيّن، وهذا ما ظهر لي؛ على أن الاختلاف قريبٌ من جهة المعنى. والله أعلم.

فهذه^(١) بعض الأدلة الدالة على وجوب مقاطعة الكفار والمشركين، وهي المسألة الأولى.



(١) في المطبوع: «فهذا»، ولعل الأدق ما أثبتّه. وإن كان للأخرى وجهٌ صحيح.

فصل



📖 وأما المسألة الثانية، وهي: الأشياء التي يصير بها المسلم مرتدًا^(١):

■ فأحدها: الشرك بالله تعالى:

وهو أن يجعل لله ندًا من مخلوقاته؛ يدعو كما يدعو الله، ويخافه كما يخاف الله، أو يتوكل عليه كما يتوكل على الله، أو يصرف له شيئًا من عبادة الله؛ فإذا فعل ذلك كفر وخرج من الإسلام، وإن صام النهار وقام الليل.

والدليل على ذلك: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ^(٢) نِعْمَةً مِّنْهُ نَسَىٰ مَا كَانَ يَدْعُوَ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ﴿٨﴾﴾ [الزمر].

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون].

وغير ذلك من الآيات الدالة على أن من أشرك مع الله تعالى في عبادته مخلوقًا من المخلوقين، فقد كفر وخرج من الإسلام، وحبطت أعماله، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنعام].

■ الثاني: إظهار الطاعة والموافقة للمشركين على دينهم:

والدليل: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا بَيَّنَّ

(٢) ﴿خَوَّلَهُ﴾: أعطاه.

(١) بدأت الأولى ص (٤٨٩).

لَهُمُ الْهُدَى ۚ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَىٰ لَهُمْ^(١) ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا
مَا نَزَلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ^(٢) ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا
تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَرَهُمْ^(٣) ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ
اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ، فَاحْبِطْ أَعْمَلَهُمْ ﴿٢٨﴾ [محمد].

وذكر الفقيه سليمان ابن الشيخ عبدالله ابن الشيخ محمد بن
عبد الوهاب في هذه المسألة عشرين آيةً من كتاب الله وحديثاً عن
رسول الله ﷺ^(٣)؛ استدلل بها على أن المسلم إذا أظهر الطاعة
والموافقة للمشركين من غير إكراه = أنه يكون بذلك مرتدّاً خارجاً
من الإسلام، وإن كان يشهد ألا إله إلا الله، ويفعل الأركان الخمسة؛
فإن ذلك لا ينفعه.

وقال شيخ الإسلام المذكور - إمام هذه الدعوة الحنيفية في كلامه
على آخر سورة الزمر -:

الثانية: أن المسلم إذا أطاع من أشار عليه [بالكُفر] في الظاهر
كفر - ولو كان باطنه يعتقد الإيمان -؛ فإنهم لم يريدوا من النبي
ﷺ تغيير عقيدته، ففيه بيان لما يكثر وقوعه ممن ينتسب إلى
الإسلام في إظهار الموافقة للمشركين خوفاً منهم، ويظن أنه لا يكفر
إذا كان قلبه كارهاً.

إلى أن قال.

الثالثة: أن الذي يكفر به المسلم ليس هو عقيدة القلب خاصة؛

(١) ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾: زَيَّنَ لَهُمُ الْقُبُوحَ. ﴿وَأَمَلَىٰ لَهُمْ﴾: مَدَّ لَهُمْ فِي الْأَمَلِ.

(٢) ﴿إِسْرَارَهُمْ﴾: مَا يُسْرُونَهُ فِي قُلُوبِهِمْ.

(٣) راجع رسالة «حكم موالاة أهل الإشراك» في (١/٤٢١).

فإن هؤلاء الذين ذكرهم الله لم يريدوا منه ﷺ تغيير العقيدة - كما تقدم -؛ بل إذا أطاع المسلم مَنْ أشار عليه بموافقتهم لأجل ماله أو بلده أو أهله - مع كونه يعرف كفرهم ويُبغضهم -؛ فهذا كافرٌ، إلا من أكره.

إلى أن قال: ولكن رحم الله من تنبّه لسر الكلام؛ وهو المعنى الذي نزلت فيه هذه الآيات؛ من كون المسلم يوافقهم في شيءٍ من دينهم الظاهر، مع كون القلب بخلاف ذلك؛ فإن هذا هو الذي أرادوا من النبي ﷺ؛ فافهمه فهمًا حسنًا؛ لعلك تعرف شيئًا من دين إبراهيم عليه السلام، وقد بادأ أباه وقومه بالعداوة عنده.

وقال في سورة الكهف:

التاسعة: المسألة العظيمة المشكلة على أكثر الناس: أنه إذا وافقهم بلسانه مع كونه مؤمنًا حقًا، كارهاً لموافقتهم = فقد كذب في قوله: «لا إله إلا الله»، واتخذ إلهين اثنين. وما أكثر الجهل بهذه والتي قبلها!

العاشرة: أنه لو يصدر منهم - أعني موافقة الحاكم فيما أراد من ظاهريهم، مع كراهتهم لذلك -، فهو قوله: ﴿سَطَطًا﴾ (١٤) [الكهف]، والشطط: الكفر^(١).

واعلم أن إظهار الموافقة والطاعة للمشركين له أحوال ستأتي في المسألة الثالثة - إن شاء الله تعالى -.

■ الأمر الثالث - مما يصير المسلم به مرتدًا -: موالة المشركين:

والدليل: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى

(١) وأصل «الشطط» لغة: البُعد. والكفر هو أعظم صور البُعد عن الحق.

أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ [المائدة].

وقوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨].

فذكر في الآية الأولى أن من تولى اليهود والنصارى فهو منهم، وظاهرها أن من تولاهم فهو كافراً مثلهم. ذكر معناه شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

□ وتقدم قولُ عبد الله بن عتبة عند قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾: «ليتق أحدكم أن يكون يهودياً أو نصرانياً وهو لا يشعر».

□ وقال ابن جرير في قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾: «يعني: فقد برئ من الله، وبرئ الله منه؛ لارتداده عن دينه».

وأما قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكْفُوا مِنْهُمْ ثَقَنَةً﴾، فهي كقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أْكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْأَيْمَنِ﴾ [النحل: ١٠٦]. وسيأتي بيان ذلك - إن شاء الله تعالى -.

■ الأمر الرابع: الجلوس عند المشركين في مجالس شركهم، من غير

إنكار:

والدليل: قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ أَيْتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَفْعَلُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مَتَلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُتَفِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ ﴿١٤٠﴾ [النساء].

وفي أجوبة آل الشيخ رَحِمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لما سئلوا عن هذه الآية وعن قوله ﷺ: «من جامع المُشْرَكَ أو سكن معه فإنه مثله»^(١)؛ قالوا:

(١) حسن: وقد تقدم.

الجواب: أن الآية على ظاهرها؛ وهو أن الرجل إذا سمع آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها، فجلس عند الكافرين المستهزئين بآيات الله من غير إكراهٍ ولا إنكارٍ ولا قيامٍ عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره، فهو كافرٌ مثلهم - وإن لم يفعل فعلمهم -؛ لأن ذلك يتضمن الرضا بالكفر، والرضا بالكفر كفر.

وبهذه الآية ونحوها استدل العلماء على أن الراضي بالذنب كفاعله، فإن ادعى أنه يكره ذلك بقلبه لم يُقبل منه؛ لأن الحكم بالظاهر، وهو قد أظهر [قبول] الكفر؛ فيكون كافرًا.

ولهذا لما وقعت الردة، وادّعى أناسٌ أنهم كرهوا ذلك = لم يقبل منهم الصحابةُ ذلك؛ بل جعلوهم كلهم مرتدين إلا من أنكر بلسانه.

وكذلك قوله في الحديث: «من جامع المشرك وسكن معه فهو مثله» على ظاهره؛ وهو أن الذي يدّعي الإسلام، ويكون مع المشركين في الاجتماع والنصرة والمنزل معهم - بحيث يعدّه المشركون منهم -، فهو كافرٌ مثلهم - وإن ادعى الإسلام -، إلا إن كان يُظهر دينه، ولا يتولّى المشركين. انتهى.

قلت: ويأتي مخاطبة خالدٍ لمُجاعة، وفيه: «يا مجاعة، تركت اليوم ما كنت عليه أمس، وكان رضاك بأمر هذا الكذاب، وسكوئك عنه إقرارًا له...» إلى آخره.

□ وتقدم قول عبد الله بن عمرو: «من بنى ببلاد المشركين، فصنع نيروزهم ومهرجانهم، وتشبه بهم حتى يموت = حُشر معهم يوم القيامة».

وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ

وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ
وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ [النحل].

■ الأمر الخامس: الاستهزاء بالله، أو بكتابه، أو برسوله:

والدليل على ذلك: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ
تَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٥﴾ لَا تَعْذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعَفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِّنْكُمْ
نُعَذِّبَ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [التوبة].

📖 [نوعا الاستهزاء]:

واعلم أن الاستهزاء على نوعين:

أحدهما: الاستهزاء الصريح: كالذي نزلت الآية فيه، وهو قولهم:
«ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء؛ أرغب بطونا، ولا أكذب أسنا، ولا أجبن
عند اللقاء»، أو نحو ذلك من أقوال المستهزيين، كقول بعضهم:
«دينكم هذا دينٌ حامض»، وقول الآخر: «دينكم أخرق»^(١)، وقول
الآخر - إذا رأى الآمرين بالمعروف أو الناهين عن المنكر -: «جاءكم
أهل الديك» - بالكاف بدل النون^(٢)، وقول الآخر - إذا رأى طلبة
العلم -: «هؤلاء الطلبة» - بسكون اللام^(٣)، وما أشبه ذلك - مما

(١) في بعض المطبوعات: «حرق»، ويكون المراد: محترق فاسد لا قيمة
له. والله تعالى أعلم.

(٢) أي: بدل «أهل الدين».

(٣) الطلبة - بفتح الطاء وسكون اللام -: خشبةٌ تتخذها النساء في بعض
أغراضهن. انظر: «المُحْكَم» لابن سيده (١٧٧/٩). وهذا أقرب ما تبدى
لي من مراد المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ. فإن لم يكن فلعلها كلمةٌ عاميةٌ تدل على
السخرية. والله تعالى أعلى وأعلم.

لا يُحصى إلا بكلفةٍ - مما هو أعظم من قول الذين نزلت فيهم الآية .
النوع الثاني: غير الصريح: وهو البحر الذي لا ساحل له، مثل
الرمز بالعين، وإخراج اللسان، ومدّ الشفة، والغمزة باليد عند
تلاوة كتاب الله أو سنة رسوله ﷺ، أو عند الأمر بالمعروف والنهي
عن المنكر.

■ الأمر السادس: ظهور الكراهية والغضب عند الدعوة إلى الله، وتلاوة
كتابه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

والدليل على ذلك: قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ
تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ
ءَايَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُفِرْتُمْ مِنْ ذَلِكَ أَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَلَيْسَ الْمَصِيرُ
[الحج].

فذكر كفر هذا الصنف في أول الآية وآخرها.

■ الأمر السابع: كراهة ما أنزل الله على رسوله من الكتاب والحكمة:
والدليل: قول الله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ
[محمد].

■ الأمر الثامن: عدم الإقرار بما دلت عليه آيات القرآن والأحاديث،
والمجادلة في ذلك:

والدليل على ذلك: قوله الله تعالى: ﴿مَا يُجِدِلُ فِي ءَايَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ
كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبَلَدِ [غافر].

■ الأمر التاسع: جحدُ الناس شيئاً من كتاب الله - ولو آيةً أو بعضها -،
أو شيئاً مما جاء عن النبي ﷺ:

والدليل على ذلك: قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ

وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾ [النساء]. وهذا أخص من الذي قبله.

■ الأمر العاشر: الإعراض عن تعلم دين الله، والغفلة عن ذلك:

والدليل: قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٢﴾﴾ [الأحاف].

■ الأمر الحادي عشر: كراهة إقامة الدين والاجتماع عليه:

والدليل على ذلك: قول الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾﴾ [الشورى].

فذكر أنه لا يكره إقامة الدين إلا مشرك، وقد تبين أن من أشرك بالله فهو كافر.

■ الأمر الثاني عشر: السحر؛ تعلمه وتعليمه، والعمل بموجبه:

والدليل: قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢] ^(١).

■ الأمر الثالث عشر: إنكار البعث:

والدليل على ذلك: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَجَّبَ فَعَجَبْ قَوْلُكُمْ أَيْدَا كُنَّا تَرْبًا أَيْنَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ

(١) التحقيق أن السحر ليس كله كفرًا. وراجع تفسير الحافظ ابن كثير لآيات السحر في سورة «البقرة». وقد سبقت إشارة لهذا في كتاب «التوحيد» لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمته الله.

وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٠﴾ [الرعد].

■ الأمر الرابع عشر: التحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ:

□ قال ابن كثير: «كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الجهالات والضلالات، وكما يحكم به التتار من السياسات المأخوذة عن جَنكِسْخان الذي وضع لهم كتابًا مجموعًا من أحكام اقتبسها من شرائع شتى؛ فصار في بنيهِ شرعًا يقدمونه على الحكم بالكتاب والسنة، ومن فعل ذلك فهو كافرٌ يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم سواه في قليل ولا كثير. قال تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة]».

قلت: ومثل هؤلاء ما وقع فيه عامة البوادي ومن شابههم؛ من تحكيم عادات آبائهم، وما وضعه أوائلهم من الموضوعات الملعونة التي يسمونها «شرع الرفاقة»، ويقدمونها على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن فعل ذلك فهو كافر، يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله^(١).

□ قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولا ريب أن من لم يعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله على رسوله فهو كافر، فمن استحل أن يحكم بين الناس بما يراه هو عدلاً - من غير اتباع لما أنزل الله - فهو كافر؛ فإنه ما من أمةٍ إلا وهي تأمر بالحكم بالعدل، وقد يكون العدل في دينها ما رآه أكابرهم؛ بل كثيرٌ من المنتسبين إلى الإسلام يحكمون بعاداتهم التي لم يُنزلها الله؛ كسوالف البادية، وكأوامر

(١) راجع الكتاب القيم: «الغرْم القَبْلِي»، للشيخ علي بن محمد آل نومة القحطاني - ط: دار ابن الجوزي بالدمام.

المطاعين، وَيَرَوْنَ أَنْ هَذَا هُوَ الَّذِي يَنْبَغِي الْحُكْمُ بِهِ دُونَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَهَذَا هُوَ الْكُفْرُ؛ فَإِنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ أَسْلَمُوا، وَلَكِنْ مَعَ هَذَا لَا يَحْكُمُونَ إِلَّا بِالْعَادَاتِ الْجَارِيَةِ الَّتِي يَأْمُرُ بِهَا الْمَطَاعُونَ، فَهَؤُلَاءِ إِذَا عَرَفُوا أَنَّهُ لَا يَجُوزُ لَهُمُ الْحُكْمُ إِلَّا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ، فَلَمْ يَلْتَمِزُوا ذَلِكَ - بَلْ اسْتَحْلُوا أَنْ يَحْكُمُوا بِخِلَافِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ - فَهُمْ كَفَّارٌ. انْتَهَى مِنَ «مَنْهَاجِ السُّنَةِ النَّبَوِيَّةِ»؛ ذَكَرَهُ عِنْدَ قَوْلِهِ ﷺ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة]؛ فَرَحِمَهُ اللَّهُ وَعَفَا عَنْهُ.

فهذه بعض المواضع التي دَلَّ الْقُرْآنُ عَلَيْهَا، وَإِنْ كَانَ قَدْ يُقَالُ: إِنَّ بَعْضَهَا يُغْنِي عَنْ بَعْضٍ، أَوْ يَنْدَرِجُ فِيهِ، فَذِكْرُهَا عَلَى هَذَا الْوَجْهِ أَوْضَحُ.

وَأَمَّا كَلَامُ الْعُلَمَاءِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فَكَثِيرٌ جَدًّا، وَقَدْ ذَكَرَ صَاحِبُ «الْإِقْنَاعِ» أَشْيَاءَ كَثِيرَةً فِي بَابِ «حُكْمِ الْمُرْتَدِّ» - وَهُوَ الَّذِي يَكْفُرُ بَعْدَ إِسْلَامِهِ -، وَقَدْ لَخَّصْتُ مِنْهُ مَوَاضِعَ يَسِيرَةً:

□ فَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ: «قَالَ الشَّيْخُ^(١): أَوْ كَانَ مَبْغُضًا لِرَسُولِهِ، أَوْ لَمَّا جَاءَ بِهِ، كَفَرَ اتِّفَاقًا».

□ وَمِنْهَا قَوْلُهُ: «أَوْ جَعَلَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ وَسَائِطٌ يَتَوَكَّلُ عَلَيْهِمْ، وَيَسْأَلُهُمْ، كَفَرَ إِجْمَاعًا».

□ وَمِنْهُ قَوْلُهُ: «أَوْ وُجِدَ مِنْهُ امْتِهَانٌ لِلْقُرْآنِ». أَيُ: فَيَكْفُرُ بِذَلِكَ.

□ وَمِنْهَا قَوْلُهُ: «أَوْ سَخِرَ بِوَعْدِ اللَّهِ أَوْ بِوَعِيدِهِ». أَيُ: فَيَكْفُرُ

بِذَلِكَ.

(١) يَعْنِي الْإِمَامَ ابْنَ تَيْمِيَّةَ رَحِمَهُمُ اللَّهُ - كَمَا سَيَأْتِي -.

□ ومنها قوله: «أو لم يكفر من دان بغير الإسلام، أو شك في كفرهم». أي: فيكفر بذلك.

□ ومنها قوله: «قال الشيخ: ومن استحلّ الحشيشة كفر بلا نزاع». قلت: ومن استحلّ موالاة المشركين ومظاهرتهم وإعانتهم على المسلمين، فكفره أعظم من كفر هذا؛ لأنّ تحريم ذلك أكد وأشد من تحريم الحشيشة.

□ ومنها قوله: «ومن سبّ الصحابة أو واحدا منهم، واقرن بسبّه دعوى أن عليّا إله، أو نبّي، أو أن جبرائيل غلط...»^(١) فلا شك في كفر هذا؛ بل لا شك في كفر من توقف في تكفيره.

□ ومنها قوله: «أو زعم أن للقرآن تأويلات باطنة تسقط الأعمال المشروعة، ونحو ذلك، فلا خلاف في كفر هؤلاء».

□ ومنها قوله: «أو زعم أن الصحابة ارتدّوا بعد رسول الله ﷺ، إلا نفراً قليلاً لا يبلغون إلا بضعة عشر، أو أنهم فسقوا، فلا ريب - أيضاً - في كفر قائل ذلك؛ بل من شك في كفره فهو كافر». انتهى ملخصاً، وعزاه لـ «الصارم المسلول».

□ ومنها قوله: «ومن أنكر أن أبا بكر صاحب رسول الله ﷺ فقد كفر؛ لقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ﴾ [التوبة: ٤٠]».

قلت: فإذا كان من جحد مدلول آية كفر، ولم تنفعه الشهاداتتان، ولا الانتساب إلى الإسلام، فما الظن بمن جحد مدلول ثلاثين آية أو أربعين آية؛ أفلا يكون كافراً لا تنفعه الشهاداتتان ولا ادعاء الإسلام؟!

(١) أي: غلط في النزول بالوحي على محمد ﷺ؛ إذ كان من المفترض أن ينزل به على عليّ عليه السلام، وهذا من افتراءات الروافض.

بلى واللّه، بلى واللّه. ولكن نعوذ باللّه من رَيْنِ القلوب^(١)، وهوى نفوس اللّذين يصدّون عن معرفة الحق واتباعه.

□ ومنها قوله: «أو جحد حلّ الخبز واللحم والماء». أي: فيكفر بذلك.

□ ومنها قوله: «أو أحلّ الزنا ونحوه». أي: فيكفر بذلك.

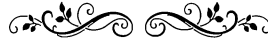
قلت: ومن أحلّ الركون إلى الكافرين، وموادة المشركين، فهو أعظم كفرًا ممن أحلّ الزنا بأضعاف مضاعفة.

وكلام العلماء رَحِمَهُمُ اللّهُ في هذا الباب لا يمكن حصره؛ حتى إن بعضهم ذكر أشياء أسهل من هذه الأمور، وحكموا على مرتكبها بالارتداد عن الإسلام، وأنه يُستتاب منها، فإن تاب وإلا قُتل مرتدًّا، ولم يغسّل، ولم يصلّ عليه، ولم يُدفن مع المسلمين، وهو مع ذلك يقول: «لا إله إلا الله»، ويفعل الأركان الخمسة! ومن له أدنى نظرٍ وإطلاع على كلام أهل العلم، فلا بد أن يكون قد بلغه بعض ذلك.

وأما هذه الأمور التي تقع في هذه الأزمان من المنتسبين إلى الإسلام - بل من كثيرٍ ممن ينتسب إلى العلم -، فهي من قواصم الظهور، وأكثرها أعظمٌ وأفحش مما ذكره العلماء من المكفّرات، ولولا ظهورُ الجهل وخفاء العلم وغلبة الأهواء، لَمَا كان أكثرها محتاجًا لمن ينبّه عليه.



فصل



📖 وأما المسألة الثالثة: وهي ما يُعذر الرجلُ به على موافقة المشركين،

وإظهار الطاعة لهم:

فاعلم أن إظهار الموافقة للمشركين له ثلاث حالات:
الحال الأولى: أن يوافقهم في الظاهر والباطن، فينقادَ لهم بظاهره،
ويميلَ إليهم ويؤاذهم بباطنه؛ فهذا كافرٌ خارج عن الإسلام، سواء
كان مكرهاً على ذلك أو لم يكن، وهو ممن قال الله فيه: ﴿وَلَكِنْ
مَنْ شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٠٦)
[النحل].

الحال الثانية: أن يوافقهم ويميلَ إليهم في الباطن، مع مخالفتهم
في الظاهر، فهذا كافرٌ - أيضاً -، ولكن إذا عمِلَ بالإسلام ظاهراً عُصِمَ
ماله ودمه [في الدنيا]، وهو المنافق.

الحال الثالثة: أن يوافقهم في الظاهر مع مخالفته لهم في الباطن،
وهو على وجهين:

أحدهما: أن يفعل ذلك لكونه في سلطانهم، مع ضربهم أو
تقييدهم له، أو يتهددونه بالقتل، فيقولون له: «إما أن توافقنا
وتُظهر الانقياد لنا، وإلا قتلناك»، فإنه - والحالُ هذه - يجوز له
موافقتهم في الظاهر، مع كون قلبه مطمئناً بالإيمان، كما جرى لعَمَّارٍ
حين أنزل الله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ
وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦]^(١)، وكما قال تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا

مِنْهُمْ ثُقَّةٌ ﴿[آل عمران: ٢٨]، فالآيتان متفقتان، كما نبّه على ذلك ابن كثير في تفسير آية «آل عمران».

الوجه الثاني: أن يوافقهم في الظاهر مع مخالفته لهم في الباطن، وهو ليس في سلطانهم، وإنما حمّله على ذلك إما طمع في رئاسة أو مال، أو مشقة بوطن أو عيال، أو خوف مما يحدث في المال، فإنه في هذه الحال يكون مرتدًا، ولا تنفعه كراهته في الباطن، وهو ممن قال الله فيهم: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (١٧٧) [النحل]؛ فأخبر أنه لم يحملهم على الكفر الجهل بالحق أو بغضه، ولا محبة الباطل، وإنما هو أن لهم حظًا من حظوظ الدنيا، فأثروه على الدين.

هذا معنى كلام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى وعفا عنه -.

وأما ما يعتقده كثير من الناس عذرًا فإنه من تزيين الشيطان وتسويله؛ وذلك أن بعضهم إذا خوّفه أولياء الشيطان خوفًا لا حقيقة له، ظن أنه يجوز له بذلك إظهار الموافقة للمشرّكين، والانقياد لهم. وآخر منهم إذا زَيّن له الشيطان طمعًا دنيويًا تخيل أنه يجوز له موافقة المشرّكين لأجل ذلك، وشبّه على الجهال أنه مُكرّه! وقد ذكر العلماء صفة الإكراه.

□ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «تأملت المذاهب، فوجدت الإكراه يختلف باختلاف المكرّه عليه؛ فليس الإكراه المعتبر في كلمة الكفر كالإكراه المعتبر في الهبة ونحوها؛ فإن أحمد قد نص في غير موضع على أن الإكراه على الكفر لا يكون إلا بالتعذيب

من ضربٍ أو قيد، ولا يكون الكلام إكراهًا^(١). وقد نصَّ على أن المرأة لو وهبت زوجها صداقها بمسكنه، فلها أن ترجع؛ بناءً على أنها لا تهب إلا إذا خافت أن يطلقها، أو يسيء عشرتها؛ فجعل خوف الطلاق أو سوء العشرة إكراهًا. ولفظه في موضع آخر: «لأنه أكرهها». ومثل هذا لا يكون إكراهًا على الكفر؛ فإن الأسير إن خشي من الكفار ألا يزوجه، أو أن يحولوا بينه وبين امرأته، لم يُبَحَّ له التكلم بكلمة الكفر». انتهى.

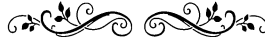
والمقصود منه أن الإكراه على كلمة الكفر لا يكون إلا بالتعذيب من ضرب أو قتل^(٢)، وأن الكلام لا يكون إكراهًا، وكذلك الخوف من أن يحول الكفار بينه وبين زوجته لا يكون إكراهًا.

فإذا علمت ذلك، وعرفت ما وقع من كثير من الناس، تبين لك قول النبي ﷺ: «بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود غريبًا كما بدأ»^(٣)، وقد عاد غريبًا، وأغرب منه من يعرفه على الحقيقة، وبالله التوفيق.



-
- (١) يقصد بالكلام: سب الكفار له وإهانته ونحو ذلك. والله تعالى أعلم.
 (٢) في بعض النسخ: «أو قيد».
 (٣) صحيح: وقد تقدم.

فصل



📖 وأما المسألة الرابعة: وهي مسألة إظهار الدين:

فإن كثيراً من الناس قد ظن أنه إذا قَدَّرَ على أن يتلفظ بالشهادتين، وأن يصلي الصلوات الخمس، ولا يُرَدَّ عن المساجد = فقد أظهر دينه - وإن كان مع ذلك بين المشركين، أو في أماكن المرتدين -. وقد غلطوا في ذلك أقبح الغلط، وأخطؤوا أكبر الخطأ.

فاعلم أن الكفر له أنواعٌ وأقسام تتعدد بتعدد المكفّرات، وقد تقدم بعض ذلك، وكلُّ طائفة من طوائف الكفر قد اشتهر عندها نوعٌ منه، ولا يكون المسلم مظهرًا لدينه حتى يخالف كلَّ طائفةٍ بما اشتهر عندها، ويصرّح لها بعداوته، والبراءة منه:

- فمن كان كفره بالشرك، فإظهار الدين عنده التصريح بالتوحيد، والنهي عن الشرك والتحذير منه.

- ومن كان كفره بجحد الرسالة، فإظهار الدين عنده التصريح بأن محمدًا رسول الله ﷺ، والدعوة إلى اتباعه.

- ومن كان كفره بترك الصلاة، فإظهار الدين عنده فعل الصلاة والأمر بها.

- ومن كان كفره بموالاة المشركين والدخول في طاعتهم، فإظهار الدين عنده التصريحُ بعداوته^(١)، والبراءة منه ومن المشركين.

(١) أي: عداوة دينهم، وهذا ظاهرُ السياق. والله تعالى أعلم.

وبالجملة: فلا يكون مظهرًا لدينه إلا مَنْ صرَّحَ لمن ساكنه من كل كافرٍ ببراءته منه، وأظهر له عداوته لهذا الشيء الذي صار به كافرًا، وبراءته منه؛ ولهذا قال المشركون للنبي ﷺ: «عاب ديننا، وسفّه أعلامنا، وشتم آلِهتنا».

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ رَبِّي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّكُمُ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) وَأَنْ أَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١١٥) وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ (١١٦)﴾ [يونس].

فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهم: ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ...﴾ إلى آخره، أي: إذا شككتكم في الدين الذي أنا عليه، فدينكم الذي أنتم عليه أنا بريء منه، وقد أمرني ربي أن أكون من المؤمنين الذين هم أعداؤكم، ونهاني أن أكون من المشركين الذين هم أولياؤكم.

وقال تعالى: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣)﴾ [الكافرون].

فأمر الله رسوله ﷺ أن يقول للكفار: دينكم الذي أنتم عليه أنا بريء منه، وديني الذي أنا عليه أنتم برآء منه. والمراد التصريح لهم بأنهم على الكفر، وأنه بريء منهم ومن دينهم.

فمن كان متبعًا للنبي ﷺ فعليه أن يقول ذلك، ولا يكون مظهرًا لدينه إلا بذلك؛ ولهذا لما علّم الصحابة بذلك، وآذاهم المشركون أمرهم النبي ﷺ بالهجرة إلى الحبشة، ولو وَجَدَ لهم رخصةً في السكوت عن المشركين، لَمَّا أمرهم بالهجرة إلى بلد الغربة.

وفي السيرة أن خالد بن الوليد لما وصل إلى العِرض^(١) - في مسيره إلى أهل اليمامة لما ارتدّوا - قدّم مِئتي فارس، وقال: «من أصبتم من الناس فخذوه»، فأخذوا مُجَاعَةً في ثلاثة وعشرين رجلاً من قومه، فلما وصل إلى خالد، قال له: «يا خالد، لقد علمت أنني قدمت إلى رسول الله ﷺ، في حياته، فبايعته على الإسلام، وأنا اليوم على ما كنت عليه أمس، فإن يك كذاب^(٢) قد خرج فينا؛ فإن الله يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤]، فقال: يا مجاعة، تركت اليوم ما كنت عليه أمس، وكان رضاك بأمر هذا الكذاب، وسكوتك عنه - وأنت أعزُّ أهل اليمامة، وقد بلغك مسيري - إقراراً له، ورضاءً بما جاء به، فهلا أبديتَ عذراً، وتكلمت فيمن تكلم؟ فقد تكلم ثمامة؛ فرد وأنكر، وتكلم اليشكري! فإن قلت: أخافُ قومي، فهلا عمدت إليّ، أو بعثت إليّ رسولاً؟! فقال: إن رأيت - يا ابن المغيرة^(٣) - أن تعفو عن هذا كله! فقال: قد عفوتُ عن دمك، ولكن في نفسي حرجٌ من تركك». انتهى.

وسياتي في ذكر الهجرة قول أولاد الشيخ: «إن الرجل إذا كان في بلد كفر، وكان يقدر على إظهار دينه عندهم، ويتبرأ منهم ومما هم عليه، ويظهر لهم كفرهم وعداوته لهم، ولا يفتنونه عن دينه لأجل عشيرته أو ماله، فهذا لا يحكم بكفره...» إلى آخره. والمقصود منه: أن الرجل لا يكون مُظهرًا لدينه حتى يتبرأ من

(١) العِرض: إقليم واسع من أقاليم «نجد».

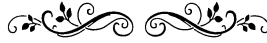
(٢) يشير إلى مسيلمة - لعنه الله -.

(٣) الخطاب لخالد بن الوليد؛ لأنه خالد بن الوليد بن المغيرة.

أهل الكفر الذين هو بين أظهرهم، ويصرح لهم بأنهم كفار، وأنه
عدو لهم، فإن لم يحصل ذلك لم يكن إظهار الدين حاصلًا.



❁ فصل ❁



📖 **وأما المسألة الخامسة: وهي مسألة الاستضعاف:**

فإن كثيراً من الناس - بل أكثر من ينتسب إلى العلم في هذه الأزمان - غلطوا في معنى «الاستضعاف»، وما هو المراد به، وقد بين الله ذلك في كتابه بياناً شافياً:

فقال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ٧٥﴾ [النساء].

فبين تعالى مقاتلتهم الدالة على أنهم لم يُقيموا مختارين للمقام؛ وذلك أنهم يدعون الله أن يخرجهم، فدل على حرصهم على الخروج، وأنه متعذرٌ عليهم. ويدل على ذلك وصفهم أهل القرية بالظلم، وسؤالهم ربهم أن يجعل لهم ولياً يتولاهم ويتولونه، وأن يجعل لهم ناصرًا ينصرهم على أعدائهم الذين هم بين أظهرهم.

وقال تعالى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ٧٦﴾ [النساء].

فذكر في هذه الآية حالهم التي هم عليها؛ وهي أنهم لا يستطيعون حيلة.

□ قال ابن كثير: «ولا يقدرّون على التخلص من أيدي المشركين، ولو قدرّوا ما عرفوا كيف يسلكون الطريق؛ ولهذا قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾، قال عكرمة: يعني نهوضاً إلى المدينة، ﴿وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾،

قال مجاهد وعكرمة: يعني طريقًا. انتهى.

والحاصل: أن المستضعفين هم العاجزون عن الخروج من بين أظهر المشركين، وهم مع ذلك يقولون: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾، وهم - مع ذلك - لا يُدَلُّون الطريق^(١)، فمن كانت هذه حاله وذلك مقاله: ﴿فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [النساء].

وأما إذا كان يقدر على الخروج من بلاد المشركين، ولم يمنعه من ذلك إلا المشحّة بوطنه، أو عشيرته أو ماله، أو غير ذلك = فإن الله تعالى لم يعذر من تعدّر بذلك، وسماه: «ظالمًا لنفسه»؛ فقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْغَالِبِينَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء].

□ وفي «تفسير الجلالين»: «قوله: ﴿ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ﴾، أي: بالمقام بين المشركين».

□ وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى: «فهذه الآية عامة في كل من أقام بين ظهرائي المشركين، وهو قادرٌ على الهجرة، وليس متمكنًا من إقامة الدين، فهو مرتكب حرامًا بالإجماع وبنص الآية؛ حيث يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْغَالِبِينَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ﴾، أي: بترك الهجرة، ﴿قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ﴾، أي: لِمَ مكثتم هاهنا وتركتم الهجرة؟ ﴿قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ﴾، أي: لا نقدر على الخروج من البلد، ولا الذهاب في الأرض، ﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾.

(١) أي: لا يدلّهم أحدٌ على طريق الفرار.

وروى أبو داود عن سُمرة بن جُنْدُب مرفوعاً: «مَنْ جَامَعَ الْمُشْرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ فَإِنَّهُ مِثْلُهُ»^(١).

وقال السُّدِّي: لما أُسِرَ العباسُ وعَقِيلُ ونوفل، قال رسول الله ﷺ للعباس: «أَفِدْ نَفْسَكَ وَابْنِي أَخِيكَ»، قال: يا رسول الله، أَلَمْ نُصَلِّ قِبَلَتِكَ، وَنَشْهَدَ شَهَادَتَكَ؟ قال: «يا عباس، إِنَّكُمْ خَاصَمْتُمْ فَخُصِمْتُمْ». ثم تلا هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجَرُوا﴾ الآية. رواه ابن أبي حاتم^(٢) انتهى.

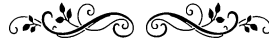
والمقصود منه بيان مسألة الاستضعاف، وأن المستضعف هو الذي لا يستطيع حيلةً ولا يهتدي سبيلاً، وهو مع ذلك يقول: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا﴾، وبيان أن الذي يعتذر بوطنه أو عشيرته أو ماله، ويدّعي أنه يكون بذلك مستضعفاً = كاذبٌ في دعواه، وعذره غير مقبول عند الله تعالى، ولا عند رسوله، ولا عند أهل العلم بشريعة الله.



(١) حسن: وقد تقدم.

(٢) ضعيف جداً: رواه ابن جرير (٣٨٤/٧)، وابن أبي حاتم (١٠٤٧/٣)، وإسناده ضعيف جداً، وكذا فيه إعضال؛ فهو من رواية أسباط بن نصر عن السدي، وكلاهما ضعيف، كما أفادني أخي الحبيب أحمد بن سامي أبو عمر الذهبي، نفع الله به. وكذا قال الشيخان سليم الهلالي ومحمد موسى آل نصر في «الاستيعاب في بيان الأسباب» (٤٧٩/١). والله تعالى أعلم.

فصل



📖 وأما المسألة السادسة: وهي وجوب الهجرة وأنها باقية:

فالدليل عليه: قول النبي ﷺ: «لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها». رواه أحمد وأبو داود^(١).

وروى أبو يعلى عن الأزهر بن راشد قال: حَدَّثَ أَنَسٌ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لا تستضيئوا بنار المشركين»^(٢).

□ قال ابن كثير: «معناه: لا تقاربوهم في المنازل؛ بحيث تكونون معهم في بلادهم، بل تباعدوا منهم، وهاجروا من بلادهم؛ ولهذا

(١) صحيح: رواه أحمد (٩٩/٤)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٨٠/٩)، وأبو داود (٢٤٧٩)، والنسائي في «الكبرى» (٨٧١١)، والدارمي (٢/٢٣٩)، وأبو يعلى (٧٣٧١)، والطحاوي في «شرح المشكل» (٢٦٣٤)، والطبراني في «الكبير» (٩٠٧/١٩)، وفي «مسند الشاميين» (١٠٦٤)، والبيهقي (١٧/٩)، من حديث معاوية رضي الله عنه. وحسنه الشيخ شعيب الأرناؤوط في «المسند» (١٣٦/٤)، وعند أبي داود (١٣٧/٤)، وصححه الشيخ الألباني عند الأخير - أيضًا -.

(٢) ضعيف: رواه أحمد (٩٩/٣)، والبخاري في «التاريخ الكبير» (٤٥٥/١)، والنسائي (٥٢٠٩)، وفي «الكبرى» (٩٤٦٤)، الطحاوي في «شرح المعاني» (٢٦٣/٤)، والبيهقي (١٢٧/١٠)، وفي «الشعب» (٩٣٧٥)، والضياء في «المختارة» (١٥٤٦)، وضعفه الشيخ الألباني عند النسائي، وكذا الشيخ شعيب الأرناؤوط في «المسند» (١٨/١٩).

روى أبو داود: «لا تتراءى ناراهما»^(١)، وفي الحديث الآخر: «من جامع المشرك وسكن معه فهو مثله»^(٢).

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْفَالِغَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنَّا قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾ [النساء].

□ وروى ابن أبي حاتم عن ابن عباس قال: «كان قومٌ من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم بفعل بعض، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكرهوا؛ فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْفَالِغَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾»^(٣).

□ وقال الضحاك: «نزلت في أناس من المنافقين؛ تخلفوا عن رسول الله ﷺ، وخرجوا مع المشركين يوم بدر فأصيبوا». ذكره ابن كثير^(٤).

□ ثم قال: «فهذه الآية عامة في كل من أقام بين ظهرائنا

(١) صحيح: رواه أبو داود (٢٤٦٥)، والترمذي (١٦٩٦)، وفي «العلل الكبير» (٦٨٦/٢)، والطبراني في «الكبير» (٢٢٦٤)، وابن حزم في «المحلى» (٣٦٩/١٠)، والبيهقي في «الكبرى» (١٣١/٨)، وفي «الشعب» (٨٩٢٩)، من حديث جرير رضي الله عنه. وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط في تحقيق «سنن أبي داود» (٢٨١/٤)، والشيخ الألباني عند الترمذي.

(٢) حسن: وقد تقدم.

(٣) صحيح: وقد تقدم.

(٤) ضعيف: رواه الطبري (١٤٩/٥)، وابن أبي حاتم في «التفسير» (٣/١٠٤٦)، وضعفه صاحب «الاستيعاب في بيان الأسباب» (٤٨٠/١).

المشركين، وهو قادرٌ على الهجرة، وليس متمكناً من إقامة الدين؛ فهو مرتكبٌ حراماً بالإجماع وبنص الآية». إلى آخر كلامه الذي تقدم قريباً.

📖 [بعض أجوبة آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُمُ اللَّهُ] (١) :

وفي أجوبة آل الشيخ لما سئلوا:

[المسألة الأولى]: هل يجوز للإنسان أن يسافر إلى بلاد الكفار لأجل التجارة أم لا؟

الجواب: إن كان يقدرُ على إظهار دينه، ولا يوالي المشركين، جاز له ذلك؛ فقد سافر بعضُ الصحابة - كأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وغيره -، فلم يُنكر ذلك النبي ﷺ؛ كما رواه أحمد في «مسنده» وغيره (٢).

وإن كان لا يقدر على إظهار دينه، ولا على عدم موالاتهم، لم يجز السفرُ له إلى ديارهم، كما نص على ذلك العلماء، وعليه تُحمل الأحاديث التي تدلُّ على النهي عن ذلك؛ ولأن الله تعالى أوجب على الإنسان العملَ بالتوحيد، وفَرَضَ عليه عداوة المشركين، فما كان ذريعةً وسبباً إلى إسقاط ذلك لم يجز. وأيضاً فقد يجزُّه ذلك إلى موافقتهم وإرضائهم؛ كما هو الواقع لكثير ممن يسافرون إلى بلدان المشركين من فساق المسلمين.

المسألة الثانية: هل يجوزُ للإنسان أن يجلس في بلد الكفار، وشعائرُ الشرك ظاهرة لأجل التجارة أم لا؟

الجواب عن هذه المسألة، والجواب عن التي قبلها سواء، ولا فرق

(١) تقدمت هذه المسائل - أيضاً -.

(٢) راجع التعليق في (١/٤٤٧).

في ذلك بين دار الحرب ودار الصلح، فكل بلد لا يقدر المسلم على إظهار دينه فيها لا يجوز السفر إليها.

المسألة الثالثة: هل يفرّق بين المدة القريبة - مثل شهر أو شهرين - وبين المدة البعيدة؟

الجواب: أنه لا فرق بين المدة القريبة والبعيدة، فكل بلد لا يقدر على إظهار دينه فيها ولا على عدم موالاة المشركين، لا يجوز له المقام فيها ولا يوماً واحداً، إذا كان يقدر على الخروج منها. انتهى.

وفي أجوبة أخرى:

وما قولكم في رجل دخل هذا الدين، وأحبّه، ويحب من دخل فيه، ويبغض الشرك وأهله، ولكن أهل بلده يصرحون بعداوة الإسلام، ويقاثلون أهله، ويعتذر بأن ترك الوطن يشق عليه، ولم يهاجر عنهم بهذه الأعذار؛ فهل يكون مسلماً هذا أم كافراً؟

الجواب: أما الرجل الذي عرف التوحيد وآمن به، وأحبه وأحب أهله، وعرف الشرك، وأبغضه وأبغض أهله، ولكن أهل بلده على الكفر والشرك، ولم يهاجر، فهذا فيه تفصيل:

- فإن كان يقدر على إظهار دينه عندهم، ويتبرأ منهم ومما هم عليه من الدين، ويظهر لهم كفرهم وعداوته لهم، ولا يفتنونه عن دينه لأجل عشيرته أو ماله أو غير ذلك = فهذا لا يحكم بكفره. ولكنه إذا قدر على الهجرة ولم يهاجر ومات بين أظهر المشركين، فنخاف أن يكون قد دخل في أهل هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمُتَكِّفِينَ ظَالِمِينَ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الآيتين [النساء: ٩٧]]. فلم يعذر الله تعالى إلا من لم يستطع

حيلةً ولا يهتدي سبيلاً. ولكن قلّ أن يوجد اليوم من هو كذلك؛ بل الغالب أن المشركين لا يدعون بين أظهرهم؛ بل إما قتلوه، وإما أخرجوه.

- وأما من ليس له عذر في ترك الهجرة، وجلس بين أظهرهم، وأظهر لهم أنه منهم، وأن دينهم حق، ودين الإسلام باطل؛ فهذا كافرٌ مرتد - ولو عرف الدين بقلبه -؛ لأنه يمنع عن الهجرة محبةً الدنيا على الآخرة، وتكلم بكلام الكفر من غير إكراه؛ فدخل في قوله: ﴿وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾ [النحل: ١٠٦].

هذا من جواب الشيخ حسين والشيخ عبدالله بن الشيخ محمد بن عبدالوهاب - رحمهم الله تعالى وعفا عنهم -.

ولمّا سئلوا عن أهل بلد بلغتهم هذه الدعوة، وبعضهم يقول: «هذا الأمر حق، ولا أُغيّر منكرًا، ولا أمرٌ بمعروف»، وينكر على الموحدين إذا قالوا: «تبرأنا من دين الآباء والأجداد»، والذي يقول: «هذا أمرٌ زينٌ»؛ لا يمكنه أن يقوله جهارًا؟

أجابوا: بأن أهل هذه القرية المذكورين، إذا كانوا قد قامت عليهم الحجة التي يكفر من خالفها، حكمهم حكم الكفار، والمسلم الذي بين أظهرهم، ولا يمكنه إظهار دينه تجب عليه الهجرة، إذا لم يكن ممن عذره الله، فإن لم يهاجر فحكمه حكمهم في القتل وأخذ المال. انتهى.

وفي هذه الأجوبة مسائل:

منها: بيان المستضعف، وأنه الذي لا يستطيع حيلةً ولا يهتدي سبيلاً. وقد تقدم ذلك.

ومنها: أن المسلم إذا لم يقدر على إظهار دينه وجبت عليه الهجرة، وقد تقدم - أيضًا - .

ومنها: صفة إظهار الدين؛ وهو أن يصرح للكفار بكفرهم وعداوته لهم، ولما هم عليه من الدين. وقد تقدم - أيضًا - .

ومنها: بيان أنه إذا فعل ذلك - أعني صرح لهم بكفرهم وعداوته لهم - فإنهم لا يتركونه بين أظهرهم؛ بل إما قتلوه وإما أخرجوه. قلت: وقد أخبر الله بذلك عن جميع الكفار:

فقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَتُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَن خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم].

وقال تعالى - إخبارًا عن قوم شعيب -: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَشْعَبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف].

وقال تعالى - إخبارًا عن أصحاب الكهف -: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾﴾ [الكهف]. وقوله: ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ أي: يقتلوكم بالرجم.

وهذا الذي أخبر الله به وأشار إليه أئمة الإسلام هو الواقع في هذه الأزمان؛ فإن المرتدين بسبب موالاة المشركين والدخول في طاعتهم لا يرضون إلا بمن وافقهم على ذلك، وإذا أنكر عليهم منكر آذوه أشد الأذى، وأخرجوه من بين أظهرهم؛ بل سعوا في قتله إن وجدوا إلى ذلك سبيلًا. والله المستعان.



[٣٢]

بيان المحجة في الرد على
صاحب اللجة

لفضيلة الشيخ

عبدالرحمن بن حسن بن محمد بن عبدالوهاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اللهم لك الحمد، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد، أنت قَيِّمُ السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت ملك السماوات والأرض ومن فيهن.

وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ﴿الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ ٢ ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ ٣ ﴿[الفرقان].

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، الذي قال الله خطابًا له: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ ٤٥ ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ ٤٦ ﴿[الأحزاب].

اللهم صلِّ على محمد، وعلى آل محمد وأصحابه، ومن أذهب الله عنهم الرجس، وطهرهم تطهيرًا.

أما بعد :

فإني وقفت على جواب للشيخ عبد الله بن عبد الرحمن، وقد سئل عن أبيات من «البردة» وما فيها من الغلو والشرك العظيم المضاهي لشرك النصاري ونحوهم ممن صرف خصائص الربوبية والإلهية لغير الله - كما هو صريح الأبيات المذكورة في البردة^(١) -.

(١) انظر طائفة من ردود العلماء على «البردة» على الرابط التالي:

«<http://www.saaaid.net/feraq/sufyah/39.htm>»

ولا يخفى على من عرف دين الإسلام أنه الشرك الأكبر الذي لا يُغفر لمن لم يَتُب منه، وأن الجنة عليه حرام، وذكر الشيخ في جوابه أن الآيات المذكورة تضمنت الشرك، وصَرَفَ خصائص الربوبية والإلهية لغير الله، فاعترض عليه جاهلٌ ضال:

فقال - مبرِّئاً لصاحب الآيات من ذلك الشرك بقوله -: حماه الله من ذلك، ويكفيه في نفي هذه الشناعة، قوله أول المنظومة:

دع ما ادعته النصارى في نبيهم

لقول النبي ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم»^(١).

الجواب: أن هذه التبرئة إنما نشأت عن الجهل وفساد التصور، فلو عرف الناظم وهذا المعترض ومن سلك سبيلهما حقَّ الله على عباده، وما اختص به من ربوبيته، وألوهيته، وعرفوا معنى كلام الله وكلام رسوله = لما قالوه هم وأمثالهم ممن جهل التوحيد، كما قال تعالى في حق من هذا وصفه: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام].

فالجعل بما بعث الله به رسله قد عم كثيراً من هذه الأمة؛ فظهر فيها ما أخبر به النبي ﷺ بقوله: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوً الْقُدَّةَ بِالْقُدَّةِ، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لدخلتموه»، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن»^(٢)؟ ونحو هذا من الأحاديث.

وقوله: ويكفيه في نفي هذه الشناعة قوله أول المنظومة:

دع ما ادعته النصارى في نبيهم

البيت.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(١) صحيح: وقد تقدم.

الجواب: أن هذا يزيده شناعةً ومقتًا؛ لأن هذا تناقضٌ بين، وبرهانٌ على أنه لا يعلم ما يقول، فلقد وقع فيما وقعت فيه النصارى من الغلو العظيم الذي نهى الله عنه ورسوله، ولعن النبي ﷺ من فعله، أو فعل ما يوصل إليه، كقوله: «لعنة الله على اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» - يحذر ما صنعوا^(١) -.

وقال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابنَ مريم، إنما أنا عبدٌ؛ فقولوا: عبدُ الله ورسولُه»^(٢).

وقوله لما قال له رجل: ما شاء الله وشئت، قال: «أجعلتني لله ندًا؟ بل ما شاء الله وحده»^(٣).

وقال: «إنه لا يُستغاث بي؛ وإنما يُستغاثُ بالله ﷻ»^(٤).
فلقد حذر أُمته وأنذرهم عن الشرك ووسائله، وما رُقَّ منه وجلَّ، ودعا الناس إلى التوحيد، ونهاهم عن الشرك، وجاهدهم على ذلك، حتى أزال الله به الشرك والأوثان من جميع الجزيرة، وما حولها من نواحي الشام واليمن وغير ذلك، وقد بعث السرايا في هدم الأوثان وإزالتها، كما هو مذكورٌ في كتب الحديث والتفسير والسير.
وكما في حديث أبي الهَيَّاج الأسدي - الذي في «الصحيح» - قال: قال [لي] عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: أَلَا أبعثُك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ «أَلَا تدع قبرًا مشرفًا إلا سَوَّيْتَهُ، ولا تمثالًا إلا طَمَسْتَهُ»^(٥).

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) صحيح: وقد تقدم.

(٤) ضعيف: وقد تقدم.

(٥) صحيح: وقد تقدم.

وقد بعثه النبي ﷺ يوم الفتح لهدم مناة^(١).
 وبعث خالد بن الوليد يومئذٍ لهدم العزى^(٢).
 وقطع السمرات^(٣) التي كانت تعبدها قريش وهذيل^(٤).
 وبعث المغيرة بن شعبة لهدم اللات فهدها^(٥).
 وأزال من جزيرة العرب وما حولها جميع الأصنام والأوثان التي
 كانت تُعبد من دون الله.
 والصحابة رضِيَ الله عنهم تعاهدوا هذا الأمر، واعتنوا بإزالته أعظم الاعتناء
 بعد وفاة رسول الله ﷺ.

وقد أخبر النبي ﷺ بما يقع في أمته من الاختلاف، كما في
 حديث العرباض بن سارية، قال: «فإنه من يَعِشْ منكم فسيرى اختلافًا

(١) ضعيف: ذكره ابن هشام في «السيرة النبوية» (٧٩/١) بدون سند، قائلًا:
 «بعث رسول الله ﷺ إليها أبا سفيان بن حرب فهدهما، ويقال: علي بن
 أبي طالب».

قلت: وذكر ابن سعد في «الطبقات» (١٣٦/٢)، أن النبي ﷺ أرسل في
 هدمها سعد بن زيد الأشهلي.

(٢) صحيح: رواه النسائي في «الكبرى» (١١٤٨٣)، وأبو يعلى (٩٠٢)، وأبو
 نعيم في «الدلائل» (٤٦٢)، والبيهقي في «الدلائل» - أيضًا - (٧٧/٥)،
 وصححه الشيخ حسين الداراني في تحقيق «مسند أبي يعلى».

(٣) السمرات: الشجرات.

(٤) صحيح: وهو نفس تخريج الحديث السابق.

(٥) ضعيف: ذكره ابن هشام في «السيرة» (٥٤١/٢) دون إسناد، وذكره ابن
 كثير في «البداية والنهاية» (٣٣/٥) دون إسناد - أيضًا -. والله تعالى
 أعلم.

كثيرًا...» الحديث^(١).

فوقع ما أخبر به ﷺ، وعظم الاختلاف في أصل الدين بعد القرون المفضلة - كما هو معلوم عند العلماء -، ولو أخذنا نذكر ذلك أو بعضه لخرج بنا عن المقصود من الاختصار؛ فانظر إلى ما وقع اليوم من البناء على القبور والمَشاهد، وعبادتها، فلقد عمّت هذه البلية في كثير من البلاد، ووقع ما وقع من الشرك وسوء الاعتقاد في أناسٍ ينتسبون إلى العلم.

□ قال سليمانُ التيمي: «لو أخذت بزلة كلِّ عالمٍ لاجتمع فيك الشرُّ كله»^(٢).

فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقوله: المطابق لقول النبي ﷺ: «لا تطروني كما أطرتِ النصارى ابنَ مريم»^(٣).

أقول: لا ريب أن المطابقة وقعت منه ولا بد، لكنها في المنهي عنه

(١) صحيح: رواه أحمد (١٢٦/٤)، وأبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦)، وابن ماجه (٤٣)، وابن جبان (٥)، والحاكم (١٧٤/١)، والدارمي (٩٦)، وابن وضاح في «البدع» (٧٣)، والطبراني في «الكبير» (١٨/٢٤٥)، والبيهقي في «الشعب» (٧٥١٥)، وابن عبد البر في «جامع العلم» (١٤٥٦ - تهذيبي). وصححه الأئمة: الترمذي، والحاكم، والذهبي، وكذا الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٩٣٧، ٢٧٣٥)، والشيخ شعيب الأرناؤوط في «المسند» (٣٦٧/٢٨).

(٢) وهذا هو «الانتقاء بالتشهي» بين الأقوال الذي صار سمة بارزة عند البعض، أدى بهم إلى التلاعب المقيت بشريعة الرب المجيد.

(٣) صحيح: وقد تقدم.

لا النهي، فالذي نهى عنه النبي ﷺ من الإطراء طابقته الآيات من قوله:

يا أكرمَ الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلولِ الحادثِ العممِ
فقد تضمنت غايةَ الإطراء والغلو الذي وقعت فيه النصارى
وأمثالهم، فإنه قَصَرَ خصائص الإلهية والربوبية - التي قَصَرها الله
على نفسه، وقَصَرها عليه رسوله ﷺ -، فصرفها لغير الله؛ فإن
الدعاء مخُ العبادة^(١)، واللياذ من أنواع العبادة، وقد جمع في
آياته الاستعانة بغير الله، والالتجاء والرغبة إلى غير الله؛ فإن
غاية ما يقع من المستغيث والمستعين والراغب إنما هو الدعاء
واللياذ بالقلب واللسان؛ وهذه هي أنواع العبادة التي ذكرها الله
تعالى في مواضع كثيرة من كتابه، وشكَّرها لمن قَصَرها على الله،
ووعده على ذلك الإجابة والإثابة.

كقوله تعالى: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ
الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا^(٢)﴾ قُلْ
إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا^(٣) قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا^(٤) قُلْ
إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا^(٥)﴾ [الجن: ٢٢].

فهذا هو الدين الذي بعث الله به نبيه محمداً ﷺ، وأمره أن يقول

(١) ضعيف: وقد تقدم.

(٢) ﴿لِبَدًا﴾: يركب بعضهم بعضاً ويزدحمون؛ حرصاً على استماع القرآن.

(٣) ﴿مُلْتَحَدًا﴾: ملجأً ومهرباً.

لهم: ﴿إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أَشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾؛ فَقَصَرَ الدِّعَاءَ عَلَى رَبِّهِ الَّذِي هُوَ تَوْحِيدُ الْإِلَهِيَّةِ.

وقال: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا...﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ، وَهَذَا هُوَ تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ؛ فَوَحَّدَ اللَّهَ فِي إِلَهِيَّتِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ، وَبَيَّنَ لِلْأُمَّةِ ذَلِكَ كَمَا أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ^(١)﴾ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾﴾ [الشرح]، أَمَرَهُ بِقَصْرِ الرِّغْبَةِ عَلَى رَبِّهِ تَعَالَى.

وقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْـَٔرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ ﴿٩﴾﴾ [الأنبياء].

وَنَهَى عَنِ الِاسْتِعَاذَةِ بِغَيْرِهِ، بِقَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ مُؤْمِنِي الْجَنِّ: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يُعْذُونَ رِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا^(٢)﴾﴾ [الجن].

وَاحْتَجَّ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ وَغَيْرُهُ عَلَى الْقَائِلِينَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ، بِحَدِيثِ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا مَرْفُوعًا: «مَنْ نَزَلَ مِنْزَلًا، فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ...» الْحَدِيثُ^(٣) = عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ؛ إِذْ لَوْ كَانَ مَخْلُوقًا لَمَا جَازَ أَنْ يُسْتَعَاذَ بِمَخْلُوقٍ؛ لِأَنَّ الِاسْتِعَاذَةَ بِالْمَخْلُوقِ شُرْكٌ.

وَأَمْثَالُ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ كَثِيرٌ يَظْهَرُ بِالتَّدْبِيرِ.

وَأَمَّا قَوْلُ الْمَعْتَرِضِ: «إِنَّ النَّصَارَى يَقُولُونَ: إِنَّ الْمَسِيحَ ابْنَ اللَّهِ».

[فَالْجَوَابُ]: نَعَمْ قَالَهُ طَائِفَةٌ، وَطَائِفَةٌ قَالُوا: «هُوَ اللَّهُ»، وَطَائِفَةٌ

الثَّلَاثَةُ قَالُوا: «هُوَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ»؛ وَبِهَذِهِ الطَّرِيقِ الثَّلَاثُ عَبْدُوا الْمَسِيحَ

(١) انظر (٢٩/٣).

(٣) صحيح: وقد تقدم.

(٢) راجع المعنى في (١٤٢/٢).

ﷺ، فأنكر الله عليهم تلك الأقوال في المسيح. وأنكر عليهم ما فعلوه من الشرك، كما قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]؛ فأنكر عليهم عبادتهم للمسيح والأحبار والرهبان.

أما المسيح: فعبادتهم له بالتأله، وصرف خصائص الإلهية له من دون الله، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٧١].

فأخبر أن الإلهية - وهي العبادة - حق الله لا يشركه فيها أولو العزم ولا غيرهم، يبين ذلك قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

وأما عبادتهم للأحبار والرهبان: فإنهم أطاعوهم فيما حللوه لهم من الحرام، وتحريم ما حرموه عليهم من الحلال.

ولما قدم عدي بن حاتم رضي الله عنه على النبي ﷺ بعد فراره من الشام - وكان قبل مقدمه على النبي ﷺ نصرانياً -، فلما قدم على النبي ﷺ مسلماً، تلا عليه هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]، قال: يا رسول الله، لسنا نعبدهم؛ فقال النبي ﷺ: «أليس يُحْلُونَ لكم ما حَرَّمَ اللَّهُ فُتَحِّلُونَهُ، ويَحَرِّمُونَ عليكم ما أَحَلَّ اللَّهُ فَتَحَرِّمُونَهُ؟»، قال: بلى، قال: «فتلك عبادتُهم»^(١).

ففيه بيان أن من أشرك مع الله غيره في عبادته، وأطاع غير الله في معصيته = فقد اتخذهُ ربًّا معبودًا، وهذا بيِّنٌ - بحمد الله - .

فلو تأمل هذا الجاهل المعترض قول الله تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، لعلم أن الله تعالى قد أنكر على النصارى قولهم وفعلهم، وعلى كل من عبد مع الله غيره بأي نوع من أنواع العبادة؛ لكن هذا وأمثاله كرهوا التوحيد، وألفوا الشرك، وأحبوه، وأحبوا أهله؛ فترامى بهم هذا الداء العضال^(١) إلى ما ترى من التخليط والضلال، والاستغناء بالجهل ووساوس الشيطان؛ فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه .

ولا شفاء لهذا الداء العظيم إلا بالتجرّد عن الهوى والعصية، والإقبال على تدبر الآيات المحكمات في بيان التوحيد الذي بعث الله به المرسلين .

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٥٧﴾ [يونس].

ومثل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤].

أمره تعالى أن يدعوا أهل الكتاب إلى أن يُخلصوا العبادة لله وحده، ولا يشركوا فيها أحدًا من خلقه؛ فإنهم كانوا يعبدون أنبياءهم - كالمسيح بن مريم -، ويعبدون أحبارهم ورهبانهم .

وتأمل قوله: ﴿كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ﴾؛ وهذا هو التوحيد الذي بعث الله به رسوله ﷺ إلى جميع من أرسل إليه؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾ (الرعد: ٣٦).

وقوله: ﴿وَلَا تُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا﴾ يعم كل شرك؛ دق أو جل، كثر أو قل.

□ قال العماد بن كثير في «تفسيره»: «هذا الخطاب مع أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن جرى مجراهم. وقوله: ﴿سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾، لا وثناً ولا صنماً، ولا صليباً ولا طاغوتاً، ولا ناراً، ولا شيئاً؛ بل نفرد العبادة لله وحده لا شريك له».

قلت: وهذا هو معنى «لا إله إلا الله».

□ ثم قال: «وهذه دعوة جميع الرسل، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء: ٢٥)، وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]. انتهى المقصود.

□ وقال رحمه الله - في تفسير قوله: ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُوتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ الآية [آل عمران: ٧٩] -: «قال محمد بن إسحاق: حدثنا محمد بن أبي محمد، عن عكرمة أو سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنه قال: قال أبو رافع القرظي - حين اجتمعت الأحرار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام -: أتريد

- يا محمد - أن نعبدك كما عَبدت النصارى عيسى ابنَ مريم؟ فقال رجلٌ من أهل نجران - يقال له الرئيس -: أو ذاك تريدُ منا - يا محمد -، إليه تدعوننا - أو كما قال -؟! فقال رسول الله ﷺ: «معاذ الله أن نعبد غير الله، أو نأمر بعبادة غير الله، وما بذلك بعثني الله، ولا بذلك أمرني»، أو كما قال ﷺ، فأنزل الله ﷻ في ذلك: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾، إلى قوله: ﴿بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٠) [آل عمران] (١).

قوله: ﴿ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، أي: ما ينبغي لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة أن يقول للناس: «اعبدوني من دون الله»، أي - مع الله -، وإذا كان هذا لا يصح لنبي ولا لمرسل، فلأن لا يصح لأحدٍ من الناس بطريق الأولى والأحرى.

ولهذا قال الحسن البصري: «لا ينبغي هذا للمؤمن أن يأمر الناس بعبادته؛ وذلك أن القوم كان يعبد بعضهم بعضاً». يعني أهل الكتاب.

وقوله: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾، أي: لا يأمركم بعبادة أحد غير الله، لا ملكٍ مقرب، ولا نبيٍّ مرسل، ﴿أَيَّامُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾، أي: لا يفعل ذلك؛ لأن من دعا إلى عبادة غير الله فقد دعا إلى الكفر، والأنبياء إنما يأمرونكم بالإيمان وعبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ

(١) ضعيف: رواه ابن إسحاق في «السيرة» (١٨٠/٢)، وابن جرير في «التفسير» (٢٣٢/٣)، والبيهقي في «الدلائل» (٣٨٤/٥)، وضعفه صاحب الاستيعاب في بيان الأسباب (٢٦٨/١).

رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِيْٓ اِلَيْهِ اِنَّهٗ لَا اِلَهَ اِلَّا اَنَا فَاعْبُدُوْنِ ﴿٥٥﴾ [الأنبياء]، وقال: ﴿وَسَلِّ مِّنْ اَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُّسُلِنَا اَجَعَلْنَا مِنْ دُوْنِ الرَّحْمٰنِ اِلٰهَةً يُعْبَدُوْنَ ﴿٥٥﴾﴾ [الزخرف]، وقال في حق الملائكة: ﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ اِنِّىْ اِلٰهٌ مِّنْ دُوْنِهٖ فَذٰلِكَ نَجْزِيْهِ جَهَنَّمَ كَذٰلِكَ نَجْزِي الْظٰلِمِيْنَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء]. انتهى، وهو في غاية الوضوح.

وبيان التوحيد، وخصائص الربوبية والإلهية، ونظائر هذه الآيات كثير في القرآن، وفي السنة من الأحاديث كذلك.

فإذا كان من المستحيل - عقلاً وشرعاً - على رسول الله ﷺ - هو وجميع الأنبياء والمرسلين - أن يأمرُوا أحداً بعبادتهم، فكيف جاز في عقول هؤلاء الجهلة أن يقبلوا قول صاحب البردة:

يا أكرمَ الخلق ما لي من ألودُ به سواك عند حلولِ الحادثِ العممِ

وقد أخلص الدعاء - الذي هو مخ العبادة -، واللياذ - الذي هو من أنواع العبادة - لغير الله، وتضمّن إخلاص الرغبة والاستكانة والاستغاثة والالتجاء إلى غير الله؟ وهذه هي معظم أنواع العبادة؛ كما أشير إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُوْنَ لَهُمْ شَيْءٌ﴾ [الرعد: ١٤] الآية.

وقوله: ﴿قُلْ اَدْعُوْا مِنْ دُوْنِ اللّٰهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلٰٓى اَعْقَابِنَا بَعْدَ اِذْ هَدٰنَا اللّٰهُ كَالَّذِيْ اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِیْنُ فِى الْاَرْضِ حَيٰرَانَ لَهُٗ اَصْحٰبٌ يَدْعُوْنَہٗٓ اِلٰى الْهٰدِیْ اَفْتِنَا﴾، إلى قوله: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّوْرِ عَلٰی الْعِیْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِیْمُ الْخَبِیْرُ﴾ [الأنعام].

وعن أنس مرفوعاً: «الدعاء مخُ العبادة». رواه الترمذي (١).

وقوله :

إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي فضلًا وإلا فقل: يا زلّة القدم

هذا القول [هو] المنافي لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝١٧﴾
ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ ۝١٩﴾ [الانفطار].

وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن].

وقوله: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ الآية [الأعراف: ١٨٨].

وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال لابنته فاطمة وأحبّ الناس إليه: «يا فاطمة بنت محمد، سليني من مالي ما شئت، لا أغني عنك من الله شيئاً»^(١).

فتأمل ما بين هذا وبين قول الناظم من التضادّ والتباين، ثم المصادمة منه لما ذكره الله تعالى وذكره رسوله ﷺ! كقوله تعالى لرسوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران].

وتأمل ما ذكره العلماء في سبب نزول هذه الآية.

وأمثال هذه الآية كثير لم يُنسخ حكمها ولم يُعَيَّر، ومن ادّعى ذلك فقد افترى على الله كذبًا، وأضلّ الناس بغير علم؛ كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [هود].

وبهذا يُعلم أن الناظم قد زلّت قدمه، اللهم إلا أن يكون قد تاب

(١) صحيح: وقد تقدم.

قبل الوفاة، واللّٰه أعلم.

□ وأما قوله:

فإنَّ منْ جُودِكَ الدُّنْيَا وَضَرَّتْهَا

فمن المعلوم أن الجواد لا يجودُ إلا بما يملكه، فمقتضى ذلك: أن الدنيا والآخرة ليست لله بل لغيره، وأن أهل الجنة من الأولين والآخرين لم يدخلهم الجنة الربُّ الذي خلقهم وخلقها لهم؛ بل أدخلهموها غيره! ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (١٨٠) [الصافات].

وفي الحديث الصحيح: «لن يدخل أحدٌ منكم الجنة بعمله». قالوا: ولا أنت - يا رسول الله -؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمّدني الله برحمته» (١).

وقد قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النساء: ١٣٤].

وقوله ﷺ: ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١) [الملك].

وقوله: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ١٢].

وقوله: ﴿وَإِنَّا لَنَا لِلْآخِرَةِ وَالْأُولَى﴾ [الليل].

فلا شريك لله في ملكه؛ كما لا شريك له في إلهيته وربوبيته. والآيات في هذا المعنى كثيرة جداً.

□ وقوله:

ومن علومك علم اللوح والقلم

(١) رواه البخاري (٦٤٦٧) من حديث أمنا عائشة رضي الله عنها.

وهذا - أيضًا - كالذي قبله، لا يجوز أن يقال إلا في حق الله تعالى الذي أحاط علمه بكل شيء.

كما قال تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ (٧٢) [الأنعام].

وقال: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (١١) [يونس].

وقوله: ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلْمَتٍ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَاسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (٩١) [الأنعام].

وقال تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

والآيات في هذا المعنى كثيرة تفوت الحصر.

وكل هذه الأمور من خصائص الربوبية والإلهية التي بعث الله رُسُلَهُ [بها]، وأنزل كتبه لبيانها واختصاصها بالله ﷻ دون كل من سواه.

وقال تعالى: ﴿عَلِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ (٨) [إِلَّا مَنْ أَرَادَ مِنْ رُسُولِي] [الجن]، كقوله في آية الكرسي: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فقد أطلع الله مَنْ شاء من أنبيائه ورسله على ما شاء من الغيب بوحيه إليهم.

فمن ذلك ما جرى من الأمم السالفة، وما جرى عليهم؛ كما قال

تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩].

وكذلك ما تضمنه الكتاب والسنة من أخبار المعاد والجنة والنار ونحو ذلك، أطلع الله عليه رسوله ﷺ، والمؤمنون عرفوه من كتاب الله وسنة رسوله، وآمنوا به.

وأما إحاطة العلم بالمعلومات كلياتها وجزئياتها، وما كان منها وما لم يكن، فذاك إلى الله وحده؛ لا يُضاف إلى غيره من خلقه، فمن ادّعى ذلك لغير الله فقد أعظم الفرية على الله وعلى رسوله ﷺ.

فما أجراً هذا القائل على الله في سلب حقه! وما أعداه لرسوله ﷺ ولمن تولاه من المؤمنين والموحدين!

□ قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ - وذكر قول عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «إنما تُنتقض عُرَى الإسلام عروة عروة، إذا نشأ في الإسلام مَنْ لا يعرف الجاهلية» -: «وهذا لأنه إذا لم يعرف الجاهلية والشرك وما عابه القرآن وذمّه = وقع فيه وأقرّه، ودعا إليه، وصوّبه وحسنه، وهو لا يعرف أنه الذي كان عليه أهل الجاهلية - أو نظيره أو شرّ منه أو دونه -، فتنقض بذلك عرى الإسلام، ويعود المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والبدعة سنةً، والسنة بدعة، ويُكفّر الرجل بمحض الإيمان وتجريد التوحيد، ويُبَدِّعُ بتجريد متابعة الرسول ﷺ ومفارقة الأهواء والبدع، ومَن له بصيرةٌ وقلبٌ حيٌّ يرى ذلك عياناً، والله المستعان». انتهى.

قلت: وقد رأينا ذلك - والله - عياناً من هؤلاء الجهلة الذين

ابْتُلِينَا بِهِمْ فِي هَذِهِ الْأَزْمَنَةِ، أَشْرَبَتْ قُلُوبُهُمُ الشَّرْكَ وَالْبَدْعَ،
وَاسْتَحْسَنُوا ذَلِكَ، وَأَنْكَرُوا التَّوْحِيدَ وَالسَّنَةَ، وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ
لِيَدْحُضُوا بِهِ الْحَقَّ؛ فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا.

□ وَأَمَّا قَوْلُ النَّازِمِ:

فَإِنْ لِي ذِمَّةٌ مِنْهُ بِتَسْمِيَّتِي مُحَمَّدًا

فهذا من جهله؛ إذ من المعلوم - عند كل من له أدنى مُسْكَةٍ من
عقل - أن الموافقة في الاسم لا تنفع إلا بالموافقة في الدين واتباع
السنة، فأولياء الرسول ﷺ أَتْبَاعُهُ عَلَى دِينِهِ وَالْعَمَلِ بِسُنَّتِهِ، كَمَا
دَلَّ عَلَى ذَلِكَ الْكِتَابُ وَالسَّنَةُ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ
الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي
يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا
بِهِ وَعَزَّزُوا وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾
[الأعراف].

وَتَأَمَّلْ قِصَّةَ أَبِي طَالِبٍ عَمِ النَّبِيِّ ﷺ - وَقَدْ كَانَ يَحُوطُهُ وَيَحْمِيهِ
وَيَنْصُرُهُ، وَيَجْمَعُ الْقِبَائِلَ عَلَى نَصْرَتِهِ ﷺ وَحِمَايَتِهِ مِنْ أَعْدَائِهِ -،
وَقَدْ قَالَ فِي حَقِّ النَّبِيِّ ﷺ:

لَقَدْ عَلِمُوا أَنْ ابْنَنَا لَا مَكْذَبَ لَدَيْنَا وَلَا يُعْنَى بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ
حَدَبْتُ بِنَفْسِي دُونَهُ وَحِمَيْتُهُ وَدَافَعْتُ عَنْهُ بِالذُّرَى وَالْكَلاَكِلِ^(١)

(١) حَدَبْتُ: عَطَفْتُ وَمَنْعْتُ. وَالذُّرَى: جَمْعُ ذُرَّةٍ، وَهِيَ أَعْلَى ظَهْرِ الْبَعِيرِ.
وَالْكَلاَكِل: جَمْعُ كَلْكَلٍ، وَهُوَ عَظْمُ الصَّدْرِ. وَالْمَرَادُ: دَافَعْتُ عَنْهُ بِكُلِّ
طَاقَتِي.

ولما لم يتبرأ من دين أبيه عبدالمطلب، ومات على ذلك، وقال النبي ﷺ: «لأستغفرن لك ما لم أنه عنه»، أنزل الله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة] (١).

فلا وسيلة للعبد إلى نيل شفاعة النبي ﷺ إلا بالإيمان به، وبما جاء به من توحيد الله، وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له، ومحبة واتباعه، وتعظيم أمره ونهيه، والدعوة إلى ما بُعث به من دين الله، والنهي عما نهى عنه من الشرك بالله والبدع، وما لا فلا.

فعكس الملحدون الأمر، وطلبوا الشفاعة - التي بعث الله رسوله ﷺ بالنهي عنها وإنكارها، وقتل أهلها - بالشرك، وإحلال دماءهم وأموالهم، وأضافوا إلى ذلك إنكار التوحيد، وعداوة من قام به، واقتفى أثر النبي ﷺ كما تقدّم في كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى من قوله: «ويكفر الرجل بمحض الإيمان، وتجريد التوحيد...» إلى آخر كلامه (٢).

□ وأما قول الناظم:

ولن يضيق رسول الله جاهك بي

فهذا هو الذي ذكر الله عن المشركين، من اتخاذهم الشفعاء ليشفعوا لهم، ويقربوهم إلى الله زلفى.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر].

(١) صحيح: وقد تقدم. (٢) راجع الأثر الذي علّفته في (٧٠/١).

فهذا هو دين الله الذي لا يقبل الله من أحد دينًا سواه .

ثم ذكر بعد ذلك دين المشركين؛ فقال: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أُولَئِكَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۝﴾ [الزمر].

فتأمل كون الله تعالى كفرهم بقولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾!

وقال في آخر هذه السورة: ﴿أَرَأَيْتُمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلَوْكَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ۝﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا ﴿[الزمر].

قلت: وقد وقع من هؤلاء؛ من اتخذهم شفعاء بدعائهم، وطلبهم ورغبتهم، والالتجاء إليهم، وهم أموات غافلون عنهم لا يقدرُونَ، ولا يسمعون لما طلبوا منهم وأرادوه .

وقد أخبر تعالى أن الشفاعة ملكه؛ لا ينالها من أشرك به غيره، وهو الذي له ملك السماوات والأرض، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْفِئِمَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ۝ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ۝﴾ [الأحقاف].

فعاملهم الله بنقيض قصدهم من جميع الوجوه، وسجل عليهم [الحكم] بالضلال.

ولهذه الآية نظائر كثيرة؛ كقوله: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ۝﴾ إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْفِئِمَةِ يَكْفُرُونَ بَشْرِكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿[فاطر].

فبيّن أن دعوتهم غير الله شرك بالله، وأن المدعو من غيره لا

يملك شيئاً، وأنه لا يسمع دعاء الداعي، ولا يستجيب له، وأن المدعو ينكر ذلك الشرك، ويتبرأ منه ومن صاحبه يوم القيامة.
فمن تأمل هذه الآيات، انزاحت عنه - بتوفيق الله وفتحه - جميع الشبهات.

ومما يشبه هذه الآية - في حرمان من أنزل حوائجه بغير الله، واتخذ شافعياً من دون الله بتوجيه قلبه وقالبه إليه، واعتماده في حصول الشفاعة عليه، كما قد تضمنه بيت الناظم -: قول الله تعالى: ﴿وَعَبُدُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْتَبِهُونَ اللَّهُ يَمَّا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨].

فانظر كيف حرمهم الله الشفاعة لما طلبوها من غيره، وأخبر أن حصولها مستحيل في حقهم بطلبها في دار العمل من غيره، وهذه هي الشفاعة التي نفاها القرآن.

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقال: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١].

فهذه الشفاعة المنفية هي التي فيها شرك، وأما الشفاعة التي أثبتها القرآن فإنما ثبتت بقيد عظيمين:

١ - إذن الرب تعالى للشفيع.

٢ - ورضاه عن المشفوع له.

وهو لا يرضى من الأديان الستة المذكورة في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا ﴿الآية [الحج: ١٧]،
إلا الإيمان الذي أصله وأساسه التوحيد والإخلاص.

كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ (٢٨)
[الأنبياء].

وقال: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ
يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَرَضَى﴾ (٦٦) [النجم].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ
اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس].

وفي الحديث الصحيح: أن النبي ﷺ لما ذكر شفاعته قال: «وهي
نائلةٌ - إن شاء الله - من مات لا يشرك بالله شيئاً»^(١).

وقال له أبو هريرة رضى الله عنه: من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟
قال: «من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه»^(٢).

□ قال شيخ الإسلام - في هذا الحديث -: «فتلك الشفاعة لأهل
الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله».

وقد كشفنا - بحمد الله - بهذه الآيات المحكمات تلبيس هذا
المعترض الملبس ولجأه وافتراءه على الله ورسوله؛ فإن دعوة
غير الله ضلالٌ وشركٌ ينافي التوحيد، وإن اتخاذ الشفعاء إنما هو
بدعائهم، والالتجاء إليهم، وسؤالهم أن يشفعوا للداعي، وقد نهى
الله عن ذلك، وبيّن أن الشفاعة له، فإذا كانت له وحده فلا تُطلب

(١) رواه البخاري (٦٣٠٤)، ومسلم (١٩٩) - واللفظ له -.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

إلا ممن هي ملكه، فيقول: «اللهم شفع نبيك فيّ»؛ لأنه تعالى هو الذي يأذن للشفيع أن يشفع فيمن يرضى دينه، وهو الإخلاص - كما تقدم بيانه -.

وأما قول المعترض: إن المعتزلة احتجوا بالآيات التي فيها نفي الشفاعة على أنها لا تقع لأهل الكبائر من الموحدين.

فأقول: لا ريب أن قولهم هذا بدعة وضلالة، وأنت - أيها المجادل في آيات الله بغير سلطان - مع المعتزلة في طرفي نقيض، تقول: إن الشفاعة تثبت لمن طلبها وسألها من الشفيع، فجعلت طلبها منه موجباً لحصولها، والقرآن قد نفى ذلك وأبطله في مواضع كثيرة - بحمد الله -، والحق أنها لا تقع إلا لمن طلبها من الله وحده، ورغب إليه فيها، وأخلص له العبادة بجميع أنواعها، وهذا هو الذي تقع له الشفاعة قبل دخول النار أو بعده - إن دخلها بذنوبه -، فهذا هو الذي يأذن الله للشفعاء أن يشفعوا له بما معه من الإخلاص - كما صرح بذلك الأحاديث -، والله أعلم.

وقد قدمنا ما دلّ عليه الكتاب والسنة = أن ما في القرآن من ذكر الشفاعة - نفياً وإثباتاً - فحق لا اختلاف فيه بين أهل الحق:

- فالشفاعة المنفية إنما هي في حق المشرك الذي اتخذ له شفعاً يطلب الشفاعة منه؛ فيرغب إليه في حصولها - كما في البيت المتقدم -، وهو كفر كما صرح به القرآن.

- وأما الشفاعة التي أثبتها الكتاب والسنة، فقد ثبتت للمذنبين الموحدين المخلصين، وهذا هو الذي تظاهرت عليه النصوص، واعتقده أهل السنة والجماعة، ودانوا به.

والحديث الذي أشار إليه المعترض من قوله: «أنا لها، أنا لها»^(١): لا ينافي ما تقرر؛ وذلك أن الناس في موقف القيامة إذا فزعوا إلى الرسل ليشفعوا لهم إلى الله في إراحتهم من كرب ذلك المقام بالحساب - وكلُّ ذكر عُذْرَه -، قال النبي ﷺ في هذا الحديث: «يأتوني، فأخِرُّ بين يدي الله ساجداً - أو كما قال -، فأحمده بمحامد يفتحها عليّ، ثم يقال: ارفع رأسك، وقلْ يسمع، وسلْ تُعطه، واشفع تُشَفَّع»، قال: «فِيَحْدُ لي حَدًّا»^(٢)، فأدخلهم الجنة»^(٣).

فتأمل كون هذه الشفاعة لم تقع إلا بعد السجود لله ودعائه وحمده والثناء عليه.

وقوله: «فيحد لي حدًّا» فيه بيان أن الله هو الذي يحد له.

وهذا الذي يقع من الناس يوم القيامة مع الرسل هو من باب سؤال الحي الحاضر، والتوسل إلى الله بدعائه؛ كما كان الصحابة رضي الله عنهم يسألون رسول الله ﷺ في حياته أن يدعو لهم إذا نابهم شيء، كما في حديث الاستسقاء وغيره^(٤).

ولما توفَّى الله ﷻ رسوله ﷺ لم يكونوا يفعلون عند قبره شيئاً من ذلك البتة، ففرَّق أصحاب رسول الله ﷺ - وهم أعلم الأمة وأفضلها - بين حالتي الحياة والممات. وكانوا يصلون على النبي ﷺ عند دخول المسجد والخروج منه، وفي الصلاة والخطب وعند

(١) رواه البخاري (٨٥١٠)، ومسلم (١٩٣)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أي: يجعل لي قدرًا معيَّنًا.

(٣) رواه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) صحيح: وقد تقدم.

ذكره؛ امتثالاً لقوله ﷺ: «لا تجعلوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا عليّ؛ فإن صلاتكم تبلغني أينما كنتم»^(١).

□ ولما أراد عمر رضي الله عنه أن يستسقي بالناس، أخرج معه العباس ابن عبدالمطلب رضي الله عنه؛ فقال: «اللهم إنا كنا إذا أجدبنا توصلنا إليك بنبيّننا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا»، فيدعو^(٢).

فلو جاز أن يتوسل عمرُ والصحابة بذات رسول الله ﷺ بعد وفاته = لما صلّح منهم أن يعدّلوا عن النبي ﷺ إلى عمه العباس، فلما عدلوا عنه إلى العباس علم أن التوسل بالنبي ﷺ بعد وفاته لا يجوز في دينهم، وصار هذا إجماعاً منهم^(٣). لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به^(٤).

□ قال العلامة ابن القيم رحمه الله: «وقد أنكر أئمة الإسلام ذلك؛ فقال أبو الحسن القدوري - في شرح كتاب الكرخي -: قال بشر بن الوليد: سمعت أبا يوسف يقول: قال أبو حنيفة: لا ينبغي لأحد أن يدعو الله إلا به، وأكره أن يقول: «بحق فلان، أو بحق أنبيائك

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) وهذا إشارة إلى ثبوت «الإجماع العملي»، وقد قال الحافظ ابن رجب الحنبلي رحمه الله - حال كلامه عن مسألة التكبير أيام التشريق، وأنه لم يثبت عن النبي ﷺ وإنما ثبت عن الصحابة رضي الله عنهم -: «وهذا مما يدل على أن بعض ما أجمعت الأمة عليه لم يُنقل إلينا فيه نصٌ صريحٌ عن النبي ﷺ؛ بل يكفي بالعمل به» اهـ «فتح الباري» (١٢٤/٦) - ط: دار ابن الجوزي).

(٤) وفوق كل ما سبق ويأتي؛ فإن العبادات توقيفية أصلاً وصفةً.

ورسلك، أو بحق البيت الحرام». قال أبو الحسن: أما المسألة بغير الله فتكره في قولهم؛ لأنه لا حق لغير الله عليه، وإنما الحق لله على خلقه.

وقال ابن بلدجي^(١) - في شرح المختار -: ويكره أن يدعو الله إلا به، فلا يقول: «أسألك بفلان، أو بملائكتك، أو بأنبيائك» ونحو ذلك؛ لأنه لا حق للمخلوق على خالقه. وما يقول فيه أبو حنيفة وأصحابه: «أكره كذا»، هو عند محمدٍ حرام، وعند أبي حنيفة وأبي يوسف: هو إلى الحرام أقرب، وجانب التحريم عليه أغلب^(٢).

فإذا قرر الشيطان عنده^(٣) أن الإقسام على الله به^(٤) والدعاء به أبلغ في تعظيمه واحترامه، وأنجع لقضاء حاجته، نقله درجةً أخرى إلى أن يتخذ قبره وثناً يعكف عليه، ويوقد عليه القنديل، ويعلق عليه الستور، ويبني عليه المسجد، ويعبده بالسجود له والطواف، وتقبيله واستلامه، والحج إليه والذبح عنده، ثم ينقله درجةً أخرى

(١) في المطبوع: «بلدمي»، والمثبت من «إغاثة اللهفان» (١/٣٩١ - عالم الفوائد).

(٢) لكن نقل الشافعي في «الأم» عن أبي يوسف: «أن الحرام ما كان يُطلق عند السلف إلا على ما كان بيّناً في كتاب الله بلا تفسير».

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن السلف ما كانوا يحرمون شيئاً إلا بدليل قطعي». نقله عنه ابن مفلح في «الآداب الشرعية». وذكر أن في مذهب أحمد روايتين في المسألة، الثانية: أن التحريم يثبت بالدليل الظني - أيضاً - اهـ بالمعنى، ونحن نتبع السلف رضي الله عنهم. اهـ. وهذا التعليق وجدته في نسخة الكتاب الموجودة في «الدرر السنية» (١/٢٤٠).

(٣) أي: عند الجاهل بالشرع.

(٤) أي: بالميت.

إلى دعاء الناس لعبادته، واتخاذهِ عيدًا ومُنسكًا، وأن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخراهم.

قال شيخنا^(١) - قدس الله روحه -: وهذه الأمور المبتدعة عند القبور مراتب:

أبعدها عن الشرع: أن يسأل الميت حاجته، ويستغيث به فيها كما يفعله كثير من الناس. قال: وهؤلاء من جنس عبّاد الأصنام، وهذا يحصل للكفار من المشركين وأهل الكتاب؛ يدعو أحدهم من يعظمه، ويتمثل لهم الشيطان أحيانًا، وقد يخاطبهم ببعض الأمور الغائبة. ثم ذكر:

المرتبة الثانية: وهي أن يسأل الله به. قال: وهو بدعة باتفاق المسلمين.

والثالثة: أن يظن أن الدعاء عند قبره مستجاب، أو أنه أفضل من الدعاء في المسجد، فهذا - أيضًا - من المنكرات المبتدعة باتفاق المسلمين، وهي محرمة، وما علمت في ذلك نزاعًا بين أئمة الدين، وإن كان كثير من الناس يفعل ذلك» انتهى.

ففرّض على كل أحد أن يعلم ما أمر الله ورسوله به، من إخلاص العبادة لله وحده؛ فإنه الدين الذي بعثه الله به، وأن يترك ما نهى الله عنه ورسوله ﷺ من الشرك فما دونه؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ الآية [يونس]، وألا يدين^(٢) الله تعالى إلا بما دلّ الدليل على

(١) لا زال الكلام للعلامة ابن القيم رحمه الله، وشيخه - كما هو معلوم - هو الإمام ابن تيمية رحمه الله.
(٢) يدين: يعبد.

أنه من دين الله، ولا يكون إمعة يطير مع كل ريح؛ فإن الناس من أمة محمد ﷺ والأمم قبلها قد تنازعوا في ربهم وأسمائه وصفاته، وما يجب له على عباده، وقد قال تعالى: ﴿فَإِنْ نُنْزِعُكُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾^(١) [النساء].

فيا سعادة من تجرد عن العصبية والهوى، والتجأ إلى حصن الكتاب والسنة؛ فإن العلم معرفة الهدى بدليله، وما ليس كذلك فجهل وضلال.

وأما قول المعترض: فانظر إلى «الشفاء» تجده حكى كفر من قال مثل هذه الكلمة، أي: الكلمة التي ذكرها المجيب في معنى قوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾^(١١) [الجن] الآيات، وذكر عبارة النسفي في معناها، وهي قوله: «هو إظهار للعبودية، وبراءة عما يختص بالربوبية من علم الغيب، أي: أنا عبد ضعيف لا أملك لنفسي اجتلاب نفع ولا دفع ضرر» إلى آخر كلامه.

إذ من عادة هذا المعترض الجاهل رد الحق، والمكابرة في دفعه، والغلو المتناهي، وإلا فمن المعلوم عند من له معرفة بدين الإسلام أن المجيب إنما أتى في جوابه بتحقيق التوحيد، ونفي الشرك بالله، وذلك تعظيم لجانب الرسالة.

وكان النبي ﷺ ينهى أمته عن كل ما يؤول بهم إلى الغلو، ولما قيل له ﷺ: أنت سيدنا وابن سيدنا، وخيرنا وابن خيرنا. قال: «يا أيها الناس، قولوا بقولكم - أو بعض قولكم -، ولا يستهوينكم الشيطان،

أنا عبدُ الله ورسولُه، ما أحبُّ أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله تعالى»^(١).

والنبيُّ ﷺ هو أحقُّ الخلق بالتواضع لله وحده سبحانه، وفي الحديث: «فإنك إن تكَلَّمَنِي إلى نفسي تكَلَّمَنِي إلى ضَيْعَةٍ وَعَوْرَةٍ»^(٢)، وذنبٍ وخطيئة، وإني لا أثقُ إلا برحمتك...» الحديث^(٣).

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة؛ يخبر بذلك عن نفسه، ويعترف بذلك لربه - وهو الصادق المصدوق [ﷺ] -؛ فإذا قال المسلم مثل هذا في حقه ﷺ، وأخبر عنه بما أخبر به عن نفسه = لم يكن منتقِصاً له؛ بل هذا من تصديقه والإيمان به.

□ قال شيخ الإسلام رحمه الله: «إذا كان الكلام في سياق توحيد الرب ونفي خصائصه عما سواه = لم يجز أن يقال: هذا سوء عبارة في

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) ومعلومٌ أن العورة هي أضعف شيء في الإنسان.

(٣) ضعيف: أحمد (١٩١/٥)، وابن خزيمة في «التوحيد» (٣٣/١)، والطبراني في «الكبير» (٤٨٠٣)، وفي «الشاميين» (١٤٨١)، وفي «الدعاء» (٣٢١)، والبيهقي في «الدعوات الكبير» (٤٣)، والحاكم (٥١٦/١)، من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه. وصحَّحه الحاكم، وأقره الذهبي، وكذا الحافظ المنذري في «الترغيب» (٩٨٨)، وقال الإمام الهيثمي في «المجمع» (١٥٠/١٠): «رواه أحمد والطبراني، وأحد إسنادي الطبراني رجاله وثقوا. وفي بقية الأسانيد أبو بكر بن أبي مريم وهو ضعيف» اهـ. وضعَّفه الشيخ الألباني في «ضعيف الترغيب» (٣٩٧)، والشيخ شعيب الأرناؤوط في «المسند» (٥٢١/٣٥)، والشيخ حسين الداراني في تحقيق «مجمع الزوائد» (١٨٨/٢٠).

وراجع الحديث المشابه في (٥٦٠/١).

حق مَنْ دون الله من الأنبياء والملائكة؛ فإن المقام أجلُّ من ذلك، وكل ما سوى الله يتلاشى عند تجريد توحيده، والنبي ﷺ كان أعظم الناس تقريراً لما يقال على هذا الوجه، وإن كان نفس المسلوب^(١).

كما في «الصحيحين» في حديث الإفك؛ لما نزلت براءة عائشة رضيها من السماء، وأخبرها النبي ﷺ بذلك قالت لها أمها: «قومي إلى رسول الله ﷺ، قالت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمده، ولا إياكما، ولا أحمد إلا الله الذي أنزل براءتي»^(٢).

فأقرها النبي ﷺ وأبوها على هذا الكلام الذي نفت فيه أن يُحمد رسول الله ﷺ.

وفي رواية: «بحمد الله لا بحمدك»^(٣)، ولم يقل أحد: هذا سوء أدب عليه ﷺ.

وأخرج البيهقي بسنده إلى محمد بن مسلم: سمعت حبان - صاحب ابن المبارك - يقول: قلت لعبدالله بن المبارك: قول عائشة للنبي ﷺ: «بحمد الله لا بحمدك»؛ إني لأستعظم هذا! فقال عبدالله: «ولت الحمد أهله»^(٤).

وكذلك الحديث الذي رواه الإمام أحمد بسنده عن الأسود بن سريع رضي عنه: أن النبي ﷺ أتى بأسير؛ فقال: اللهم أني أتوب إليك

(١) أي: وإن كان بذاته ﷺ هو الذي نُفي عنه الشيء المختص بربه ﷺ.

(٢) رواه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠)، من حديث أمنا عائشة رضيها.

(٣) رواه البخاري (٤١٤٣)، من حديثها - أيضاً - رضيها.

(٤) أي: أعطت الحق من يستحقه جَلَّ شَأْؤُهُ.

ولا أتوب إلى محمد، فقال النبي ﷺ: «عرف الحق لأهله»^(١) «(٢)»
[انتهى].

وهذا المعترض وأمثاله ادَّعوا تعظيم أمر رسول الله ﷺ بما قد نهى عنه من الغلو والإطراء، وهضموا^(٣) ربوبية الله، وتنقصوا إلهيته، وأتوا بزخارف شيطانية، وحاولوا أن يكون حقُّ الله تعالى من العبادة التي خلق لها عباده نُهْبَى^(٤) بين الأحياء والأموات؛ هذا يصرفه لنبيٍّ، وهذا لملكٍ، وهذا لصالح، أو غير هؤلاء ممن اتخذوهم أندادًا لله، وعبدوا الشياطين بما أمروهم به من ذلك الشرك بالله؛ فإن عبادتهم للملائكة والأنبياء والصالحين إنما تقع في الحقيقة على مَنْ زَيَّنَها لهم من الشياطين وأمرهم بها؛ كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ

(١) قال الإمام السندي رحمه الله: «أي: التوبة حقُّ له تعالى، فمن قال ذلك فقد عرفها لمستحقها» اهـ. «تحقيق المسند» (٢٤/٣٥٤).

(٢) ضعيف: رواه أحمد (٣/٤٣٥)، والطبراني في «الكبير» (٨٣٩)، والحاكم (٤/٢٥٥)، والبيهقي في «الشعب» (٤٤٢٥)، والقَطِيعِي في «جزء الألف دينار» (٣٧)، وقَوَامُ السنة في «الترغيب» (٧٤٩)، وصَحَّحه الحاكم، وتعقَّبه الذهبي مضعَّفًا. وضعَّفه - أيضًا - الحافظ العراقي في تخريج «الإحياء» (١/٢٦٠)، وأورده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/١٩٩)، وقال: «رواه أحمد والطبراني، وفيه محمد بن مصعب، وثقه أحمد، وضعفه غيره، وبقية رجاله رجال الصحيح» اهـ. وضعَّفه - أيضًا - الشيخ الألباني في «الضعيفة» (٣٨٦٢)، والشيخ شعيب الأرناؤوط في «المسند» (٢٤/٣٥٣)، والشيخ حسين الداراني في تحقيق «المجمع» (٢١/٤٩).

(٣) هضموا: انتقصوا.

(٤) نُهْبَى: سرقة متداولة.

يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْلُوا لَكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ﴿سبأ﴾، ونحو هذه الآية كثير في القرآن.

□ ولما ذكر العلامة ابن القيم رحمه الله ما وقع في زمانه من الشرك بالله قال: «وهذا هضمٌ للربوبية، وتنقُصُ للإلهية، وسوءُ ظن برب العالمين».

وذكر أنهم إنما ساوَوْهُم بالله في العبادة؛ كما قال تعالى عنهم وهم في النار: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٧﴾ إِذْ سَأَيْتُمْ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الشعراء].

وأما ما ذكره عن خالد الأزهري^(١)، فخالد وما خالد؟ أغرَكَ منه كونه شرح «التوضيح» و«الآجرومية» في النحو؟! وهذا لا يمنع كونه جاهلاً في التوحيد الذي بعث الله به رسوله ﷺ، كما جهَّله من هو أعلم منه وأقدم منه ممن لهم تصانيف في المعقول؛ كالفخر الرازي، وأبي معشر البلخي ونحوهما ممن غلِط في التوحيد.

وقد كان خالدٌ هذا يشاهد أهل مصر يعبدون البدويَّ وغيره؛ فما أنكر ذلك في شيء من كتبه، ولا نقل عنه أحدٌ إنكاره! فلو صحَّ ما ذكره خالد من حال الناظم = لم يكن جسراً تُزاد عنه النصوص من الآيات المحكمات القواطع، والأحاديث الواضحات البينات:

كقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقوله: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ

(١) هو خالد الأزهري الجرجاوي - نسبةً إلى «جرجا» مدينة مصرية - (٨٣٨ هـ / ١٤٣٤ م - ٩٠٥ / ١٤٩٩ م).

رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١٧﴾ [المؤمنون].

وقول النبي ﷺ: «من مات وهو يدعو لله ندًا دخل النار»^(١).

وقد يستدرج الله أهل الشرك بأمور تقع لهم يظنونها كراماتٍ عقوبةً لهم، وكثيرٌ منها أحوالٌ شيطانية أعانوا بها أولياءهم من الإنس؛ كما قد يقع كثيرًا لعباد الأصنام.
□ وما أحسن ما قال بعضهم:

تَخَالَفَ النَّاسُ فِيمَا قَد رَأَوْا وَرَوَوْا

وَكُلُّهُمْ يَدَّعُونَ الْفَوْزَ بِالظَّفَرِ

فَخُذْ بِقَوْلٍ يَكُونُ النَّصُّ يَنْصُرُهُ

إِمَّا عَنِ اللَّهِ أَوْ عَنِ سَيِّدِ الْبَشَرِ

وقد حاول هذا الجاهل المعترضُ صرف أبيات البردة عما هو صريحٌ فيها، ونصَّ فيما دلَّت عليه من الشرك في الربوبية والإلهية ومشاركة الله في علمه ومُلْكِهِ، وهي لا تحتُمَلُ أن تُصرف عما هي فيه من ذلك الشرك والغلو، فما ظفر هذا المعترضُ من ذلك بطائل؛ غير أنه وَسَمَ نفسه بالجهل والضلال والزور والمحال، ولو سكت لسلم من الانتصار لهذا الشرك العظيم الذي وقع فيه.

وأما قول المعترض: ورد في الحديث: «لولا حبيبي محمدٌ ما خلقت سمائي ولا أرضي، ولا جنتي ولا ناري»^(٢).

(١) صحيح: وقد تقدم (٢٩٩/١).

(٢) موضوع: ولم أقف عليه بهذا اللفظ.

ورواه الحاكم (٦١٤/٢)، والخلال في «السنة» (٣١٦)، من حديث ابن =

ف[الجواب]: [أن] هذا من الموضوعات لا أصل له، ومن ادعى خلاف ذلك فليذكر من رواه من أهل الكتب المعتمدة في الحديث، وأنى له ذلك؟ بل هو من أكاذيب الغلاة الوضاعين.

وقد بين الله تعالى حكمته في خلق السماوات والأرض في كثير من سورة القرآن؛ كما في الآية التي تأتي بعد، وهي قول الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بِبَيْنِهِنَّ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (١٣) [الطلاق]، ولها نظائرها تبين حكمة الرب في خلق السماوات والأرض.

وقوله: وكيف ينكر تصرفه [ﷺ] في إعطاء أحدٍ بإذن الله من الدنيا في حياته، أو في الآخرة بعد وفاته؟ أقول: هذا كلام من اجترأ وافترى، وأساء الأدب مع الله، وكذب

= عباس (رضي الله عنه) - موقوفاً - قال: «أوحى الله إلى عيسى (عليه السلام): يا عيسى، آمن بمحمد، وأمر من أدركه من أمتك أن يؤمنوا به؛ فلولا محمد ما خلقت آدم، ولولا محمد ما خلقت الجنة ولا النار. ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب؛ فكتبت عليه: لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن». وصححه الحاكم، فتعقبه الذهبي بقوله: «أظنه موضوعاً على سعيد [بن المسيب]». وقال الشيخ الألباني في «الضعيفة» (٢٨٠): «لا أصل له مرفوعاً». وأقر الذهبي على قوله السابق.

ورواه الحاكم (٦١٥/٢)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٣٧/٧)، والبيهقي في «الدلائل» (٤٨٩/٥)، من حديث عمر (رضي الله عنه) - ضمن حديث - عنه (رضي الله عنه) أن الله (ﷻ) قال لآدم (عليه السلام): «لولا محمد ما خلقتك». وضعفه البيهقي، وصححه الحاكم، وحكم عليه الذهبي بالوضع. وحكم عليه بالبطلان في «ميزان الاعتدال» (٤٤٩/٢)، ووافقه الحافظ ابن حجر في «لسان الميزان» (١٢/٥)، وكذا فعل الشيخ الألباني في «الضعيفة» (٢٥).

على رسوله ﷺ، ولم يعرف حقيقة الشفاعة، ولا عرف تفرّد الله بالملك يوم القيامة. وهل قال رسول الله ﷺ أو أحد من أصحابه أو من بعدهم من أئمة الإسلام: إن أحدًا يتصرّف يوم القيامة مع الله في ملكه؟ ولو أطلقت هذه العبارة في حق رسول الله ﷺ لادّعاها كل لمعبوده من نبيٍّ أو ملكٍ أو صالحٍ أنه يشفع له إذا دعاها!

﴿سُبْحَنَكَ مَا كَانَ يَلْبِغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الفرقان: ١٨].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ أَنْفُسَ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [هود: ١٠٥].

وقال: ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ [النبا: ٣٨].

وهذا القول الذي قاله هذا الجاهل قد شافهنا به جاهلٌ مثله بمصر، يقول: «الذي يتصرف في الكون سبعة: البدوي، والإمام الشافعي، والشيخ الدسوقي»، حتى أكمل السبعة من الأموات، يقول: «هذا وليّ له شفاعة، وهذا صالحٌ كذلك».

وقد قال الله تعالى: ﴿لِنُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ ١٥ ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ ١٦ [غافر]، إلى قوله: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حِمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ ١٨ [غافر].

وأَيُّ ظلمٍ أعظم من الشرك بالله، ودعوى الشريك له في الملك والتصرف؟ وهذا غاية الظلم.

□ قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في معنى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ ٢٢ ﴿وَلَا نَنْفَعُ الشَّفَعَةَ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبا]: «نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون؛ فنفى أن يكون لغيره ملك، أو قسطٌ منه، أو يكون عونًا لله، ولم يبق

إلا الشفاعة، فبين أنها لا تنفع إلا لمن أذن له الرب؛ فالشفاعة التي يظنها المشركون منتفية - كما نفاها القرآن -، وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده - لا يبدأ بالشفاعة أولاً -، ثم يقال له: «ارفع رأسك، وقل يُسمع، وسل تُعطى، واشفع تُشفع» (١).

وقال له أبو هريرة رضي الله عنه: من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: «من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه» (٢).

فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله.

وحقيقتها أن الله سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص؛ فيغفر لهم بواسطة دعاء مَنْ أذن له أن يشفع ليكرمه، وينال المقام المحمود، فالشفاعة التي نفاها القرآن [هي] ما كان فيها شرك؛ ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع، وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل الإخلاص والتوحيد» انتهى.

□ وقال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في «مدارج السالكين»: «وقد قطع الله الأسباب التي يتعلق بها المشركون جميعها، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِنْ شَرْكِ وَمَا لَهُ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ (٣) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ» [سأ].

فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له به من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريد

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

عابده منه، فإن لم يكن مالكا كان شريكا للمالك، فإن لم يكن شريكا له كان معينا له وظهيراً، فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده، فنفى - سبحانه - المراتب الأربع نفياً مرتباً منتقلاً من الأعلى إلى الأدنى، فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يطلبها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه.

فكفى بهذه الآية نوراً وبرهاناً، وتجريداً للتوحيد، وقطعاً لأصول الشرك ومَوَادّه لمن عقلها، والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته وتضمينه له، ويظنه في نوع وقوم قد خلّوا من قبل ولم يُعقبوا وارثاً، فهذا هو الذي يحول بين القلب وفهم القرآن. ولعمر الله إن كان أولئك قد خلّوا، فقد ورّثهم من هو مثلهم أو دونهم، وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك».

□ إلى أن قال: «ومن أنواعه - أي الشرك - طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم، والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا - فضلاً عن أن يملك لمن استغاث به، وسأله قضاء حاجته، أو سأله أن يشفع له إلى الله -، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده، فإنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه، والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سبباً لإذنه، وإنما السبب لإذنه كمال التوحيد، فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن، وهو بمنزلة من استعان في حاجته بما يمنع حصولها، وهذه حالة كل مشرك، فجمعوا بين الشرك بالمعبود، وتغيير دينه، ومعاداة أهل التوحيد، ونسبة أهله إلى التنقص

للأموات^(١)، وهم قد تنقَّصوا الخالق بالشرك به، وأولياءه الموحدين له بدمهم وعيبيهم ومعاداتهم، وتنقَّصوا مَنْ أشركوا به غاية التنقص؛ إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا، وأنهم يوالونهم عليه. وهؤلاء هم أعداء الرسل في كل زمان ومكان، وما أكثر المستجيبين لهم!.

□ قال: «وما نجا من شَرِكٍ^(٢) هذا الشُّرك الأكبر إلا من جرَّد توحيدَه لله، وعادى المشركين في الله، وتقرَّب بمقتهم إلى الله، واتخذ الله وحده وليَّه وإلهه ومعبوده، فجرَّد حبه لله، وخوفه لله، ورجاءه لله، وذُلَّه لله، وتوكله على الله، واستعانته بالله، والتجاءه إلى الله، وأخلص قصده لله؛ متبعًا لأمره، متطلبًا لمرضاته؛ إذا سأل سأل الله، وإذا استعان استعان بالله، وإذا عمل عمل لله وبالله ومع الله» انتهى.

فرحم الله هذا الإمام وشيخه؛ فلقد بيَّنَّا حقيقة الشرك، وطُرُقَه، وما يبطله.

وفي حديث ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال له: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله»^(٣)، ولم يقل: فاسألني أو استعن بي. فقصر السؤال والاستعانة على الله اللذين لا يستحقهما^(٤) سواه، كما في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة]. فمن صرَّف ذلك

(١) في المطبوع: «النقص بالأموات». والتصويب من «مدارج السالكين» (٣٥٤/١).

(٢) الشُّرك - بفتح الشين والراء -: الفخ.

(٣) صحيح: وقد تقدم.

(٤) في المطبوع و«المدارج»: «يستحقه»، ولعل الأصح ما أثبتَّه، عودًا على العبادة والاستعانة. والله تعالى أعلم.

لغير الله فقد عصي الله ورسوله، وأشرك بالله.

وللمعترض كلامٌ ركيكٌ لا حاجة لنا إلى ذكر ما فيه، وإنما نتبع من كلامه ما يحتاج إلى ردّه وإبطاله كجنس ما تقدم.

واعلم أنه قال - لما ذكر قول المجيب -: إنه لا يجتمع الإيمان بالآيات المحكمات، وتلك الآيات لما بينهما من التنافي والتضاد.

قال المعترض: أقول: يجتمعان بأن يُفردَ الله بالعبادة، ولا يقدر فيه تشفُّعه بأحابه إليه، وكيف يُحكَّم عليه بالضلال بمجرد طلبه الشفاعة ممن هو أهلُّ لها؛ كما في الحديث: «أنا لها، أنا لها»^(١)، ومعلوم أن الضلال ضد الحق؟

فالجواب: لا يخفى ما في كلامه من التخليط والتلبيس والعصبية المشوبة بالجهل المركب، لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري^(٢).

وقد بيّنا - فيما تقدم - أن دعوة غير الله ضلال، وأن اتخاذ الشفعاء - الذي أنكره الله تعالى - إنما هو بدعائهم والالتجاء إليهم والرغبة إليهم فيما أراده الراغب منهم من الشفاعة التي لا يقدر عليها إلا الله؛ وذلك ينافي الإسلام والإيمان بلا ريب؛ فإن طلبها من الأموات والغائبين طلبٌ لما لا يقدر عليه إلا الله، وهو خلافٌ لما أمر الله به تعالى، وارتكاب لما نهى عنه؛ كما تقدم بيانه في معنى قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ الآية [يونس: ١٨]. وقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفِ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾^(٣) الآية

(١) صحيح: وقد تقدم (٢٩/٢).

(٢) وصدق من قال: «شر المصائب الجهل، وشرُّ منه: الجهل بالجهل».

[الإسراء]، وقوله: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

فطلبُ الشفاعة من النبي ﷺ أو غيره بعد وفاته وبُعدِهِ عن الداعي = لا يحبُّه الله تعالى ولا يرضاه ولا رسوله ﷺ، وهو التوسل الذي ذكره العلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى وشيخه رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، وصرَّحاً بأنه شرك.

□ وللعلامة [ابن القيم] من أبياتٍ في المعنى، وهي قوله:

والشركُ فهو توسلٌ مقصودُهُ الز	لفى من الربِّ العظيم الشانِ
بعبادة المخلوق من حَجَرٍ ومن	بشرٍ ومن قبرٍ ومن أوْثانِ
والناسُ في هذا ثلاثُ طوائفٍ	ما رابعٌ أبداً بذي إمكانِ
إحدى الطوائف مشركٌ بإلهه	فإذا دعاه دعا إلهًا ثاني
هذا وثاني هذه الأقسام ذ	لك جاحدٌ يدعو سوى الرَّحْمَنِ
هو جاحدٌ للرب يدعو غيره	شركًا وتعطيلاً له قدمانِ
هذا وثالثُ هذه الأقسام خيرُ	الخلق ذاك خلاصةُ الإنسانِ
يدعو إلهَ الحق لا يدعو ولا	أحدًا سواه قطُّ في الأكوانِ
يدعوه في الرغباتِ والرهباتِ	والحالاتِ من سرٍّ ومن إعلانِ

وقد أنكر الله ذلك الدعاء على من زعم في الرسل والملائكة ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٦].

□ قال طائفة من السلف: «كان أقوامٌ يدعون المسيح وأمه، وعزيرًا والملائكة، فأنكر الله ذلك، وقال: هؤلاء عبيدي كما أنتم

عبيدي، يرجون رحمتي كما ترجون رحمتي، ويخافون عذابي كما تخافون عذابي».

وهؤلاء الذين نزلت هذه الآية في إنكار دعوتهم هم من أوليائه وأحبائه، وقد تقدّم أن الدعاء وجميع أنواع العبادة حقٌّ لله مختصٌّ به - كما تقدم في الآيات -.

والحاصل أن الله تعالى لم يأذن لأحد أن يتخذ شفيعاً من دونه يسأله ويرغب إليه ويلتجئ إليه، وهذا هو العبادة، ومن صرف من ذلك شيئاً لغير الله فقد أشرك مع الله غيره - كما دلت عليه الآيات المحكمات -، وهذا ضدُّ أفراد الله بالعبادة.

وكيف يُتصور إفراده بالعبادة وقد جعل^(١) العبد ملاذاً ومفرغاً سواه؟ فإن هذا ينافي الإفراد، فأين ذهب عقل هذا وفهمه؟!

□ قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة» انتهى.

وقد تبين أن الدعاء مُحُّ العبادة، وهو مما يحبه ويأمر به عباده، وأن يخلصوه له، وقد تقدم من الآيات ما يدل على ضلال من فعل [غير] ذلك وكُفِّره.

وبهذا يحصل الجواب عن قول المعترض: إن الشفاعة المنفية إنما هي في حق الكفار.

فنقول: من^(٢) اتخذ معبوداً سوى الله يرجوه أو يخافه فقد كفر، وتأمل قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ

(١) في المطبوع: «جعل له»، ولعل الأصح ما أثبتته.

(٢) في المطبوع: «فمن»، ولعل الأصح ما أثبتته.

يُخْلَقُونَ ﴿٣٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٣١﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ﴿٣٢﴾ [النحل].

فبيّن تعالى أن المخلوق لا يصلح أن يدعى من دون الله، وأن مَنْ دعاه فقد أشرك مع الله غيره في الإلهية، والقرآن من أوله إلى آخره يدل على ذلك، وكذلك سنة رسول الله ﷺ، ولكن الملحدين محجوبون عن فهم القرآن، كما حُجِّبُوا عن الإيمان بجهلهم وضلالهم وإعراضهم عما أنزل الله في كتابه من بيان دينه الذي رضيهِ لنفسه ورضيه لعباده.

□ قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «وحقيقة التوحيد أن يُعبد الله وحده، ولا يدعى إلا هو، ولا يُخشى ولا يُتَّقَى إلا هو، ولا يُتوكل إلا عليه، ولا يكون الدين إلا له، وألّا تُتخذ الملائكة والنبيون أرباباً، فكيف بالأئمة والشيوخ؟! فإذا جُعِلَ الإمام والشيخ كأنه إله يدعى مع غيبته وموته، ويستغاث به، ويُطلب منه الحوائج، كان مشبَّهاً بالله، فيخرجون عن حقيقة الإسلام الذي أصله شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله» انتهى.

وثبت عن النبي ﷺ أنه قال لابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله» (١).

فلو جاز أن يُسأل ﷺ، لَمَا قَصَرَ سؤاله واستعانته على الله وحده، وابن عباس من أحق الناس بأن يُعلِّمه النبي ﷺ ما فيه له منفعة، ولو جاز صرف ذلك لغير الله لقال: «واسألني واستعن بي»، بل أتى ﷺ في مقام الإرشاد والإبلاغ والنصح لابن عمه بتجريد

إخلاص السؤال، والاستعانة بالله^(١) تعالى. فأين ذهبت عقول هؤلاء الضلال عن هذه النصوص؟ والله المستعان.

□ وقال الشيخ رحمه الله تعالى: «واعلم أن لفظ «الدعاء والدعوة» في القرآن يتناول معنيين: دعاء العبادة، ودعاء المسألة، وكلُّ عابدٍ سائل، وكلُّ سائلٍ عابد، وأحد الاسمين يتناول الآخر عند تجرده عنه. وإذا جُمع بينهما فإنه يراد بالسائل الذي يطلب لجلب المنفعة ودفع المَصْرَّة بصيغ السؤال والطلب، ويراد بالعابد: مَنْ يطلب ذلك بامتثال الأمر - وإن لم يكن هناك صيغة سؤال - . ولا يتصور أن يخلو داع لله - دعاء عبادة، أو دعاء مسألة -، مِنْ الرَّغْبِ والرَّهْبِ والخوف والطمع» انتهى.

فتبين أن أبيات البُرْدَة - التي قدمنا الكلام عليها -: تنافي الحق وتناقضه. وماذا بعد الحق إلا الضلال؟

وقول المعترض: لا سيما والناظم على جانبٍ عظيم من الزهد والورع والصلاح؛ بل وله يدٌ في العلوم - كما حكى ذلك مترجموه - . وهذا صار كله هباءً منثورًا؛ حيث لم يرضوا عنه^(٢).

أقول: هذه دعوى تحتمل الصدق والكذب. والظاهر أنه لا حقيقة لذلك؛ فإنه لا يُعرف إلا بهذه المنظومة، فلو قُدِّر أن لذلك أصلًا فلا

(١) في المطبوع: «على الله»، ولعل الأصحَّ ما أثبتُّه.

(٢) وهذه الطريقة من «قواعد» و«أصول» أهل الهوى عبر العصور؛ إذا أعيتهم الأدلة أن تساعد على ضلالهم؛ فإنهم يقابلون مخالفهم بأن يحتجوا بمكانة من يقلّدونه ومنزلته من العلم والزهد!! وهذا في ميزان العلم والمناظرة لا وزن له ولا اعتبار، فمكانة المقلّد - بالفتح - شيء، ودلائل الاحتجاج في موارد النزاع شيء آخر.

ينفعه ذلك؛ مع تلك الأبيات؛ لأن الشرك يُحبط الأعمال، كما قال تعالى ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام]، وقد صار العمل مع الشرك هباءً منثورًا.

□ قال سفيان بن عيينة: «احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون».

فإن كان في الرجل عبادة فقد فتن بأبياته كثيرًا من الجهال، وعبادته - إن كانت - لا تمنع كونه ضالًّا؛ كما يرشد إلى ذلك آخر الفاتحة.

□ قال سفيان بن عيينة: «من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عبّادنا ففيه شبه من النصارى».

فالواجب علينا أن نبين ما في كلامه مما يُسخطُ الله ورسوله من الشرك والغلو.

وأما هذا الشخص وأمثاله ممن قد مات، فيسعدنا السكوت عنه؛ لأننا لا ندري ما آل أمره إليه، وما مات عليه، وقد عرفت أن كلام خالد الأزهرى لا حجة فيه.

وأهل الغلو والشرك ليس عندهم إلا المنامات والأحوال الشيطانية التي يحكيها بعضهم عن بعض؛ كما قال لي بعض علماء مصر: إن شيخًا مشى بأصحابه على البحر، وقال: «لا تذكروا غيري». وفيهم رجل ذكر الله، فسقط في البحر، فأخذ بيده الشيخ فقال: «ألم أقل لكم: لا تذكروا غيري؟!».

فقلت: هذه الحكاية تحتل أحد أمرين لا ثالث لهما:

أحدهما: أن تكون مكذوبةً مثل أكاذيب سدنة الأوثان.

[الثاني]: أو أنها حَالٌ شيطانية^(١).

وأسألك - أيها الحاكي لذلك -: أيكون فيها حجةٌ على جواز دعوة غير الله؟ فأقرّ، وقال: لا حجة فيها على ذلك.

والمقصود أنه ليس عند الغلاة من الحجة إلا ما زَحَرَفُوهُ أو حَرَفُوهُ أو كَذَبُوهُ، وأما «قال الله قال رسوله»، فهذا - بحمد الله - كله عليهم لا لهم، وما حرفوه من ذلك رُدَّ إلى صحيح معناه الذي دل عليه لفظه مطابقةً وتضمناً والتزاماً^(٢)، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ

(١) وفيها من تشكيك العامة والأغمار في ربّهم جَلَّ شَأْنُهُ وإسائه ظنهم فيه ﷺ ما فيها.

(٢) الفرق بين الثلاثة كالاتي:

١ - دلالة المطابقة: دلالة اللفظ على جميع مدلوله، فمثلاً: كلُّ اسم من الأسماء الحسنى لله ﷻ دالٌّ على: المسمى به، وهو الله ﷻ، وعلى الصفة المشتق منها هذا الاسم.

٢ - ودلالة التضمن: دلالة اللفظ على بعض مدلوله - وليس كله -، كأن يدلُّ الاسم من الأسماء الحسنى على الذات وحدها، أو على الصفة وحدها.

٣ - ودلالة الالتزام: دلالة على شيءٍ يُفهم لا من لفظ الاسم، لكن من لازمه؛ ولذا سُمي: دلالة الالتزام.

ومثاله: كلمة «الخالق»: اسم يدل على ذات الله، ويدل على صفة الخلق.

فباعتبار دلالة على الأمرين يسمى: «دلالة مطابقة»؛ لأن اللفظ دل على جميع مدلوله، ولا شك أنك إذا قلت: «الخالق»، فإنك تفهم خالقاً وخلقاً.

وباعتبار دلالة على «الخالق» وحده، أو على «الخلق» وحده يسمى: =

جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ
عُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ [الأنعام].

وذكر المعترض حكايةً: يقول: عن غير واحد من العلماء العظام
أنهم رأوا النبي ﷺ^(١) والمنظومة تُنشد بين يديه... إلى قوله: لكن
للخصم منع ذلك كله بقوله: إنهم كفار!

فالجواب أن يقال: ليس هذا وجه المنع، وإنما وجهه أنها حكاية
عن مجهول، وهذا من جنس إسناد الأكاذيب؛ فلو قيل: من هؤلاء
العظام؟ وما أسماؤهم؟ وما زمنهم؟ وما طبقتهم؟ لم يُدر عنهم،
وأخبار المجهولين لا تُقبل شهادةً ولا روايةً يقظةً، فكيف إذا كانت
أحلامًا؟ والمعارض كثيرًا ما يحكي عن «هيان بن بيان»^(٢).

ثم قال المعارض - على قول المجيب: وطلب الشفاعة من النبي
ﷺ ممتنع شرعًا وعقلًا -، قال المعارض: من أين هذا الامتناع؟
وما دليله من العقل والسمع؟

فالجواب أن يقال: معلوم أن دليله من الجهتين لا تعرفه أنت ومن

= «دلالة تَضْمُن»؛ لأنه دل على بعض معناه، وليس كله.

وباعتبار دلالاته على العلم والقدرة يسمى: «دلالة التزام»؛ إذ لا يمكن
خلقٌ إلا بعلم وقدرة، فدلالته على القدرة والعلم دلالة التزام.
وهكذا تستطيع فهم المراد من الدلالات الثلاثة مع سائر الكلام. والله
تعالى أعلم. وانظر فيما سبق: «شرح العقيدة الواسطية»، للعلامة محمد
ابن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللهُ (١/١٢١).

(١) أي: في المنام.

(٢) وفضلاً عن هذا كله؛ فإن المناومات لا يحتجُّ بها في الشرعيات إجمالاً.

كان مثلك، وإنما معرفتك في اللّجّاج^(١)، الذي هو كالعجّاج^(٢) الذي يحوم في الفجّاج.

أما دليله من السمع: فقد تقدم في آيات الزمر ويونس وغيرها، وقد بسطنا القول في ذلك بما يغني عن إعادته؛ فليرجع إليه.

وأما دليله من العقل: فالعقل الصحيح يقضي ويحكم بما يوافق النقل؛ بأن النجاة والسعادة والفلاح وأسباب ذلك كله لا تحصل إلا بالتوجه إلى الله تعالى وحده، وإخلاص الدعاء والالتجاء له وإليه؛ لأن الخير كله بيديه، وهو القادر عليه^(٣).

وأما المخلوق فليس في يده من هذا شيء، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر].

فتسوية المخلوق بالخالق خلاف العقل، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل].

فالذي له الخلق والأمر، والنعم كلها منه، وكل مخلوق فقير إليه لا يستغني عنه طرفة عين = هو الذي يستحق أن يدعى ويرجى ويرغب إليه، ويرهب منه، ويتخذ معاذًا وملاذًا، ويتوكل عليه، وقد قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر].

وقال المفسرون - المحققون السلفيون المتبعون - في قول الله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال]، أي: لا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يلوذون إلا بجنابه، ولا يطلبون الحوائج إلا

(١) اللّجّاج: الجدل.

(٢) العجّاج: الغبار.

(٣) مع التنبيه على أن دلالة النقل تُغني عن دلالة العقل.

منه، ولا يرغبون إلا إليه. ويعلمون أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملوك وحده لا شريك له، ﴿لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾^(١) وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ [الرعد].

□ ولهذا قال سعيد بن جبير: «التوكل جماع الإيمان». ذكره العماد ابن كثير في «تفسيره».

وَلْيَتَأَمَّلْ مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ صَاحِبِ «يَس» مِنْ قَوْلِهِ: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ﴾^(٢٣) إِنِّي إِذَا لَفَى ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢٤﴾ [يس]، فهذا دليل فطري عقلي سمعي.

وَأَمَّا قَوْلُ الْمُعْتَرِضِ: إِنْ قَوْلُ النَّازِمِ: وَمَنْ عُلُومُكَ عِلْمَ اللُّوحِ وَالْقَلَمِ: «إِنْ مِنْ» بَيَانِيَّةٌ.

فَالْجَوَابُ: أَنَّهُ لَيْسَ كَمَا قَالَ؛ بَلْ هِيَ «تَبْعِيضِيَّةٌ»^(٢)، ثُمَّ لَوْ كَانَتْ

(١) الْمُعَقَّبُ: الْمَعْدَّلُ. أَي: لَا يَعْدُلُ عَلَيْهِ أَحَدٌ شَيْئًا مِنْ أَحْكَامِهِ السَّامِيَةِ ﷺ.

(٢) أَهَمُّ الْفُرُوقِ بَيْنَ «مِنْ» الْبَيَانِيَّةِ وَ«مَنْ» التَّبْعِيضِيَّةِ مَا يَلِي:

- «مَنْ» التَّبْعِيضِيَّةُ: تَدُلُّ عَلَى الْبَعْضِيَّةِ؛ وَعِلَامَتُهَا: أَنَّهُ يُمْكِنُ حَذْفُهَا، وَوُقُوعُ كَلِمَةِ «بَعْضٍ» مَكَانَهَا، وَأَنْ يَعْمَّ مَا قَبْلَهَا مَا بَعْدَهَا إِذَا حُذِفَتْ، نَحْوُ: «أَخَذْتُ مِنَ الدَّرَاهِمِ».

- وَ«مِنْ» الْبَيَانِيَّةُ: يَكْثُرُ وَقُوعُهَا بَعْدَ «مَا» وَ«مَهْمَا» لِإِفْرَاطِ إِبْهَامِهَا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ [فاطر: ٢]، وَقَدْ تَقَعَّ بَعْدَ غَيْرِهِمَا؛ كَقَوْلِهِ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾ [الحج: ٣٠].

وَعِلَامَتُهَا: صِحَّةُ وَقُوعِ الْمَوْصُولِ مَوْقِعَهَا، مَعَ ضَمِيرٍ يَعُودُ عَلَى مَا قَبْلَهَا إِنْ بَيَّنَّتْ مَعْرِفَةً، كَقَوْلِهِ جَلَّ شَأْنُهُ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾، أَي: الَّذِي هُوَ الْأَوْثَانُ؛ لِأَنَّ الرِّجْسَ عَامٌ يَشْمَلُ الْأَوْثَانُ وَغَيْرَهَا.

بيانية فما ينفعه، والمحذور بحاله، وهو أنه يعلم ما في اللوح المحفوظ، وقد صرَّحَ المعترضُ بذلك؛ فقال: ولا شك أنه أوتي علمَ الأولين والآخرين، وعلم ما كان وما يكون.

فالجواب: هذه مُصادمة لما هو صريح في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ بأن الإحاطة بما في اللوح المحفوظ علمًا ليس إلا لله تعالى وحده، كذلك علم الأولين والآخرين ليس إلا لله وحده، إلا ما أطلع الله عليه نبيه في كتابه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فالرجل في عمى عن قول الله تعالى: ﴿بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾. وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ (١٢) [الطلاق]، وقد تقدم لهذه الآيات نظائر.

فإحاطة العلم بالموجودات والمعدومات - التي وجدت أو ستوجد - لله وحده، لم يجعل ذلك لأحد سواه.

وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا^(١) قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجِيبُهَا لَوْفَهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، فأسند علم وقت الساعة إلى ربه بأمره؛ كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾ (٤٢) ﴿فِيمَ أَنْتَ مِن ذِكْرِهَا﴾ (٤٣) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنْهَلَا﴾ (٤٤) [النازعات].

= فإن بيَّنت نكرةً فعلاقتها أن يقع موقعها الضمير وحده؛ كقول الله ﷻ: ﴿وَيَلْسَنُونَ يَابَأَ خُضْرًا مِّنْ شُنْدِينَ وَإِسْتَرْقِيَ﴾ [الكهف: ٣١]؛ أي: هي سندس وإستبرق.

(١) ﴿مُرْسَاهَا﴾: ظهورها ووقوعها.

وأمثال هذه الآيات مما يدلُّ على أن الله تعالى اختص بعلم الغيب كله إلا ما استثناه بقوله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾، و«من» تبعيضية هاهنا بلا نزاع. وقد قال الخضر لموسى عليه السلام: «ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر»^(١)، فتأمل هذا وتدبر!

وأما قول المعترض: وتأويله لقول الله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]:

فتأويلٌ فاسدٌ، ما قاله أحد غيره؛ ولا يقوله مسلم من أنه يعلم الغيب بتعليم الله له، والمنفي في الآية: أن يعلمه بنفسه بدون أن يُعَلِّمَهُ اللهُ ذلك.

فما أجراً هذا الجاهل على هذا التأويل، وما أجهله بالله وبكتابه!

فيقال في الجواب: لا ينفعك هذا التأويل الفاسد؛ إذ لو كان يعلم أحدٌ جميع الغيب بتعليم الله = لصدق عليه أن يقال: «هذا يعلم الغيب كله الذي يعلمه الله»، فما بقي على هذا - لقصر علم الغيب على الله - في هذه الآية معنى، وحصل الاشتراك، نعوذ بالله من الافتراء على الله، وعلى كتابه، وخرق ما لم يُنزلِ اللهُ به سلطاناً.

□ وأما قوله في قول الناظم:

إن لم تكن في معادي آخذاً بيدي

إن الأخذ باليد بالشفاعة.

(١) رواه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

فالجواب: أن حقيقة هذا القول وصريحه: طلب ذلك من غير الله، فلو صح هذا الحمل فالمحذور بحاله، لِمَا قد عرفت من أن الاستغاثة بالأموات والغائبين والاستشفاع بهم في أمرٍ هو في يد الله ممتنع حصوله؛ لكونه تأليهاً وعبادةً، وقد أبطله القرآن.

فهذا المعترض الجاهل يدور على منازعة الله في حقه وملكه وشمول علمه، والله يجزيه بعمله.

وأما قوله^(١): ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩]، فقول: المراد بها: الخمس المذكورة في سورة لقمان. وهذا قبل أن يُطْلَعَ الله نبيّه عليها، وإلا فقد ذكر عامة أهل العلم أنه لم يتوفّه الله تعالى حتى علّمه كل شيء حتى الخمس.

فالجواب: انظر إلى هذا المفترى الجاهل البليد، كيف اقتفى أثر صاحب الأبيات في جميع ما اختلقه وافتراه، وأكثر من الأكاذيب على أهل العلم في قوله: «ذَكَرَ عامة أهل العلم أنه لم يتوفّه الله حتى علّمه كل شيء حتى الخمس»! فحاشا أهل العلم - الذين يُعرفون بأنهم أهل العلم - من هذه المقالة، وعامة أهل العلم - بل كلهم - على خلاف ما ادعاه سلفاً وخلفاً.

□ قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في تفسيره الكبير - الذي فاق على أكثر التفاسير -: «ابتدأ - تعالى ذكره - الخبر عن علمه بمجيء الساعة؛ فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ التي تقوم فيها القيامة، لا يعلم ذلك أحد غيره، ﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ من السماء لا يقدر على ذلك أحدٌ غيره، ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ أرحام

(١) يعني المعترض الجاهل.

الإناث، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾، يقول: وما تعلم نفسٌ حيٍّ ماذا تعمل في غد، ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾، يقول: وما تعلم نفسٌ حيٍّ بأيِّ أرضٍ تكون ميتتها، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (٣١) [لقمان]، يقول: إن الذي يعلم ذلك كله هو الله دون كل أحد سواه.

□ وذكر بسنده عن مجاهد: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾. قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: امرأتي حُبلى: فأخبرني ماذا تلد؟ وبلادنا محلٌ جذبةٌ؛ فأخبرني متى ينزل الغيث؟ وقد علمتُ متى ولدتُ، فمتى أموت؟ فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ إلى آخر السورة.

قال: فكان مجاهد يقول: هن مفاتيح الغيب التي قال الله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] (١).

□ وأخرج بسنده عن قتادة: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية: «خمس من الغيب استأثر الله بهن، فلم يُطْلِعْ عليهن ملكًا مقربًا ولا نبيًّا مرسلًا».

□ وبسنده عن عائشة رضي الله عنها: «من قال: إن أحدًا يعلم الغيب إلا الله فقد كذب وأعظم الفرية على الله، قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾».

وبالسند عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمسٌ لا يعلمهن إلا الله، ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ

(١) ضعيف: رواه الطبري في «تفسيره» (٥٨٤/١٨)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٣١٠١/٩)، وإسناده ضعيف للإرسال، وكذا قال صاحب «الاستيعاب في بيان الأسباب» (٦٩/٣).

وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴿[لقمان: ٣٤]﴾ (١).

وقال - أيضًا -: «لا يعلم أحدٌ ما في غدٍ إلا الله، ولا يعلم أحدٌ متى ينزل الغيثُ إلا الله، ولا يعلم أحدٌ متى قيامُ الساعة إلا الله، ولا يعلم أحدٌ ما في الأرحام إلا الله، ولا تدري نفسٌ بأي أرضٍ تموت إلا الله» (٢).

□ وبسنده عن مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت: «مَنْ حَدَّثَكَ أَنَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ فَقَدْ كَذَبَ». ثم قرأت: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «خُمْسٌ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ، ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾» (٣). انتهى ما ذكره ابن جرير رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى.

وذكر البغوي في تفسيره حديث ابن عمر وعائشة رضي الله عنهما المتقدم. □ ثم قال: «وقال الضحاك ومقاتل: ﴿مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ﴾: خزائن الأرض، وقال عطاء: ما غاب عنكم من الثواب. وقيل: انقضاء الأجل. وقيل: أحوال العباد من السعادة والشقاوة وخواتيم أعمالهم. وقيل: ما لم يكن بعدد، أنه يكون أم لا يكون، وما لا يكون كيف يكون، وما لا يكون أن لو كان كيف يكون» انتهى.

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) رواه البخاري (٤٦٩٧)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما - أيضًا -.

(٣) رواه البخاري (٤٧٧٧).

ورواه - أيضًا - (٥٠)، ومسلم (٩).

قلت: ولا يُعرَفُ عن أحد من أهل العلم خلافُ ما دلَّت عليه هذه الآيات المُحكِّمات، ونعوذ بالله من مخالفة ما أنزله الله في كتابه، وما أخبر به عن نفسه، أو أخبر به رسوله ﷺ، وأجمع العلماء عليه؛ فإن الله استأثر بعلمه عن خلقه، ووصف نفسه بأنه علام الغيوب، ونعوذ بالله من حال أهل الافتراء والتكذيب.

وأما قوله: ولو أن عبارات أهل العلم - مثل البيضاوي وأبي السعود والقسطلاني وأمثالهم - تُجدي لديكم شيئاً لذكرناها، لكنها تُمَحِّى بلفظة واحدة وهي: أنهم كلهم كفار! فانظر كيف خرج به البغض والتعصب لمذهبه وهواه إلى البُهت البحت؛ فلا يقبل منهم أحداً، ومَن هذا حاله = فلا حيلة به.

فالجواب: أنه ليس للبيضاوي ومَن ذكر عبارةً تخالف ما قاله السلف والعلماء في معنى الآيات، ومعاذ الله أن يقول المجيب: إن هؤلاء كفار، ولا يوجد عن أحد من علماء المسلمين أنه كَفَرَ أحداً قد مات من هذه الأمة ممن ظاهره الإسلام، فلو وجد في كلامه زلةٌ من شركٍ أو بدعة، فالواجب التنبيه على ذلك، والسكوت عن الشخص؛ لما تقدم من أننا لا ندري ما خاتمته. وأما هؤلاء الذين ذكرهم من المفسرين فإنهم من المتأخرين الذين نشؤوا في اغترابٍ من الدين.

والمتأخرون يغلب عليهم الاعتمادُ على عبارات أهل الكلام المُخالفة لما عليه السلفُ وأئمةُ الإسلام - من الإرجاء، ونفي حكمة الله، وتأويل صفات الله تعالى، وسلب معانيها - ما يقارب ما في «كشاف» الزمخشري. والإرجاء والجبر يقابل ما فيه من نفي القدر، وكلاهما في طَرَفَيْ نَقِيضٍ، وكُلُّ خَالَفَ ما عليه أهلُ السُّنة والجماعة في ذلك. ومعلوم أن صاحب «الكشاف» أقدمُ من هؤلاء الثلاثة،

وأرسخ قدمًا منهم في فنون من العلم.

□ ومع هذا فقد قال شيخ الإسلام البلقيني: «استخرجت ما في «الكشاف» من دسائس الاعتزال بالمناقش»^(١).

□ وقال أبو حيان - وقد مدح «الكشاف» وما فيه من لطيف المعنى -، ثم قال:

ولكنه فيه مجالٌ لناقدٍ وزلاتٌ سوءٍ قد أخذنَ المخانقا
فيثبتُ موضوعَ الأحاديثِ جاهلاً ويعزو إلى المعصوم ما ليس لائقا
وينسبُ إبداءَ المعاني لنفسه ليؤهمَ أغمارًا وإن كان سارقا^(٢)
ويُسهبُ في المعنى الوجيز دلالَةً بتكثير ألفاظٍ تُسمى الشقاشقا
يَقُولُ فيها الله ما ليس قائلًا وكان مُحِبًّا في الخطابة وامقا^(٣)

(١) قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «وأما «الزمخشري» فتفسيره محشو بالبدعة، وعلى طريقة المعتزلة من إنكار الصفات والرؤية، والقول بخلق القرآن، وأنكر أن الله مريدٌ للكائنات، وخالقٌ لأفعال العباد، وغير ذلك من أصول المعتزلة... وهذه الأصول حشا بها كتابه بعبارة لا يهتدي أكثر الناس إليها ولا لمقاصده فيها، مع ما فيه من الأحاديث الموضوعة، ومن قلة النقل عن الصحابة والتابعين» اهـ. «مجموع الفتاوى» (٣٨٦/١٣، ٣٨٧).

■ وقال الذهبي رَحِمَهُ اللهُ في ترجمة الزمخشري: «صالح، لكنه داعية إلى الاعتزال - أجارنا الله -؛ فكن حذرًا من (كشافه)» اهـ. «ميزان الاعتدال» (٧٨/٤).

(٢) الأغمار: الجهلاء.

(٣) الوامق: شديد المحبة.

ويشتمُّ أعلامَ الأئمة ضلَّةً ولا سيما إنَّ أولجوه المضايقا
إلى أن قال:

لئن لم تداركهُ من اللّهُ رحمةٌ لسوف يُرى للكافرين مرافقا
فإذا كان هذا في تفسير مشهور، وصاحبه معروف بالذكاء والفهم،
فمن دونه من المتأخرين أولى بالأُيْتَلَقَى من كلامه بالقبول إلا ما
وافق تفسير السلف، وقام عليه الدليل.

وهذا المعترضُ من جهله يحسبُ أن كل بيضاء شحمة، يُعظَّم
المفضولُ من الأشخاص والتصانيف، ولا يعرف ما هو الأفضل. ولو
كان له أدنى مُسَكَّةٍ من فهمٍ ومعرفةٍ للعلماء ومصنفاتهم = لعلم أن
أفضل ما في أيدي الناس من التفاسير هذه الثلاثة التي نقلنا منها:
تفسير أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، وتفسير الحسين بن مسعود
البغوي، وتفسير العماد إسماعيل بن كثير.

فهذه أجلُّ التفاسير، ومُصنَّفوها أئمة مشهورون أهلُ سنة؛ ليسوا
بجهمية، ولا معتزلة، ولا قَدَرِيَّة، ولا مجبرة، ولا مرجئة - بحمد
اللّهِ -.

وأكثر ما في هذه التفاسير: الأحاديث الصحيحة، وآثار الصحابة،
وأقوال التابعين وأتباعهم، فلا يَرغب عنها إلا الجاهلون الناقصون
المنقوصون، واللّهُ المستعان.

والمصنّفون في التفسير وغيره - غير ما ذكر المعترض - كثيرون،
وأحسنُ من البيضاوي وأبي السعود: «البحر» لأبي حيان؛ لأنه كثيراً

= وقد وردت كلمة «الخطابة» في المطبوع و«الدرر»: «المخاطب».
والتصويب من «البحر المحيط» (٤٥٧/١٤ - ط: الرسالة).

ما ينقل في تفسيره عن السلف والأئمة، وكذلك «تفسير الخازن». وبالجملة: فمن كان من المصنفين أبعد عن تقليد المتكلمين وذِكْر عباراتهم؛ ويعتمد أقوال السلف، فهو الذي ينبغي النظر إليه والرغبة فيه. وعلى كل حال فليس في تفسير البيضاوي وأبي السعود وشرح القسطلاني و«مواهبه» ما ينفع هذا الجاهل المفتري، وكلُّ يُؤْخَذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ.

وقول المعترض على قول المجيب: علماؤهم شرُّ مَنْ تحت أديم السماء، فيقال: قد ورد هذا الحديث في أهل العراق، فهم على عهد النبي ﷺ كفارٌ مجوس، أو فيما يأتي؛ فهذه شناعة على غالب علماء الأمة، ومنهم الإمام أبو حنيفة والإمام أحمد وأمثالهم.

فالجواب: أن هذا كلام مَنْ لا يعقل ولا يفهم شيئاً، ولا يفرّق بين أهل السنة والجماعة وأهل البدعة والضلالة؛ ففي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يعبد فِئامٌ من أمتي الأوثان، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين؛ لا يضرُّهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمرُ الله وهم على ذلك». رواه البرقاني في «صحيحه»^(١).

(١) صحيح: رواه - بلفظه -: البرقاني - كما في «الجمع بين الصحيحين» (٥٣٥/٣) -. ورواه - بنحوه - أحمد (٢٧٨/٥)، والطيالسي (٩٩١)، وابن أبي شيبة (٤٥٨/١١)، وأبو داود (٤٢٥٢)، والترمذي (٢١٧٦)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٢٨٧)، وفي «الآحاد والمثاني» (٤٥٦)، وأبو عوانة في الجهاد (٧٥٠٩)، وابن حبان (٧٢٣٨)، وأبو نعيم في «الدلائل» (٤٦٤) والبيهقي في «الدلائل» (٥٢٦/٦)، والبغوي في «شرح السنة» (٤٠١٥). من حديث ثوبان رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حسن صحيح»، =

وقد أخبر النبي ﷺ: «أن أمته ستفترق كما افترت اليهود والنصارى؛ فاليهود افترت على إحدئ وسبعين [فرقة]، والنصارى على ثنتين وسبعين، وهذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة؛ كلها في النار إلا واحدة؛ وهي الجماعة»^(١).

وأول من فارق الجماعة في عهد الصحابة رضي الله عنهم: الخوارج؛ قاتلهم عليّ رضي الله عنه بالنهر وان. والقدرية في أيام ابن عمر وابن عباس، وأكثر الصحابة موجودون، ومن دعاهم مَعبد الجهني وغيلان القدري الذي قتله هشام بن عبد الملك. كذلك الغلاة في عليّ الذين خَدَّ لهم عليّ الأخاديد وحرَّقهم بالنار، ومنهم المختار بن أبي عبيد الذي قتله مصعب بن الزبير، ادعى النبوة، وتبعه خلق كثير.

ثم ظهرت فتنة الجهمية، وأول من أظهرها الجعد بن درهم، فقتله خالد بن عبد الله القسري، والصحابة رضي الله عنهم والتابعون والأئمة متوافرون وقتَ ظهور مبادئ هذه البدع، لم يلحقهم من ضلال هذه الفرق شناعة ولا غضاضة؛ لأنهم متمسكون بالكتاب والسنة، منكرون لما خالف الحق.

وصح من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يأتي علي الناس زمانٌ إلا والذي بعده شرُّ منه حتى تلقوا ربكم». سمعته من نبيكم ﷺ^(٢).

= وصحَّحه الشيخ الألباني في «السنن»، والشيخ شعيب الأرناؤوط في «المسند» (٧٩/٣٧).

وهو في «صحيح مسلم» (١٩٢٠) - مختصراً -.

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) رواه البخاري (٧٠٦٨).

وظهرت بدعة جهم بن صفوان في زمن أبي حنيفة، وأنكرها وناظرهم. وانتشرت في زمان الإمام أحمد رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى والفقهاء وأهل الحديث. وامْتَحَنَ الإمام أحمد، فتمسك بالحق وصبر. وصَنَّفَ العلماء رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى المصنفات الكبار في الرد على الجهمية القائلين بخلق القرآن، المعطلين لصفات الملك الديان، كالإمام أحمد في رده المعروف، وابنه عبد الله، وعبد العزيز الكناني في كتابه «الحيدة»، وأبي بكر الأثرم، والخَلَّال، وعثمان بن سعيد الدارمي، وإمام الأئمة محمد بن خزيمة، واللالكائي، وأبي عثمان الصابوني، وقبلهم وبعدهم ممن لا يُحْصَى، وهذا كله إنما هو في القرون الثلاثة المفضلة.

ثم بعدها ظهرت كل بدعة: بدعة الفلاسفة، وبدعة الرافضة، وبدعة المعتزلة، وبدعة المُجبرة، وبدعة أهل الحلول، وبدعة أهل الاتحاد، وبدعة الباطنية الإسماعيلية، وبدعة التَّصَوُّفِ والقرامطة ونحوهم.

وأما أهل السنة والجماعة فيردُّون بدعة كل طائفة من هؤلاء الطوائف بحمد الله. فالأئمة متمسكون بالحق في كل زمان ومكان، والبلد الواحد من هذه الأمصار يجتمع فيها أهل السنة وأهل البدعة، وهؤلاء يناظرون هؤلاء، ويُناضِلُونَهُمْ^(١) بالحُجَج والبراهين، وظهر معنى قول النبي ﷺ: «خيرُ القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم إنها تخلف من بعدهم خُلُوفٌ؛ يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو

(١) المناضلة: المقارعة والمحاربة.

مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبةُ خردل»^(١).

وقال ﷺ: «بدأ الإسلام غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ؛ فطوبى للغرباء الذين يَصْلِحُونَ إذا فسد الناس»^(٢).

وفي رواية: «يُصْلِحُونَ ما أفسد الناس»^(٣).

وقد صنّف العلماء رَحْمَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى في بيان الشنتين والسبعين الفرقة عدة مصنفات، وبيّنوا ما انتَحَلَتْهُ^(٤) كلُّ فرقة من بدعتها المخالفة لما عليه الفرقة الناجية، وليس على الفرقة الناجية شناعةٌ ولا نقصٌ في مخالفة هذه الفرق لها. وإنما ظهر فضل هذه الفرقة بتمسكها بالحق، وصبرها على مخالفة هذه الفرق الكثيرة، والاحتجاج بالحق ونصرته.

وما ظهر فضل الإمام أبي حنيفة والإمام أحمد ومن قبلهما من الأئمة ومن بعدهما إلا بتمسكهم بالحق ونُصْرَتِهِ وردهم الباطل. وما ضر شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى وأصحابه حين أجلب عليهم أهل البدع وأذوهم؛ بل أظهر الله بهم السنة، وجعل لهم لسان صدق في الأمة. وكذلك مَنْ قبلهم ومن بعدهم، كشيخنا شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى لما دعا إلى التوحيد، وبيّن أدلته، وبيّن الشرك وما يبطله.

(١) رواه مسلم (٥٠)، من حديث عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) ضعيف جداً: وقد تقدم.

(٣) ضعيف: وقد تقدم.

(٤) انتحلته: اعتقدته وانتسبت إليه.

وفيه قال الإمام العلامة الأديب أبو بكر حسين بن غنام
رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى :

وعاد به نهجُ الغواية طامسًا وقد كان مسلوگًا به الناسُ ترتعُ
وجرَّت به نجدٌ ذيولَ افتخارها وحُقَّ لها بالألمعي تَرْقُعُ
فآثاره فيها سَوَامٍ سوافرُ وأنواره فيها تضيءُ وتسطعُ^(١)
فهذا المعترض لو تصور وعقل لتبيَّن له أن ما احتج به ينقلب
حجةً عليه .

وقول المعترض: وإن كان قد ورد في حق أهل الحرمين، فهذا
ظاهر البطلان، إذ هي مهبط الوحي، ومنبع الإيمان، ولو قيل: إن
هذا الحديث وأمثاله ورد في ذم نجد وأهلها، فقد ورد في ذمهم
أحاديث كثيرة شهيرة؛ منها قوله ﷺ: «لا يزالون في شرٍّ من كذابهم
إلى يوم القيامة»^(٢).

فالجواب أن نقول: الأحاديث التي وردت في غربة الدين وحدوث
البدع وظهورها لا تختص بمكة والمدينة، ولا غيرهما من البلاد،
والغالب أن كل بلد لا يخلو من بقايا متمسكين بالسنة، فلا معنى
لقوله: «وإن كان قد ورد في حق أهل الحرمين»، والواقع يشهد
لما قلنا.

وقد حدث في الحرمين في أواخر عهد الصحابة رضي الله عنهم - بل وفي
وقت الخلفاء الراشدين - ما هو معروف عند أهل العلم مشهور في

(١) سوام: عالية شريفة. جمع «سامية». سوافر: مضيئة.

(٢) لا أصل له: وسيأتي بيان المصنف لهذا، وأنه من كلام ابن مسعود رضي الله عنه
موقوفًا، قاله في أناسٍ بعينهم.

السير والتاريخ، وأول ذلك مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه، ثم وقعة الحرّة المشهورة، ومقتل ابن الزبير في مكة، وما جرى في خلال ذلك من الفتن، وصارت الغلبة في الحرمين وغيرها لأهل الأهواء. فإذا كان هذا وقع في خير القرون، فما ظنك فيما بعد، حين اشتدّت غربّة الإسلام، وعاد المعروف منكراً، والمنكر معروفاً؟ نشأ على هذا الصغير، وهَرِمَ عليه الكبير.

وأما قوله: إذ هي مهبط الوحي ومنبع الإيمان.

فالجواب أن نقول: مهبط الوحي في الحقيقة: قلب رسول الله ﷺ، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١١٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الشعراء].

وقال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ يَبَيِّنُ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩] فهذا محل الوحي ومستقره.

وقوله: «ومنبع الإيمان»: الإيمان ينزل به الوحي من السماء لا ينبع من الأرض، ومحله قلوب المؤمنين، وهذه السور المكية في القرآن معلومة - التي نزلت على النبي ﷺ، وأكثر من في مكة المشركون -، وفيها ذمهم والرد عليهم:

كقوله: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٦٦].

وقوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْتَوْنَ عَنْهُ﴾ [الأنعام: ٢٦].

وقوله: ﴿فَأَنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [٢٣].

[الأنعام]، ونحو هذه الآيات، كما في «فُصِّلَتِ الْمَدَثَرُ» وغيرهما.

ثم هاجر النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، وأهل الشرك لم يزالوا بها، ومنعوا رسول الله ﷺ وأصحابه من دخولها بالوحي،

وقاتلوهم ببدر وأُحُد والخندق، وهم كانوا آخر العرب دخولا في الإسلام - حاشا مَنْ هاجر -، وكل هذا بعد نزول الوحي.

ونحن - بحمد الله - لا ننكر فضل الحرمين، بل ننكر على مَنْ أنكره، ولكن نقول: الأرض لا تقدّس أحداً، وإنما يُقدّس المرء عمله، فالمحلُّ الفاضل قد يجتمع فيه المسلم والكافر، وأهل الحق وأهل الباطل - كما تقدم -، فأهل الحق يزدادون بالعمل الصالح في المحلِّ الفاضل لكثرة ثوابه، وأهل الباطل لا يزيدهم ذلك إلا شراً تعظم فيه سيئاتهم؛ كما قال تعالى في حرم مكة: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَمِ يُظْلَمِ نُذُوقُهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥]. فإذا كان هذا الوعيد في الإرادة^(١)، فعمل السوء أعظم، فالمعول عليه هو الإيمان والعمل الصالح، ومحله: قلب المؤمن، والناس مَجْزُيُونَ بأعمالهم؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

وقوله: ولو قيل: إن هذا الحديث ورد في ذم نجد وأهلها... إلى آخره.

فأقول: الذم إنما يقع في الحقيقة على الحال لا على المحل، والأحاديث التي وردت في ذم نجد - كقوله ﷺ: «اللهم بارك لنا في يَمَنِّنا، اللهم بارك لنا في شامنا». قالوا: وفي نجدنا، قال: «هناك الزلازل والفتن، وبها يطلع قرن الشيطان»^(٢) - قيل: إنه أراد نجد العراق؛ لأن في بعض ألفاظه ذَكَرَ المشرق، والعراق شرقي المدينة،

(١) يعني مجرد نية السوء.

وانظر: «مسند الإمام أحمد» (١٥٥/٧ - ح: ٤٠٧١، ط: الرسالة).

(٢) رواه البخاري (١٠٣٧)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

والواقع يشهد له، لا نَجْدَ الحجاز. ذكره العلماء في شرح هذا الحديث.

فقد جرى في العراق من الملاحم والفتن ما لم يَجْرَ في نجد الحجاز، يَعْرِفُ ذلك مَنْ له اطلاعٌ على السير والتاريخ، كخروج الخوارج بها الذين قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وكمقتل الحسين، وفتنة بن الأشعث، وفتنة المختار - وقد ادعى النبوة -، وقتال بني أمية لمصعب بن الزبير وقتله، وما جرى في ولاية الحجاج بن يوسف من القتال وسفك الدماء وغير ذلك مما يطول عدّه.

وعلى كل حالٍ فالذمُّ يكون في حالٍ دون حالٍ، ووقتٍ دون وقتٍ بحسب حال الساكن؛ لأن الذم إنما يكون للحال دون المحل؛ وإن كانت الأماكن تتفاضل، وقد تقع المداولة فيها؛ فإن الله يُداول بين خلقه حتى في البقاع، فمحلٌ معصيةٍ في زمنٍ قد يكون محل طاعة في زمنٍ آخر وبالعكس.

وأما قول المعترض: منها قوله (عليه السلام): «لا يزالون في شرٍّ من كذابهم».

فالجواب: هذا من جملة كَذِبِهِ على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وجهله بالعلم؛ لا يميز بين الحديث وغيره. وهذا الكلام ورد عن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) في نفرٍ من بني حنيفة سكنوا الكوفة في ولاية ابن مسعود عليها، وكانوا في مسجد من مساجدها، فسمع منهم كلمة تُشعر بتصديق مسيلمة، فأخذهم عبد الله بن مسعود، وقتل كبيرهم ابن النواحة، وقال في الباقيين: «لا يزالون في بَلِيَّةٍ من كذابهم» يعني: ذلك النفر، فلا تُدْمُ نَجْدٌ بَنَفَرٍ أحدثوا حَدَثًا في العراق. وقد أفنى

اللَّهِ كل من حضر مسيلمة في القرن الأول؛ ولم يبق بنجد من يصدّق مسيلمة الكذاب، بل من كان في أواخر عهد الصحابة رضي الله عنهم ومن بعدهم بنجد يكفّرون مسيلمة ويكذبونه، فلم يبق بنجد من فتنة مسيلمة لا عين ولا أثر.

فلو ذم نجد بمسيلمة بعد زواله وزوال من يُصدّقه؛ لزم اليمن بخروج الأسود العنسي ودعواه النبوة! وما ضر المدينة سُكنى اليهود فيها، وقد صارت مُهاجرَ رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه ومَعْقِل الإسلام، وما ذمّت مكة بتكذيب أهلها الرسول صلى الله عليه وآله وشدة عداوتهم له؛ بل هي أحب أرض الله إليه.

فإذا كان الأمر كذلك فأرض اليمامة لم تعص الله، وإنما ضرت المعصية ساكنيها بتصديقهم كذابهم، وما طالت مدتهم على ذلك الكفر بحمد الله، فطهر الله تلك البلاد منهم، ومن سلّم منهم من القتل دخل في الإسلام، فصارت بلادهم بلادَ إسلام، بُنيت فيها المساجد، وأقيمت فيها الشرائع، وعبد الله فيها في عهد الصحابة رضي الله عنهم وبعدهم. ونفر كثيرٌ منهم مع خالد بن الوليد لقتال العجم، فقاتلوا مع المسلمين، فنال تلك البلاد من الفضل ما نال غيرها من بلاد أهل الإسلام، على أنها تفضل على كثيرٍ من البلاد بالحديث الذي رواه البخاري في «صحيحه» أن النبي صلى الله عليه وآله قال - وهو بمكة لأصحابه -: «أُرِيتُ دارَ هجرتكم»، فوصفها، ثم قال: «فذهب وهلي»^(١) إلى أنها اليمامة أو يشرب»^(٢).

(١) وهلي: ظني.

(٢) رواه البخاري (٣٦٢٢)، ومسلم (٢٢٧٢)، من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

ورؤيا النبي ﷺ وَحْيٌ حَقٌّ، وكفى بهذا فضلاً لليمامة وشفراً لها على غيرها؛ فإن ذهاب وَهْلِهِ ﷺ في رؤياه إليها لابد أن يكون له أثرٌ في الخير يظهر، فظهر ذلك الفضل - بحمد الله - في القرن الثاني عشر، فقام الداعي يدعو الناس إلى ما دعت إليه الرسل من أفراد الله بالعبادة، وترك عبادة ما سواه، وإقامة الفرائض، والعمل بالواجبات، والنهي عن مواقعة المحرمات، وظهر فيها الإسلام أعظم من ظهوره في غيرها في هذه الأزمان، ولولا ذلك ما سَبَّ هؤلاء نجداً واليمامة بمسيلمة.

إذا عُرِفَ ذلك فليُعلم أن مسيلمة وبني حنيفة إنما كفروا بجحودهم بعض آية من كتاب الله جهلاً وعناداً^(١)، وهذا المعترض وأمثاله جحدوا حقيقة ما بعث الله رُسُلَهُ من التوحيد الذي دلت عليه الآيات المحكمات التي تفوق الحصر، وعصوا رسول الله ﷺ بارتكاب ما نهى عنه من الغلو والشرك، فجَوَّزُوا أن يُدعى مع الله غيره، وقد نهى الله ورسوله عن ذلك في أكثر سور القرآن، وجَوَّزُوا أن يُستعان بغير الله، وقد نهى الله ورسوله عن ذلك، وجَوَّزُوا الالتجاء إلى الغائبين والأموات والرغبة إليهم، وقد نهى الله ورسوله عن ذلك أشد النهي، وجعلوا لله شريكاً في ملكه وربوبيته، كما جعلوا له شريكاً في إلهيته، وجعلوا له شريكاً في إحاطة العلم بالمعلومات كلياتها وجزئياتها؛ وقد قال تعالى، مبيناً لما اختص به شمول علمه:

= تنبيه: لفظ الحديث: «فذهب وهلي إلى أنها اليمامة أو هجر، فإذا هي المدينة يثرب».

(١) يقصد قوله ﷺ: ﴿وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]. والله تعالى أعلم.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ﴾^(١) وَمَا تَزِدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَلَيْهِ الْقَيْبُ وَالشَّهَادَةُ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ إِلَىٰ قَوْلِهِ: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلَّا كَبْسِطٍ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ...﴾ [الزمر: ١٤].

وهذه الأصول كلها في الفاتحة؛ بَيَّنَّ اللَّهُ تعالى أنه هو المختص بذلك دون كل من سواه، ففي قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ اختصاص الله بالحمد لكماله في ربوبيته وإلهيته وملكه وشمول علمه وقدرته وكماله في ذاته وصفاته، ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، هو ربهم وخالقهم ورازقهم ومليكمهم، والمتصرف فيهم بحكمته ومشيئته، ليس ذلك إلا له، ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فيه تفرُّدُه بالملك كقوله: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ١٠٩]، وقوله: ﴿إِلَّاكَ

(١) ﴿تَغِيصُ﴾: تنقص.

قال أهل التفسير: غِيصُ الأرحام: الحيض على الحمل؛ فإذا حاضت الحامل كان نقصاناً في الولد؛ لأن دم الحيض غذاء الولد في الرحم، فإذا أهرقت الدم ينقص الغذاء فينتقص الولد، وإذا لم تحض يزداد الولد ويتم، فالنقصان نقصان خلقه الولد بخروج الدم، والزيادة تمام خلقته باستمساك الدم.

وقيل: إذا حاضت ينتقص الغذاء، وتزداد مدة الحمل حتى تستكمل تسعة أشهر ظاهراً، فإن رأت خمسة أيام دمًا وضعت لتسعة أشهر وخمسة أيام، فالنقصان في الغذاء، والزيادة في المدة. وقال الحسن: غيضاها: نقصانها من تسعة أشهر. والزيادة: زيادتها على تسعة أشهر.

وقيل النقصان: السَّقْطُ، والزيادة: تمام الخلق. انظر: «تفسير البغوي» عند الآية الكريمة.

نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿١﴾، فيه قَصْرُ العبادة عليه تعالى بجميع أفرادها، وكذلك الاستعانة، وفي ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ - أيضًا - توحيد الربوبية. وهذه الأصول - أيضًا - في: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾؛ فهو ربهم ورازقهم، والمتصرف فيهم، والمدبر لهم ﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ هو الذي له المُلْكُ كما في الحديث الوارد في الأذكار: «لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير»^(١)، وقوله: ﴿إِلَهُ النَّاسِ﴾ هو مألوههم ومعبودهم؛ لا معبود لهم سواه، فأهل الإيمان خصوه بالالهيّة، وأهل الشرك جعلوا له شريكًا يألهونه بالعبادة، كالدعاء والاستغاثة، والالتجاء والرغبة، والتعلق عليه^(٢)، ونحو ذلك.

وفي ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ﴾ براءة النبي ﷺ من الشرك والمشرّكين. ﴿لَا أَعْبُدُ مَا يَعْبُدُونَ﴾ إلى قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾؛ فهذا هو التوحيد العملي، وأساسه البراءة من الشرك والمشرّكين باطنًا وظاهرًا.

وفي ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ توحيد العلم والعمل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، يعني هو الله الواحد الأحد الذي لا نظير له ولا وزير ولا نِدٌّ ولا شبيه ولا عدیل، ولا يطلق هذا اللفظ^(٣) في الإثبات إلا على الله ﷻ؛ لأنه الكامل في جميع صفاته وأفعاله.

(١) رواه البخاري (٨٤٤)، ومسلم (٥٩٣)، من حديث المغيرة بن شعبة

رضي الله عنه.

(٢) لعل «على» هنا بمعنى «الباء»، أي: التعلق بآلهتهم محبةً وشغفًا. والله تعالى أعلى وأعلم.

(٣) أي: «أحد».

وقوله: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾:

□ قال عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه: «يعني الذي يَصْمُدُ الخلائق إليه في حوائجهم ومسائلهم».

قلت: وفيه توحيد الربوبية وتوحيد الإلهية.

□ وقال الأعمش، عن شقيق، عن أبي وائل: ﴿الصَّمَدُ﴾: السيد الذي قد انتهى سُودُّه ^(١).

□ وقال الحسن - أيضًا -: ﴿الصَّمَدُ﴾: المصمت ^(٢) الذي لا زوال له.

□ وقال الربيع بن أنس: «هو الذي لم يلد ولم يولد».

كأنه جعل ما بعده تفسيرًا له.

□ وقال سفيان بن منصور، عن مجاهد: ﴿الصَّمَدُ﴾: المصمت الذي لا جوف له.

□ قال أبو القاسم الطبراني في كتاب «السنة»: «وكل هذه صحيحة، وهي صفات ربنا ﷻ».

□ وقال مجاهد: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾: «يعني: لا صاحبة له».

وهذا كما قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام، ١٠١] أي: هو مالك كل شيء وخالقه، فكيف يكون له من خلقه نظيرٌ يساميه، أو قريبٌ يدانيه؟ تعالى وتقدس وتنزه.

(١) السُّودُّ: السيادة والشرف.

(٢) الْمُصَمَّت: الذي لا جوف له.

قلتُ: فتدبر هذه السورة ما فيها من توحيد الإلهية والربوبية، وتنزيه الله عن الشريك والشبيه والنظير، وما فيها من مجامع صفات كماله ونعوت جلاله! ومَن له بعضُ تصورٍ يدرك هذا بتوفيق الله، ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور].

وأما قول المعترض على قول المجيب: «ونوع الشرك جرى في زمن شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى»، أقول: هذه البردة متقدمة على زمن شيخ الإسلام، ولم يُنقل عنه فيها كلمة واحدة.

فالجواب: تقدّم البردة على زمن شيخ الإسلام إن كان كذلك فماذا يُجدي عليه؟ وما الحجة منه على جواز الشرك؟ وأيضاً فشهادته هذه على شيخ الإسلام غيرُ محصورة فلا تُقبل. وهو لم يطلع إلا على التّزوير اليسير من كلام شيخ الإسلام، ولم يفهم معنى ما اطلع عليه، وهو في شقٍّ، وشيخ الإسلام في شقٍّ، وليس في كلام شيخ الإسلام إلا ما هو حجةٌ على هذا المعترض، لكنه يتعلق في باطله بمثل خيط العنكبوت، فإن كان يُقنعه كلام شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى المُؤَيَّد بالبرهان، فقد تقدم من كلامه ما يكفي ويشفي في تمييز الحق من الباطل.

وكلامه رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في أكثر كتبه يُبيِّن هذا الشرك ويُنكره ويَرُدُّه، كما قد رد على البكري حين جَوَّز الاستغاثة بغير الله. ولا يشك مَن له أدنى مُسَكَّةٍ من عقلٍ وفهمٍ أن كلام صاحب البردة داخلٌ تحت كلام شيخ الإسلام في الرد عليه والإنكار.

وأنا أوردُ هنا جواباً لشيخ الإسلام عن سؤالٍ مَن سألَه عن نوع هذا الشرك وبعض أفرادِهِ، فأتى بجواب عامٍّ شاملٍ، كافٍ وافٍ.

قال السائل: ما قول علماء المسلمين فيمن يستنجد بأهل القبور، ويطلب منهم إزالة الألم، ويقول: «يا سيدي، أنا في حَسْبِكَ»؟ وفيمن يستلم القبر، ويمرُّغ وجهه عليه، ويقول: «قُضِيَتْ حاجتي ببركة الله، وبركة الشيخ»، ونحو ذلك؟

الجواب: الحمد لله رب العالمين، الدين الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه هو: عبادة الله وحده لا شريك له، واستعانتة، والتوكل عليه، ودعاؤه لجلب المنافع ودفع المضار، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ٢٠﴾ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ﴿[الزمر] الآيات. وقال: ﴿وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ١٨﴾ [الجن]، وقال: ﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [الأعراف: ٢٩]، وقوله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ٥٦﴾ [الإسراء] الآيات.

قال طائفة من السلف: «كان أقوام يدعون المسيح وعُزَيْرًا والملائكة، فقال الله تعالى: هؤلاء الذين تدعونهم عبادي؛ يرجون رحمتي كما ترجون رحمتي، ويخافون عذابي كما تخافون عذابي». فإذا كان هذا حال من يدعو الأنبياء والملائكة، فكيف بمن دونهم؟

قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الكهف: ١٠٢] الآية.

وقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ٢٢﴾ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ. [سبأ].

فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ مَنْ دُعِيَ مِنَ دُونِ اللَّهِ مِنْ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ: الملائكة والبشر وغيرهم، أنهم لا يملكون مثقال ذرة في ملكه، وأنه ليس له شريك في ملكه، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، وأنه ليس له عَوْنٌ، كما يكون للمَلِكِ أَعْوَانٌ وظهراء، وأن الشفعاء لا يشفعون عنده إلا لمن ارتضى، فنفى بذلك وجوه الشرك؛ وذلك أَنَّ مَنْ دُعِيَ مِنْ دُونِهِ: إما أَنْ يَكُونَ مَالِكًا، وإما أَلَّا يَكُونَ مَالِكًا، وإذا لم يكن مَالِكًا، فإِذَا أَنْ يَكُونَ شَرِيكًا، وإما أَلَّا يَكُونَ شَرِيكًا، وإذا لم يكن شَرِيكًا فإِذَا أَنْ يَكُونَ مُعَاوِنًا، وإِذَا أَنْ يَكُونَ سَائِلًا طَالِبًا.

فأما الرابع: فلا يكون إلا من بعد إذنه، كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وكما قال تعالى: ﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم].

وقال: ﴿أَمْ أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ [٤٣] قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ [٤٤]. [الزمر].

وقال: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١].

وقال: ﴿مَا كَانَ لِشَرٍّ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، إلى قوله: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران].

فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ مَنْ اتَّخَذَ الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا كَانَ كَافِرًا، فكيف بمن اتخذ من دونهم من المشايخ وغيرهم أربابًا؟ فلا يجوز

أن يقول لملك ولا لنبي ولا لشيخ - سواء كان حيًّا أو ميتًا -: «اغفر ذنبي، وانصرني على عدوي، أو اشفِ مريضِي»، أو ما أشبه ذلك؛ ومن سأل ذلك مخلوقًا كائنًا من كان، فهو مشركٌ بربه من جنس المشركين الذين يعبدون الملائكة والأنبياء والتماثيل التي يصورونها على صورهم، ومن جنس دعاء النصارى للمسيح وأمه.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٣١﴾ مَا قُلْتَ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة].

وقال: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَابَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْكَبًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة].

وإن قال: «أنا أسأله لأنه أقرب إلى الله مني ليشفع لي؛ لأنني أتوسل إلى الله به، كما يتوسل إلى السلطان بخواصه وأعوانه»، فهذا من أفعال المشركين والنصارى؛ فإنهم يزعمون أنهم يتخذون أحبارهم ورهبانهم شفعاء يستشفعون بهم في مطالبهم؛ ولذلك أخبر الله عن المشركين، أنهم قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣].

وقد قال سبحانه: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ﴾ [الزمر: ٤٣] إلى قوله: ﴿تَرْجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٤].

وقال: ﴿مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة].

وقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فبيّن الفرق بينه وبين خلقه؛ فإن من عادات الناس أن يستشفعوا إلى الكبير بمن يكرّم عليه، فيسأله ذلك الشفيع فيقضي حاجته؛ إما رغبةً، وإما رهبةً، وإما حياءً، وإما غير ذلك، فالله - سبحانه - لا يشفع عنده أحد حتى يأذن هو للشافع، فلا يفعل إلا ما يشاء، وشفاعة الشافع عن إذنه، والأمر كله له، فالرغبة يجب أن تكون إليه، كما قال تعالى: ﴿فَإِذَا فُوعَتْ فَأَنْصَبْ ۖ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح]. والرهبة تكون منه، قال تعالى: ﴿وَلِيَّتِي فَأَرْهَبُونَ﴾ [البقرة]. وقال: ﴿فَلَا تَخْشَوُا الْكَاسَ وَالْأَخْشُونَ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقد أمرنا أن نصلي على النبي ﷺ في الدعاء، وجعل ذلك من أسباب إجابة دعائنا^(١).
وقول كثير من الضلال: «هذا أقرب إلى الله مني، وأنا بعيد منه،

(١) صحيح: رواه أحمد (١٨/٦)، وأبو داود (١٤٨١)، والترمذي (٣٤٧٧)، والبزار في «مسنده» (٣٧٤٨)، وإسماعيل القاضي في «فضل الصلاة على النبي» (١٠٦)، وابن خزيمة (٧١٠)، والطحاوي في «شرح المشكل» (٢٢٤٢)، وابن حبان (١٩٦٠)، والحاكم (٢٣٠/١)، والطبراني في «الكبير» (٧٩١/١٨)، والبيهقي (١٤٧/٢)، من حديث فضالة بن عبيد الله رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حسن صحيح»، وصحّحه الحاكم، ووافقه الذهبي، وصحّحه الشيخ الألباني في «السنن»، والشيخ شعيب الأرناؤوط في «المسند» (٣٦٣/٣٩)، وعند أبي داود (٦٠٥/٢).

ولفظ الحديث: عن فضالة رضي الله عنه قال: سمع رسول الله ﷺ رجلاً يدعو في الصلاة، ولم يذكر الله ﷻ، ولم يصل على النبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «عجل هذا». ثم دعاه؛ فقال له ولغيره: «إذا صليت أحدكم فليبدأ بتحميد ربّه والثناء عليه، ثم ليصل على النبي، ثم ليُدع بعد بما شاء».

لا يمكن أن ندعوه إلا بهذه الوسطة»، ونحو ذلك = هو من قول المشركين، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقد روي أن الصحابة رضي الله عنهم قالوا: يا رسول الله، ربُّنا قريبٌ فنُناجيه، أم بعيدٌ فنناديه؟ فنزلت الآية ^(١). وقد أمر الله تعالى العباد كلهم بالصلاة له ومناجاته، وأمر كلاً منهم أن يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ثم يقال لهذا المشرك: أنت إذا دعوتَ هذا، فإن كنت تظنُّ أنه أعلم بحالك، أو يقدر على إجابة سؤالك، أو أرحم بك من ربك؛ فهذا جهلٌ وضلالٌ وكفر. وإن كنت تعلم أن الله تعالى أعلم وأقدر وأرحم؛ فلماذا عدلتَ عن سؤاله إلى سؤال غيره؟ وإن كنت تعلم أنه أقرب إلى الله منك، وأعلى منزلةً عند الله منك فهذا حقٌّ أُريدَ به باطلٌ؛ فإنه إذا كان أقرب منك وأعلى درجةً فإن معناه أن يُثيبه ويعطيه؛ ليس معناه أنك إذا دعوته كان الله يقضي حاجتك أعظم مما يقضيها إذا دعوته أنت؛ فإنك إن كنت مُستَحِقًّا للعقاب وردَّ الدعاء، فالنبي والصالح لا يعين على ما يكرهه الله، ولا يسعى فيما يُبغضُك إليه، وإن لم يكن كذلك فالله أولى بالرحمة والقبول منه.

فإن قلت: هذا إذا دعا الله أجاب دعاءه أعظم مما يجيب إذا دعوته أنا.

[قلنا]: فهذا هو القسم الثاني؛ وهو أن يطلب منه الفعل ولا

(١) لا يثبت: ورواياته ما بين الضعيف، والضعيف جداً. انظر: «الاستيعاب في بيان الأسباب» (١/١٠٣ - ١٠٥).

يدعوه، ولكن يطلب أن يدعو له، كما يقال للحي: ادع لي، وكما كان الصحابة يطلبون من النبي ﷺ الدعاء، فهذا مشروع في الحي.

وأما الميت من الأنبياء والصالحين وغيرهم = فلم يشرع لنا أن نقول: «ادع لنا»، ولا «اسأل لنا ربك»، ونحو ذلك، ولم يفعل ذلك أحد من الصحابة والتابعين، ولا أمر به أحد من الأئمة، ولا ورد في ذلك حديث؛ بل الذي ثبت في «الصحيح»: أنهم لما أجدبوا زمن عمر استسقى بالعباس رضي الله عنه؛ فقال: «اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقيننا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا، فاسقنا» فيُسقون^(١)، فلم يجيئوا إلى قبر النبي ﷺ قائلين: يا رسول الله، ادع الله، أو استسق لنا، ونحن نشكو إليك ما أصابنا ونحو هذا، ولم يقله أحد من الصحابة قط، بل هو بدعة ما أنزل الله بها من سلطان؛ بل كانوا إذا جاؤوا عند قبر النبي ﷺ يسلمون عليه، ثم إذا أرادوا الدعاء لم يدعوا الله مستقبلي القبر؛ بل ينحرفون فيستقبلون القبلة، ويدعون الله وحده لا شريك له كما كانوا يدعونه في سائر البقاع.

وفي «الموطأ» وغيره أن النبي ﷺ قال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد؛ اشتد غضبُ الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»^(٢).

وفي السنن - أيضاً - أنه قال: «لا تتخذوا قبري عيداً، وصلُّوا عليَّ حيثما كنتم؛ فإن صلاتكم تبلغني»^(٣).

وفي «الصحيح» أنه قال في مرضه الذي لم يقم منه: «لعن الله اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». يحذر ما فعلوا. قالت

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) صحيح: وقد تقدم.

عائشة رضي الله عنها: ولولا ذلك؛ لأبرز قبره، لكن خشي أن يتخذ مسجداً^(١).
وفي «سنن أبي داود» عنه رضي الله عنه أنه قال: «لعن الله زوّارات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسُّرج»^(٢).

ولهذا قال العلماء: لا يجوز بناء المساجد على القبور، وقالوا:
إنه لا يجوز أن يُنذر لقبر، ولا للمجاورين عند القبر شيئاً^(٣)، لا
من دراهم ولا زيت، ولا شمع ولا حيوان، ولا غير ذلك، كله نذر
معصية، ولم يقل أحد من أئمة المسلمين: إن الصلاة عند القبور
وفي المشاهد مستحبة، ولا أن الدعاء هناك أفضل؛ بل اتفقوا كلهم
على أن الصلاة في المساجد وفي البيوت أفضل من الصلاة عند قبر
- لا قبر نبوي ولا صالح -؛ سواء سُميت «مشاهد» أم لا^(٤).

وقد شرع الله ذلك في المساجد دون المشاهد، وقال: ﴿وَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا أَسْمُهُ وَاسْمُ أَبِيهِ﴾ [البقرة: ١١٤].
ولم يقل [هذا] في المشاهد.

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾

[الأعراف: ٢٩].

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) حسن - دون ذكر السرج -: وقد تقدم.

(٣) ومثلهم أصحاب الموالد المبتدعة، وما يفعلونه للمقبورين من طوام
وبلايا.

(٤) وهذا يرد على بعض ضلال زماننا الذين طعنوا في أهل السنة حُماة
التوحيد، حينما قالوا: التحريم ورد في «القبور»، والذي في المساجد
الآن يسمى: «مقامات ومشاهد»، وهي غير القبور!! فنعوذ بالله من
الجهل المركب واتباع الهوى.

وقال: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسْجِدَ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ الآية [التوبة: ١٨].

وذكر البخاري في «صحيحه» والطبري وغيره في تفاسيرهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا نَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا نَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣].

قالوا: «هذه أسماء قوم صالحين في قوم نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم طال عليهم الأمد؛ فاتخذوا تماثيلهم أصنامًا».

فالعكوف على القبور، والتمسح بها، وتقبيلهما، والدعاء عندها هو أصل الشرك وعبادة الأوثان؛ ولهذا اتفق العلماء على أن من زار قبر النبي ﷺ أو قبر غيره من الأنبياء والصالحين؛ فإنه لا يَتَمَسَّحَ به ولا يقبله. وليس في الدين ما شُرِعَ تقبيله إلا الحجر الأسود.

□ وقد ثبت في «الصحيحين» أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «والله إني لأعلم أنك حجر لا تضرُّ ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلْتُك»^(١).

ولهذا لا يُسَنُّ أن يقبَّل الرجل ويستلم ركني البيت اللذين يليان الحجر، ولا جدران البيت، ولا مقام إبراهيم، ولا صخرة بيت المقدس، ولا قبر أحد من الأنبياء والصالحين». اهـ.

□ وقال رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى في «الرد على البكري» - بعد كلام له سبق -: «لكن من هو الذي جعل الاستغاثة بالمخلوق ودعاءه سببًا في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله؟ ومن الذي قال: إنك إذا استغثت بميت أو غائب من البشر - نبيًا كان أو غير نبي - كان ذلك سببًا في

حصول الرزق والنصر والهدى وغير ذلك مما لا يقدر عليه إلا الله؟ ومن الذي شرع ذلك وأمر به؟ ومن الذي فعل ذلك من الأنبياء والصحابة والتابعين لهم بإحسان؟

فإن هذا المقام يحتاج إلى مقدمتين:

إحدهما: أن هذه أسباب لحصول المطالب التي لا يقدر عليها إلا الله.

والثانية: أن هذه الأسباب مشروعة لا يحرم فعلها؛ فإنه ليس كل ما كان سبباً كونياً يجوز تعاطيه.

□ إلى أن قال: «وهذا المقام مما يظهر به ضلال هؤلاء المشركين خلقاً وأمرًا، فإنهم مطالبون بالأدلة الشرعية على أن الله شرع لخلقه أن يسألوا ميتاً أو غائباً وأن يستغيثوا به، سواء كان ذلك عند قبره، أو لم يكن عند قبره؛ بل نقول: سؤال الميت والغائب - نبيّاً كان أو غير نبي - من المحرمات المنكرة باتفاق أئمة المسلمين، لم يأمر الله به، ولا رسوله، ولا فعله أحد من الصحابة، ولا التابعين لهم بإحسان، ولا استحبه أحد من أئمة المسلمين.

وهذا مما يُعلم بالاضطرار من دين المسلمين؛ فإن أحداً منهم ما كان يقول - إذا نزلت به شدة، أو عرضت له حاجة - لميت: «يا سيدي فلان، أنا في حسبك، أو اقض حاجتي»، كما يقوله بعض هؤلاء المشركين لمن يدعونهم من الموتى والغائبين. ولا أحد من الصحابة استغاث بالنبي ﷺ بعد موته، ولا بغيره من الأنبياء، لا عند قبورهم ولا إذا بعدوا عنها؛ بل ولا أقسم بمخلوق على الله أصلاً، ولا كانوا يقصدون الدعاء عند قبور الأنبياء، ولا قبور غير

الأنبياء، ولا الصلاة عندها. وقد كره العلماء - كمالك وغيره - أن يقوم الرجل عند قبر النبي ﷺ يدعو لنفسه، وذكروا أن هذا من البدع التي لم يفعلها السلف.

وأما ما يُروى عن بعضهم أنه قال: «قبر معروف الترياق المُجَرَّب»^(١)، وقول بعضهم: «فلان يُدعى عند قبره». وقول بعض الشيوخ: «إذا كانت لك حاجة فاستغث بي»، أو قال: «استغث عند قبري»، ونحو ذلك = فإن هذا قد وقع فيه كثير من المتأخرين وأتباعهم؛ ولكن هذه الأمور كلها بدعٌ محدثةٌ في الإسلام بعد القرون الثلاثة المفضلة، وكذلك المساجد المبنية على القبور التي تسمى «المشاهد» محدثةٌ في الإسلام، والسفر إليها محدث في الإسلام؛ لم يكن شيء من ذلك في القرون الثلاثة المفضلة؛ بل ثبت في «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». يحذر ما فعلوا - قالت عائشة رضي الله عنها: ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن كره أن يُتخذ مسجداً^(٢).

وثبت في «الصحيح» عنه أنه قال - قبل أن يموت بخمس -: «إنَّ مَنْ كان قبلكم كانوا يتخذون القبور مساجد؛ ألا فلا تتخذوا القبور مساجد؛ فإني أنهاكم عن ذلك»^(٣).

وقد تقدم أن عمر لما أجذبوا استسقى بالعباس؛ فقال: «اللهم إنا كنا إذا أجذبنا نتوسل إليك ببنينا فتسقيننا، وإنا نتوسل إليك

(١) الترياق: الدواء.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) صحيح: وقد تقدم.

بعم نبينا فاسقنا، فَيُسْقَوْنَ»^(١)؛ فلم يذهبوا إلى القبور، ولا توسلوا بميتٍ ولا غائب؛ بل توسلوا بالعباس، وكان توسلهم به توسلاً بدعائه، كالإمام مع المأموم، وهذا تعذر بموته ﷺ.

فأما قول القائل - عن ميت من الأنبياء والصالحين -: «اللهم إني أسألك بفلان، أو بجاه فلان، أو بحرمة فلان» = فهذا لم يُنقل لا عن النبي ﷺ ولا عن الصحابة ولا التابعين؛ وقد نص غير واحد من العلماء أنه لا يجوز، فكيف يقول القائل للميت: «أنا أستغيث بك، وأستجير بك، وأنا في حسبك، أو سل لي الله»، ونحو ذلك؟ فتبين أن هذا ليس من الأسباب المشروعة - لو قُدِّرَ أن له تأثيراً -، فكيف إذا لم يكن له تأثيرٌ صالح؟

وذلك أن من الناس الذين يستغيثون بغائب أو ميت من تتمثل له الشياطين، وربما كانت على صورة ذلك الغائب، وربما كلمته، وربما قضت له أحياناً بعض حوائجه، كما تفعل شياطين الأصنام، فإن أحداً من الأنبياء والصالحين لم يُعبد في حياته؛ إذ هو ينهى عن ذلك. وأما بعد الموت فهو لا يقدر أن ينهى؛ فيفضي ذلك إلى اتخاذ قبره وثناً يُعبد؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «لا تتخذوا قبوري عيداً...» إلخ^(٢). وقال: «اللهم لا تجعل قبوري وثناً يُعبد»^(٣).

وقال غير واحد من السلف في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ...﴾ الآية [نوح: ٢٣]: «إن هؤلاء كانوا قومًا صالحين في قوم

(١) صحيح: وقد تقدم.

(٢) صحيح: وقد تقدم.

(٣) صحيح: وقد تقدم.

نوح، فلما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم».

ولهذا المعنى لعن النبي ﷺ الذين اتخذوا قبور الأنبياء والصالحين مساجد». انتهى ملخصاً.

□ وأخرج ابن أبي شيبة عن ابن الزبير أنه رأى قومًا يمسخون المقام^(١)، فقال: «لَمْ تُؤْمَرُوا بهذا، إِنَّمَا أُمِرْتُمْ بالصلاة عنده».

□ وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة في قول الله تعالى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، قال: «إنما أمروا أن يصلوا عنده، ولم يؤمروا بمسحه. ولقد تكلفت هذه الأمة أشياء مما تكلفته الأمم قبلها».

فإذا كان المعارض يستدل بكلام شيخ الإسلام؛ فهذا صريح كلامه المؤيد بالأدلة والبراهين. وكلام العلماء كمثل كلام شيخ الإسلام في هذا المعنى كثير جدًا، لو ذكرناه لطل الجواب.

وأما قول المعارض: بل مدح الصرصري، وأثنى عليه بقوله: قال الفقيه الصالح يحيى بن يوسف الصرصري في نظمه المشهور.

فالجواب: أن هذا من جملة أكاذيب المعارض على شيخ الإسلام وغيره، وقد كذب على «الإقناع» و«الشفاء»، وليس في الكتابين إلا ما يبطل قوله. وفي الحديث: «إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى: إذا لم تستح فاصنع ما شئت»^(٢)، وإلا فكلام شيخ الإسلام في رد ما يقوله الصرصري وإنكاره موجود - بحمد الله -.

(١) أي: مقام إبراهيم عليه السلام.

(٢) رواه البخاري (٦١٢٠).

□ قال رَحْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى في رده على البكري بعد وجهين ذكرهما:

«الثالث: أنه أدرج سؤاله - أيضًا - في الاستغاثة به، وهذا جائز في حياته، لكنه أخطأ في التسوية بين المحيا والممات، وهذا ما^(١) عَلمَتْهُ يُنْقَلُ عن أحد من العلماء، لكنه موجود في كلام بعض الناس مثل الشيخ يحيى الصرصري؛ ففي شعره قطعة، وكمحمد بن النعمان؛ وهؤلاء لهم صلاح ودين، ولكنهم ليسوا من أهل العلم العالمين بمدارك الأحكام الذين يؤخذ بقولهم في شرائع الإسلام، وليس معهم دليل شرعي، ولا نَقْلٌ عن عالمٍ مَرْضِيٍّ، بل عادةٌ جَرَوْا عليها كما جرت عادة كثير من الناس بأنه يستغيث بشيخه في الشدائد ويدعوه.

وأكثر منه: مَنْ يَأْتِي إلى قبر الشيخ يدعوه، ويدعو به، ويدعو عنده، وهؤلاء ليس لهم مُسْتَنَدٌ شرعي من كتاب، أو سنة، أو قولٍ عن الصحابة والأئمة، وليس عندهم إلا قول طائفة أخرى: «قبر معروف ترياقٌ مجرَّب، والدعاء عند قبر الشيخ مجاب»، ونحو ذلك، ومعهم أن طائفة استغاثوا بحيٍّ أو ميت، فرأوه قد أتى في الهواء، وقضى بعض تلك الحوائج! وهذا كثير واقع في المشركين الذين يدعون الملائكة والأنبياء والصالحين أو الكواكب والأوثان؛ فإن الشياطين كثيرًا ما تتمثل لهم فيرونها، وقد تخاطب أحدهم ولا يراها، ولو ذكرت ما أعلم من الوقائع الموجودة في زماننا لطال المقال.

وكلما كان القوم أعظم جهلاً وضلاً كانت هذه الأحوال الشيطانية عندهم أكثر، وقد يأتي الشيطان أحدهم بمالٍ أو طعامٍ أو لباسٍ أو غير ذلك، وهو لا يرى أحدًا أتاه به، فيحسب ذلك كرامة، وإنما

(١) «ما» - هنا - : نافية.

هو من الشيطان، وسببه شركه بالله، وخروجه عن طاعة الله ورسوله إلى طاعة الشيطان، فأضلّتهم الشياطينُ بذلك كما كانت تُضلُّ عبَاد الأصنام».

انتهى ما ذكره شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى من إنكاره ما في شعر الصرصري وغيره من هذه الأمور الشركية وبيان أسبابها.

وأما قول المعترض: وفيه توسّل عظيم، إن لم يزد على قول صاحب «البردة» لم يَنْقُصْ عنه.

فالجواب: أن هذا من عدم بصيرته وكبير جهله؛ فإن مَنْ له أدنى معرفة وفهم يعلم أن بين قول صاحب البردة وقول الصرصري في أبياته تفاوتاً بعيداً؛ فقد نبهنا على ما يقتضيه كلام صاحب البردة من قصر الإلهية والربوبية والمُلْك وشمول العلم على عبدٍ شَرَفَهُ اللهُ بعبوديته ورسالته، ودعوة الخلق إلى عبادته وحده، وجهاد الناس على ذلك، وبلغ الأمة ما أنزله الله تعالى عليه في الآيات المُحَكَّمات من تجريد التوحيد، والنهي عن الشرك ووسائله - كما قدمنا الإشارة إليه -.

وأما الصرصري ففي كلامه التوسل بالنبي ﷺ والاستغاثة به، لكن لا قصر ولا حصر للاستعانة والاستغاثة في جانب المخلوق، وقد أنكره شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، وذكر أنه لا دليل من كتاب ولا سنة عليه، ولا قال به أحد من الصحابة والتابعين والأئمة، وقد بين رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى أن استغاثة الحي بالحي إنما هو بدعائه وشفاعته. وأما الميت والغائب فلا يجوز أن يُسْتَغَاثَ به، وكذلك الحي فيما لا يقدر عليه إلا الله، وأن أهل الإشراك ليس معهم إلا الجهل والهوى،

وعوائد نشؤوا عليها بلا برهان، وقد عرفت أن هذا المعترض لم يأت إلا بشبهاتٍ واهية، وحكاياتٍ سوفسطائية، أو مناماتٍ تضليلية، كما قال كعب بن زهير:

فلا يغرنك ما مَنَنْتَ وما وَعَدْتَ إن الأمانِي والأحلام تضليلُ
وليس مع هؤلاء المشركين إلا دعوى مجردةٌ مَحْشُوءَةٌ بالأكاذيب،
وليس معهم - بحمد الله - دليل من كتاب أو سنة أو قول واحد من
سلف الأمة وأئمتها، وقد جئناهم بأدلة الكتاب والسنة، وما عليه
الصحابة والأئمة، ولو استقصينا ذكر الأدلة وبسط القول لاحتمل
مجلدًا ضخماً.

📖 [سبب الفتنة بقصائد المتأخرين]:

وسبب الفتنة بقصائد هؤلاء المتأخرين - كقصائد البوصيري
والبرعي -، واختيارها على قصائد شعراء الصحابة - كحسان بن
ثابت، وكعب بن مالك، وكعب بن زهير، وغيرهم من شعراء الصحابة
رضي الله عنهم -، وفيها من شواهد اللغة والبلاغة ما لم يُدرك هؤلاء المتأخرون
منه عُشْرُ المِيعَارِ = فما ذاك إلا لأن قصائد هؤلاء المتأخرين
تجاوزوا فيها الحد إلى ما يكرهه الله ورسوله، فزَيَّنَهَا الشَّيْطَانُ فِي
نفوس الجُهَّال والضُّلَّال، فمالت إليها نفوسهم عن قصائد الصحابة
التي ليس فيها إلا الحق والصدق، وما قَصَّروا فيها جُهدَهم عما يصلح
أن يُمدح به رسول الله ﷺ وَتَحَرَّوْا فِيهَا مَا يَرْضِيهِ، وَتَجَنَّبُوا مَا
يُسْخِطُهُ ﷺ وما نهى عنه من الغلو.

□ فما أشبه هؤلاء بقول أبي الوفاء بن عقيل - وهو في القرن

الخامس :- «لما صعبت التكاليف على الجُهَّال والطَّغَام^(١)، عدلوا عن أوضاع الشرع إلى أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم؛ إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم. قال: وهم عندي كفار بهذه الأوضاع...» إلى آخره.

📖 [خاتمة: كلام نفيس للعلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ]:

ومما يتعين أن نختم به هذا الجواب: فصل ذكره العلامة ابن القيم - رحمه الله تعالى، ونفعنا بعلمه - .
□ قال - بعد أن ذكر زيارة الموحدين للقبور، وأن مقصودها ثلاثة أشياء:

أحدها: تذكُّر الآخرة والاعتبار والاتعاظ.

الثاني: الإحسان إلى الميت، وألاً يطول عهده به فيتناساه، فإذا زاره وأهدى إليه هديةً من دعاء أو صدقة، ازداد بذلك سروره وفرحه؛ ولهذا شرع النبي ﷺ للزائر أن يدعو لأهل القبور بالمغفرة والرحمة، ويسأل لهم العافية فقط، ولم يشرع أن يدعوهم ولا يدعو بهم ولا يصلي عندهم.

الثالث: إحسان الزائر إلى نفسه باتباع السنة، والوقوف عند ما شرعه الرسول ﷺ :-

«وأما الزيارة الشريكية، فأصلها مأخوذٌ عن عبَاد الأصنام، قالوا: الميت المعظم الذي لروحه قربٌ ومزيةٌ عند الله تعالى لا يزال تأتيه الألفاظ من الله تعالى، وتفيض على روحه الخيرات، فإذا علّق

(١) الطَّغَام: الأراذل.

الزائرُ رُوحَه به، وأدناها منه، فاضَّ من روح المَزور على روح الزائر من تلك الألفاف بواسطتها، كما ينعكس الشعاع من المِرآة الصافية والماء على الجسم المقابل له. قالوا: فتمام الزيارة أن يتوجه الزائر بروحه وقلبه إلى الميت، ويعكف بهمته عليه، ويوجَّه قصده كله وإقباله إليه، بحيث لا يبقى فيه التفاتٌ إلى غيره، وكلما كان جَمْعُ القلب والهمة عليه أعظم، كان أقرب إلى الانتفاع به.

وقد ذكر هذه الزيارة ابن سينا والفارابي وغيرهما، وصرح بها عبَّادُ الكواكب في عبادتها، وهذا بعينه هو الذي أوجب لعباد القبور اتخاذها أعيادًا، وتعليقَ السُّثور عليها، وإيقاد السُّرج، وبناء المساجد عليها، وهو الذي قصد رسول الله ﷺ إبطاله ومَحْوُهُ بالكلية، وسد الذرائع المُفْضِيَّةَ إليه، فوقف المشركون في طريقه، وناقضوه في قصده، وكان رسول الله ﷺ في شِقٍّ وهؤلاء في شِقٍّ.

وهذا الذي ذكره هؤلاء في زيارة القبور والشفاعة التي ظنوا أن آلهتهم تنفعهم بها، وتشفع لهم عند الله، قالوا: فإن العبد إذا تعلق روحه بروح الوَجِيهِ الْمُقَرَّبِ عند الله، وتوجَّه بهمته إليه، وعكف بقلبه عليه = صار بينه وبينه اتصالٌ يفيض عليه نصيب مما يحصل له من الله. وشَبَّهُوا ذلك بمن يخدم ذا جاهٍ وحَظْوَةٍ وقُرْبٍ من السلطان، وهو شديد التعلق به، فما يحصل لذلك من السلطان من الإنعام والإفضال ينال ذلك المتعلق به بحسب تعلقه به! فهذا سرُّ عبادة الأصنام، وهو الذي بعث الله رسله وأنزل كتبه بإبطاله، وتكفير أصحابه، ولعنهم وأباح دماءهم وأموالهم وسَبَّيَ ذراريهم، وأوجب لهم النار.

والقرآن من أوله إلى آخره مملوء من الرد على أهله وإبطال مذهبهم، قال الله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَئِكَ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿١٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الزمر].

فأخبر أن الشفاعة لمن له ملك السماوات والأرض، وهو الله وحده، وهو الذي يشفع بنفسه إلى نفسه ليرحم عبده، فيأذن هو لمن يشاء أن يشفع فيه؛ فصارت الشفاعة في الحقيقة إنما هي له. والذي يشفع عنده إنما يشفع بإذنه وأمره بعد شفاعته - سبحانه - إلى نفسه، وهي إرادته من نفسه أن يرحم عبده. وهذا ضد الشفاعة الشركية التي أثبتها هؤلاء المشركون ومن وافقهم، وهي التي أبطلها الله ﷻ بقوله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ﴾ [البقرة: ٤٨].

وقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَئِعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ﴾ [البقرة].

وقال: ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١].

وأخبر - سبحانه - أنه ليس للعباد شفيع من دونه؛ بل إذا أراد - سبحانه - رحمةً لعبده أذن هو لمن يشفع فيه، كما قال تعالى: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣]، وقال: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فالشفاعة بإذنه ليست شفاعةً من دونه، ولا الشافع شفيعٌ من دونه، بل يشفع بإذنه. والفرق بين الشَّفِيعَيْنِ كالفرق بين الشريك

والعبد المأمور؛ فالشفاعة التي أبطلها شفاعَةُ الشريك؛ فإنه لا شريك له، والتي أثبتها شفاعَةُ العبد المأمور الذي يشفع ولا يتقدم بين يدي مالكة حتى يأذن له، ويقول: «اشفع في فلان».

ولهذا كان أسعد الناس بشفاعة سيد الشفعاء يوم القيامة أهل التوحيد الذين جرّدوا التوحيد، وخلّصوه من تعلقات الشرك وشوائبه، وهم الذين ارتضى الله سبحانه.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [١٩ طه].

فأخبر أنه لا تحصل يومئذٍ شفاعَةٌ تنفع إلا بعد رضى قول المشفوع له، وإذنه للشافع. فأما المشرك فإنه لا يرضاه، ولا يرضى قوله، فلا يأذن للشفعاء أن يشفعوا فيه؛ فإنه سبحانه علّقها بأمرين: رضاه عن المشفوع له، وإذنه للشافع. فما لم يوجد مجموع الأمرين لم توجد الشفاعَةُ.

وسر ذلك أن الأمر كله لله وحده، فليس لأحد معه من الأمر شيء، وأعلى الخلق وأفضلهم وأكرمهم عنده هم الرسل والملائكة المقربون، وهم عبيدٌ محضّ؛ لا يسبقونه بالقول، ولا يتقدمون بين يديه، ولا يفعلون شيئاً إلا من بعد إذنه لهم، ولا سيما يوم لا تملك نفسٌ لنفس شيئاً. فهم مملوكون مربوبون، أفعالهم مقيدةٌ بأمره وإذنه، فإذا أشركهم به المشرك، واتخذهم شفعاء من دونه - ظناً منه أنه إذا فعل ذلك تقدموا وشفعوا له عند الله -، فهو من أجهل الناس بحق الرب - سبحانه - وما يجب له ويمتنع عليه؛ فإن هذا

مُحالٌ ممتنعٌ؛ يُشبهُ قياسَ الرب - سبحانه - على الملوك والكبراء، حيث يتخذ الرجل من خواصهم وأوليائهم مَنْ يشفع له عندهم في الحوائج.

وبهذا القياس الفاسد عُبدت الأصنام، واتخذ المشركون من دون الله الشفيع والولي. والفرق بينهما هو الفرق بين الخالق والمخلوق، والرب والمربوب، والسيد والعبد، والمالك والمملوك، والغني والفقر، والذي لا حاجة به إلى أحد قط والمحتاج من كل وجهٍ إلى غيره.

فالشفعاء عند المخلوقين هم شركاؤهم؛ فإن قيام مصالحهم بهم، وهم أعوانهم وأنصارهم الذين قيامُ أمر الملوك والكبراء بهم، ولولاهم لما انبسطت أيديهم وألسنتهم في الناس؛ فلحاجتهم إليهم يحتاجون إلى قبول شفاعتهم - وإن لم يأذنوا فيها، ولم يرضوا عن الشافع -؛ لأنهم يخافون أن يردوا شفاعتهم، فتنقص طاعتهم لهم، ويذهبون إلى غيرهم، فلا يجدون بُدًّا من قبول شفاعتهم على الكُره والرضا.

فأما الذي غناه من لوازم ذاته، وكل ما سواه فقيرٌ إليه لذاته، وكل مَنْ في السماوات والأرض عبيدٌ له مقهورون لقهره، مُصَرَّفُونَ بمشيئته، لو أهلكهم جميعًا لم ينقص من عزه وسلطانه ومملكه وربوبيته وإلهيته مثقال ذرة.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧].

وقال في سيّدة آي القرآن - آية الكرسي - : ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وقال: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٤٤].

فأخبر أن مُلكه السماوات والأرض يُوجب أن تكون الشفاعة كلها له وحده، وأن أحداً لا يشفع عنده إلا بإذنه؛ فإنه ليس بشريك؛ بل مملوك محض، بخلاف شفاعة أهل الدنيا بعضهم عند بعض.

فتبين أن الشفاعة التي نفاها الله - سبحانه - في القرآن هي هذه الشفاعة الشريكية التي يفعلها بعضهم مع بعض؛ ولهذا يُطلقُ نفيها تارةً بناءً على أنها هي المعروفة عند الناس، ويقيدها تارةً بأنها لا تنفع إلا بإذنه. وهذه الشفاعة في الحقيقة هي منه، فإنه الذي أذن، والذي قبل، والذي رضي عن المشفوع، والذي وفّقه لفعل ما يستحق به الشفاعة.

فمُتَّخِذُ الشفيع [مشارك] لا تنفعه شفاعته، ولا يشفع فيه، ومتخذ الرب وحده إلهه ومعبوده ومحجوبه ومَرْجُوه ومخوفه، الذي يتقرب إليه وحده ويطلب رضاه، ويتباعد من سخطه = هو الذي يأذن الله - سبحانه - للشفيع أن يشفع له.

قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَنْتُمُ الَّذِينَ أَنْتُمُ اللَّهُ يَمَّا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ، وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨].

فبيّن ﷺ أن متخذي الشفعاء شركون، وأن الشفاعة لا تحصل باتخاذهم.

وسر الفرق بين الشفاعتين:

١ - أن شفاعة المخلوق للمخلوق، وسؤاله للمشفوع عنده لا يفتقر فيها إلى المشفوع عنده؛ لا خَلْقًا ولا أمرًا ولا إذنًا؛ بل هو سببٌ مُحَرِّكٌ له من خارج كسائر الأسباب، وهذا السببُ المحرِّك قد يكون عند المتحرك لأجله ما يوافقه، كمن يُشفع عنده في أمر يحبُّه ويرضاه، وقد يكون عنده ما يخالفه؛ كمن يُشفع إليه في أمر يكرهه، ثم قد يكون سؤاله وشفاعته أقوى من المُعارض، فيقبل شفاعة الشافع.

وقد يكون المُعارض الذي عنده أقوى من شفاعة الشافع فيردها، وقد يتعارض عنده الأمران، فيبقى مترددًا بين ذلك المعارض الذي يوجب الرد، وبين الشفاعة التي تقتضي القبول، فيتوقف إلى أن يترجح عنده أحد الأمرين بمُرَجِّح.

٢ - وهذا بخلاف الشفاعة عند الرب ﷻ؛ فإنه ما لم يخلق شفاعة الشافع، ويأذن له فيها، ويحبُّها منه، ويرضَ عن الشافع = لم يمكن أن توجد. والشافع لا يشفع عنده بمجرد امتثال أمره وطاعته له. فهو مأمورٌ بالشفاعة، مطيع بامتثال الأمر؛ فإن أحدًا من الأنبياء والملائكة وجميع المخلوقات لا يتحرك بشفاعةٍ ولا غيرها إلا بمشيئة الله وخلقها.

فالرب تعالى هو الذي يحرك الشافع حتى يشفع، والشفيع عند المخلوق هو الذي يحرك المشفوع إليه حتى يقبل، والشافع عند المخلوق مُسْتَعْنٍ عنه في أكثر أموره، وهو في الحقيقة شريكه - ولو كان مملوكه وعبد -، فالمشفوع عنده محتاج إليه فيما يناله [منه] من النفع والضرر والمعاونة وغير ذلك، كما أن الشافع محتاجٌ إليه فيما يناله من رزق أو نصر أو غيره؛ فكلُّ منهما محتاج إلى الآخر.

وَمَنْ وَفَّقَهُ اللَّهُ لفهم هذا الموضوع، تَبَيَّنَ له حقيقة التوحيد والشرك، والفرق بين ما أثبتته الله من الشفاعة وما نفاه وأبطله، ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ [النور].

وَمَنْ له خبرة بما بعث الله به رسوله، وبما عليه أهل الشرك والبدع اليوم = عَلِمَ أن بين السلف وبين هؤلاء الخُلُوف من البُعد أبعد مما بين المشرق والمغرب، وأنهم على شيء والسلف على شيء، كما قيل:

سارت مشرقةً وسرت مغرباً شتانَ بين مشرقٍ ومغربٍ

والأمر - والله - أعظم، مما ذكرناه» انتهى.

وبه كَمَلَ الجواب، والحمد لله الذي هدانا لدينه الذي رضيهِ لعباده، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

وصلَّى الله على سيد المرسلين، وإمام المتقين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وسلم تسليمًا كثيرًا.



الفهرس

فهرس محتويات الجزء الثاني

[٢٩] قرة عيون الموحدين بتحقيق

دعوة الأنبياء والمرسلين - ٧

- [١] كتاب التوحيد ٩
- [٢] باب: فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب ٢٢
- [٣] باب: مَنْ حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب ٤٤
- [٤] باب: الخوف من الشرك ٥٨
- [٥] باب: الدعاء إلى شهادة ألا إله إلا الله ٦٥
- [٦] باب: تفسير التوحيد وشهادة ألا إله إلا الله ٧٩
- [٧] باب: من الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه ٩٣
- [٨] باب: ما جاء في الرقي والتائم ١٠١
- [٩] باب: من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما ١١١
- [١٠] باب: ما جاء في الذبح لغير الله ١١٨
- [١١] باب: لا يُذبح لله بمكانٍ يُذبح فيه لغير الله ١٢٧
- [١٢] باب: من الشرك النذر لغير الله ١٣٤
- [١٣] باب: من الشرك الاستعاذة بغير الله ١٤١
- [١٤] باب: من الشرك أن يستغيث بغير الله، أو يدعو غيره .. ١٤٦
- [١٥] باب: قوله تعالى: ﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (١١١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١١٢﴾ ١٥٤
- [١٦] باب: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٢٣) ١٦٢

- [١٧] باب: الشفاعة ١٧٠
- [١٨] باب: قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ ١٧٨
- [١٩] باب: ما جاء في أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغلو في الصالحين ١٨٣
- [٢٠] باب: ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده؟! ١٩١
- [٢١] باب: ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تُعبد من دون الله ١٩٩
- [٢٢] باب: ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد، وسدّه كلّ طريق يوصل إلى الشرك ٢٠٢
- [٢٣] باب: ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان ٢٠٩
- [٢٤] باب: ما جاء في السحر ٢٢٢
- [٢٥] باب: بيان شيء من أنواع السحر ٢٣١
- [٢٦] باب: ما جاء في الكهان ونحوهم ٢٣٨
- [٢٧] باب: ما جاء في النُّشْرة ٢٤٤
- [٢٨] باب: ما جاء في التطيُّر ٢٤٩
- [٢٩] باب: ما جاء في التنجيم ٢٥٩
- [٣٠] باب: ما جاء في الاستسقاء بالأنواء ٢٦٥
- [٣١] باب: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ ٢٧٢
- [٣٢] باب: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَائِهِ﴾ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ٢٧٨

- [٣٣] باب: قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ ﴿٣٣﴾ ٢٨٦
- [٣٤] باب: قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ ﴿١١﴾ ٢٩٢
- [٣٥] باب: من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله ٢٩٦
- [٣٦] باب: ما جاء في الرياء ٣٠٣
- [٣٧] باب: من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا ٣٠٨
- [٣٨] باب: من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله؛ فقد اتخذهم أرباباً من دون الله ٣١٩
- [٣٩] باب: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الظَّالِمِينَ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنْتَفِقِينَ يُصَدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسِنًا وَتَوْفِيقًا﴾ ﴿١٢﴾ ٣٢٤
- [٤٠] باب: من جحد شيئاً من الأسماء والصفات ٣٣٣
- [٤١] باب: قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ ﴿٨٣﴾ ٣٤٠
- [٤٢] باب: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ ٣٤٣
- [٤٣] باب: ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله ٣٤٧
- [٤٤] باب: قول: «ما شاء الله وشئت» ٣٤٩
- [٤٥] باب: من سبَّ الدهر فقد آذى الله ٣٥٤
- [٤٦] باب: التسمي بـ«قاضي القضاة» ونحوه ٣٥٧
- [٤٧] باب: احترام أسماء الله تعالى، وتغيير الاسم لأجل ذلك ٣٦٠

- [٤٨] باب: من هَزَلَ بشيء فيه ذِكْرُ اللَّهِ أو القرآن أو الرسول ٣٦٤
- [٤٩] باب: باب قول الله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذْفَنُهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْأٍ مَسْتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَيْنَ رُجْعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنَىٰ فَلْيُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ۖ﴾ ... ٣٦٨
- [٥٠] باب: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاتَاهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا ءَاتَاهُمَا فَفَعَلَىٰ اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۖ﴾ ... ٣٧٢
- [٥١] باب: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۖ﴾ ... ٣٧٧
- [٥٢] باب: لا يقال: «السلام على الله» ... ٣٨٥
- [٥٣] باب: قول: «اللهم اغفر لي إن شئت» ... ٣٨٩
- [٥٤] باب: لا يقول: «عَبْدِي، وَأُمْتِي» ... ٣٩٢
- [٥٥] باب: لا يُرَدُّ من سأل بالله ... ٣٩٤
- [٥٦] باب: لا يُسأل بوجه الله إِلَّا الجنة ... ٣٩٧
- [٥٧] باب: ما جاء في «اللو» ... ٤٠٠
- [٥٨] باب: النهي عن سب الريح ... ٤٠٤
- [٥٩] باب: قوله تعالى: ﴿يَطْنُونَ بِإِلَٰهِ غَيْرِ الْحَقِّ ظَنُّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ ۖ﴾ ... ٤٠٦
- [٦٠] باب: ما جاء في منكري القَدَر ... ٤١٠
- [٦١] باب: ما جاء في المصوِّرين ... ٤١٦
- [٦٢] باب: ما جاء في كثرة الحَلِف ... ٤١٩
- [٦٣] باب: ما جاء في ذِمَّة الله وذمة نبيِّه ﷺ ... ٤٢٦
- [٦٤] باب: ما جاء في الإقسام على الله ... ٤٣٢
- [٦٥] باب: لا يُستشفع بالله على خلقه ... ٤٣٥

- [٦٦] باب: ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد، وسدّه طُرق
الشرك..... ٤٣٨
- [٦٧] باب: ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ
جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا
يُشْرَكُونَ ﴿٦٧﴾﴾..... ٤٤٢

﴿ ٣٠ ﴾ أسباب نجات السؤول من السيف المسلول - ٤٥١

- فصل ٤٦٢
- فصل ٤٦٨
- الاتباع والاقترداء أنواع: ٤٦٨
- الخلاف في تقليد أهل العلم: ٤٧١

﴿ ٣١ ﴾ سبيل النجاة والفكاك من موالاة

المرتدين والأترار - ٤٧٧

- فصل ٤٨٣
- فصل ٤٨٩
- المسألة الأولى: معاداة الكفار والمشررين: ٤٨٩
- فصل ٥٠٢
- ذكر بعض الدليل على النهي عن مشابهة الكفار والمشررين: ٥٠٨
- فصل ٥٢٥
- فصل ٥٢٨
- المسألة الثانية: الأشياء التي يصير بها المسلم مرتدًا: ٥٢٨
- أحدها: الشرك بالله تعالى: ٥٢٨
- الثاني: إظهار الطاعة والموافقة للمشررين على دينهم: ٥٢٨

الثالث: موالاة المشركين:	٥٣٠
الرابع: الجلوس عند المشركين في مجالس شركهم، من غير إنكار:	٥٣١
الخامس: الاستهزاء بالله، أو بكتابه، أو برسوله:	٥٣٣
نوعا الاستهزاء:	٥٣٣
السادس: ظهور الكراهية والغضب عند الدعوة إلى الله، وتلاوة كتابه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:	٥٣٤
السابع: كراهة ما أنزل الله على رسوله من الكتاب والحكمة:	٥٣٤
الثامن: عدم الإقرار بما دلت عليه آيات القرآن والأحاديث، والمجادلة في ذلك:	٥٣٤
التاسع: جحد الناس شيئاً من كتاب الله - ولو آية أو بعضها -، أو شيئاً مما جاء عن النبي ﷺ:	٥٣٤
العاشر: الإعراض عن تعلم دين الله، والغفلة عن ذلك:	٥٣٥
الحادي عشر: كراهة إقامة الدين والاجتماع عليه:	٥٣٥
الثاني عشر: السحر؛ تعلمه وتعليمه، والعمل بموجبه:	٥٣٥
الثالث عشر: إنكار البعث:	٥٣٥
الرابع عشر: التحاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ: ..	٥٣٦
فصل	٥٤٠
المسألة الثالثة: ما يُعذر الرجل به على موافقة المشركين، وإظهار الطاعة لهم:	٥٤٠
فصل	٥٤٣
المسألة الرابعة: إظهار الدين:	٥٤٣
فصل	٥٤٧

- المسألة الخامسة: الاستضعاف: ٥٤٧
- فصل ٥٥٠
- المسألة السادسة: وجوب الهجرة وأنها باقية: ٥٥٠
- بعض أجوبة آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ: ٥٥٢

﴿٣٢﴾ بيان المحجة في الرد على صاحب اللجة - ٥٥٧ ﴿﴾

- سبب الفتنة بقصائد المتأخرين: ٦٤٢
- خاتمة: كلام نفيس للعلامة ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: ٦٤٣
- فهرس محتويات الجزء الثاني: ٦٥٢

